

ول
وايرل ديورانت

قصة
الحضارة

21

النهضة



قصة الحضارة



ول وَايرِئيل ديورانت

General Organization for Publishing and Distribution (GODP)
Bibliothèque de la Méditerranée

النهضة

وهو يروي تاريخ الحضارة في إيطاليا من مولد بترارك
حتى سمات تيسيان - من ١٣٠٤ إلى ١٥٧٦

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف :
رقم التسجيل : ١٩٠٥٨ / ١١ / ٤٢

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الرابع من المجلد الخامس



تونس

٢١



بيروت

حقوق الطبع محفوظة



دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار هيلاب - بيروت - لبنان



(الصورة رقم ١) معجزة القديس مرقس - بالبندقية
من عمل تانتورتو . انظر ص ٢٦٠

فهرس الجزء الرابع من المجلد الخامس

الكتاب الخامس

الصداع

الصفحة

الموضوع

الباب التاسع عشر - الثورة العقلية

٣	الفصل الأول : الفنون الخلقية
١٠	الفصل الثاني : العلوم
١٤	الفصل الثالث : الطب
٢٦	الفصل الرابع : الفلسفة
٣٨	الفصل الخامس : جوتشيارديني
٤٤	الفصل السادس : مكيفلي
٤٤	١ - الدبلوماسي
٤٨	٢ - المؤلف والرجل
٥٦	٣ - الفيلسوف
٧١	٤ - تأملات

الباب العشرون - الانحلال الخلق

٧٦	الفصل الأول : منابع الفساد الخلق وأشكاله
٨٣	الفصل الثاني : أخلاق رجال الدين
٨٩	الفصل الثالث : الأخلاق الجنسية
٩٨	الفصل الرابع : الرجل في عصر النهضة
١٠١	الفصل الخامس : المرأة في عصر النهضة
١٠٩	الفصل السادس : المنزل
١١٤	الفصل السابع : الأخلاق العامة
١٢٣	الفصل الثامن : العادات العامة ووسائل التسلية
١٣١	الفصل التاسع : التمثيل

الموضوع	الصفحة
الفصل العاشر : الموسيقى	١٣٥
الفصل الحادى عشر : نظرة شاملة	١٤٨

الباب الحادى والعشرون - الانبياء السياسى

الفصل الأول : فرنسا تكشف إيطاليا	١٥٣
الفصل الثانى : تجديد الهجوم	١٦٢
الفصل الثالث : خلف كبرىه	١٦٦
الفصل الرابع : ليو وأوروبا	١٧٣
الفصل الخامس : أدريان السادس	١٧٧
الفصل السادس : كلمنت السابع - الفترة الأولى من حياته	١٨٣
الفصل السابع : نهج رومة	١٩٠
الفصل الثامن : شارل المنتصر	١٩٩
الفصل التاسع : كلمنت السابع والفنون	٢٠٥
الفصل العاشر : ميكل أنجيلو وكلمنت السابع	٢١٢
الفصل الحادى عشر : خاتمة عصر	٢١٨

الكتاب السادس : الخاتمة

الباب الثانى والعشرون - أفول نجم البندقية

الفصل الأول : بعث البندقية	٢٢٣
الفصل الثانى : أريتينو	٢٣١
الفصل الثالث : تيشيان والملوك	٢٤٥
الفصل الرابع : تينتورتيو	٢٥٧
الفصل الخامس : فيرونيزى	٢٧٥
الفصل السادس : نظرة شاملة	٢٨٧

الباب الثالث والعشرون - انحطاط عصر النهضة

الفصل الأول : اضمحلال إيطاليا	٢٨٩
الفصل الثانى : العلم والفلسفة	٢٩٩
الفصل الثالث : الأدب	٣٠٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : صحوة السحر في فلورنس	٣١٣
الفصل الخامس : بينشينو تشليبي	٣٢٤
الفصل السادس : أضواء صغرى	٣٣٤
الفصل السابع : ميكل أنجيلو : آخر المطاف	٣٤١
حاشية	٣٥٧
المراجع	٣٦٦

فهرس الصور

رقم الصفحة	مدلوها	رقم الصورة
أول الكتاب	معجزة القديس مرقس	١ -
٢١٢ ص	مدفن لورندموده ميديشي	٣ -
» »	أريتينو	٣ -
٢٤٨ »	البابا بولس الثالث	٤ -
٢٤٨ »	شارل الخامس	٥ -
٢٥٠ »	فيناوس أريينو	٦ -
٢٥٤ »	رجل إنجليزى	٧ -
٢٥٤ »	تيشيان	٨ -
٢٦٢ »	التنصيب	٩ -
٢٧٢ »	دانييل بربارا	١٠ -
٢٧٢ »	پاولو فيرونيزى	١١ -
٢٧٩ »	اختطاف أوربا	١٢ -
٢٧٩ »	تمثال نصفى لميكل أنجيلو	١٣ -
٢٨٢ »	المريغ وفينوس	١٤ -

الكتاب الخامس

الصدع

الباب التاسع عشر

الثورة العقلية

الفضل الأول

الفنون الخفية

الحضارة في كل عصر من العصور وعند كل أمة من الأمم نتاج أقلية من الأهلين تستمتع بامتيازاتها وتحمل تبعاتها. والمؤرخ العليم بما تتصف به السخافات من عناد شامل نفاذ يوطن نفسه على الاعتقاد بما سوف يكون للخرافات من مستقبل باهر مجيد ؛ ذلك أنه لا يتوقع أن تنشأ درل كاماة على أكتاف خلائق ناقصة ؛ ويدرك أن نسبة قليلة من الناس في أى جيل هى وحدها التى تستطيع أن تتحرر من المتاعب الاقتصادية لتحرر أيتيج لها من الفراغ والنشاط ما تستطيع به أن تفكر تفكيرها الخاص بدل تفكير أسلافها. أو من يحيطون بها ؛ ويتعلم هذا المؤرخ أن يتهج إذا استطاع أن يجد فى كل فترة من الفترات عدداً قليلاً من الرجال والنساء رفعوا أنفسهم بقوة عقولهم أو بفضل مولدهم أو ظروفهم من وهدة الخرافات ، والفنون الخفية ، والسذاجة العقلية إلى مستوى من الذكاء القائم على العلم وعلى المودة بلركون به ما هم فيه من جهل لا حد له .

ومصادقاً لهذا كانت الحضارة فى إيطاليا إبان عصر النهضة مزة بمنعز بها القليلون ، وينشئها القليلون ، ولا يستمتع بها إلا القليلون . أما الرجل

العادى الساذج ، الذى ليس أكثر من فرد فى جماعة ، فكان يحرق الأرض ويستخرج منها المعادن ، ويجر عربات النقل أو يحمل الأثقال ، ويكد ويكدح من مطلع الفجر إلى غسق الليل ، حتى إذا أمسى المساء أنهكه التعب فلم يجد فى نفسه قدرة على التفكير . ومن أجل هذا كان يتلقى آراءه ، ودينه ، وما يجب به عن ألباز الحياة من الهواء الذى يحيط به ، أو يرثها من كوخ آبائه وأجداده ؛ فكان يترك غيره يفكرون لأن غيره من الناس كانوا يرغمونه على أن يعمل لهم ؛ ولم يكن يكتب بقبول العجائب التى تخلب له ، وتريح نفسه ، وتلهمه وتروعه ، والتى يحتويها دينه التقليدى - وهى عجائب كان يتكرر انطباعها فى عقله كل يوم عن طريق العدوى ، والتلقين ، والفرن - بل كان يضيف إليها من ثنايا عقله الشياطين ، والسحر ، والنذر ، والتنبوؤ بالغيب ، والتنجيم ، وعبادة الخلفات ، وصنع المعجزات التى يتألف منها ما يمكن أن نسميه الميتافيزيقا الشعبية التى لا تجيزها الكنيسة وتستنكرها وترى فيها مشكلة تسبب لها من المتاعب أكثر مما يسببه عدم الإيمان . وبينما كان الرجل الممتاز فى إيطاليا أرقى من مثيله فى طبقته من أبناء ما وراء الألب فى الثروة والثقافة بنصف قرن أو أكثر ، كان الرجل العادى المقيم فى جنوب الألب يشارك نظرائه فى شمال تلك الجبال فى كل ما كان سائداً فى ذلك العصر من خرافات وأوهام .

وكثيراً ما كان الكتاب الإنسانىون أنفسهم يسلمون عقولهم لسخافات ييشتم ، وينثرون فى الصحف التى تفيض بالفصاحة الشيشرونية روح هذه البيئة أو سخافاتهما إن شئت . فها هو ذا ينجو مثلاً يرتع ويمرح وسط النذر وغرائب المخلوقات كالفرسان الذين لا رعوس لهم والذين يهاجرون من كومو إلى ألمانيا ؛ أو آلهة البحار الملتحين الذين يخرجون من أعماق البحار ليختطفوا النساء الحسان من شواطئها^(١) . وها هو ذا مكيفلى المتشكك فى الدين لا يستبعد أن يكون « الهواء مليئاً بالأرواح » ويجهز باعتقاده أن الحوادث الخطيرة

تسبقها وتدل عليها خوارق الطبيعة ، والنبوءات ، والوحى ، والعلامات التى تظهر فى السماء^(٢) . وكان أهل فلورنس الذين يظنون أن الهواء الذى يتنفسونه يجعلهم مهرة لا يجاريهم فى ذلك غيرهم من الناس ، يعتقدون أن جميع الحوادث الخطيرة تقع فى أيام السبت ، وأن السير إلى الحرب فى شوارع معينة من المدينة يحجر عليهم مصائب لا يستطيعون النجاة منها^(٣) . واضطرب عقل بولتيان من جراء مؤامرة باتسى Pazzi اضطراباً لم يسعه معه إلا أن يعزو إليها ما أعقبها من مطر مدمر ، وعفا عن الشبان الذين أرادوا أن يضعوا خدلاً للمطر ، بأن أخرجوا جثة زعيم المؤامرة ، وعرضوها فى شوارع المدينة ، ثم ألقوها فى نهر الآرنو^(٤) . وكتب مرسلينو فتشينو بدافع عن التنبؤ بالغيب ، والتخمين ، ووجود الشياطين ، واعتذر عن عدم زيارة بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola لأن النجوم وقتئذ لم تكن فى اقترانها بمبشرة بالخير^(٥) . ولعل ذلك الاقتران كان وهما صورته له الخيال . وإذا كان يسع الكتاب الإنسانين أن يؤمنوا بهذا ، فهل يحق لنا أن نلوم عامة الشعب الذين لا نصيب لهم من الفراغ ولم ينالوا حظاً من التعليم إذا ظنوا أن العالم الطبيعى ملء بالقوى الخارقة وأنه أداة لها تستخدمه لا غير .

وكان سكان إيطاليا يعتقدون أن كثيراً من الأشياء من مخلقات المسيح أو الرسل حقاً . وقد بلغت هذه المخلقات من الكثرة درجة يستطيع الإنسان معها أن يجد فى الكنائس الرومانية فى عهد النهضة أشياء تمثل جميع مناظر الأنجيل . فواحدة منها تدعى أن قطعة من قاط الطفل يسوع ، وأخرى تقول إن بها عود دريس من مزود بيت لحم ، وثالثة تزعم أنها تضم قطعة من الأروغفة والسمك التى تضاعف عديدها ؛ ورابعة تنادى أن بها المسائدة التى استخدمت فى العشاء الأخير ؛ وواحدة تعتقد أن بها صورة العذراء التى رسمها الملائكة للقديس لوقا^(٦) . وكانت كنائس البندقية تعرض جسم القديس مرقص ، وقطعة من ذراع القديس جورج وإحدى أذنى القديس

بولس ، وبعض السمك المحمر الذى أكل منه القديس لورنس ، وبعض الحجارة التى قتلت القديس اسثيفن (٧) .

وكان الاعتقاد السائد أن لكل جسم - بل لكل عدد وكل حرف - قوة سحرية . ويقول أرتيغزو إن بعض العاهرات الرومانيات كن يطنن عشاقهن لحم الجثث البشرية المتعفنة يسرقنه من المقابر ليقوين به باهم (٨) . وكانت الرقى تستخدم لألف غرض من الأغراض ؛ ويقول أبوليان إنك إذا تلوت الرقية الصحيحة استطعت أن تقي تفساك شر الكلاب . وكانت الأرواح الخيرة والشريرة تملأ الهواء ؛ وكثيراً ما كان الشيطان يظهر بنفسه أو يلبس جسم من ينيه ليغوى أو يرهب ، أو يخدع ، أو ينفث القوة أو العلم فيمن يريد ؛ وكان لدى العفاريت طائفة لا تنفذ من العلم الخفى يستطيع المرء أن ينال ما يريده منها إذا استطاع أن يستميلها إليه بطريقة خاصة . وظل بعض رهبان الكرمل المقيمين في بولونيا (حتى أذانهم سكستس الرابع في عام ١٤٧٤) يعلمون الناس أن لا ضرر مطلقاً من أخذ العلم عن الشياطين (٩) ، وكان السحرة المحترفون يعرضون رقاهم المجربة الصحيحة التى ينالون بها معونة الشياطين على من يؤدون ثمنها من الطالبين . وكان المعتقد أن الساحرات - ونقول الساحرات لأنهن كن في العادة من النساء - أقدر بنوع خاص على الاتصال بأولئك العفاريت الذين يقدمون هذا العون ، وكن يعاملنهم كأنهم عشاقهن أو آلهة هن . وكانت الملائكة خلعت عليهن هذه القوى الشيطانية يستطعن - كما يعتقد الناس - أن يتنبأ بالمستقبل ، ويظنون في أقصر اللحظات مسافات شاسعة ، ويدخلن من الأبواب المغلقة صغيرة أو كبيرة ، ويصين بشرهن المستطير من يسى إليهن من الناس . وكان في مقدورهن أن يبعثن في النفوس الحب أو البغض ، ويحدثن الإجهاض ، ويصنعن السم ، ويحدثن الموت برقية أو نظرة .

وأصدر إنوسنت الثامن في عام ١٤٨٤ مرسوماً يابوياء يحرم فيه الالتجاء

لدى الساحرات ، ويسلم فيه بصحة بعض ما يدعيه من القوى ، ويعزو
لهن بعض العواصف والأوبئة ، وشكا من أن بعض المسيحيين ، الذين حادوا
عن الشعائر الدينية الصحيحة ، كانوا قد اتصلوا اتصالاً جسيماً بالشياطين ،
وأنهم استعانوا بالرقى ، والعبارات السحرية المسجعة ؛ واللغات ، وغيرها
من الفنون الشيطانية . فأوقعوا ضرراً شديداً ببعض الرجال ، والنساء ،
والأطفال ، والحيوانات^(١٠) . وأشار البابا على عمال محاكم التفتيش أن
يكونوا يقظين حذرين من هذه الأعمال . ولم يفرض هذا المرسوم على
الناس الإيمان بالسحر على أنه من العقائد الرسمية للكنيسة . ولم يبدأ به عقاب
الساحرات ؛ ذلك أن اعتقاد الناس بوجود الساحرات ، وعقابهن في بعض
الأحيان قد حدثا قبل صدور هذا المرسوم بزمان طويل . وكان البابا
حين أصدره أميناً على ما جاء في العهد القديم إذ يقول : « لا تدع
ساحرة تعيش »^(١١) . وكانت الكنيسة قد ظلت قروناً طوالاً تؤمن بإمكان
تأثير الشياطين في الآدميين^(١٢) . ولكن افتراض البابا حقيقة وجود السحر
قد قوى الاعتقاد بصحة هذا التأثير ، وكان التحذير الذى وجهه لأعضاء
محاكمة التفتيش بعض الأثر في اضطهاد الساحرات^(١٣) . فقد حدث في العام
الأول بعض هذا المرسوم أن حرق إحدى وأربعون امرأة في كومو
وحدها بتهمة أنهن من الساحرات^(١٤) . وقضى المفتشون في بريشيا عام
١٤٨٦ على عدد من الساحرات المزعومات بأن يسلمن إلى السلطة الزمنية
أى أن يعدمن ، ولكن الحكومة رفضت تنفيذ الحكم ، وغضب لذلك
إنوسنت أشد الغضب^(١٥) وسارت الأمور سيراً أكثر من هذا انسجاماً بين
السلطتين في عام ١٥١٠ ، فنحن نسمع أن امرأة قد أحرقت في بريشيا
بتهمة السحر ، وفي عام ١٥١٤ في بابوية ليو الرحيم الظريف أحرقت
ثلثمائة أخريات في كومو^(١٦) .

وازداد عدد الأشخاص الذين يعتقدون . أو يعتقد غيرهم فيهم

أنهم يمارسون السحر زيادة سريعة وبخاصة في إيطاليا الواقعة في جنوب
جبال الألب ، ولعل ذلك كان بسبب ما أحدثه الاضطهاد من استفزاز
للفؤوس أو لغيره من الأسباب . وأخذ الأمر يتفاقم حتى اتخذت صورة
وباء في طبيعته وكثرة المصابين به . وقال الناس وقتئذ إن ٢٥,٠٠٠ شخص
حضرُوا « سيتا للساحرات » على سهل قريب من بريشيا ، وفي عام ١٥١٨
أحرق عمال محكمة التفتيش سبعين ساحرة مزعومة من أهل ذلك الإقليم .
وزج آلاف في سجون المحكمة . واحتج مجلس السيادة في بريشيا على زج
الناس جملة في السجون ، وحال دون الاستمرار في قتل السحرة والساحرات ،
فما كان من ليو إلا أن أصدر مرسوماً (١٥ فبراير سنة ١٥٢١) ، يأمر فيه
بحرمان أى موظف يأبى أن يتخذ دون تحقيق أو جدل أحكام عمال محكمة
التفتيش ، ووقف جميع الخدمات الدينية بين أية جماعة تمتنع عن هذا التنفيذ .
وتجاهل مجلس السيادة هذا المرسوم ، وعين أسقفين ، وطبيين من أهل
بريشيا ، وعامل من عمال محكمة التفتيش للإشراف على ما يحدث بعدئذ
من محاكمات للسحرة والساحرات ، وللبحث في عدالة ما صدر من أحكام
سابقة ؛ وخول هؤلاء الرجال دون غيرهم سلطة إصدار الأحكام على
المتهمين . وأندر مجلس السيادة المندوب البابوى بأن يضع حداً لإدانة الناس
لكى يستطيع بذلك مصادرة أملاكهم^(١٦) . وكان هذا إجراء غاية في
الجرأة ولكن الجهالة وشهوة القتل والتعذيب تغلبتا آخر الأمر ، وظل
إحراق الناس بتهمة السحر وصمة عار لا تمحى من تاريخ البشرية في القرنين
التالين ، في البلاد البروتستنتية والكاثوليكية ، وفي العالم الجديد والعالم القديم
على حد سواء .

وكانت الرغبة الجنونية في معرفة المستقبل عوناً كبيراً للمتنبئين بمحظوظ
الناس بأنواعهم المألوفة — قراء الكف ، ومفسرى الأحلام ، والمنجمين ؛
وكان هؤلاء أكثر عدداً وأعظم قوة في إيطاليا منهم في سائر أنحاء أوروبا .

وكادت كل حكومة إيطالية يكون لها منجم رسمي يحدد لها بالنظر في مواقع النجوم الأوقات الملائمة للبدء في المشروعات الهامة . ولم يشأ يوليوس الثاني أن يغادر بولونيا إلا بعد أن أنبأه منجمه أن الوقت ملائم لمغادرتها ، وكان سكستس الرابع وبولس الثالث يطلبان منجميهما تحديد الساعات التي يعقدان فيها مؤتمراتها الكبرى (١٦) . وقد بلغ انتشار العقيدة القائلة بأن النجوم تسيطر على أخلاق البشر وشئونهم حداً جعل كثيراً من أساتذة الجامعات في إيطاليا يصعدون في كل عام تنبؤات قائمة على أساس التنجيم (١٦) ، وكان من أفانين أرتينو المضحكة أن يحاكي هذه التقاويم التي يضعها أولئك العلماء . ولما أن أعاد لورندسو ده ميديتشى جامعة پيزا ، لم يقرر ضمن مواد الدراسة فيها منهجاً للتنجيم ؛ ولكن الطلاب ضجوا طالبين وضع هذا المنهج ، ولم يحد بدأ من الخضوع لمطلبهم (١٦) . ووجه پيكو دلا ميرندولا أحد العلماء الأعلام المحيطين بلورندسو هجوماً كتابياً شديداً على التنجيم ، ولكن مرسيليو فتشينو الأغزرمه علماً دافع عنه . وصاح جوتشياردينى قائلا : « ألا ما أسعد المنجمين الذين يؤمن الناس بأقوالهم ولو صدقوا مرة واحدة وكذبوا مائة مرة ، على حين أن غيرهم من الناس يفقدون الثقة بهم إذا كذبوا مرة واحدة وصدقوا مائة مرة » (١٢) . لكن التنجيم مع ذلك كان ينطوى على شيء من التطلع نحو النظرة العلمية إلى الكون ؛ وكان فيه إلى حد ما مهرب من الاعتقاد بوجود كون تسيطر عليه مشيئة الله أو نزعات الشياطين ، ويهدف إلى العثور على قانون طبيعي شامل ينسق المظاهر الطبيعية ويوفق بينها .

الفصل الثاني

العلوم

لم يكن سبب تأخر العلوم هو مقاومة الكنيسة . بل كان ما يتمسك به الناس من خرافات وأوهام . ولم تكن الرقابة على النشر عقبة كأداء في سبيل العلم إلى أن قامت حركة الإصلاح المعارضة عقب مجلس ترنت (١٥٤٥ وما بعدها) ، فقد جاء سكستس الرابع إلى رومة (١٤٦٣) بأشهر منجم عاش في القرن الخامس عشر وهو جوهان مار ريجيو « مونس » Johan Müller "Regiomontnus" . وكان كوبرنيق في عهد البابا ألكسندر يدرس العلوم الرياضية والفلك في جامعة رومة ، ولم يكن كوبرنيق هذا قد وصل بعد إلى نظريته التي هزت كيان العالم والتي تقول بدوران الأرض في فلكها حول الشمس ، ولكن نقولاس الكوزائي Nicholas of Cusa كان قد أشار إليها قبل ذلك الوقت ، وكلاهما من رجال الدين . وكانت محكمة التفتيش ضعيفة ضعفاً نسبياً في إيطاليا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكان من أسباب هذا الضعف بعد البابوات عنها في أفنيون ، وما قام بينهم من نزاع أثناء عهد الانشقاق ، وما وصل إليهم من عدوى الاستنارة في عهد النهضة . وحدث في عام ١٤٤٠ أن حاكمة محكمة التفتيش في ميلان أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi صاحب النزعة المادية ، وبرأته مما عزی إليه ، وحمى نصير جبريلي ده سالو Gabriele de' Salo هذا الطبيب الملاحد من محكمة التفتيش مع أنه « اعتاد أن يقول إن المسيح ليس هو الله بل هو ابن يوسف » (٦٧) . وكان التفكير في إيطاليا أكثر حرية والتعليم فيها أكثر تقدماً مما كانا في أي بلد آخر خلال القرن الخامس عشر وفي أوائل القرن السادس عشر . وكانت مدارسها التي تعلم

الفلك ، والقانون ، والطب ، والآداب ملقى الطلاب من أكثر من عشرة أقطار ، ولما أن أتم تومس ليناكرا Thomas Lamacrel الطيب والعالم الإنجليزي دراسته الجامعية في إيطاليا وقفل راجعاً إلى إنجلترا أقام في جبال الألب الإيطالية مذبحاً ، ودشنه وهو يلقي آخر نظرة على إيطاليا بأمم هذه البلاد الأرم الخنورة للعلم منشطة الدراسات وجامعة العالم المسيحي التي يواصل فيها العلماء دراساتهم بعد تخرجهم .

وإذا لم يكن العلم قد تقدم خلال القرنين السابقين على أيام فيساليوس Vesalius (١٥١٤ - ١٥٦٤) إلا تقدماً يسيراً في هذا الجو المشيع بالخرافات من أسفل ، وبالتحرز العقلي من أعلى ، فقد كان أكبر السبب في هذا أن المناصرة والتكريم كانا موجّهين إلى الفن ، والمنح مخصصة للأدب ، وللشعر ، ولم تكن قد قامت بعد دعوة واضحة للأساليب والأفكار العلمية في حياة إيطاليا الاقتصادية والعقلية . وكان يسع رجلاً مثل ليوناردو أن يكون ذا نظرة كونية شاملة ، ويمس أكثر من عشرة علوم بعقلية الطليعة المتشوف ، ولكن البلاد كانت خالية من المعامل العلمية الكبرى ، وكان تشريح الأجسام لا يزال في بدايته ، ولم يكن ثمة مجهر يستعان به على دراسة علم الأحياء أو الطب ، أو مرقب يكبر الكواكب ويأني بالقمر على حافة الأرض . وكان حب الجمال السائد في العصور الوسطى قد نضج حتى عاد فناً فخماً جليلاً ، ولكن لم يكن في تلك العصور حب للحقيقة . ينمو حتى يصير علماً ، وكان كشف الآداب القديمة قد بعث في الناس نزعة أبيقورية متشككة تمجد القديم وتتخذ مثلاً أعلى بدل أن تجعلهم يخلصون لإخلاص الرواقين للبحوث العلمية التي تهدف إلى تشكيل المستقبل . ذلك أن النهضة قد وهبت روحها للفن ، ولم تترك للأدب منها إلا القليل ، وتركت أقل من هذا القليل للفلسفة ، وأقل من هذا وذاك العلوم . ولهذا كان ينقصها من هذه الناحية ذلك للنشاط العقلي المتعدد الأشكال والذي امتاز به العصر الذهبي اليوناني من أيام بركليس .

واسكلس إلى زينون الرواقى وارسناخوس الفلكى . ولم يكن فى مقدور العلوم أن تتقدم حتى تمهد الفلسفة لها الطريق .

من أجل هذا كان مل الطبيعى أن يجد القارئ ، الذى يعرف عشرة من أسماء الفنانين ، مشقة فى تذكر اسم عالم إيطالى واحد فى عصر النهضة هذا اسم ليوناردو ، وهو لا يذكر اسم أمرجو فسبوتشى نفسه إلا إذا ذكر به ، وأما جليليو فهو من رجال القرن السابع عشر (١٥٦٤ - ١٦٤٢) . والحق أنا لا نجد أسماء خالدة فى ذلك العصر إلا فى الجغرافية والطب . فى أولها اشهر أودريك البردنونى Oderic of Pordenone الذى سافر إلى الهند والصين للتبشير بالدين (حوالى عام ١٣٢١) وعاد عن طريق التبت وبلاد الفرس ، وكتب وصفاً لما شاهد ، وأضاف معلومات كثيرة قيمة لما كتبه ماركوپولو قبل جيل من ذلك الوقت . ولاحظ باولو تسكانيلى Paolo Toscanelli الفلكى ، والطبيب ، والجغرافى مذهب هالى فى عام ١٤٥٦ . ويقال إنه أمد كولبس بالمعلومات وبالتشجيع فى مغامرته لاجتياز المحيط الأطلنطى (١٦) . وقام أمرجو فسبوتشى الفلورنسى بأربع رحلات بحرية إلى العالم الجديد (١٤٩٧ وما بعدها) ، وقال إنه أول من كشف أرض القارة وأعد لها خرائط ؛ نشرها مارتن وولد سيملر Martin Waldseemüller واقترح أن تسمى القارة « أمريكا » ، وأعجب الإيطاليون بالفكرة وأذاعوها فى كتاباتهم (١٦) .

وكانت علوم الأحياء آخراً ما نشأ من العلوم ، لأن نظرية خلق الإنسان خلقاً خاصاً منفصلاً عن سائر الكائنات - وهى التى كان يؤمن بها الناس كافة تقريباً - قد جعلت من غير الضرورى ومن الخطر أن يبحث الناس فى أصله الطبيعى . وكانت هذه العلوم تقتصر فى الأغلب الأعم على البحوث والدراسات العملية فى علم النبات الطبى ، وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار ، والزراعة : من ذلك أن پيترو ده كريستشندسى Pietro de Crescenzi

نشر وهو في سن السبعين (١٣٠٦) كتباً في الجغرافية خليقاً بالإعجاب وإن كان قد تجاهل كتابات مسلمى أسبانيا في ذلك الميدان ، وهي خير من كتابته . وأنشأ لورندسو ده ميديتشى في كاريجي Careggi حديقة شبه عمومية من النباتات النادرة الوجود ، وأما أولى الحقائق العمومية المخصصة لعلم النبات فهي التي أنشأها لوكا غيني Luca Ghini في پزا عام ١٥٤٤ ، وكان للحكام ذوى النزعة الحديثة كلهم تقريباً حقائق للحيوان ، كما كان الكردنال أبوليتو ده ميديتشى politico de Medici يحتفظ بمعرض من الآدميين - هم طائفة من الهمج ينتمون إلى عشرين قومية مختلفة كلهم من ذوى الأجسام القوية الممتازة .

الفصل الثالث

الطب

وكان الطب أكثر العلوم ازدهاراً لأن الناس يضجون بكل شيء ما علموا
الحرص على صحة الأجسام ؛ وكان الأطباء يتناولون من الثروة الإيطالية
الجديدة قسطاً موفوراً مشجعاً ؛ فقد كانت بلدوا مثلاً تؤتي لواحد منهم
ألفي دوق في العام ليكون مستشاراً طبياً لها ، وتركته في الوقت نفسه حراً
بتقاضى ما يشاء من الأجر في عمله الخاص . وكان يترارك الذي يعيش من
مرتباته يندد أشد التنديد بأجور الأطباء العالية وبأنوائهم القرمزية وقلائسهم
المصنوعة من فرو السنجاب^(١٦) . وخواتمهم البراقة ومهاميزهم الذهبية .
وقد حذر بجد وحرارة البابا المريض كلمنت السادس من الوثوق
بالأطباء فقال :

« أعرف أن الأطباء يحاصرون فراش مرضك ، وطبيعي أن يملأ هذا
قلبي خوفاً عليك . ذلك أن آراءهم متضاربة على الدوام ؛ وأن من لا يجد
منهم جديداً ينطق به يجله عار المتخلف عن غيره من الأطباء . وهم يتجرون
بجياننا لكي تذيب شهرتهم بما يستحدثون من جديد كما يقول بليني Plini .
وحسب الواحد منهم أن يقول إنه طبيب لكي يؤمن الناس بكل كلمة يقولها ،
وليس هذا شأن الحرف الأخرى ، مع أن كذبة الطبيب يكن فيها من
الخطار ما لا يكن في كذبة غيره . وهم يتعلمون مهنتهم على حسابنا ،
وحتى موتنا يهيئ لهم أسباب الخبرة ، فالطبيب وحده من يحق أن يقتل
الناس دون أن يخشى عقاباً ؛ ألا أيها الأب يا أرحم الراحمين ! انظر إلى
عصبتهم نظرتك إلى جيش من الأعداء ، واذكر القبرية المحذرة التي تقشعها
رجل بائس على شاهد قبره : « لقد مت من كثرة الأطباء ! »^(١٧) .

ولقد كان الأطباء في جميع البلاد والعهود المتحضرة ينافسون النساء فيما يمتزى به من أنهن أكثر من يشتهى بنو الإنسان أكثر من بهجون .

وكان الأساس الذي قام عليه تقدم الطب هو بحث التشريح . ذلك أن خديم الكنائس كانوا يتعاونون مع الأطباء كما كانوا يتعاونون مع الفنانين ، فيقدمون جثث الموتى لتشرح في المستشفيات التي يشرف عليها أولئك الأطباء . فكان مندينيو ده لوتسي Mondino de' Luzzi مثلاً يشرح

جثث الموتى في بولونيا وكتب كتاباً في « التشريح Anatomia (١٣١٦) » بقي مرجعاً من أهم المراجع مدى ثلاثة قرون . على أنه كان يصعب على الأطباء مع ذلك أن يحصلوا على الجثث ، وحدث في عام ١٣١٩ أن سرق بعض الطلاب في بولونيا جثة في إحدى المقابر وجاءوا بها إلى أستاذ في الجامعة شرحها أمامهم ليدرسوا أجزاءها ، فسبق الطلاب للمحاكمة ، ولكنهم برثوا ، وأخذ ولاية الأمور المدنيون من ذلك الوقت يعضون الطرف عن استخدام جثث المشنوقين التي لا يطالب بها أحد في « التشريحات » (١٨) . ويعزى إلى بيرينجاريو دا كبرى Berengario da Capri (١٤٧٠ - ١٥٥٠) أستاذ التشريح في جامعة بولونيا أنه شرح مائة جثة (١٩) . وكان التشريح يحدث في جامعة پيزا منذ عام ١٣٤١ إن لم يكن قبله ، وسرعان ما سمح به في جميع مدارس الطب بإيطاليا ومنها مدرسة الطب البابوية القائمة في رومة ، وأجاز سنكستس السادس (١٤٧١ - ١٤٨٤) هذا التشريح رسمياً (٢٠) .

واستعاد التشريح في عهد النهضة على مهل تراثه المنسى في عهد اليونان والرومان الأقدمين ، وحرره رجال أمثال أنطونيو بنيشيني Antonio Beniveni ، وألسندرو أكيلى Alessandro Achillinni ، وألسندرو بينديني Marcantonio della Torre ، وماركانطونيو دلاتورى ، وعادوا به إلى جالينوس وأبقراط ، وشكروا حتى في هذين العميدتين المقدسين ، وأضافوا إلى المعارف

العلمية في الجسم البشري كلى عصب ، وعظم ، وعضله فيه : ووجه بينيفيني
بحوثه في التشريح لمعرفة الأسباب الداخلية للأمراض ، وكانت رسالته في

الأسباب الخفية والعجيبة الأمراض وعلمها (De abditis nonnullis ac
Mirandis Morborum et canationum causis) أساس التشريح
المرضى (الباثولوجى) وجعل فحص الجسم بعد الموت عاملاً أساسياً في
نمو الطب الحديث : وزاد فن الطباعة بالحديد في هذه الأثناء سرعة تقدم
الطب لأنه يسر انتشار الكتب الطبية وتبادلها بين الدول المختلفة .

وفي وسعنا أن نقلر بعض التقدير انتكاس العلوم الطبية في العالم المسيحي
اللاتيني خلال العصور الوسطى إذا لاحظنا أن أعظم المشرحين والأطباء
في ذلك العصر لم يكادوا يبلغون من العلم قبل عام ١٥٠٠ ما بلغه أبقرات ،
وجالينوس ، وسورانوس Soranus في الفترة المحصورة بين ٤٥٠ ق . م
و ٢٠٠ بعد الميلاد . وكان العلاج في خلال العصور الوسطى لا يزال قائماً
على نظرية الأخلاط لأبقرات : وكانت الحجامة هي العلاج الشافى من كل
العلل . وكانت أول محاولة معروفة لنقل الدم هي التي قام بها طبيب يهودى
لعلاج البها إينوسنت الثامن (١٤٩٢) ؛ وأنخفضت هذه المحاولة كما قلنا من
قبل . وكان الراقون لا يزالون يدعون لعلاج العجز الجنسي وفقدان
الذاكرة بالرقى الدينية أو تقبيل الخلفات ؛ ولعل سبب نتاجهم إلى هذه
الأساليب أن هذا العلاج الإيماني كان يساعد على الشفاء في بعض الحالات ؛
وكان الصيادلة يبيعون حبوباً وعقاقير عجيبة ويكثرون أمواهم بأن يضمنوا
إلى سلمهم الكتب والورق ، والأدهان ، والحلوى ، والتوابل ، والحلى (٢١) ،

وألّف ميشيل سثرولا والد الراهب الناثر رسالة الطب التجريبي (حوالى
عام ١٤٤٠) ورسائل أخرى أقصر منها ؛ بحث في إحداها كثرة إصابة
الفنانين العظام بالأمراض العقلية ؛ وتحدث في رسالة أخرى عن مشهورى
الرجال الذين ظال عمرهم نتيجة تعاطيهم المشروبات الكحولية كل يوم .

وكان الأطباء الدجالون لا يزالون كثيرون العدد ، ولكن القانون أصبح وقتئذ يعنى بتنظيم مهنة الطب أكثر من ذي قبل ؛ فكانت العقوبات توقع على الذين يمارسون الطب دون أن يحصلوا فيه على درجة علمية ؛ وكان حصولهم عليها يتطلب دراسة منهج فيه يدوم أربع سنوات (١٥٠٠) ؛ ولم يكن يسمح لأى طبيب بأن يشخص مرضاً خطيراً إلا إذا ضم إليه زميلاً له . وكانت شرائع البندقية تحتم على الأطباء والجراحين أن يجتمعوا كل شهر ليتبادلوا المذكرات الطبية ، وأن يحتفظوا بجدة معلوماتهم بالاستماع إلى منهج في التشريح مرة كل عام على الأقل . وكان يفرض على طالب الطب وقت تخرجه أن يقسم ألا يطيل على مريض زمن مرضه ، وأن يشرف على تحضير الدواء الذى يصفه له ، وألا يشارك الصيدلى فى الثمن الذى يتقاضاه نظير إعداد الدواء . وحدد هذا القانون نفسه (قانون البندقية الصادر فى عام ١٣٦٨) أجر الصيدلى نظير تحضير الدواء بعشرة صلبديات (٢٣) . والصلدى عملة لا استطاع الآن تقدير قيمتها . وقد وصلت إلى علمنا عدة حالات جعل فيها شفاء المريض شرطاً لتقاضى الطبيب أجره . وذلك بناء على تعاقد خاص بينهما (٢٣) .

وأخذت الجراحة ينتشر صيتها انتشاراً سريعاً كلما اقترب سجل عملياتها وآلاتها مما كان عليه من التنوع والاتفاق فى عهد المصريين الأقدمين . من ذلك أن برناردو دا رابلو Bernardo da Rapallo ابتكر الجراحة العجمائية لاستخراج الحصوة (١٤٥١) ؛ واشتهر مريانو سانتو Mariano Santo بكثرة نجاحه فى استخراج حصاة المثانة بالشق الجانبي (حوالى ١٥٣٠) ، وابتكر جيوفانى دا فيجو جراح يوليوس الثانى وسائل لربط الشرايين والأوردة خيراً . من الوسائل التى كانت معروفة من قبل ؛ وعادت الجراحة التعويضية التى كانت معروفة للأقدمين إلى الظهور فى صقلية حوالى عام ١٤٥٠ ؛ وكانت الأنوف ، والشفاه ، والآذان المشدوهة تصلح بترقيعها

بالجلد المأخوذ من أجزاء أخرى من الجسم ، وقد بلغ من إتقانها أن الناظر إليها لا يكاد يتبين خطوط الالتحام (٢٤) .

وأخذت أساليب الصحة العامة تتحسن تحسناً مطرداً . من ذلك أن أندريا دندولو حين كان دوج البندقية (١٣٤٣ - ١٣٥٤) أنشأ أول لجنة بلدية معروفة للصحة العامة (٢٥) ، وحذت حذو البندقية في ذلك غيرها من المدن الإيطالية . وكانت هذه اللجان الخاصة بالصحة العامة تختبر جميع الأطعمة والعقاقير التي تعرض للبيع على الجماهير ، وتأمّر بعزل من يصابون ببعض الأمراض المعدية . ولما فشا الموت الأسود في أوروبا منعت البندقية في عام ١٣٧٤ جميع السفن التي تحمل أشخاصاً يرتاب في أنهم مصابون بالمرض أو بضائع مشتبه في أنها مصابة به من الدخول في موانئها . وفي راجوسا Ragusa كان القادمون يحجزون في أماكن خاصة ثلاثين يوماً قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى المدينة . وكانت البضائع المشتبه فيها تعامل هذه المعاملة نفسها . وأطالت مرسيليا مدة الحجر الصحي (١٣٨٣) (الكرنطينة la quarantaine) فجعلته أربعين يوماً ، وحذت البندقية حذوها في عام ١٤٠٣ (٢٦) .

وأخذت المستشفيات يتضاعف عددها بهمة رجال الدين وغير رجال الدين وغيرهم ، فأنشأت سينا في عام ١٣٠٥ مستشفى اشتهر بسعته وبما كان يؤديه من خدمات ، وأسس فرانثيسكو اسفوردسا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore في ميلان (١٤٥٦) ، وحولت البندقية في عام ١٤٢٣ جزيرة سانتا ماريا دي نازاريت Santa Maria di Nazaret إلى معجر صحي لإيواء المصابين بالجذام ؛ وكان هذا أول معجر معروف من نوعه في أوربا كلها (٢٧) . وكان في فلورنس في القرن الخامس عشر ثلاثة وخمسون مستشفى (٢٨) ؛ وكانت هذه المؤسسات كلها تستمد معونة سخية من الهبات الخاصة والعامة ؛ وكانت بعض المستشفيات مضرب المثل في روعة البناء

وفخامته ، ومنها المستشفى الكبير في ميلان ؛ ومنها ما كان يزين جدرانها
بالتحف الفنية الملهمة . واستخدم مستشفى كبا Ospedale del Coppa
في بستويا جيوفاني دلا ريبيا ليشكل لجدرانها نقوشاً من الصلصال المحروق
تصف في وضوح نماذج من مناظر المستشفيات ، وامتازت واجهة مستشفى
البرءاء Ospedali degli Innocenti في فلورنس الذي خططه برونيلسكو
بالمذليات الرائعة المصنوعة من الصلصال المحروق التي وضعها في البندريلات
القائمة على عقود بابها أندريا دلاريبيا : ولشد ما تأثر لوثر بما وجده في
إيطاليا من معاهد طبية وخيرية في عام ١٥١١ ، وهو الذي روع بما كان
فيها من فساد خلقي . وقد وصف لنا في هيرث المائرة مستشفياتها بقوله :

« المستشفيات في إيطاليا جميلة البناء مزودة أعجب التزويد بأحسن أنواع
الطعام والشراب ، ويعنى فيها أحسن عناية بخدمة المرضى ، وجدرانها مغطاة
بالصور والنقوش . وإذا جاءها مريض نزعته عنه ملابسه بحضور كاتب
يثبتها عنده بعناية وتحفظ في أمان . ثم يلبس المريض قميصاً أبيض اللون ،
ويخصص له سرير مريح عليه غطاء نظيف من التيل . ويحضر لايه على الفور
طبيبان ويأتيه الخدم بالطعام والشراب في آنية نظيفة ويزور المستشفى
بالتناوب كثير من السيدات ويعنن بالمرضى وهن محجبات الوجوه ، حتى
لا يعرف أحد كنههن ؛ وتبقى كل واحدة منهن في المستشفى بضعة أيام ،
تعود بعدها إلى منزلها ، وتحل غيرها محلها وتضارع هذه المستشفيات
في الجودة ملاجئ اللقطاء في فلورنس ، حيث يعنى أكبر عناية بإطعام
الأطفال وتعليمهم ، وحيث يزودون بحلل متشابهة من الثياب ويلقون أعظم
العناية بجميع أنواعها (٢٩) » .

وكثيراً ما يكون من نحس طالع الطب أن أمراضاً جديدة تقابل تقدمه .
العظيم في العلاج - وتكاد تعقبه على الدوام . ومصدّقاً لهذا نقول إن الجدرى
والحصبة اللذين لا نكاد نسمع عنهما في أوروبا قبل القرن السادس عشر أصبحا :

وقتنئذ في مقدمة الأوبئة الأوروبية . وقاست أوروبا في عام ١٥١٠ أول وباء أنفلونزا سجله التاريخ في ربوعها . واجتاح إيطاليا في عامي ١٥٠٥ و ١٥٢٨ وباء من أوبئة التيفوس - وهو مرض لم يرد له ذكر قبل عام ١٤٧٧ . ولكن ظهور الزهري فجأة وانتشاره السريع في إيطاليا وفرنسا في أواخر القرن الخامس عشر كانا أكثر الظواهر رهبة وأشدّها اختباراً لعلم الطب في عصر النهضة . ولسنا نعرف هل كان الزهري موجوداً في أوروبا قبل عام ١٤٩٣ أو هل جاء إليها من أمريكا حين عاد منها كولمبس في ذلك العام ، فتلك مسألة لا تزال مثار الجدل بين العلماء وليس هذا موضع البت فيها .

وتؤيد بعض الحقائق النظرية القائلة إنه مرض أصيل في أوروبا ؛ من هذه أن مومسا أقرت في محكمة بديجون أنها أقنعت أحد طلابها بعدم الاقتراب من لأنها مصابة بالمرض الكبير *le gros mal* ، ثم لا نرى بعدئذ وصفاً لهذا المرض في ذلك السجل (٣٠) . وفي الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٩٤ أمر منادى المدينة في باريس أن بأمر كل المصابين بـ *البثرة الكبيرة* (٣١) . أن يخرجوا من المدينة . ولسنا نعرف ماذا كانت هذه « البثرة الكبيرة » ، فلربما كانت هي الزهري نفسه . وفي أواخر عام ١٤٩٤ غزا إيطاليا جيش فرنسي ، واحتل نابلي في ٢١ فبراير من عام ١٤٩٥ ، وسرعان ما فشا فيها بعدئذ وباء أطلق عليه الإيطاليون اسم *الداء الفرنسي* *il morlo gallico* يزعمون أن الفرنسيين قد جاءوا به إلى إيطاليا . وأصيب بهذا المرض كثيرون من الجنود الفرنسيين ، ولما عاد هؤلاء إلى فرنسا في شهر أكتوبر من عام ١٤٩٥ نشروا الوباء بين الأهليين ؛ ولهذا سمي في فرنسا *مرض نابلي* *Le mal de Naples* لأن الأهليين افترضوا أن الجنود الفرنسيين قد أصيبوا به فيها . وفي السابع من شهر أغسطس عام ١٤٩٥ أي قبل عودة الجيش الفرنسي من إيطاليا بشهرين أصاب الإمبراطور مكسيميليان مرسوماً ورد فيه ذكر المرض الفرنسي *malum Francicum* ؛ وغير خاف أن هذا « المرض

الفرنسي « لا يمكن أن يعزى إلى الجيش الفرنسي الذي لم يكن قد عاد بعد من إيطاليا . وأخذ لفظ « المرض الفرنسي morbus gallicus » منذ عام ١٥٠٠ يطلق على مرض الزهري في جميع أنحاء أوربا (٣٢) . ويحسن بنا أن نختم هذه الفقرة بقولنا إن هذه كلها مجرد إشارات وليست أدلة قاطعة على أن الزهري كان موجوداً في أوربا قبل عام ١٤٩٣ .

أما القول بأن أصل المرض أمريكي فقام على تقرير كتبه طبيب أسباني يدعى راى دياز ده إزلا Rug Díaz de Izla بين عامي ١٥٠٤ و ١٥٠٦ (ولكنه لم ينشر إلا في عام ١٥٣٩) . وهو يقول إن قبطان سفينة أمير البحر أصيب في أثناء عودة كولمبس إلى أوربا بحمى شديدة مصحوبة بطفح جلدي مروع ؛ ويضيف إلى ذلك قوله إنه هو نفسه عالج وهو في برشلونة بحارة مصابين بهذا المرض الجلدي الذي لم يكن ، على حد قوله ، معروفاً فيها من قبل . وقد قال إنه هو بعينه المرض الذي كانت تطلق عليه أوربا اسم « المرض الفرنسي » ويؤكد أن العدوى قد جاءت إليهم من أمريكا (٣٣) . ومعروف أن كولمبس حين عاد من رحلته الأولى إلى جزائر الهند الغربية وصل إلى پالوس Palos في أسبانيا في الخامس عشر من شهر مارس سنة ١٤٩٣ . وقد لاحظ پنتور Pintor طبيب البابا اسكندر السادس في ذلك الشهر نفسه ظهور المرض الفرنسي لأول مرة في رومة (٣٤) . ومرت سنتان كاملتان تقريباً بين عودة كولمبس واحتلال الفرنسيين ناپلى - وهى مدة تكفى لانتشار الداء من أسبانيا إلى إيطاليا - ؛ غير أننا لسنا واثقين من أن الوباء الذى اجتاح ناپلى في عام ١٤٩٥ هو الزهري عينه (٣٥) ، والعظام التى يمكن أن يفسر ما فيها من تغيرات على أنه من فعل الزهري جدد نادرة في المخلفات الأوربية قبل عهد كولمبس ، لكن عظاماً كثيرة من هذا النوع قد وجدت في أمريكا من مخلفات العهود السابقة لرحلة كولمبس (*) (٣٦) .

(*) ويختم سارتن بحجة بقوله : « أما من حيث الزهري فإننى قد عجزت حتى الآن عن أن -

ومهما يكن مصدر المرض الجليدي ، فإنه انتشر بسرعة مروعة ، ويلوح أن سيزارى بورچيا قد أصيب به في فرنسا ، كما أصيب به أيضاً كثير من الكرادلة ويولبوس الثاني نفسه ؛ على أننا يجب أن ندخل في حسابنا إمكانية انتقال العدوى به عن طريق الاختلاط البريء بأشياء أو أشخاص تحمل أو يحملون جرثومة المرض النشيطة . وكان الطفح الجلدي يعالج في أوروبا من زمن بعيد بالمرهم الزئبقي ؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد أصبحت مركبات الزئبق شائعة شيوع البنسلين في هذه الأيام . وكان الجراحون والدجالون يسمون بالكيميائيين لأنهم حولوا الزئبق إلى ذهب ، واتخذت إجراءات للوقاية من الداء . من ذلك أن قانوناً صدر عام ١٤٩٦ يحرم على الحلاقين قبول المصابين بالزهرى أو استخدام الآلات التي استعملوها أو استعملت لهم . وتقرر فحص العاهرات مراراً أكثر من ذي قبل ، وحاولت بعض المدن تجنب هذه المشكلة بطرد المومسات منها ؛ فنفتن فيرارا وبولونيا في عام ١٤٩٦ بحجة أنهم مصابات « بنوع من الطفح السري يسميه بعضهم بجذام القديس أيوب » (٢٨) . ودعت الكنيسة إلى العفة لأنها هي طريق الوقاية الذي يحتاجه الناس وعمل بهذه النصيحة كثيرون من رجال الدين .

وكان أول من أطلق لفظ syphilis (الزهرى) على هذا الداء هو جرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro أحد الأشخاص ذوي المواهب المتعددة ولكنه مع ذلك من جملة العلماء في عصر النهضة . وقد بدأ

= أكشف وصفاً واحداً له قبل الأوصاف التي ظهرت متتابة تشابهاً سريعاً في عام ١٤٩٥ والأعوام التالية له . ولا أزال حتى الآن غير مقتنع رغم التأكيدات الكثيرة التي صدرت في السنين الأخيرة ، بأن الزهرى الأوربي وجد قبل أيام كولمبس » (٣٧) .

ومن شاء الإستزادة من العلم بتاريخ الأوبئة وأثرها في أحداث العالم فإنه واجد عالماً ومتعة في كتاب **Rats, Lice and History** الذي ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد بدران ونشرته مؤسسة فرانكلين باسم التيفوس والتاريخ .

حياته بداية طبية : فقد ولد في فيرونا (١٤٨٣) من أسرة شريفة أنجبت قبله عدداً من الأطباء المشهورين . ودرس في بلدوا كل شيء تقريباً ؛ وكان من زملائه في الدرس كوبرنيق وكان بمبونتسى Pomponazzi وأكاينى Achilini يعلمانه الفلسفة والتشريح ؛ ولما بلغ الرابعة والعشرين من العمر كان هو أستاذ للمنطق ثم ما لبث أن اعتزل هذا العمل ليخصص نفسه للبحث العلمى بوجه عام والبحث الطبى بوجه خاص تخففه رغبة قوية في دراسة الآداب القديمة . وأثمر جمعه بين العلوم والآداب على هذا النحو شخصية مصقولة مهذبة . كما أثمر قصيدة رائعة مكتوبة باللغة اللاتينية على نمط قصيدة

الغزلية Georgics لفرجيل سماها الزهرى ، النجاة من الداء الفرنسى Syphilis, sive le morbo gallico (١٥٢١) . وكان الإيطاليون من أيام لكريتيوس قد برعوا في كتابة القصائد التعليمية ، ولكن من الذى كان يظن أن المطروقات المتناوبة (*) يمكن أن يتحدث عنها بشعر سلس ؟ أما لفظ سيفيلس فكان يطلق في الأساطير القديمة على راع اعتزم ألا يعبد الله الذى لا يستطيع رؤيته ، بل يعبد الملك ، وهو وحده سيد قطعانه الذى يمكنه أن يراه ؛ ولذلك غضب منه أبلو فلألهواء بأبجزة كريهة أصيب منها سفلس بمرض مصحوب بطفح وخراجات في جميع أجزاء جسمه ؛ تلك في جوهرها هى قصة أيوب . واقترح فراكستورو أن يبحث عن أول ظهور « مرض شديد الوطأة ، نادر لم يرقط في القرون الماضية اجتاحت أوروبا كلها ومدن آسية وليبيا المزدهرة وغزا إيطاليا في تلك الحرب المشؤمة التى كانت سبباً في اشتقاق اسمه من بلاد غاله (فرنسا) » ليتبين مبدأ ظهوره ، وانتشاره الوبائى ، وأسبابه ، وعلاجه . وهو يرتاب في أن المرض قد وفد من أمريكا ، لأن ظهوره كاد يكون في وقت واحد في كثير من بلاد أوروبا البعيدة

(*) اسم طبي يطلق على نوع من الجراثيم منها جرثومة الحمى المالطية وحى البحر المتوسط والزهرى الخ . (المترجم)

بعضها عن بعض . ويقول إن العدوى ؛ « لم تكن تظهر في الحال ، بل كانت تبقى كامنة فترة من الزمن قد تطول أحياناً إلى شهر . . . بل إلى أربعة أشهر . وكانت قرح صغيرة تبدأ في الظهور في معظم الحالات على الأعضاء التناسلية . . . ثم تظهر على الجلد بعدئذ بثرات عليها غشاء . . . ثم تأكل هذه البثرات المتقرحة الجلد . . . وتصل عدواها إلى العظام نفسها . . . وتتآكل في بعض الحالات الشفتان ، أو الأنف ، أو العينان ، وفي حالات أخرى تتآكل جميع الأعضاء التناسلية » (٣٩) .

ثم تمضى القصيدة فتبحث في علاج هذا الداء بالزئبق أو بالجواياك (صمغ خشب الأنبياء) — وهو « خشب مقدس » يستعمله هنود أمريكا . ونحدث فرانكستورا في كتاب آخر منشور يسمى العموى عن بعض الأمراض المعدية — كالزهرى ، والتيفوس ، والتدرن — وطرق انتشارها . واستدعاه بولس الثالث في عام ١٥٤٥ ليكون كبير الأطباء لمجلس ترنت . وأقامت فيرونا نصباً عظيماً تخليداً لذكراه ، ونقش جيوفاني دال كافينو Giovanni dal Cavino صورته على مدلاة تعد من أجمل التحف الفنية التي من نوعها . وكانت العادة المتبعة قبل عام ١٥٠٠ أن يطلق على جميع الأمراض المعدية على اختلاف أنواعها ذلك الاسم العام الشامل وهو « الطاعون » . ثم كان من الأعمال الدالة على تقدم الطب أنه قد ميز في وضوح وشخص طبيعة هذا الوباء الخاص ؛ وأعد العدة لمقاومة انتشار مرض خطير كالزهرى . ولم يكن الاعتماد على أبقراط وجالينوس كافياً في هذه الإزمة الطاحنة ؛ كما أنه لم يكن في مقدور مهنة الطب أن تواجه هذه التجربة الغير المتوقعة إلا لأنها قد أدركت ضرورة الدراسة المفصلة الدائمة للتجدد لأعراض هذا الداء ، وأسبابه ، وطرق علاجه بتجارب تجرى في ميدان دائم الاتساع متصلة ببعضها ببعض على الدوام .

وللى هذه المؤهلات العالية ، وللى الإخلاص في العمل ، والنجاح فيه ،

يرجع فضل اعتراف الناس بأن الطبقة الممتازة من الأطباء تمثل في إيطاليا،
أرستقراطية عصبامية لم تراث المجد عن الآباء والأجداد . ولما أن فصل أولئك
الأطباء مهمتهم عن الكنيسة فصلاً تاماً ، أصبح الناس يجلونهم أكثر مما يجلون
رجال الدين ؛ فلم يكن كثير من منهم مستشارى الأمراء ، والأحبار ،
والملوك فى الطب فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مستشاريهم السياسيين ،
وكثيراً ما كانوا رفاقهم المحبين . وكان كثير من منهم من الكتاب الإنسانيين ،
ملحنين بالآداب القديمة ؛ يجمعون المخطوطات والروائع الفنية ؛ وكثيراً
ما كانوا أصدقاء كبار الفنانين وثيقى الاتصال بهم . وآخر ما نقوله عنهم
أن كثيرين منهم قد حققوا المثل الأبقراطى الأعلى وهو الجمع بين الفلسفة
والطب (*) ، فكانوا يتنقلون فى يسر من موضوع إلى موضوع فى دراساتهم
وفى تعليمهم ، ولبثوا فى الهيئة المهنية الفلسفية المتأخية حافزاً لإخضاع
أفلاطون ، وأرسطو ، وأكوناس — كما أخضعوا أبقراط ، وجالينوس ،
وابن سينا — للفحص المتجدد ، الجرى الذى مهدف إلى معرفة الحقيقة ؛

(*) لقد حقق هذا الجمع على أوسع نطاق أطباء العرب (انفا . الجزء الثالث عشر من
هذه السلسلة .) المترجم

الفصل الرابع

الفلسفة

يبدو من أول نظرة أن النهضة الإيطالية لم تثمر محصولاً موفوراً من الفلاسفة ، ذلك أن محصولها هذا لا يمكن أن يضارع ما أثمرته الفلسفة المدرسية الفرنسية في أيام عزها من عهد أبلار إلى عهد أكوناس ، دع عنك « مدرسة أثينة الفلسفية » . وأعظم الأسماء التي اشتهرت بها في الفلسفة (إذا تجاوزنا الزمن الذي يحدد عادة لنهاية النهضة) هو جيور دانو برنو *Giordano Bruno* (١٥٤٨ ؟ - ١٦٠٠) ؛ وعمل هذا الرجل خارج نطاق الفترة التي ندرسها في هذا الكتاب . ويبقى بعد ذلك اسم *Pomponazzi* ، ولكن منذ الذي يعظم الآن هذا الصارخ المتشكك الجريء المسكين ؟

وقد احتضن الإنسانون مبادئ الثورة الفلسفية حين اكتشفوا ونشروا بخذر عالم الفلسفة اليونانية ولكنهم كانوا في معظم الأحوال - إذا استثنينا فلا *Valla* - أكثر دهاء وحرصاً من أن يعرضوا معتقداتهم جهرة . وكان أساتذة الفلسفة في الجامعات تقف في سبيلهم تقاليد الفلسفة المدرسية ؛ ولهذا فإنهم بعد أن قضوا سبعة أعوام أو ثمانية يضربون في تلك البيداء انتهوا إما إلى الخروج منها إلى ميادين أخرى من الدراسة وإما إلى دفع أجيال أخرى إليها ، بعد أن مجدوا لهم ما صادفهم من العوائق التي حطمت إرادتهم ووصلت بعقولهم سالمة إلى غاية عقيمة لا حياة فيها . ومن يدرى لعل الكثيرين منهم أحسوا بتسط من السلامة العقائدية والاقتصادية والافتقار على المسائل الخفية الغامضة يصوغونها بعناية وحذر في مصطلحات مجابية غير مفهومة المسمى ؟ وكانت الفلسفة المدرسية لا تزال في معظم الكلمات الفلسفية شاذية لتقاليد

والرسميات ، وقد أخذت أطرافها تتجمد استعداداً للموت والفناء ؛ وأصبحت المسائل القديمة التي كانت مثار الجدل في العصور الوسطى يعاد النظر فيها بأساليب الجدل القديمة التي كانت متبعة في تلك العصور ، ويبدل في هذا الجدل كثير من الجهد والعناء ثم تنشرها هيئة التدريس في الكليات مزهوة بها مفتخرة .

وكان ثمة عنصران من عناصر الحياة يعملان لإحياء الفلسفة : هما النزاع القائم بين الأفلاطونيين والأرسطوطالين ، ثم انقسام الأرسطوطالين أنفسهم إلى مستمسكين بتقاليدهم القديمة ورشدين (*) . وأضحى هذا النزاع في بولونيا وبدوا مبارزة حقيقية ومسائل حياة أو موت بمعناها الحرفي . وكانت كثرة الإنسانين أفلاطونية بتأثير جستس پليثو Gemistus Pletho ، وبساريون Bessarion ؛ وثيودورس جادسا Fheodorus Gaza ، وغيرهم من اليونان وقد سكروا بنخمر المحاورات ، وكان من العسير عليهم أن يفهموا كيف يطبق أى إنسان المنطق الخاف ، وما حواه كتاب الأورغانون الهزيل ، والطريقة « الوسطى الذهبية » الرصاصية التي ينادى بها أرسطو الخذر . ولكن هؤلاء الأفلاطونيين كانوا يصرون على أن يبقوا مسيحيين ؛ وكأما كان مارسيليو فتشينو Marsilio Ficino ممثلاً لهم ومندوباً عنهم حين كرس نصف حياته للتوفيق بين أسلوبى التفكير المختلفين . ولكي يحقق هذا الغرض شرع يدرس دراسة واسعة ، وتوسع في هذه الدراسة حتى شملت زردشت وكنفوشيوس . ولنا وصل في دراسته إلى أفلاطون ، وترجم هو نفسه اليونانيات ، أحس أنه عثر في الأفلاطونية الحديثة الصوفية على الخيط الحريري الذي استطاع به ربط أفلاطون بالمسيح . وحاول أن يصوغ هذا الارتباط في كتابه الموهوت الإفلوطوني Theologia platonica وهو خليط

(*) أتباع ابن رشد المشهور بالفلسفة العربية . (انظر ج ١)

مهوش من الدين القويم ، والإيمان بالعلوم الخفية ، والهلينية ، ووصل فيه بعد تردد وإحجام إلى نتيجة من نوع مذهب الأحدية(*) فقال إن الله هو روح العالم . وأصبح هذا هو فلسفة لورندسو والمثقفين حوله ، والجامع العلمية الأفلاطونية في رومة ، وناپلي ، وغيرها من البلاد ؛ ووصلت هذه الفلسفة من ناپلي إلى جيوردانو برونو ، ثم انتقلت من برونو إلى أسبينوزا ، ومنه إلى هيغل ، ولا تزال حية قائمة إلى يومنا هذا .

ولكنهم كانوا يجدون ما يقولونه دفاعاً عن أرسطو وخاصة إذا أسىء فهمه وتفسيره . ترى هل كان أكوناس على حق حين فهم أنه يقول بالخلود الشخصي ، أو هل كان ابن رشد محقاً حين فهم من كتاب النفس أنه لا يؤكد عدم الموت إلا لنفس بني الإنسان الكلية ؟ وكان ابن رشد الرهيب ، ذلك الفيلسوف العربي المرعب ، الذي ظل الفن الإيطالي زمناً طويلاً يصوره منكباً على وجهه تحت قدمي القديس تومس ، كان ابن رشد هذا منافساً يدعو إلى غلبة الفلسفة الأرسطوطالية بلغ من قوته أن أضحت يدوا وبولونيا تعجان بإلحاده . وكانت يدوا هي التي أضاع فيها مرسلينوس ، الذي تسمى باسمها ، احترامه للكنيسة(**) . وفي يدوا استقى فلپو ألجيرى دانولا Filippo Algeri da Nola برونو المولود في نولا نفسها تلك الأخطاء المروعة التي لقي فيها ذلك المصير المحزن إذ ألقى به في برميل من القار وهو يغلي(٤٠) . ويبدو أن نقولتو فرنياس Nicoletto Vernias ، كان ، وهو أستاذ للفلسفة في يدوا (١٤٧١ - ١٤٩٩) ، يعلم فيها العقيدة القائلة إن النفس الكلية العالمية وحدها ، لا النفس الفردية ، هي الخالدة(٤١) ، وعرض تلميذه أجستينو نيفو Agostino Nifo هذه الفكرة نفسها في رسالة لـ

(*) أي القائلين بوحدة الوجود أي أن الله والعالم أحد واحد . (المترجم)

(**) ينتسب مرسلينوس فيلسوف يدوا إلى الإصلاح الديني لا إلى النهضة ولهذا أرجأنا الحديث عنه إلى المجلد التالي .

تدعى De intellectu et daemonibus (١٤٩٢) . وكان المتشككة يسعون في العادة إلى تهدة نائرة محكمة التفتيش بأن يفرقوا (كما كان ابن رشد يفرق) بين نوعين من الحقيقة - الدينية والفلسفية : فيقولون إن قضية من القضايا يمكن رفضها في الفلسفة إذا نظر إليها من ناحية العقل ، ولكنها مع ذلك يمكن قبولها على أساس الإيمان إذا أخذنا بقول الكتاب المقدس أو الكنيسة . وعبر نيفو عن هذا المبدأ ببساطة كان فيها جريئاً متهوراً فقال : « يجب أن نتحدث كما يتحدث الكثرون ، ويجب أن نفكر كما يفكر القليلون » (٤٢) . وبدل نيفو رأيه أو بدل أقواله لما تبدل لون شعره وتصلح مع مبادئ الدين القويم ، وكان وهو أستاذ الفلسفة في بولونيا يجتذب الأعيان ، وكرايم السيدات ، وجواهر لا تحصى ، محاضراته المصحوبة بالتجهم والسخرية ، والمحلاة بالقصص والفكاهة . وأصبح من الناحية الاجتماعية أكثر معارضى ميمونتسى نجاحاً .

وكان بيترو ميمونتسى ، القنبلة الجمهورية لفلسفة النهضة ، ضئيل الجسم إلى حد جعل أصفياه يسمونه پريتو Peretto - أى « بطرس الصغير » . ولكنه كان كبير الرأس ، عريض الجبهة ، أفتى الأنف ، صغير العينين ، نفاذهما أسودهما ، وكان رجلاً يأخذ الحياة والفكر مأخذاً جدياً أليماً . وقد ولد في مانتو (١٤٦٢) ودرس الفلسفة والطب في پدوا ، ونال الدرجتين فيهما وهو في سن الخامسة والعشرين ، ولم يلبث أن أصبح أستاذاً في جامعة تلك المدينة نفسها وغمرته جميع نقاليد فلسفة پدوا المتشككة ، وبلغت فيه غايتها . حتى قال فيه فانبني Vanini المعجب به : « لقد كان يحق إلى فيتاغورس أن يحكم بأن روح ابن رشد قد تقمصت جسم ميمونتسى » (٤٣) . ويلوح أن الحكمة تكون على الدوام تجسداً للحكيم قديم أو صدى لأقواله لأنها تبقى في الدوام دون أن يطرأ عليها تغيير بعد أن تمر بالآلاف الأنواع المختلفة من الأغلاط .

وواصل ميمونتسى التدريس فى بدوا من ١٤٩٥ إلى ١٥٠٩ ؛ ثم اجتاحت
أعاصير الحرب المدنية وأغلقت قاعات جامعتها التاريخية . وفى عام ١٥١٢
نجاهه مستقراً فى جامعة بولونيا حيث بقى إلى آخر أيام حياته ، وتزوج
ثلاث مرات ، وظل على الدوام يحاضر عن أرسطو ، ويشبه فى تواضع جم
علاقته بأستاذه بدودة تحاول ارتياد مجاهل فيل^(٤) . وكان يرى أن من
الأسلم له ألا يعرض آراءه كأنه هو . صاحبها ، بل أن يعرضها على أنها
متضمنة فى آراء أرسطو كما شرحه اسكندر الأفروديسى . وكانت طريقته
تبدو أحياناً مسرفة فى التواضع ؛ يظهر فيه الخضوع الشديد للسلطة الميتة .
غير أنه لما كانت الكنيسة تدعى أن عقائدها هى نفسها عقائد أرسطو ، متبعة
فى ذلك رأى أكوناس ، فلعل ميمونتسى كان يشعر بأن الجهر بأية عقيدة
خارجة على سلطان الكنيسة عقيدة أرسطوطالية بحق ستؤدى إلى غضب
رجال الدين ، إن لم تؤد به هو نفسه إلى الحرق حياً . ذلك أن مجلس لاتران
الخامس الذى عقد برئاسة ليو العاشر (١٥١٣) أدان ككل من يقول إن
النفس واحدة لا تتجزأ فى جميع الناس ، وإن النفس الفردية يحق عابها الفناء
ونشر ميمونتسى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أكبر كتبه المسحى
فى مخلود النفس الذى حاول فيه أن يثبت أن هذا الرأى الذى رفضه المجلس
هو رأى أرسطو بمخذافيه ، فأرسطو حسبما يرى پيترو يقول إن العقل يعتمد
على المادة فى كل خطوة من خطى تفكيره ، وإن أكثر المعارف تجويداً
تستقى فى آخر الأمر من الحواس ؛ وإن العقل لا يستطيع أن يؤثر فى العالم
إلا عن طريق الجسم ؛ ولهذا فإن النفس المجردة عن الجسم ، إذا بقيت بعد
الإطار الفانى ، لا تكون إلا طيفاً لا حول له ولا عمل يقوم به . ويختتم
ميمونتسى حديثه بأن من واجبنا بوصفنا مسيحيين ومن أبناء الكنيسة المخلصين
لنا ، أن نؤمن بمخلود النفس الفردية ؛ أما بوصفنا فلاسفة فليس هذا من
واجبنا . ويسو أنه لم يدر قط بخلد ميمونتسى أن دعواه لا تستقيم أمام دعوى

الكنيسة التي كانت تقول ببعث الجسم والروح جميعاً ؛ ولعله لم يكن يحمل هذه العقيدة على محمل الجدل ، ولم يكن يظن أن قراءه أنفسهم سيحملونها على هذا المحمل . ومبلغ علمنا أن أحداً لم يُثر رأيه هذا ضده .

وأثار الكتاب عاصفة من الاحتجاج ، وأقنع الرهبان الفرنسيين دوج البندقية بأن يأمر بإحراق كل ما يمكن العثور عليه من نسخة علناً ؛ ونفذ هذا الأمر فعلاً . ثم قدمت الاحتجاجات إلى المحكمة البابوية ، ولكن بمبو وبببا كانت لهما مكانة سامية في مجالس ليو ، وأكدوا له أن النتائج التي يعرضها الكتاب سليمة ليس فيها ما يعارض الدين الصحيح ، والحق أنها كانت كذلك . ولم يستطع المعارضون أن يسخروا ليو لما كانوا يريدون ، وقد كان يعرف حق المعرفة تلك الحيلة الصغيرة حيلة الحقيقتين (*) التي يقول بها ميمونتسي ، ولكنه قنع بأن أمر ميمونتسي بكتابة كلمة لطيفة يعلن بها خضوعه

للكنيسة (٥٥) . وأجابه بترولي ما طلب وأصدر كتاب الاعتذار (١٥١٨) الذي يؤكد فيه بوصفه مسيحياً بأنه يؤمن بكل تعاليم الكنيسة . ثم أمر ليو حوالى ذلك الوقت أجستينو بأن يرد على كتاب ميمونتسي ؛ وإذا كان أجستينو مولعاً بالجدل ، فقد قام بهذه المهمة بخدق وسرور . ومن عجب أنه بينما كان رأس ميمونتسي معلقاً في ميزان محكمة التفتيش ، إذا صح ذلك التعبير ، كانت ثلاث جامعات تنافس للانتفاع بخدماته ؛ ولعل في هذا التنافس دليلاً على أن العداء بين الجامعات ورجال الدين كان لا يزال قائماً لم تنقطع أسبابه . فلما أن سمع رجال الحكم في بولونيا أن بيزا تسعى لإغرائه بالحنى إليها ، وكانت وقتئذ خاضعة رسمياً للبابا ، ولكنها مع ذلك أصمت أذنها عن سماع نداء الرهبان الفرنسيين الحائقين ، أطالت بقاء ميمونتسي فيها ثمانى سنين أخرى . ورفعت مرتبه إلى ١٦٠٠ دوقه (٢٠,٣٠٠,٠٠ دولار) في العام (٥٦) .

(٥) أى أننا نستطيع أن نقبل الشيء الواحد بالاعتماد على إيماننا الدينى وأن نرفضه معتمدين على عائدات الفلسفة . (المترجم)

وواصل ميمونتنسى حملته التي يدعو فيها إلى التشكك في كتابين صغيرين لم ينشرهما في حياته ، أرجع في أحدهما المسمى De incantione كثيراً من للظواهر الخارقة للطبيعة كما يزعم الناس إلى أسباب طبيعية . وكان سبب تأليفه أن طبيباً كتب إليه عن علاج شاف يقال إنه ثمرة رقى أو سحر ، فأمره بيترو أن يشك في الأمر وكتب له يقول : « إن من السخف ومما يدعو إلى السخرية أن يحتقر الإنسان ما هو واضح وطبيعي لكى يلجأ إلى علة غير واضحة لا يؤكد صحتها أى احتمال موثوق به » (٤٧) . وهو بوصفه مسيحياً يؤمن بالملائكة والأرواح ، ولكنه بوصفه فيلسوفاً يرفضها ، ويقول إن جميع العلل في عالم الله طبيعية . وهو يتأثر بتدريبه الطبي فيسخر بالاعتقاد للشائع في المصادر السحرية الخفية الشافية من الأمراض ويقول إنه لو كان في مقدور الأرواح أن تشفى أمراض الأجسام لكانت هذه الأرواح مادية أو كانت تستخدم وسائل مادية كى تستطيع أن تؤثر في جسم مادي ، ثم يمضى فيصور في سحرية الأرواح الشافية تهوّل غادية رائحة ومعها ما لديها من حبس ، ومرهم ، وحبوب (٤٨) . على أنه يعتقد أن لبعض النباتات والحجارة قوة علاجية ، ويصدق المعجزات الواردة في الكتاب المقدس ، ولكنه يظن أنها كانت عمليات طبيعية ، ويقول إن الكون تسيطر عليه قوانين ثابتة منسقة ، وإن المعجزات ليست إلا مظاهر غير عادية لقوى طبيعية لا نعرف نحن إلا جزءاً من قدرتها ووسائلها ، والناس يعزّون إلى الأرواح أو إلى الله ما لا يستطيعون إدراكه بعقولهم (٤٩) . ويصدق ميمونتنسى كثيراً مما ورد في التنجيم دون أن يرى في ذلك ما يتعارض مع هذه النظرة ، نظرة العلل الطبيعية للأشياء ؛ وهو لا يقول إن حياة الآدميين خاضعة لتأثير الأجرام السماوية فحسب ، بل يضيف إلى ذلك أن جميع الأنظمة البشرية ، ومنها الأديان نفسها ، تنشأ ، وتزدهر ، وتضمحل بفعل المؤثرات السماوية ، ويصدق علناً أيضاً في رأيه على المسيحية ، ويقول إن ثمة في تلك الأيام

دلائل على أن المسيحية آخذة في الزوال (٥٠) ؛ ثم يقول بعدئذ إنه بوصفه مسيحياً يرفض هذا كله ويراه سخفاً وهراء .

أما كتابه الأخير De Fato فيبدو أنه أكثر اتفاقاً مع الحقائق العلمية لأنه دفاع عن حرية الإرادة ؛ وهو يعترف بأن هذه الحرية لا تتفق مع علم الله بكل شيء ومعرفته بكل شيء قبل وقوعه ، ولكنه يصر على اعتقاده بحرية الإنسان في نشاطه وعلى أنه لا بد له أن يفترض في الإنسان قسماً من حرية الاختيار إذا كان للإنسان شيء من التبعية الأخلاقية . وكان في رسالته عن الخلود قد عالج إمكان نجاح أى قانون أخلاق إذا لم يستند إلى العقاب والواب تفرضهما قوة غير بشرية . وآمن بفخر شبيه بافتخار الرواقين أن الفضيلة نفسها جزاء كاف للفضيلة ، وليس ذلك الجزاء جنة بعد الموت (٥١) ، ولكنه يقر بأنه لا يمكن حمل معظم الناس على مراعاة السلوك الحسن إلا بالاعتماد على الآمال والخواف يلقونها من قوة غير بشرية . وهذا ، فيما يقول ، هو الذى دعا كبار المشرعين إلى أن يغرّسوا في نفوس الناس الإيمان بوجود حالة في المستقبل تحل محل الشرطة التى لا يخلو منها مكان ، وأكثر منها اقتصاداً ؛ ويبرر ، كما يبرر أفلاطون تلقين الناس الخرافات والأساطير إذا كان في مقدورها أن تساعد على كبح جماح ما فطر عليه الآدميون من خبيث (٥٢) :

« ولهذا وعدوا الصالحين بالنعيم السرمدى في الدار الآخرة ، وأنذروا الطالحين بالعقاب الأبدى الذى يرعبهم أشد الرعب . والكثرة الغالبة من الناس ، إذا فعلوا الخير ، إنما يفعلونه خوفاً من العقاب الأبدى لا أملاً في النعيم السرمدى ، لأننا أكثر علماً بالعقاب من تلك النعم السرمدية . وإذا كان في وسع الناس جميعاً أياً كانت طبقتهم أن ينفيدوا من هذه الطريقة الأخيرة ، فإن المشرع ، وهو يرى ميل الناس إلى الشر وينزع هو إلى الخير العام ، قد نادى بأن النفس الخالدة ، غير مبال في نذائه هذا بالحقيقة ، وإنما يعنى (٣ - ج ٤ - مجلد ٥)

بالخير والصالح ، كى يستطيع بذلك أن يهذى الناس إلى الفضيلة (١٥٢) .
وهو يرى أن الكثيرين من الناس يبلغون من السذاجة فى العقل ،
والوحشية فى الأخلاق درجة لا بد معها من معاملتهم كما يعامل الأطفال
أو المرضى ، وليس من الحكمة أن يعلم هؤلاء العقائد الفلسفية . ويقول عن
آرائه هو : « يجب ألا تنقل هذه الأشياء لعامة الناس لأنهم يعجزون عن
تلقى هذه الأسرار ، بل إن من واجبنا أن نحذر من التحدث عنها إلى رجال
الدين الجاهلاء » (٥٣) وهو يقسم بنى الإنسان إلى فلاسفة ورجال دين ، ويعتقد
اعتقاداً لا يصح لنا أن نلومه عليه وهو أن « الفلاسفة وحدثهم هم آلهة
الأرض ، وأنهم يختلفون عن سائر الناس أيا كانت مراتبهم وأحوالهم ، بقدر
ما يختلف الناس الأحياء عن تلك الصور المرسومة على القماش » (٥٤) .

وكان فى الملاحظات التى هو فيها أكثر تواضعاً منه فى غيرها يدرك ضيق
مجال العقل البشرى وما فى المتافيزيقا من عبث شريف . وقد صور نفسه
فى سنيه الأخيرة رجلاً منهوكة هزيلة ، حائراً ، وشبه الفيلسوف بېروميثيوس
الذى حكم عليه بأن يشد إلى صخرة وأن ينقر قلبه صقر لا ينقطع عن ذلك
أبداً (٥٥) ، لأنه أراد أن يسرق النار من السماء - أى أن يختطف المعرفة الإلهية .
ويقول فى هذا : « إن المفكر الذى ينقب عن الأسرار الإلهية الخفية ليشبه
پروتئوس Proteus فحكمة التفتيش تحاكمه بتهمة الإلحاد ، والجاهل
تسخر منه لأنه أبله » (٥٦) .

وأنهك الجدل الذى شغل كثيراً من وقته قواه وأضعف صحته ، فكان
ينقلب الداء فى أثر الداء حتى اعتزم أخيراً أن يموت ، فاختار إلى الانتحار
أشقى صورة من صوره : إذ آثر أن يموت جوعاً ، فقاوم كل حجة يراد
بها حمله على العدول عن قراره وكل تهديد وجه إليه ، وتغاب على القوة
نفسه ، رأى أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب ، فلما مضت على هذا النظام
الصارم سبعة أيام شعر بأنه كسب المعركة التى تقرر حقه فى أن يموت ،

وأنه يستطيع وقتئذ أن يتكلم وهو آمن فقال : « إنى أفارق الحياة مسروراً » .
ولما سأله بعضهم : أنى تذهب ؟ أجاب « إلى حيث يذهب جميع الخلائق
الهاالكين » . ويبدل أصدقاؤه آخر جهودهم ليقنعوه بأن يتناول بعض
الطعام ، ولكنه أبى وفضل الموت (١٥٢٥) (٥٧) . وأمر الكردنال جندساجا
الذى كان تلميذاً له أن تنقل رفاتة إلى مانتوا وأن توارى فى ثراها ، وأقام
فيها تمثالاً تخيلاً لذكراه ، وجرى فى هذا على سنة التسامح التى تسود
عصر النهضة .

ولقد عمد ميمونتسى إلى التشكك الذى ظل قرنين كاملين يحطم أسس
العقائد المسيحية فصاغه فى صورة فلسفية . واجتمعت عوامل كثيرة لتجعل
الطبقات الوسطى والعليا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس
عشر « أكثر الشعوب الأوروبية تشككاً » (٥٨) ، نذكر منها إخفاق الحروب
الصليبية ؛ انتشار الأفكار الإسلامية فى العالم الغربى بتأثير الحروب الصليبية ،
والتجارة ، والفلسفة العربية ؛ وانتقال البابوية إلى أفنيون ، وانقسامها
السخيف على نفسها فى عهد الانشقاق الكبير ؛ وتكشف عالم وثنى يونانى -
رومانى ملئ بالحكماء والفن العظيم رغم خلوه من الكتاب المقدس ومن
الكنيسة ؛ وانتشار التعليم وتحوره المتزايد من السيطرة الكهنوتية ؛ وفساد
أخلاق رجال الدين ومنهم البابوات أنفسهم وانهماكهم فى شئون الدنيا
نما يوحى بعدم إيمانهم بما يجهررون به من عقائد ؛ واستخدامهم فكرة المظهر
لجمع المال لأغراضهم الخاصة ، ومعارضة طبقات التجار وأصحاب المال
الناشئة لسيطرة رجال الكنيسة ؛ وتحول الكنيسة من منظمة دينية إلى سلطة
دنيوية سياسية ، هذه العوامل كلها وكثير غيرها هى التى أدت إلى النتيجة
السالفة الذكر .

ويتضح من شعر بولتيان وبلنشى Pulci وفلسفة فتشينو Ficino ، أن
لمورندسو والملتفين حوله لم يكونوا يؤمنون إيماناً حقاً بحياة فى الدار الآخرة ؛

كما أن عواطف مدينة فيرارا تتضح من استهزاء أريستو بالبحيم الذي كان يبدو لدانتى من قبل رهيباً بحق . ويكاد نصف الأدب في العصور الوسطى يكون معارضاً للكهنوت ؛ وكان كثيرون من رؤساء العصابات المغامرة يجهرون بكفرهم (٥٩) ، كما كان رجال الحاشية Cortigiani أقل تديناً من العاهرات Cortigiane ، وكان التشكك في أدب وظرف سمة السيد المهذب ، والصفة التي ينبغي له أن يتصف بها (٦٠) . وكان پترارك يأسف لأن كثيرين من رجال العلم يرون أن تفضيل الدين المسيحى على الفلسفة الوثنية دليل على الجهل (٦١) ؛ وتبين أن معظم أفراد الطبقة العليا في البندقية في عام ١٥٣٠ يهملون أداء الواجبات الدينية في عيد الفصح أى أنهم لا يذهبون للاعتراف وللعشاء الربانى ولو مرة واحدة في العام (٦٢) . ويقول لوثر إنه وجد قولاً شائعاً بين الطبقات المتعلمة في إيطاليا حين يذهبون للقداس : « هيا بنا نرتكب الخطأ الذى يرتكبه العامة » (٦٣) .

أما عن الجامعات فإن الحادثة الآتية العجيبة تكشف عن مزاج الأساتذة والطلبة : دعى سيمونى پوردسيو Simone Porzio تلميذاً يمينونتى بعد وفاة أستاذه بتليل ليحاضر في پيزا ، فاختر موضوعاً لمحاضراته كتاب المتيورولوجيا لأرسطو . ولكن المستمعين لم يعجبهم هذا الموضوع ، وصاح بعضهم بعد أن نفذ صبرهم : « وماذا تقول في النفس ؟ quid de anima » . واضطر پوردسيو إلى أن يطرح كتاب المتيوروجيا جانباً ويتناول كتاب النفس وسرعان ما كان المستمعون كلهم آذاناً صاغية (٦٤) . ولسنا نعرف هل جهر پوردسيو في تلك المحاضرة باعتقاده أن النفس البشرية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن نفس أسد أو نبات ؛ ولكننا نعرف أن هذا هو ما كان يدعو إليه في كتابه العقل البشرى De mente humana (٦٥) ؛ ويبدو أنه لم يصب بأى أذى من جراء دعوته هذه . وروى يوجينيو طرابالبا

Euginio Tarralba ، الذى أهتمته محكمة التفتيش الأسبانية فى عام ١٥٢٨ ، أنه كان فى شبابه يأخذ العلم فى رومة على ثلاثة من المعلمين يقولون كلهم إن النفس هالكة (٦٦) . ودهش إرمس إذ وجد فى رومة أن المبادئ الأساسية للدين المسيحى كانت موضوعات للعجل المتشكك بين الكرادلة أنفسهم ؛ وأن واحداً من رجال الكنيسة أخذ يشرح له سخف الاعتقاد بحياة فى الدار الآخرة ؛ وكان غيره يسخرون من المسيح والرسول ؛ وكان غيرهم ، كما يؤكد إرمس نفسه ، يقولون إنهم سمعوا كبار الموظفين البابويين ينكرون القداس ويسبونونه (٦٧) . أما الطبقات الدنيا فقد ظلت مستمسكة بإيمانها ، كما سنرى بعد ؛ وما من شك فى أن الآلاف المؤلفة الذين أنصتوا إلى سفنرولا كانوا يؤمنون بما يسمعون ؛ ولنا فى المثل الذى ضربه فتوريا كولنا ما يدل على أن التقي قد يبق مع العلم . لكن سهام الشك كانت قد نفذت فى العقيدة الكبرى ؛ وكانت روعة أسطورة العصور الوسطى قد لوثها ما تراكم عليها من ذهبها .

الفصل الخامس

جوتشياردينى

إن عقل جوتشياردينى هو خلاصة لما حدث فى ذلك الوقت من تشكاث منشؤه خيبة أمه وتكشف الغشاء عن عيني أهله . وكان هذا العقل من أقوى عقول زمانه ، لا يطيقه ذوقنا لإسرافه فى سخريته ، ولا يتفق مع آمالنا لإفراطه فى تشاؤمه ، ولكنه عقل نافذ كالضوء الكشاف يجب أطراف السماء ، صريح صراحة الكاتب الذى قرر بحكمته ألا ينشر ما يكتب إلا بعد وفاته .

وكان فرانتشيسكو جوتشياردينى يستمتع منذ البداية بميزة مولده الأرستقراطى . فكان منذ طفولته يستمع إلى حديث المعلمين باللغة الإيطالية الصحيحة ، وقد تعلم أن يقبل الحياة كما هى بواقعية الرجل الواثق من مكانته وطمأنينة باله . وقد شغل عم والده منصب حامل شعار الجمهورية عدة مرار ؛ كما تولى جده معظم المناصب الرئيسية فى الحكومة واحداً بعد واحد ؛ كان والده يعرف اللغتين اللاتينية واليونانية وقد شغل هو الآخر عدة مناصب دبلوماسية . وكتب فرانتشيسكو يقول إن « أشيئته هو مستر مرسيلو فنتشينو أعظم الفلاسفة الأفلاطونيين فى العالم فى أيامه » (٦٨) ولم يحل هذا بين المؤرخ وبين أن يكون أرسطوطاليسى النزعة . ودرس القانون المدنى وعن وهو فى الثالثة والعشرين من عمره أستاذاً للقانون فى جامعة فلورنس . وكان كثير الأسفار ، ولم يفته حتى أن يلاحظ « المحترعات العجيبة التى لا يتصورها العقل » ، والتى ابتدعها هيرونيمس بوش Hieronymus Bosch فلاندرز (٦٩) وتزوج مارياسلفياتى Maria Salviati وهو فى السادسة والعشرين من عمره « لأن آل سلفياتى كانوا ، فضلاً عن ثرائهم العظيم ،

يفرقون غيرهم من الأسرى في النفوذ والسلطان ، وأنا أول من أشد الولع بهذه الأشياء» (٧٠) .

ولكنه مع ذلك كان شغوفاً بالتفوق يروض نفسه على تأليف الكتب العظيمة في فن الأدب . وقد كتب وهو في السادسة والعشرين من عمره تاريخ فلورنس Storia Fiorentina وهو من أعجب ثمار عصر نرى فيه العبقرية التي امتلأ إناؤها بتراثها المستعاد ، ولكنها تحررت من التقاليد ، تنساب حرة كاملة في عشرات المسائل ، وقد اقتصر هذا الكتاب على جزء قصير من تاريخ فلورنس ، وهو الجزء المحصور بين عامي ١٣٧٨ و ١٥٠٩ ، ولكنه عالج هذه الفترة بدقة في التفاصيل ، وبحث للمراجع ونقدها ، وتحليل نفاذ للعلل ، ونضوج ونزاهة في الحكم ، وقدرة على القصص الواضح في لغة إيطالية حلوة ؛ لم يرق إلى شيء منها تاريخ فلورنس Storie Fiorentine الذي كتبه ميكفلي بعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت في العقد السابع من حياته .

وأرسل جوتشاردينى في عام ١٥١٢ ، وهو لا يزال شاباً في الثلاثين ، سفيراً لفرديناند الكاثوليكي ، ثم عينه ليو العاشر وكلمنت السابع في أوقات متعاقبة متلاحقة حاكماً أرچيو إميليا ، ومودينا ، وبارما ، ثم حاكماً عاماً على إقليم رومانيا كله ، ثم قائداً عاماً لجميع الجيوش البابوية ، وعاد إلى فلورنس في عام ١٥٣٤ وأيد السندروده ميديتشى طوال الخمس السنوات التي فرض فيها هذا الوعد سلطته الإستبدادية على المدينة . وكانت له اليد الطولى في إقامة كوزيمو الأصغر دوقاً على فلورنس ، ولما ذهب ما كان يأمله من السيطرة على كوزيمو هذا انسحب إلى قصره الربيعي ليكتب في عام واحد المجلدات العشرة التي يتألف منها أعظم كتبه على الإطلاق وهو

تاريخ إيطاليا Storia d' Italia

وهذا الكتاب أقل من كتابه الأول في حلاوة أسلوبه وقوته . وكان جوتشيار ديني في هذه الأثناء قد درس كتابات الأدباء الإنسانيين وانزلق إلى الاهتمام بالشكل وجمال اللفظ ؛ ومع هذا كله فالأسلوب جزل يبشر بنثر جين Gibbon مضرب المثل في البلاغة . وعنوان الكتاب الفرعى وهو تاريخ المهروب يقصر موضوعه على المسائل العسكرية والسياسية ، ولكن ميدان البحث يتسع في الوقت نفسه حتى يشمل كل إيطاليا ، وكل أوروبا من حيث علاقتها بإيطاليا ؛ وهذا أول تاريخ ينظر إلى نظام أوروبا السياسى على أنه كل متصل . وجوتشيار ديني يكتب في الغالب عما شاهدته بنفسه ، وإذا ما قرب الكتاب من نهايته فإنه يكتب عن الحوادث التى اشترك فيها بنصيب ، وقد بذل جهودا كبيرة في جميع الوثائق ؛ وهو أكثر دقة وأجدر بالثقة من مكيفلى . وكان إذا ما رجع إلى العادة القديمة ، التى يرجع إليها معاصره الذى يفوقه شهرة ، عادة اختراع الخطب ليلقيها أشخاص قصته ، يقول بصراحة إن هذه الخطب ليست صحيحة إلا في جوهرها ، وينص على أن بعضها حقيقى ؛ وهو يستخدم هذه وتلك ليعرض على القارئ جانبى موضوع من موضوعات النقاش أو يكشف عن سياسة الدول الأوروبية في الدخل والخارج . وهذا التاريخ الضخم وتاريخ فلورنسى الباهر مجتمعين يرفعان جوتشيار ديني إلى مقام أعظم مؤرخ في القرن السادس عشر . وكما أن نابليون كان شديد الرغبة في أن يرى الفيلسوف جيته ، كذلك أبى شارل الخامس في بولونيا الأعيان وقواد الجيش جالسين في حجرة الانتظار بينما كان هو يتحدث مع جوتشيار ديني حديثاً طويلاً ، ويقول : « إن في وسعى أن أخلق عشرين نبيلاً في ساعة » ولكنى لا أستطيع إيجاد مؤرخ واحد في عشرين عاماً » (٧١) .

أما من حيث هو رجل من رجال الدنيا ، فإنه لم يكن ينظر بعين الجدل إلى ما يبذله الفلاسفة من جهود لمعرفة أسرار الكون . وما من شك في أنه لو رأى ما يشهده ميمونتسى من حماسة لتبسم ساخرأ منها . وكان يرى أن من

العبث أن يثور بيننا النزاع حول خوارق الطبيعة لأن هذه الخوارق بعيدة عن مداركنا . والأديان كلها في رأيه تقوم على افتراض صحة الأساطير ، ولكن هذا مما يمكن اغتفاره إذا كانت هذه الأديان تساعد على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي والتأديب الأخلاقي ؛ ذلك بأن الإنسان ، كما يراه جوتشياردينى ، أنانى يعمل لنفسه ، فاسد الأخلاق ، خارج على القانون ؛ ولهذا وجب أن توضع في سبيله ، في كل خطوة يخطوها ، عوائق من العادات ، والأخلاق ، والقوانين ، والقوة ؛ والدين في العادة أقل الوسائل الموصلة إلى هذه الغاية مدعاة للنفور . ولكن إذا ما فسد الدين حتى أصبح عاملاً على فساد الأخلاق بدلاً من أن يكون سبباً في صلاحها ، فإن المجتمع تسوء حاله لأن الدعامة الدينية التى يستند إليها قانونه الأخلاقى قد تقوضت من أساسها ، ويكتب جوتشياردينى في سجله السرى يقول :

ليس ثمة من يبغض الطمع ، والشره ، ومظاهر الإفراط فى التساوسة كما أبغضها أنا ، وليس ذلك لأن كل الشرور بغیضة فى ذاتها فحسب ، بل لأن . . . هذه الشرور يجب ألا يكون لها مكان عند رجال يفترض فيهم أنهم ذوو علاقة خاصة بالله وأقد كانت علاقتى ببعض البوابات مما جعلنى أرغب فى مثل عظمتهم مضحياً فى سبيل ذلك بمصالحى نفسها . ولولا هذا الاعتبار لأحببت مارتن لوثر كما أحب نفسى ؛ وليس ذلك لأنى أحب أن أكون حراً طليقاً من القيود التى تفرضها علينا المسيحية . . . بل لأنى أحب أن أرى هذا الحشد من الأوغاد (questa caterva di scelerate) محصورين فى نطاق الحدود الواجبة ، فإما أن يحيا حياة مبرأة من الإجرام أو حياة مجردة من السلطان (٧٢) .

ولكن أخلاقه مع ذلك قلما كانت خيراً من أخلاق التساوسة ؛ وكان القانون الذى وضعه لحياته هو أن يكيف نفسه فى كل ساعة حتى تتفق مع أقوى سلطة قائمة . أما مبادئه العامة فقد اخص بها كتبه ، وفيها هى أيضاً يستطيع أن يكون ساخراً سخرية مكثفلى :

« إن الإخلاص مجلبة للسرور ويكسب صاحبه الثناء ؛ أما الخداع فمجلبة للوم والكرهية ، بيد أن أولهما أكثر نفعاً للناس منه لصاحبه ؛ ولهذا فإن من واجبي أن أنفي على من كان أسلوب حياته متسماً بالصرافة والإخلاص ، فلا يلجأ إلى الخداع إلا في بعض الأشياء ذات الخطر العظيم ، وفي هذه الحالة يكون الخداع أكثر نجاحاً كلما كثرت محاولات الإنسان في أن يشتهر بين الناس بالإخلاص (٧٣) .

وكان ينفذ ببصره وراء دعاوى الأحزاب السياسية المختلفة في فلورنس ، ويرى أن كل حزب وإن نادى بالحرية إنما يسعى وراء السلطان :

« يبدو واضحاً لي أن الإنسان قد طبع على الرغبة في السيطرة على زملائه وإثبات تفوقه عليهم ، ولهذا فما أقل من يحبون الحرية حباً يحول بينهم وبين تحين الفرصة المناسبة لحكم الناس وفرض السلطان عليهم . انظر عن كثب إلى سلوك الناس الذين يقيمون في مدينة واحدة ، ولاحظ خلافاتهم وتقص أسبابها ، تجد أن هدفهم التسلط عليهم لا طلب الحرية لهم . ولهذا ترى أن أكبر الأهلين مقاماً لا يسعون إلى الحرية ، وإن كانوا لا ينفكون يلوكون هذا بلسانهم ، بل كل ما يضمرونه في سرائرهم هو ازدياد سلطانهم وتفوقهم على غيرهم . أما الحرية عندهم فهي خداع وتصنع يخفى وراءه شهوة التفوق في السلطان والشرف (٧٤) .

وكان يحتقر جمهورية سدرتي التجارية التي اعتادت أن تحمي حريتها بالذهب لا بالسلاح ، ولم يكن يؤمن بالشعب ولا بالديمقراطية .

« إن الحديث عن الشعب حديث عن الجنون ، لأن الشعب وحش جبل على الاضطراب والأخطاء ، ومعتقداته الباطلة بعيدة عن الحقيقة بعد أسبانيا عن الهند . . . وتدل التجارب على أن الأشياء قلما تحدث كما تتوقع الجماهير . . . وسبب ذلك أن النتائج . . . تعتمد في العادة على رغبة عدد قليل من الأفراد تختلف نواياهم وأهدافهم في جميع الأحوال تقريباً عن نوايا الكثرة وأهدافها (٧٥) .

وكان جوتشيار ديني مثلاً لآلاف في إيطاليا إبان عصر النهضة ، لا إيمان لهم في شيء ما على الإطلاق ، فقد واهب المسيحية ، وعرفوا أضواء السياسة ؛ ولم تكن لهم مثل عليا ، أو أحلام ؛ ألقوا بأنفسهم في أماكنهم لا حول لهم ولا طول بيدنا كانت الحرب والهمجية تكتسحان إيطاليا ؛ وكانوا شيوخاً مفكرين تحررت عقولهم وتحطمت آمالهم ، تبينوا بعد فوات الأوان أنه إذا ماتت الأساطير فلن تتحرر إلا القوة .

الفصل السادس

مكيثلى

١ - الدبلوماسى

بقى من هذه الطائفة رجل واحد يصعب علينا أن نضمه إلى صنف بعينه ، فقد كان دبلوماسياً ، ومؤرخاً ، وكاتباً مسرحياً ، وفيلسوفاً ، وأكبر مفكر ساخر فى زمانه ، ولكنه كان مع ذلك وطنياً متحمساً يتحرق رغبة فى تحقيق مثل أعلى نبيل ، أخفق فى كل ما أخذ على عاتقه أن يقوم به من الأعمال ، ولكنه طبع التاريخ بطابع يكاد يكون أشد عمقاً مما طبعه به إنسان آخر فى ذلك العصر .

كان نقولو مكيثلى ابن أحد المحامين فى فلورنس - وكان هذا المحامى رجلاً متوسط الثراء ، يشغل منصباً صغيراً فى الحكومة ، ويمتلك بيتاً ريفياً صغيراً فى سان كاستشيانو San Casciano على مسيرة عشرة أميال من المدينة . وتلقى الغلام التعليم الأدبى المعتاد ، وتعلم أن يقرأ اللغة اللاتينية بسهولة ، ولكنه لم يتعلم اللغة اليونانية . وراقه التاريخ الرومانى ، وأولع بليونى ؛ ويكاد يجد لكل نظام سياسى ، وكل حادثة فى أيامه شبيهاً فى تاريخ رومة يوضح ذلك النظام وتلك الحادثة . وبدأ يدرس القانون ، ولكن يبدو أنه لم يتم هذه الدراسة ؛ وقلما كان يعنى بفن النهضة ، ولم يظهر شيئاً من الاهتمام حين كشفت أمريكا ، ولعله كان يشعر بأن كل ما حدث بعد هذا الكشف أن مسرح السياسة قد اتسع ، أما المسرحية فستبقى كما كانت وسيظل أشخاصها دون تغيير . وكان شغله الشاغل هو السياسة ، فن الحصول على النفوذ ، ولوحة الشطرنج التى تنتقل عليها قطع القوة والسلطان . وعين فى عام ١٤٩٨

وهو في التاسعة والعشرين من عمره أميناً للديتشى دلا جورا Dieci della Guerra - مجلس الحرب المكون من عشرة - وظل في هذا المنصب أربعة عشر عاماً .

وكان هذا المنصب في بادئ الأمر من المناصب المتواضعة - عمله جمع محاضر الجلسات ، والسجلات ، وتلخيص التقارير ، وكتابة الرسائل ؛ ولكنه كان يعمل في أداة الحكم ، ويستطيع مراقبة سياسة أوروبا من نقطة الملاحظة الداخلية ، وكان في وسعه أن يحاول التنبؤ بالتطورات المقبلة بتطبيق معلوماته التاريخية . . وأحست روحه المتوثبة ، العصبية ، الطموحة ، بأن الوقت دون غيره هو الذى يحتاجه لكى يرقى إلى القمة ، ويسخر قوى الدولة العتيقة ضد دوق ميلان ، ومجلس شيوخ البندقية ، وملك فرنسا ، وملك نابلى ، والبابا ، والإمبراطور . وما لبث أن أرسل في بعثة إلى كترينا اسفوردسا Caterina Sforza كونهت إمولاً وفورلى (١٤٩٨) . وأثبتت كترينا أنها أشد دهاء من أن تقع في حباله ، فعاد صفر اليدين بعد أن لاقى جزاءه . وجُرب مرة أخرى بعد عامين ، وصحبه في هذه التجربة فرانتشيسكو دلا كاسا في بعثة إلى لويس الثانى عشر ملك فرنسا . ومرض دلا كاسا ، وكان على مكيفلى أن يرأس البعثة ؛ فتعلم اللغة الفرنسية ، وتنقل مع الحاشية من قصر إلى قصر ، وبعث إلى مجلس السيادة من الأنباء اليقظة ، والتحليلات الدقيقة ، ما جعل أصدقاءه في فلورنس يشنون عليه ويقولون إنه أصبح دبلوماسياً ضليعاً .

وكانت نقطة الانقلاب في تطور ذهنه هي البعثة التي عين فيها مساعداً للأستقف سدرينى وسافرت إلى سيزارى بورجيا في أرينو (١٥٠٢) . ولما استدعى إلى فلورنس ليلقى بياناً عنها بنفسه ، احتفل بمنزلته الراقية التي باعها في العالم بأن اتخذ له زوجة . وأرسل مرة أخرى إلى سيزارى في شهر أكتوبر ، فالتقى به في إمولاً ، ووصل إلى بنجاليا Benigallia في الوقت الذى

استطاع أن يرى فيه سعادة بورجيا بعد أن أفلح في اقتناص الذين ائتمروا به ، أو خنقهم ، أو سجنهم . وكانت هذه حوادث هزت مشاعر إيطاليا بأجمعها ؛ أما أثرها في مكيفلي بعد أن التقى بالطاغية الباهر وجهاً لوجه ، فقد كانت دروساً في الفلسفة . ذلك أن رجل الأفكار وجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل الأعمال فكرمه هذا وعظمه ، وتحرق قلب السياسي الشاب حسداً حين أدرك المسافة التي لا بد له أن يقطعها من التفكير التحليلي النظري إلى العمل الرائع المحطم . فهاهو ذا رجل يصغره بست سنين ، قد قضى في سنين اثنتين على أكثر من عشرة طغاة مستبدين ، وأصدر الأوامر إلى أكثر من عشر مدن ، وأثبت أنه الكوكب الوضاء في سماء زمانه ؛ وما أضعف ما بدت الألفاظ أمام هذا الشاب الذي لم يكن ينطق منها إلا بالقليل ، وكان ينطق بهذا القليل في ازدياد ! وأصبح سيزاري بورجيا من تلك الساعة بطل فلسفة مكيفلي ، كما أصبح بسمارك فيما بعد بطل فلسفة نتشة . فقد وجد في هذا الرجل الذي تجسدت فيه إرادة القوة والسلطان فلسفة أخلاقية فوق الخير والشر ، ونموذجاً للإنسان الأسمر .

ولما عاد مكيفلي إلى فلورنس في عام ١٥٠٣ ، أدرك أن بعض رجال الحكومة يظنون أن بورجيا الجريء المتهور قد غلبه على أمره فبدل عقليته غير ما كانت . ولكن جهوده التي بذلها لتحقيق مصالح مدينته أعادت إليه احترام سديرني حامل شعار المدينة ومجلس العشرة الحربي . وشهد في عام ١٥٠٧ انتصار مبدئ من مبادئه الأساسية . فقد كان من زمن بعيد يقول إنه ما من دولة تحترم نفسها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى جنود مرتزقين ، وذلك لأنها لا تستطيع الركون إليهم في الأزمات ، ولأن في مقلور العدو المسلح بالقدر الكافي من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم . ولهذا يرى مكيفلي أنه يجب إنشاء قوة حرس وطني من أبناء البلاد ، والأفضل أن تكون هذه القوة مؤلفة من الفلاحين الأشداء الذين ألفوا المشاق وعاشوا

في الهواء الطلق . ويجب أن تكون هذه القوة على الدوام حسنة التجهيز والتدريب ، كما يجب أن تكون هي آخر خط للدفاع القوي الثابت عن الجمهورية . وقبلت الحكومة هذا المشروع بعد تردد طويل ، وعهدت إلى مكيفلي أن ينفذه . فلما كان عام ١٥٠٨ قاد حرسه الوطني إلى حصار پيزا ، حيث أظهر براعة فائقة ، وسلمت له پيزا ، وعاد مكيفلي إلى فلورنس وقد بلغ ذروة مجده .

وأرسل في بعثة أخرى إلى فرنسا (١٥١٠) ، اجتاز فيها سويسرا ، وأثار حماسه الاستقلال المسلح للدولة سويسرا الاتحادية ، واتخذها مثلاً أعلى يريد أن يحققه لإيطاليا . ولما عاد من فرنسا أدرك المشكلة التي تواجهها بلاده : كيف تستطيع إماراتها المتفرقة أن تتحد لتدافع عن إيطاليا إذا ما قررت دولة متحدة مثل فرنسا أن تستولى على شبه الجزيرة بأجمعها .

وجاءت التجربة الكبرى لحرسه الوطني قبل الأوان . ذلك أن يولبوس الثاني قد استشاط غضباً من فلورنس لأنها رفضت الانضمام إليه في طرد الفرنسيين من إيطاليا ، فأمر جيوش الحلف المقدس في عام ١٥١٢ أن تسقط حكومة الجمهورية وتعيد آل ميديتشي إلى العرش . وهزم حرس مكيفلي الوطني الذي عهد إليه الوقوف في خط الدفاع الفلورنسي عند براتو Prato وولى رجاله الأدبار أمام جنود الحلف المدربين . واستولى جنود الحلف على فلورنس ، وانتصر آل ميديتشي ، وفقد مكيفلي سمعته ومنصبه الحكومي ، وبذل كل ما في وسعه لاسترضاء المنتصرين ؛ وكان يسعه أن ينجح ، لولا أن شابين متحمسين دبرا مؤامرة لإعادة الجمهورية ، فاكشف أمرهما ، ووجد بين أوراقها ثبت يحتوي أسماء أشخاص يعتمدان على تأييدهم ، ومن بينها اسم مكيفلي ؛ فألقى القبض عليه ، وعذب أربع دورات على العذراء ؛ ولكنهم لم يجدوا دليلاً على اشتراكه في المؤامرة فأطلق صراحته . وخشى مكيفلي أن يقبض عليه مرة أخرى ، فانتقل هو

، وزوجته وأبنائه الأربعة إلى بيت أسرته في سان كاستيانيو ، حيث قضى
السنين الخمس عشرة الباقية من عمره ما عدا السنة الأخيرة منها ، يعاني
الفقر ويعمل نفسه بالآمال ، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط ، لأن هذه
السنين العجاف هي التي ألف فيها الكتب التي هزت مشاعر العالم كله .

٢ - المؤلف والرجل

وكانت هذه عزلة موحشة لرجل عاش في خضم بحر السياسة الفلورنسية .
وكان أحياناً يذهب راكباً إلى فلورنس ليتحدث مع أصدقائه القدامى ،
ويتحسس ما عسى أن يكون هناك من فرص للعودة إلى المناصب الحكومية .
وكتب عدة مرار إلى آل ميديتشي في هذا الموضوع ، ولكنه لم يتلق منهم
جواباً ، وقد وصف حياته في رسالة ذاتعة الصيت إلى صديقه فتورى
Vittori سفير فلورنس في رومة ، وأشار فيها إلى سبب تأليف كتاب
«الأمبر فقال :

لقد ظلمت منذ حلت بي الكارثة الأخيرة أحيا حياة هادئة في الريف ؛
فأصبح في مطلع الشمس وأسير إلى إحدى الغابات حيث أقضى بضع ساعات
أراجع فيها عمل الأمس ؛ ثم أمضى بعض الوقت مع قاطعي الأشجار وأجد
لديهم على الدوام متاعب يفضون بها إلى سواء أكانت متاعبهم هم أو متاعب
جيرانهم . فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع ماء ثم إلى حظيرتي التي أصطاد
منها الطيور ، ونحت لأبطي كتاب دانتى ، أو بترارك أو أحد الشعراء
الذين هم أقل منهما شأنًا مثل تيبيلس Tibellus أو أوفيد . وأقرأ في هذه
الكتب عن عواطفهم الغرامية وقصص حبهم ، فتذكرني بتاريخى حتى أنا ؛ ويمر
الوقت وأنا مبتهج مسرور بهذه الأفكار . ثم آوى بعدئذ إلى الفندق القائم
على جانب الطريق ، وأتحدث إلى المارة ، وأسألهن عن أخبار الأماكن التي
أقبلوا منها ، وأستمع منهم إلى ما يحدثونني عنه وهو كثير ، وألاحظ مختلف

الأذواق والأوهام المستكنة في عقول بني الإنسان . وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فابتلع في صحبة من معي ما عسى أن أجده في هذا المكان الصغير من طعام غير ذي شأن يني به ما ورثته عن أبوي من مال قليل . وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجد في العادة صاحبه ، وقصداً ، وطحناً ، وانين من صانعي الطوب ، فأختلط مع هؤلاء الأقوام الغلاظ طول النهار ألعب معهم النرد وغيره ، وتثور بيننا آلاف المنازعات ، وتبادل كثيراً من السباب ، ونتشاحن على أتفه النقود حتى نسمع أصواتنا في بلدة سان كاستيشيانو . ويؤدي انغماسي في هذا الانحطاط إلى ضعف قواي العقلية ، فأصعب غضبي على القدر وبلواه

وأعود إلى داري في المساء ، وآوي إلى حجرة مكتبي ؛ وأخلع عند بابها ملابسى الريفية الملطخة بالطين والأقدار ، وأرتدى ثياب رجال البلاط ؛ حتى إذا لبست ما يليق بي من الثياب دخلت الأبناء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بي أحسن الترحيب ، ويطعمونني الطعام الوحيد الذى أحبه وأرتضيه ؛ والذى ولدت له ، ولا أستحي من التحدث إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم ، وتصل بهم إنسانيتهم إلى أن يجيبوا عن أسئلتى ، وأقضى على هذا النحو أربع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب ، ولا أعود أخشى الفقر أو أربح الموت ، لأن كيافى كله يكون مستغرقاً فيهم . وإذا كان دانتى يقول إنه لا وجود لعلم دون أن يحتفظ الإنسان بما يستمع ، فقد سجلت ما حصلت عليه من حديثي مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيباً سميت في الإمارة غرقت فيه إلى أبعد عمق أستطيعه من التفكير هذا الموضوع ، وبحث فيه طبيعة الإمارة ، وعدد أنواعها ، وطريق الوصول إليها ، والاحتفاظ بها ، وسبب ضياعها ؛ فإذا كنت تعنى بشيء من عبثي ، فإنك لن تجد في هذا ما يسووك . ويجب أن يرحب به على

الأخص كل أمير حديث العهد بالإمارة . ومن أجل هذا أهديه إلى فخامة
جوليانو . . . (في ١٠ ديسمبر سنة ١٥١٣) (٧٦) .

ونرجح أن مكيفلي قد اختصر القصة بقوله هذا . والظاهر أنه بدأ
بوضع كتابه المسمى **أُمَاديث عن العشرة الكتب الأولى للبغى** ، وأنه
لم يتم شروحه للثلاثة الأولى منها . وقد أهدي هذه الأحاديث *Discorsi*
إلى دسانوبي بونديلمنتي *Zanobi Bunodelmonti* وكوزيمو رتشيلي
Cosimo Rucelli وقال : « أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لك . لأنها
تشمل كل ما تعلمته بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة . ويشير إلى أن آداب
القداي وقانونهم وطبهم قد بعثت من جديد ليستنير بها المحدثون في كتاباتهم
وأعمالهم ؛ وهو يقترح كذلك بعث مبادئ الحكمة القديمة ، وتطبيقها على
السياسة المعاصرة . وهو لا يستمد فلسفته السياسية من التاريخ ، ولكنه يختار
من التاريخ حوادث تؤيد النتائج التي قادته إليها تجاربه وأفكاره . ويأخذ
أمثله كلها تقريباً من لبقي ، وتؤدي به سرعته أحياناً إلى إقامة حججه على
الأقاصيص ، ويستعين في بعض الأحيان بمقتبسات من بوليبيوس *Polybius* .

ولما سار بعض الخطي في أُمَاديث أدرك أنها ستطول أكثر مما يجب ،
وأنها لن تتم إلا بعد زمن طويل ، فلانفد في أن تكون هدية عملية لأحد
الحاكمين من آل ميديتشي . لهذا قطع عمله ليكتب خلاصة تضم ما وصل
إليه من النتائج ؛ لأن هذه تتاح لها فرصة لقراءتها أفضل من البحث المطول ،
وتكون أعود عليه بصداقة الأسرة القوية التي تحكم وقتئذ (١٥١٣) نصف .

إيطاليا . وهكذا وضع كتاب **الأصول** *Il principe* (وهو العنوان الذي
اختاره له) في عدد قليل من شهور هذا العام . وكان ينوى إهداءه إلى
جوليانو دي ميديتشي ، الذي كان يحكم فلورنس في ذلك الوقت ،
ولكن بونديلمنتي (١٥١٦) ، قبل أن يصمم مكيفلي على إرسال الكتاب
إليه ، ولهذا غير صيغة الإهداء وبعث به إلى لورناسو ، دوق أربينو ، الذي

لم يرسل إليه ينثبه بوصوله . وتداولت الأيدى المخطوط ، وكتبت منه عدة نسخ خلسة ، ولم يطبع إلا في عام ١٥٣٢ بعد خمس سنين من موت المؤلف ، وأصبح من ذلك الحين من أكثر ما يعاد طبعه من الكتب في أى لغة من اللغات .

وليس في مقدورنا أن نضيف إلى ما وصف به نفسه إلا صورة له لا يعرف مصورها محفوظة في معرض أفزى . ويظهر فيها شخصاً نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، غائر الخدين ، حاد العينين أسودهما ، رقيق الشفتين مطبوقهما ، تم معارفه عن رجل تفكير أكثر مما هو رجل عمل ، له من الذكاء الحاد أكثر مما له من الإرادة الطيبة والوداعة . ولم يكن في مقدوره أن يصبح دبلوماسياً صالحاً ، لأنه لم يكن بسعه أن يخفى دهائه ، ولا أن يكون حاكماً قديراً لأنه كان مسرفاً في عنفه ، يقبض على الأفكار بتعصب وعناد ، كما يقبض في صورته على قفازيه اللذين يؤكدان مرتبته نصف الأرستقراطية ، وهذا الرجل الذى كثيراً ما كتب كما يكتب الفيلسوف الكلبى ، والذى كثيراً ما تنقلب شفتاه انقلاب الساخر المتهمك ، والذى اعتاد الكذب حتى جعل الناس يظنون أنه يكذب حين يقول الحق (٧٧) ، هذا الرجل كان في خبيثة نفسه وطنياً شديداً الحماسة ، يرى أن مصلحة الشعب هى القانون الأعلى ، ويخضع كل القوانين الأخلاقية لغاية واحدة هى توحيد إيطاليا وإنقاذها مما تعانيه .

وكان يتصف بكثير من الصفات غير المحبوبة ، منها أنه لما أقبلت الدنيا على بورجيا اتخذها مثلاً أعلى ، ولما انصرفت عنه سار وراء الجماهير وندد « بالقيصر » (*) الساقط ووصفه بأنه مجرم و« عاص للمسيح » (٧٨) . ولما طرد آل ميليتشى عنهم بأفصح عبارة ، فلما عادوا إلى الحكم لعق أحذيتهم ملتسماً منهم منصباً . ولم يكن يزور المواخير قبل الزواج وبعده فحسب ،

بل كان يبعث إلى أصدقائه بأوصاف مفصلة لمغامراته فيها (٧٩) ، وإن كثيراً من رسائله لتبدو فيها الغلظة والوقاحة واضحتين وضوحاً لم يجرؤ معه كاتب سيرته والمعجب به ، الذى أطال في الترجمة له ، على نشرهما ، ولما قرب مكيفلى من سن الخمسين كتب يقول : « إن شباك كيوبد لا تزال تقنصنى ، والطرق الوعرة لا تستنفد صبرى ، والليالى السوداء لا توهن شجاعى . . . إن عقلى كله لمتجه للحب اتجهاً أحمد عليه فينوس » (٨٠) . تلك أشياء فى وسعنا أن نغفرها له . لأن الرجل لم يخلق لكى يقتصر على زوجة واحدة ؛ ولكننا لانستطيع أن نغفر له بمثل هذه السهولة عدم وجود كلمة حنان واحدة موجهة إلى زوجته فى كل ما بقى لدينا من رسائله وهو كثير ؛ وإن كان هذا مما يتفق مع سنة تلك الأيام .

ووجه قلمه البليغ فى هذه الأثناء إلى أنواع من التأليف متباينة ، وبز الأساتذة فى كل نوع منها . وكان منها رسالة فى فن الحرب *L'arte della guerra* نشرها فى عام ١٥٢٠ ، وأعلن فيها من برجه العاجى للدول والقواد شرائع السلطة العسكرية والنجاح فقال إن الأمة التى تفقد الفضائل العسكرية أمة هالكة لا محالة . والجيش لا يحتاج إلى الذهب بل إلى الرجال ؛ لأن « الذهب وحده لا يأتى بالجند الصالحين على الدوام ، ولكن الجند الصالحين يأتون بالذهب » (٨١) ، والذهب ينساب إلى خزائن الأمة القوية ، ولكن القوة تفارق الأمة الغنية لأن الثراء يعمل على الراحة والاضمحلال ؛ ولهذا يجب أن يظل الجيش مشغولاً على الدوام ، فحرب صغيرة تشب من حين إلى حين تبقى العضلات العسكرية صالحة والجهاز الحربى صالحاً متأهباً . وسلاح الترسان جميل إلا إذا واجهته الحراب القوية ؛ ويجب أن يعد هذا السلاح عصب الجيش وأساسه (٨٢) . والجنود المرتزة عاريجل لىطاليا ، ودليل على تراخيها وضعفها ، وسبب فى خرابها ، ومن واجب كل دولة أن يكون لها حرس وطنى من أهلها مؤلف من رجال يخاربون دفاعاً عن وطنهم وأرضهم .

وأراد مكيفلى أن يجرب حظه فى القصص فكتب قصة تعد من أحب الروايات للشعب فى إيطاليا ، وهى قصة بيلفاجور أرتشديافولو Belfagor arcidiavolo ، التى تفيض بالفكاهة والهجاء يصهبها على الزواج . ثم تحول بعدئذ إلى كتابة المسرحيات ، فألف أهم مسلاة ظهرت على مسرح النهضة الإيטالى وهى مسرحية مندراجولا Mandragola . وتضرب مقدمة هذه الرواية نغمة جديدة إذ يجامل فيها النقاد بحاملة لا عهد لهم بها من قبل :

« إذا شاء أحد أن يبعث الخوف فى قلب المؤلف بالقدح فيه ، فإنى أحذره بأن المؤلف أيضاً يعرف كيف يقدح ، بل إنه بارع فى هذا الفن ، وأنه لا يحترم أحداً فى إيطاليا وإن كان ينحنى ويتذلل لمن هم أحسن لباساً منه (٨٣) » .

والمسرحية تكشف عن أخلاق عصر النهضة كشفاً يروع الإنسان ويذهله . والمكان الذى تقع فيه حوادثها هو مدينة فلورنس ، ومضمونها أن كليماكو Callimaco يسمع لإنساناً يعرفه يمتدح جمال لكريديسيا زوجة نتشياس فيقرر أنه لا بد من أن يغويها ، وإن لم يكن قد رآها من قبل ، وإن لم يكن يتصد بإغوائها إلا أن ينام هادئاً مستريح البال . ويقلقه أن لكريديسيا تشتهر بتواضعها بقدر ما تشتهر بجهاها ، ولكن أمله يقوى حين يقال له إن نتشياس يألم من أنها لا تحمل . ويرشو كليماكو صديقاً له لكى يقدمه لنتشياس على أنه طيب ، ويدعى أنه سيخلط له مزيجاً يجعل فى مقبور أية امرأة أن تحمل ، ولكنه يعرف مع الأسف الشديد أن أى رجل يضاجعها بعد أن تتناول سيموت بعد قليل ، ويعرض عليه أن يقوم بهذه المغامرة المهلكة ، ويرضى نتشياس أن يحل هو محله متبعاً فى ذلك طيبة الخلق التقليدية التى يتصف به أشخاص القصص لمبتكرهم . غير أن لكريديسيا تناضل عن عفتها ، وتردد فى أن ترتكب جريمتين فى ليلة واحدة هما جريمة الزنا والقتل لكن الرجاء لن يخيب كله ، ذلك أن أمها ، فى حرصها الشديد على أن يكون

لايتها خلف ، ترشو راهباً فينصحها أثناء اعترافها بأن تنفذ الخطة ؛
وتخضع لكريديسيا ، وتشرب الدواء ، وتنام مع كليماكو ، وتحمل . وتختتم
القصة خاتمة سعيدة لكل أشخاصها : فالراهب يطهر لكريديسيا ، ويتزوج
نتشياس لأنه أصبح له ولد مشكوك في بنوته ، ويستطيع كليماكو أن ينام .
والمرحبة ممتازة في بنائها ، بديعة في حوارها ، قوية في هجائها . وليس
الذي يثير دهشتنا فيها هو ما موضوع الإغواء ، الذي طالما رددته المسالى القديمة
حتى مللناه ، وليس هو ما تحتويه من تفسير الحب تفسيراً جسدياً شهوانياً ،
بل هو المحور الذي تدور عليه وهو استبعاد الراهب لأن يحلل الزنا
نظير خمسة وعشرين دوقه ؛ إن المسرحية قد مثلت في عام ١٥٢٠ بنجاح
عظيم أمام ليو العاشر . وقد بلغ من سرور البابا بها أن طلب إلى الكردينال
جويليو ده ميديتشي أن يعهد إلى مكيشلي بعمل من نوع التأليف فاقترح
جويليو أن يكون هذا العمل هو كتابة تاريخ فلورنس وعرض عليه في
نظير ذلك ثلثمائة دوقه (٣٠,٧٥٠ دولاراً) .

وكتب التاريخ فعلاً (١٥٢٠ - ١٥٢٥) وكاد يحدث في فن كتابة
التاريخ ثورة لا تتل حدة عن الثورة التي أحدثها في الفلسفة السياسية كتاب
الأمبر . ولسنا ننكر أنه كانت في الكتاب عيوب أساسية خطيرة : ذلك
أن السرعة التي صدر بها جعلته عديم الدقة ، وأنه نقل فقرات كبيرة عن
المؤرخين السابقين ، وأن النزاع بين الأحزاب كان يلقى فيه من الاهتمام
أكثر مما تلقاه الأنظمة ، وأنه أغفل التاريخ الثقافي إغفالاً تاماً ، كما أغفله
المؤرخون كلهم تقريباً قبل أيام فلتر . ولكنه كان أول تاريخ كبير كتب
باللغة الإيطالية ؛ وكانت لغته الإيطالية هذه واضحة ، جزلة ، خالية من
التعقيد ؛ وقد رفض الخرافات التي كانت فلورنس تحملها منشأها ؛
وتخلى عن الطريقة المألوفة القديمة وهي تأريخ الحوادث سنة فسنة ، وعمد
بدلاً منها إلى الرواية المنسجمة المتصلة المنطقية ؛ ولم يكن يعالج الحوادث

فحسب . بل كان يبحث في أسبابها ونتائجها ، وأفادني على فوضى السياسة الفلورنسية تحليلاً للمنازعات القائمة بين الأسر ، والطبقات ، والمصالح يكشف عنها ويوضحها . وقد جعل محور القصة موضوعين يوحدان بين أجزائها : أولهما أن البابوات قد أبقوا لإيطاليا مشتتة منقسمة على نفسها لكي يحافظوا على استقلال البابوية في الشؤون الزمنية ، وثانيهما أن ما حدث في إيطاليا من تقدم عظيم كان في عهد الأمراء أمثال ثيودريك ، وكوزيمو ، ولورندسو . وما بدل على شجاعة المؤلف ، وكرم البابا من الناحيتين العقلية والمالية أن يكتب كتاباً بهذه النزعة رجل يسعى للحصول على المال من البابا ، وأن يرضى البابا كلمنت السابع بأن يهدي إليه الكتاب دون أن يشكو مما جاء فيه .

وشغل تاريخ فلورنسي مكثلي خمس سنين ، ولكنه لم يحقق ما كانت تتوق إليه نفسه وهو عودته إلى السباحة في مجرى الساسة الموحد . ولما أن خسر فرانسيس الأول كل شيء عدا شرفه وحياته في بافيا (١٥٢٥) ، وألقى كلمنت السابع نفسه عاجزاً ضعيفاً أمام شارل الخامس ، بعث مكثلي برسائل إلى البابا وإلى چوتشياردينى يوضح ما يستطيع عمله لصدد الفتح الأسباني — الألماني الذي كان يتهدد لإيطاليا ، ولعل اقتراحه بأن يمد البابا چيوفاني دلي باندی نيرى Giovanni delle Bande Nere بالمال ، والسلطان ، والسلاح كان من شأنه أن يوجب المصير المحتوم إلى حين . ولما مات چيوفاني ، وزحفت الجحافل الألمانية على فلورنس الخليفة الغنية لفرنسا والحزبة لمن ينهاها ، أسرع مكثلي إلى المدينة ، واستجاب إلى ما طلبه كلمنت فوضع تقريراً عن الطريقة التي يمكن بها إعادة أسوارها لجعلها صالحة للدفاع عنها . وفي الثامن عشر من مارس سنة ١٥٢٦ اختارته الحكومة الميديتشية لرأس لجنة من خمسة « أمناء على الأسوار » . ليقوموا بهذه المهمة . غير أن الألمان مروا بفلورنس واتجهوا إلى رومة . ولما نهبت هذه المدينة ، وأسر الغرغاء كلمنت ، طرد الحزب الجمهوري في فلورنس آل ميديتشى مرة أخرى .

من المدينة وأعادوا إليها الحكم الجمهورى . (١٦ مايو سنة ١٥٢٧) .
وابتهج مكيفلى لهذا العمل وطالب بمنصبه القديم منصب أمين مجلس العشرة
الحربى ، وكان يرجو أن يعود لإثيه ؛ لكنه لم يجب إلى طلبه (١٠ يونية
سنة ١٥٢٧) ؛ ذلك أن صلابة آل ميديتشى قد أفقدته عطف
الجمهوريين ومعاونتهم .

ولم تطل حياته بعد هذه الصدمة ؛ فقد خبت فيه جذوة الحياة والأمل
وتركته جسداً بلا روح . وانتابه المرض ، وكان يشكو من تقلصات شديدة
فى المعدة ؛ واجتمع حول فراشه زوجته ، وأبنائه ، وأصدقائه ؛ واعترف
أمام قسيس ومات ولما يمض على رفض طلبه غير اثنى عشر يوماً ، وخلف
أسرته فى الدرك الأسفل من الفاقة ، وترك لإيطاليا التى كان يعمل جاهداً
لتوحيدها خراباً ياباً . ودفن فى كنيسة الصليب المقدس ، حيث أقيم له نصب
جميل نقشت عليه هذه العبارة : « ليس فى مقدور أى مديح أن يوفى هذا
الاسم العظيم حقه » - وهو قول يشهد بأن إيطاليا التى توحدت آخر الأمر
قد تجاوزت عن سيئاته وذكرت له أحلامه .

٣ - الفيلسوف

ولنبهت الآن الفلاسفة « المكيفلية » بأكثر ما نستطيع من الزاهة فنقول
إننا لا نجد عند غير مكيفلى مثل ما نجده عنده من الاستقلال فى الرأى
ومن التفكير الجريء المجرد من الخوف فى عالم الأخلاق والسياسة ، وإن من
حق مكيفلى أن يدعى أنه قد شق طرقاً جديدة فى بحار لم يكدها بطرقها
أحد قباه .

وفلسفة مكيفلى تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة ، ليس فيها شىء من
فلسفة ما بعد الطبيعة ، ولا اللاهوت ، ولا الإيمان أو الكفر ، ولا بحث
فى الجبرية أو القدرية ؛ وحتى الفلسفة الأخلاقية نفسها لا تلبث أن تنحى

جانباً. لأنها بوصفها فلسفة تابعة للسياسة ، وتكاد تكون أداة لها . وهو يفهم السياسة على أنها الفن العالى الذى يراد به إيجاد دولة ، أو الاستيلاء عليها ، أو حمايتها ، أو تقويتها ؛ وهو مهتم بالدولة لا بالإنسانية عامة ؛ ولا يرى فى الأفراد إلا أنهم أعضاء فى دولة ، إلا إذا نظر إليهم من حيث أنهم يساعدون على تقرير مصيرها ؛ وهو لا يعنى قط باستعراض الأفراد على مسرح الزمان . وهو يريد أن يعرف لم تنشأ الدول وتسقط ، وكيف يمكن تأخير اضملاها المحرم إلى أبعد ما يستطيع من الوقت .

وهو يرى أن فلسفة التاريخ وعلم الحكم أمكن وجودهما لأن الطبيعة البشرية لا تتبدل أبداً :

« يقول الحكماء ، ولهم الحق فيما يقولون ، إن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل فعليه أن يرجع إلى الماضى ؛ لأن الأحداث البشرية تشابه دائماً أبداً أحداث الأزمنة الماضية . ومنشأ هذا التشابه أنها ثمرة أعمال خلائق كانوا ، ولا يزالون ؛ وسيكونون على الدوام ، تحركهم نفس العواطف والانفعالات ، ولهذا فإن هذه العواطف والانفعالات لا بد أن تكون النتائج نفسها (٨٤) . . . وأنا أعتقد أن العالم كان هو يعينه على الدوام ، وأنه كان يحتوى دائماً كل ما يحتويه الآن من خير وشر ، وإن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات » (٨٥) .

وظاهرتا نشأة الحضارات والدول واضمحلالها من أكثر الظواهر المتابعة المنتظمة دلالة فى التاريخ . وهنا يواجه مكيفلى مشكلة معقدة غاية التعقيد بقانون بسيط غاية البساطة فيقول : « الشجاعة تنتج السلم ؛ والسلم تنتج الراحة ، والراحة تستتبع الفوضى ، والفوضى تؤدى إلى الخراب . ومن هذه الفوضى ينشأ النظام ، والنظام يؤدى إلى الشجاعة (virtu) ، ومن هذه ينال المجد والحظ الحسن . ومن أجل هذا قال الحكماء إن عهد السمو الأدبى يأتى فى أعقاب التفوق الحربى ؛ وإن . . . المحاربين العظام ينشئون قبل

الفلاسفة» (٨٦) . وقد تكون هناك أسباب أخرى لنشأة الأمم واضمحلالها غير الأسباب العامة وهى عمل القادة والزعماء من الأفراد وتأثيرهم ؛ من ذلك أن مطامع الحاكم المتطرفة ، التى نعيمه فلا يرى أن موارده لا تكفى لتحتيق أغراضه ، قد تكون سبباً فى خراب دولته إذ تجرّها إلى الاشتباك فى الحرب مع دولة أعظم منها قوة . وللمحظ والمصادفات كذلك أثر فى قيام الدول وسقوطها . « فالحظ هو الذى يتحكم فى نصف أعمالنا ، ولكنه يترك لنا مع ذلك القدرة على توجيه النصف الآخر » (٨٧) . وكلما كثر نصيب الإنسان من الشجاعة قل خضوعه لتقلبات الحظ واستسلامه له .

وتاريخ دولة ما يتبع قوانين عامة ، يحددها ما تطوى عليه طبيعة الناس من خبث وشر . والناس كلهم بطبيعتهم مقتنون ، مخادعون ، مخاصمون ، قساة ، فاسدون .

« ومن أراد أن ينشئ دولة ، ويضع لها قوانين ، فليفترض من بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار ، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل ؛ فإذا ما ظلت ميولهم الحبيثة مخفية إلى حين ، فيجب أن يعزى اختفاؤها هذا إلى سبب غير معروف ؛ ومن واجبنا أن نفترض أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها ؛ ولكن الزمن . . . لن يعجزه الكشف عنها . . . والرغبة فى الاقتناء من الغرائز الفطرية العامة فى واقع الأمر ، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون ؛ ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ولا يلامون عليه » (٨٨) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل الناس أنصاراً - أى قادرين على أن يعيشوا بنظام فى مجتمع - هى أن يطبق عليهم القسر ، والخداع ، والاعتیاد واحداً بعد واحد . ومن هذا تنشأ الدولة : تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة ، ووضع القواعد والقوانين ، وتكوين العادات تدريجاً للاحتفاظ بالزعامة والنظام فى الجماعة البشرية . وكلما كانت

الدولة أكثر نماء . قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها ؛ واكتفى بدلا منها بالتعليم وغرس العادات ، لأن الناس يكونون في يدى المشرع أو الحاكم التقدير أشبه بالصلصال اللين في يدى المثال .

والدين خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر الخضوع إلى القانون والنظام . ويكتب مكيفلى الذى يسميه باولو جيوفيو Paolo Giovio

أحد المعجبين به الظفر الرجاء^(٨٩) ، عن الدين حماسة بالغة يقول :

« لم تر الآلهة أن الشرائع التى وضعها رميولوس كافية لرومة ، وإن كان هذا الأمير هو الذى أنشأها . . . ، ولهذا أوحى إلى مجلس الشيوخ الرومانى أن يختار نوما پمپيليوس Numa Pompilius خليفة له ووجد نوما شعباً متوحشاً أشد التوحش ، أراد أن يغرس فيه عن طريق فنون السلم عادة الطاعة المدنية ، فلبجأ إلى الدين الذى رآه أقوى مؤيد للمجتمع المدنى وألزمه ، فأقامه على أسس بلغ من قوتها أن مضت قرون طوال دون أن يوجد فى مكان ما خوف من الآلهة أكبر مما كان فى هذه الجمهورية . وقد يسر هذا تيسيراً كبيراً جميع المشروعات التى حاول القيام بها مجلس الشيوخ أو كبار أعضائه وقد ادعى نوما أنه تحدث إلى إحدى الحور ، وأنها أملت عليه كل ما يريد أن يقنع به الناس والحق أنه لم يوجد قط مشرع عظيم لم يلجأ إلى القوة الإلهية ، وإلا لما أطاع الناس شرائعه ؛ لأن ثمة شرائع صالحة كثيرة يدرك المشرع الحكيم أهميتها ، ولكن أسباب وضعها لا تتضح للناس وضوحاً يكفى لأن يمكنه من إقناع غيره من الناس بإطاعتها ؛ وهذا هو السبب الذى يجعل العتلاء من الناس يلجئون إلى السلطة الإلهية ليتغلبوا على هذه الصعوبة^(٩٠) واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريات ؛ وإهمال هذه النظم يؤدى إلى خراب الدول ؛ ذلك أنه إذا انعدم من بلد ما خوف الله ، قضى على هذا البلد لا محالة ؛ إلا إذا دعمه خوف الأمير وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينتقص

هذا البلد من خشية الله . لكن حياة الأمراء قصيرة (٩١) .

« وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم وجب عليهم قبل كل شيء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية ، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها ؛ وهذا بعينه يصدق على الجمهوريات ، فهي لا بقاء لها إلا إذا حافظت على هذا النقاء ووجهت إلى تلك الشعائر هذا الاحترام نفسه (٩٢) وأكثر من يستحق الثناء ممن نالوا هذا الثناء هم الذين أنشأوا الأديان وأقاموها . ويلهم في هذا الذين أقاموا الجمهوريات أو الممالك . وأعظم الناس بعد هؤلاء وأولئك هم الذين قادوا الجيوش ووسعوا أملاك بلادهم . وقد نضيف إليهم رجال الأدب وعكس هذا أيضاً صحيح . فالذين يهدمون صرح الدين ، ويقضون على الجمهوريات والممالك والذين هم أعداء الفضيلة والآداب ، أولئك يجلبهم العار . وتصب عليهم اللعنات من الناس أجمعين » (٩٣) .

وبعد أن ارتضى مكبثي الدين بوجه عام انتقل إلى الدين المسيحي فأخذ بوجه إليه أشد التقدير لأنه عجز عن إيجاد مواطنين طيبين . ذلك أنه حول أكثر ما يجب تحويله من العناية إلى السماء ، وأضعف الناس بأن أخذ يدعوهم إلى الفضائل النسوية وفي ذلك يقول :

« إن الدين المسيحي يدعونا إلى الاستخفاف بحب الدنيا ، ويجعلنا أكثر رقة وليناً . أما القدماء فكانوا عكس هذا ، كانوا يجدون أعظم أسباب بهجتهم في هذا العالم ولم يكن دينهم يقدس إلا الذين يتوج هاماتهم بمجد هذا العالم الأرضي ، كقواد الجيوش ، ومؤسسي الجمهوريات ؛ على حين أن ديننا نحن قد مجد الوادعين الذين يقضون زمانهم في التأمل والتفكير بدل أن يمجّد رجال العمل . وقد جعل هذا الدين أعلى درجات الخير المذلة ، وضعف العزيمة ، واحتقار الأمور الدنيوية ؛ أما الدين القديم فكان يجعل أعلى درجات الخير عظم العقل ، وقوة الجسم ، وكل ما يبعث في الناس

الإقدام والجرأة ومن أجل هذا خر العالم صريعاً أمام الأشرار ،
فقد وجد هؤلاء الناس أكثر استعداداً للخضوع إلى الضربات طمعاً منهم في
دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها (٩٤)

« ولو أن الدين المسيحي قد احتفظ به حسب القواعد التي وضعها له
مؤسسه ، لكانت الدول والبلاد المسيحية أقوى اتحاداً وأكثر سعادة مما هي
الآن . وهل ثمة أدل على ضعفها وانحلالها من أن أقرب الشعوب إلى الكنيسة
الرومانية ، وهي رأس هذا الدين ، أقلها تديناً ؛ ومن يبحث المبادئ التي يقوم
عليها هذا الدين وير البون الشاسع بين هذه المبادئ وبين أساليبها الحاضرة
وشعائرها ، يحكم من فوره أن انهيار هذا الدين أو مصيره المحتوم آت غير
بعيد (٩٥) ولعل الدين المسيحي كان يقضى عليه قضاء لا مرد له بسبب
ما فيه من فساد لو لم يرد إليه القديسان فرانسيس ودمنيك مبادئه الأصلية . . .
وإذا شئنا أن نضمن للطوائف أو الجمهوريات الدينية حياة أطول وأبقى ،
وجب أن نرجع بها مراراً وتكراراً إلى مبادئها الأولى الأصلية (٩٦) » .
ولسنا نعرف هل كتبت هذه الألفاظ قبل أن تصل إلى إيطاليا أبناء
الإصلاح الديني أو بعد وصولها إليها .

ويختلف خروج مكيشلي على المسيحية عن خروج فلتير ، وديدرو ،
وبين Paine ، ودارون ، واسبنسر ، ورينان عليها . ذلك أن هؤلاء الرجال
كانوا يرفضون لاهوت المسيحية ، ولكنهم يحتفظون بالقانون المسيحي
الأخلاقي ويعجبون به . وظلت هذه الحال قائمة إلى أيام نتشة ولطفت
« حدة النزاع النائم بين الدين والعلم » . أما ميكيشلي فلا يشغل باله بالعقائد
الدينية وبعدها عن المعتقدات ؛ فهو يرى هذا البعد أمراً طبيعياً ويأخذ على أنه
قضية مسلم بها ، ولكنه يقبل اللاهوت المسيحي قبولاً حسناً بحجة أن نظاماً
ما من المعتقدات التي فوق الطبيعة هو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي .
أما الذي يرفضه من المسيحية بفضاضة با^{٩٧} أدائها الأخلاقية . وما نراه من

أن الصلاح والخير هما الرقة ، والدلة ، والاستسلام وعدم المقاومة ، وجبها
للسلم ، وتنديدها بالحرب ؛ وافترضها أن الدول والأفراد مرتبطون بقانون
أخلاقي واحد . وهو يفضل عن هذه المبادئ القانون الأخلاقي الروماني ،
القائم على المبدأ القائل إن سلامة الشعب أو الدولة هي القانون الأعلى :
« وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها ، وجب علينا ألا نقبل
البحث في العدل أو الظلم ، والرحمة أو القسوة ، وما هو خليق بالثناء
أو الازدراء ؛ بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها وننحى
كل ما عدا هذا جانبا » (٩٧) . ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هي إلا قانون
للساوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعي ، والوحدة ،
والقوة ؛ وإن حكومة تلك الدولة لتعجز عن أداء واجبها ، إذا كانت
وهي تدافع عن الدولة ، تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقي الذي يجب
عليها أن تغرسه في نفوس شعبها . ومن ثم فإن الدبلوماسية غير مقيدة بالقانون
الأخلاقي الذي يتقيد به شعبه . « فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر
له نتيجة هذا العمل ذنبه » (٩٨) ؛ ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة . « وما من
رجل صالح يلوم رجلا غيره يحاول أن يدافع عن بلاده ، أيا كانت السبيل
التي يسلكها لهذا الدفاع » (٩٩) . فضروب الغش ، والقسوة ، والجرائم
التي يرتكبها الرجل في سبيل الاحتفاظ بدولته ، كلها « غش شريف »
و« جرائم مجيدة » (١٠٠) . ومن ثم فإن رمبولوس كان على حق حين قتل
أخاه ، لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة ، وإلا مزقت إربا (١٠١) .
وليس ثمة « قانون طبيعي » أو « حق » متفق عليه من الناس جميعاً ؛ والسياسة
إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاماً .
وإذا ما طبقنا هذه المبادئ على قانون الحرب الأخلاقي ، فإن مكيفي
وائقي كل الثقة من أنها تجعل نزعة السلام المسيحية سخفاً وخيانة . ذلك
أن الحرب تناقض وصايا موسى كلها تقريباً ؛ فهل تجيز القسم ، والكذب ،

والسرقة ، والقتل ، وارتكاب الزنا آلاف المرات ، ولكنها إذا ما حافظت على المجتمع أو كانت سبباً في تقويته فهي خير . وإذا ما وقفت الدولة عن التوسع أخذت . الاضمحلال ، وإذا فقدت الرغبة في الحرب فقل عليها السلام . والسلام إذا طالت فوق ما يجب تؤدي إلى الضعف والتفكك ، ولذلك كانت حرب تدور بين الفينة والفينة مقوية للقومية ، تعيد للأمة النظام ، والشدة ، والوحدة . ولهذا فإن الرومان في عهد الجمهورية كانوا دائماً مستعدين للحرب ، فإذا رأوا أنهم مقبلون على نزاع مع دولة أخرى ، لم يفعلوا شيئاً يمنعهم الحرب ؛ بل أرسلوا جيشاً لمهاجم فليب في مقدونية وأنطونيوخوس الثالث في بلاد اليونان ولم ينظروا حتى يأتي هذان المليونان بشرور الحرب إلى أرض إيطاليا^(١٠٢) . ولم يكن الروماني يرى أن الفضيلة هي اللذة ، أو الرقة ، أو السلام ، بل كان يرى أنها هي القوة ، والرجولة ، والبسالة ، مضافة إلى النشاط والذكاء . وهذا ما يعنيه مكيقلي باللفظ virtu .

ثم ينتقل مكيقلي من هذه النظرة نظرة الحاكم المتحرر من القيود الأخلاقية ليوواجه ما كان يبدو له أنه هو المشكلة الأساسية في أيامه : وهي أن يحصل لإيطاليا على الوحدة والقوة اللتين لا غنى لها عنهما لنيل حريتها الجماعية . وهو يرى بعين المقت ما يسود بلاده من انقسام ، واضطراب ، وفساد ، وضعف ؛ وهنا نرى ما كان في أيام بترارك جدّاً نادر - نرى رجلاً لا يؤدي تفانيه في حب قطره إلى أي نقض في حبه لمدينته . فإذا ما بحث عن الذي تقع عليه تبعة بقاء إيطاليا مقطعة الأوصال ، ضعيفة بسبب ذلك أمام العدو ، قال :

لا تستطيع أمة من الأمم أن تكون متحدة وسعيدة إلا إذا كانت تطعم حكومة واحدة سواء كانت جمهورية أو ملكية ، كما هي الحال في فرنسا وأسبانيا ؛ والسبب الوحيد الذي يمنع إيطاليا من أن تكون هذه حالها هو الكنيسة . ذلك أنها وقد حصّات لنفسها على سلطان زهني واحتفظت

بهذا السلطان ، لم توث في يوم من الأيام من القوة أو الشجاعة ما يكفي لأن يجعلها قادرة على الاستيلاء على بقية البلاد وفرض سيادتها الوحيدة على إيطاليا بأجمعها (١٠٣) .

وهنا تبدو لنا فكرة جديدة : تلك هي أن مكيشلي لا يهاجم الكنيسة لأنها تدافع عن سلطتها الزمنية ، بل يهاجمها لأنها لم تستخدم جميع مواردها لإخضاع إيطاليا كلها لحكمها السياسى . ومن أجل هذا أعجب مكيشلي بسيزارى بورجيا في إمولاً وسنجاليا لأنه ظن أنه وجد في هذا الشاب القاسى فكرة إيطاليا المتحدة وأملها ؛ وكان على استعداد لأن يبرر أية وسيلة يستخدمها آل بورجيا لتحقيقها . ذلك الهدف الأسمى النبيل . ولربما كان خروجه على سيزارى بورجيا ، حين خرج عليه في رومة عام ١٥٠٣ ، بسبب غضبه من أن معبوده هذا قد سمح بأن تقضى كأس من السم (كما كان مكيشلي يظن) على هذا الحلم الجديد .

وكان قد مضى على إيطاليا قرنان من الزمان وهى مقسمة مشتتة ، سببها لها من الضعف والانحلال الاجتماعى ما لم يكن لينجها منها (في رأى ميكيشلي)

(*) كتب جوتشاردنى تعليقاً هاماً على هذه الفقرة قال فيه : « صحيح أن الكنيسة قد حالت بين إيطاليا وبين اجتماعها في دولة واحدة ، ولكنى لا أعرف أخير هذا أم شر . نعم إنها لو أصبحت جمهورية واحدة لكان هذا بلا ريب سبباً في ارتفاع اسم إيطاليا إلى ذروة الجود ، ولكن فيه أعظم النفع لعاصمة تلك الجمهورية ، ولكنه كان يؤدي حتماً إلى خراب جميع ما عداها من المدن . وما من من شك أيضاً في أن انقسامنا قد جر علينا كثيراً من الكوارث ، وإن كان من واجبتنا أن نذكر أن غزوات البرابرة قد بدأت في أيام الرومان أى في نفس الوقت الذى كانت فيه إيطاليا متحدة . ولقد أفلحت إيطاليا المنقسمة على نفسها في أن تضم عدداً كبيراً من المدن الحرة ، حتى لأعتقد أنها لو اتحدت في جمهورية واحدة لجرت عليها هذه الجمهورية من الشقاء أكثر مما أنالته إيهاها من السعادة لقد كانت هذه البلاد تتوق إلى الحرية على الدوام ، ولهذا فإنها لم تتحد قط تحت سلطان حكومة واحدة » - *Conseparazioni interno ai Discorsi di machiavelli i, 12.* (١٠٤)

إلا أشد الوسائل عنفاً . فلقد عم الفساد الحكومات والشعب ، وحلت الرذائل الشهوانية محل الروح الحربية والمهارة العسكرية ؛ وعهد المواطنون إلى غيرهم - كما عهد إليهم أيام احتضار رومة القديمة - عهدوا إلى الجيوش المرتزقة كما عهدوا أولئك إلى البرابرة - أن يدافعوا عن مدنها وأرضهم ؛ وماذا يهم تلك العصابات المأجورة أو يهيم زعماءها من وحدة إيطاليا ؟ لأنهم يعيدشون ويتخمون بسبب انقسامها . لقد اتفقوا فيما بينهم على أن يتخذوا الحرب لعبة لا تقل لهم أمناً عن السياسة ؛ فجنودهم لا يقبلون بحال من الأحوال أن يعرضوا أنفسهم للقتل ، وإذا ما التقوا بالجيوش الأجنبية ولوا الأديار ، وأنزلوا إيطاليا منزلة الاسترقاق والاحتقار (١٠٥) .

وإذن فنذا الذى يوحد إيطاليا ؟ وكيف السبيل إلى هذه الوحدة ؟ ليست السبيل إليها هى الإقناع بالوسائل الديمقراطية ؛ ذلك أن الرجال متطرفون فى نزعتهم الانفرادية ، وفى حزبيتهم ، وفسادهم ، مما يحول بينهم وبين قبول الوحدة قبولاً سليماً ، ومثلهم فى ذلك مثل المدن نفسها ؛ ولهذا فإن هذه الوحدة لا بد أن تفرض عليهم بجميع وسائل السياسة والحرب ؛ ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا غير الطاغية القاسى الذى خلأ قلبه من الرحمة ؛ والذى لا يسمح لضميره بأن يجعل منه إنساناً جباناً ، بل يضرب بيد من حديد ، ويجعل هدفه العظيم يبرر كل ما يلجأ إليه من الوسائل .

ولسنا واثقين من أن هذا هو المزاج الذى ألف به كتاب الأمير . وشاهد ذلك أن مكيشلى كتب إلى صديق له فى عام ١٥١٣ أى فى العام الذى يبدو أنه شرع يكتب فيه هذا الكتاب يقول : « إن فكرة الوحدة الإيطالية فكرة مضحكة . ذلك أنه حتى لو استطاع رؤساء الدولة الإيطالية أن يتفقوا ، فلما ليس لدينا من الجنود من لهم شئ من القيمة غير الجنود الأسبان . يضاف إلى هذا أن الشعب لا يمكن أن يتفق فى يوم من الأيام مع الزعماء (١٠٦) . لكن حدث فى ذلك العام نفسه عام ١٥١٣ أن جلس (٥ - ج ٤ - مجلد ٥)

ليو العاشر على كرسى البابوية ، واتحدت فلورنس ورومة تحت سلطان آل ميديتشى بعد أن ظلنا عدوتين زمناً طويلاً ، ولما أن بدل مكيفلى صيغة إهداء كتابه فجعلها للورندسو ، دوق أرينو ، كانت هذه الدولة أيضاً قد سقطت فى يد آل ميديتشى ، ولم يكن الدوق الجديد قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فى عام ١٥١٦ ، وكان قد أظهر غير قليل من الطموح . البسالة ؛ وكان من حق مكيفلى أن نسامحه إذا نظر إلى هذا الشاب المتهور على أنه هو الذى يستطيع بهداية ليو ودبلوماسيته (واتباع تعاليم مكيفلى) أن يحقق ما بدأه سيزارى بورجيا بإرشاد ألكسندر السادس - أى أن يقود الدول الإيطالية ، أو فى القليل الدول الواقعة منها شمال نابلى مع استبعاد دولة البندقية المتكبرة ، بعد ضمها فى اتحاد له من القوة ما يفل عزيمة الغزاة الأجانب . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن هذا كان أمل ليو أيضاً . وإن إهداء كتاب الأمير لآل ميديتشى للدل على أن المؤلف كان يظن مخلصاً أن هذه الأسرة هى التى يمكن أن تحقق وحدة إيطاليا . وإن كان الغرض الأول من هذا الإهداء فى أغلب الظن هو أن يكون وسيلة لإيجاد منصب بها يشغله مؤلفه .

وكان شكل كتاب الأمير هو الشكل التقليدى المؤلف : فقد أفرغ فى القالب الذى أفرغت فيه مائة من الرسائل فى العصور الوسطى خاصة بحكم الأمراء ، وسار على الطريقة التى اتبعت فى هذه الرسائل . أما فى محتوياته فقد كان ثورة لا شك فيها . فلم توجه فى الكتاب دعوة مثالية إلى أمير من الأمراء ليكون قديساً ، ولم يطلب إليه أن يطبق ما جاء فى موعظة الجبل على مشاكل العروش . بل نراه على عكس ذلك يقول :

« لما كنت أقصد أن أكتب شيئاً يفيد من يفهمه ، فإنه يبدو لى أن أتبع حقيقة الأمور الصحيحة من أن أجرى وراء الخيال . لقد صور كثيرون جمهوريات وإمارات لم تعرف أو ترفى يوم من الأيام ؛ لأن البعد شاسع .

بين الطريقة التي يعيش بها الإنسان والطريقة التي يجب أن يعيش بها ،
ومن أجل ذلك . فإن من يهمل ما يفعل في سبيل ما يجب أن يفعل يجر على
نفسه الخراب بأسرع ما يحتفظ لنفسه بالبقاء ؛ وإن الرجل الذي يريد أن
يعمل حسب ما يجهر بأنه هو الفضيلة لا يلبث أن يلقي الوبال بين ما يحيط به
من السرور من كل جانب . ومن ثم كان لابد للأمير الذي يريد أن يحتفظ
بمركزه أن يعرف كيف يرتكب الخطأ وأن يفيد منه أولاً يفيد حسياً تدعو
إليه الحاجة (١٠٧) .

ولهذا فإن من واجب الأمير أن يفرق في قوة وحزم بين المبادئ
الأخلاقية ومطالب الحكم ، أي بين ضميره الخاص والصالح العام ؛ وأن
يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً في علاقة الأفراد
بعضهم ببعض . ويجب عليه أن يزدري أساليب التردد والضعف التي
لا تبلغ الإنسان الغرض كاملاً ؛ والأعداء الذين لا يستطيع كسب صداقتهم
يحب القضاء عليهم ؛ ومن واجب الأمير أن يقتل من ينازعونه عرشه .
ولا بد له أن ينشئ جيشاً قوياً لأن الحاكم لا يستطيع أن يتحدث بصوت
أعلى من صوت مدافعه . ومن واجبه أن يحافظ دائماً على صحة جنوده ،
وحسن نظامهم ، وعدتهم ، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه في كثير
من الأحيان لصعاب الصيد وأخطاره . وعليه في الوقت نفسه أن يدرس
فنون الدبلوماسية ؛ لأنه يستطيع أن يحصل بال المكر والخداع في بعض الأحيان
كثير مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة وقد لا يكلفانه ما لا تكلفه . ويجب
عليه ألا يتمسك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة ؛ « والسيد
العقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان في وسع أعدائه
أن يتخذوا محافظته هذه سلاحاً لإيذائه ، وإذا ما زالت الأسباب التي جعلته
يقطع هذا العهد على نفسه » (١٠٨) .

ولا غنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب . ولكن إذا كان لا بد

للحاكم أن يختار بين أن يخافه الشعب دون أن يحبه ، وبين أن يحبه دون أن يخافه وجب عليه أن يضحى بالحلب (١٠٩) . لكن حكم الجماهير بالرأفة والرفقة أسهل من حكمها بالغلطسطة والقسوة (١١٠) . . . وشاهد ذلك أن الأباطرة تيتوس ، ونيرفا ، وتراجان ، وهديران ، وأنطونينوس ، وماركس أورليوس لم يحتاجوا إلى الحرس البريتورى ولا إلى الفيالق الحربية لحمايتهم ، لأنهم كانوا يحتمون بسلوكهم الطيب ، وبإخلاص شعبهم وبحب مجلس الشيوخ لهم (١١١) . ومن الوسائل التى يحصل بها الأمير على تأييد الشعب أن يناصر الفنون والعلوم ، وأن يهتئ له الحفلات والألعاب العامة . ويكرم أهل الحرف بشرط أن يحتفظ على الدوام بجلال مركزه (١١٢) . ويجب عليه ألا يهيب الناس الحرية ، ولكن من واجبه أن يتمتعهم قدر المستطاع بمظاهر الحرية . وعليه أن يعامل المدن التابعة له - كمدىنتى أرتسو وپزا التابعتين للبندقية ، بالشدة والعنف ، بل وبالقسوة فى بادئ الأمر فإذا ما استقرت له الأمور وأطاعه أهل هذه المدن ، أمكنه أن يجعل خضوعهم له أمراً عادياً مألوفاً بأساليب اللطف والمجاملة لأن القسوة إذا طالت وعمت أهل المدن الخاضعة كانت بمثابة انتحار من يلجأ إليها (١١٣) .

وعلى الحاكم أن ينشر الدين وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أيا كانت عقائده الخاصة (١١٤) . والحق أن تظاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد له من أن يكون فاضلاً بحق :

« إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له وإن لم يكن من الضروري أن يتصف بها ؛ فعليه مثلاً أن يتظاهر بأنه رحيم ، وفى ، شفيق ، متدين مخلص ؛ وما يفيده أيضاً أن يتصف بهذه الصفات ، على أن يكون ذا عقل مرن يمكنه إذا دعت الحاجة من أن يتصف بعكسها . . . وعليه أن يحذر من أن ينطق بكلمة لا تنطبق عليها الصفات الخمس السالفة الذكر ؛ ويجب أن يبدو

لمن يروونه ويستمعون له كأنه الرحمة ، والإيمان ، والتدين ، والاستقامة مجسمة ، وعلى الإنسان أن يلوّن سلوكه ، وأن يكون مراثياً لأن الناس سذج منهمكون في حياتهم الحاضرة ، إلى حد يسهل معه خداعهم . . . وفي مقدور كل إنسان أن يرى مظهره ، ولكن قل من الناس من يعرف حقيقة مخبره ، وأولئك النفر القلائل لا يجرون على مخالفة رأى الكثرة فيك (١١٥) .

ويضرب مكيفلى لهذه الحكم أمثلة واقعية ، فيذكر نجاح الإسكندر السادس ، ويرى أن هذا النجاح يرجع كله إلى كذبه المدهش الذى يستثير الإعجاب ؛ ويعجب بفرديناند الكاثوليكي ملك أسبانيا ، لأنه كان يتظاهر دائماً بمظهر المدافع عن الدين في مغامراته الحربية ، ويمتدح الوسائل التى ارتقى بها فرانتشيسكو اسفوردسا عرش ميلان وهى الشجاعة الحربية والمهارة فى الأساليب العسكرية منضمة إلى الدهاء الدبلوماسى ، ولكن أعظم مثل يضربه ، وهو مثل يكاد يبلغ فى اعتقاده حد الكمال ، هو سيزارى بورچيا :

« إذا استعدنا فى ذاكرتنا جميع أعمال هذا اللدوق فىنى لا أعرف عملاً منها يستحق عليه اللوم ، بل إنه ليبدو لى أنى أضعه أمام الناس لكى يقلده كل من يقبضون بأيديهم . . . على أزمة الحكم . . . لقد كانوا يحسبونه قاسياً ؛ ولكن قسوته هى التى أزالّت الخلاف من رومانيا كلها ، وضمت شتاتها ، وأعادت إليها السلم والولاء . . . ولقد أوتى روحاً عالية ، وآمالاً كباراً ، لم يكن يستطيع بغيرها أن ينظم مسلكه ؛ ولم يحل بينه وبين تحقيق أغراضه إلا قصر حياة الإسكندر ، ومرضه هو . ولهذا فإن من شاء أن يضمن لنفسه الأمان فى إمارته الجديدة ، ويكسب الأصدقاء ، ويغلب الأعداء بالقوة أو الختل ، ويبعث فى قلوب الناس حبه والخوف منه فى آن واحد ، وأن يؤيده الجند ويحلوه ، ويبيد من أوتوا قوة يستطيعون بها

أن يؤذوه ؛ أو كانت لديهم أسباب تدعوهم إلى هذا الإيذاء ، ويستبدل بنظام الأشياء القديم نظاماً جديداً ؛ وأن يكون قاسياً وكرماً ، نبيلاً وحرّاً ، ويحطم قوة الجند غير الموالين له وينشئ بدلتهم جيشاً جديداً ، ويحتفظ بصداقة الملوك والأمراء بحيث يرون أن من واجبهم أن يخفوا لعرفته متحسرين ، فإذا فكروا في أذاه كانوا حذرين . من شاء هذا فإنه لن يجد مثلاً أروع من أعمال هذا الرجل .

وكان مكيفلى يعجب ببورچيا لأنه كان يشعر بأن أساليبه وأخلاقه تمهد السبيل إلى توحيد إيطاليا ، وأنها لم تحل بينها وبين بلوغ تلك الغاية إلا ما حبسها من مرض البابا وولده . وهو يتوسل في ختام كتابه الأمير إلى لورندسو الدوق الشاب ، ويتوسل عن طريقه إلى ليو وآل ميديتشى ، أن يعملوا على توحيد شبه الجزيرة . وهو يصف أهل بلاده بأنهم مستعبدون ، « أكثر من العبرانيين ، وأنهم يعانون من الظلم أكثر مما يعانيه الفرس ، وأنهم مشتبون أكثر من الأثينيين ، وأنهم قوم لا رئيس لهم ، ولا نظام ، مهزومون ، منتهبون مغتصبون ، ممزقون ، يحتاج بلادهم الجيوش الأجنبية » . « لقد أصبحت إيطاليا وكأنها مسلوقة الحياة ، تنتظر من يقبل عليها ليأسوا جراحها . . . وتدعو الله أن يقيض لها من ينجيها من هذه المظالم وهذه المخازي التي يوقعها عليها الأجانب » (١٧) . إن الموقف جد خطير ؛ ولكن الفرصة مواتية . « ذلك أن إيطاليا متأهبة ، راغبة في أن تسير وراء العباسم ، إذا ما رزقته إنسان ما » ومن أحق برفعه من آل ميديتشى ، أشهر الأسر كلها في إيطاليا ، والتي تترغم الكنيسة في هذه الأيام ؟

« ربما الذى يستطيع أن يعبر عن الحب الذى سوف يفيض به قلب إيطاليا وهى ترحب بمحررها ؛ أو عن تعطشها للانتقام من أعدائها ، أو عن إيمانها القوي ، وإخلاصها ، ودموعها ؟ وأى باب يمكن أن يغلق في وجهه ؟ ومنذا الذى يرضن عليه بالطاعة ؟ إن هذا السلطان الأجنبي الهمجى الذى

نرزع تحته لتركم رائحته الكريمة أنوفنا . فليتول إذن ببتكم المجيد هذه المهمة ، وليستعن على القيام بها بالبسالة والأمل ، اللذين يتذرع بهما كل من يقوم بمغامرة عادلة ، حتى تسمو تحت علم هذا البيت مكانة بلادنا ، وتحقق بفضل رعايتها تلك الكلمات التي كتبها بترارك :

« إن ذوى الرجولة يمتشقون الحسام ليقاتلوا ذوى الجئنة ، وستكون المعركة جدد قصيرة ، لأن البسالة القديمة لم ينضب بعد معيها فى عروق إيطاليا » .

٤ - تأملات

وهكذا وجهت إلى آل ميديتشى تلك الدعوة التى وجهها دانتي وبترارك إلى الأباطرة الأجانب ؛ والحق أنه لو أن ليون عاش أطول مما عاش ، ولعب أقل مما لعب ، لشهد مكيفلى بداية تحرر إيطاليا . ولكن الشاب لورندسو توفى عام ١٥١٩ ، وتوفى ليون عام ١٥٢١ ؛ وفى عام ١٥٢٧ وهو العام الذى توفى فيه مكيفلى ، كان قد تم خضوع إيطاليا لدولة أجنبية ، وكان لابد أن يتأخر ذلك التحرر ٣٤٣ سنة حتى يحققه كافور Cavour بأساليب مكيفلى فى الحكم .

ويكاد الفلاسفة يجمعون على التنديد بكتاب الأمير كما يكاد الحكام يجمعون على العمل بما فيه من حكم . وبدأ غداة نشره (١٥٣٢) ظهور ألف كتاب تعارضه . لكن شارل الخامس درسه بعناية ، وجاءت باكثرين ده ميديتشى الى فرنسا ، وكان مع هنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا وقت وفاتهما ، وكان ريشليو يعجب به ، ووليم أورنج يضعه تحت وسادته كأنه يريد أن يستظهره بطريق النضج (١١٨) . وكتب فردريك الأكبر ملك بروسيا كتابه ضد مكيفلى ليجعله تمهيداً لكتاب يتجاوز فيه ما ورد فى كتاب الأمير . ولم يكن معظم الحكام يرون بطبيعة الحال أن هذه

التعاليم وحى جديد ، إلا إذا فهمنا لفظ الوحي أنها تكشف في غير حكمة -
أو حذر أسرار طائفتهم . أما الحالمون الذين حاولوا أن يجعلوا من مكيشلى
ناثراً كاليقويين فقد خيل إليهم أنه لم يكتب **الأصبر** ليحبر عن فلسفته ،
بل كتبه من قبيل السخرية ، ليكشف للناس عن أساليب الحكام وحيلهم ؛
بيد أن كتاب **العقائد** ينطق بهذه الآراء نفسها ويبدط القول فيها ؛ وقد
جرؤ فرانسس بيكن فكتب هذه العبارة يصفح بها عن مكيشلى : « إنا
لنشكر لمكيشلى وأمثاله من الكتاب الذين أظهروا لنا صراحة وفي غير خداع
ما اعتاد الناس أن يفعلوه ، لا ما يجب أن يفعلوه » (١١٩) . وأما حكم
هيجل Hegal فكان دلالة على الذكاء والكرم :

كثيراً ما أخرج كتاب **الأصبر** في رعب لأنه يحتوى حكماً وأمثالا
تدعو إلى أشد أنواع الاستبداد وأدعائها إلى الاشتئزاز ؛ ولكن الحقيقة أن
شعور مكيشلى القوى بضرورة قيام دولة موحدة هو الذى دعاه إلى وضع
المبادئ التى لا يمكن أن تقوم دول في الظروف المحيطة به . وقتئذ لا على
أساسها . فقد كان لابد من القضاء على الأمراء والإمارات القائمة وقتئذ ؛
وإنا وإن كان رأينا في ماهية الحرية لا يتفق مع الوسائل التى يشير بها
والتي تشمل أشد أنواع العنف وأكثرها تطرفاً ، وجميع صنوف الخداع ،
والاغتيال ، وما إليها - فلا يسعنا إلا أن نقر أن الطغاة الذين لابد من
قهرهم لم يكونوا ليغلبوا بغير هذه الوسائل (١٢٠) .

كذلك صور مكولى Macaulay في مقال له ذائع الصيت فلسفة مكيشلى على
أنها انعكاس طبيعى لإيطاليا المتوقدة الذكاء الفاسدة الأخلاق التى عودها
حكامها المستبدون من زمن بعيد مبادئ كتاب **الأصبر** .

ويمثل مكيشلى آخر صورة من تحدى الوثنية الممتعة التى عادت إلى الحياة
للمسيحية المستضعفة . والدين في فلسفته يصبح مرة أخرى ، كما كان في
رومة القديمة ، خادماً ذليلاً للدولة حلت في واقع الأمر محل الله . فالفضائل

التي يعظمها مكيشلي هي الفضائل الرومانية الوثنية دون غيرها - الشجاعة ، والصبر ، والاعتماد على النفس ، والذكاء ، والخلود الوحيد شهرة زائلة لا غير ؛ ولعل مكيشلي قد بالغ فيما للمسيحية من أثر مضعف موهن ، فهل يا ترى نسي مكيشلي الحروب العوان التي شبت نارها في العصور الوسطى ، حروب قسطنطين ، وبلساريوس ، وشارلمان ، وفرسان المعبد ، والفرسان التوتون ؛ وحروب يوليوس الثاني التي لم يمحض عليها وقت طويل ؟ إن المبادئ الأخلاقية المسيحية لم تؤكد الفضائل النسوية إلا لأن الرجال كانوا يتصفون بالصفات المضادة لها ، وكانت فيهم قوية لدرجة تؤدي إلى الخراب والدمار ؛ فكان لابد من وجود ترياق شاف لهذا الداء ، ومثل أعلى مضاد له يوعظ به الرومان القساة في المجتهد ، والبرابرة الغلاظ الذين اجتاحتوا إيطاليا ، والشعوب الخارجة على القانون التي تحاول الهبوط إلى بلاد الحضارة . إن الفضائل التي يزدريها مكيشلي تعمل لبناء المجتمعات المنظمة السلمية ، أما الفضائل التي يعجب بها (لأنها تنقصه كما تنقص نتشه) ، فتعمل لقيام دول قوية ذات نزعة حربية ، وحكام طغاة في مقدورهم أن يقتلوا الناس بالآلاف ليرغموهم على التضامن والائتلاف ، وعلى إراقة الدماء . أماراً لتوسيع رقعة البلاد التي يحكمونها . لكنه خلط بين خير الحاكم وخير الأمة ، وأفرط في التفكير في الاحتفاظ بالسلطة ، وقلم فكر فيما على صاحبها من واجبات ، ولم يفكر مطلقاً فيما تؤدي إليه من فساد . وتجاهل ما بين دول المدن الإيطالية من تنافس منعش ، ونخصب ثقافي ، وقلم كان يعنى بما في ذلك الوقت من فن رائع ، بل إنه لم يعن بفن رومة القديمة نفسه ، ذلك بأنه ضل في عبادة الدولة ضللاً مبيناً . نعم إنه أعان على تحرير الدولة من الكنيسة ، ولكنه أسهم في إقامة نوع من القومية العارمة ودعا الناس إلى عبادتها ، ولم تكن هذه القومية أرقى رقياً واضحاً من الفكرة السائدة في العصور الوسطى عن وجود دول خاضعة لمبادئ أخلاقية دولية يمثلها البابا .

لقد تحطم كل مثل أعلى بسبب ما طبع عليه الناس من أنانية ، ومن الواجب على كل مسيحي صريح أن يقر بأن الكنيسة وهى تدعو إلى المبدأ القائل بأن الإنسان غير ملزم بالمحافظة على عهده مع الزنديق والجرى على هذه السنة نفسها (كما حدث حين نكث عهد الأمان مع هوس Auss فى كنستانتس ومع ألفنسودوق فبرارا فى رومة) نقول إن من الواجب على كل مسيحي صريح أن يقر بأن الكنيسة وهى تدعو إلى هذا إنما كانت تعمل بمبادئ مكيفلى عملا يحطم رسالتها بوصفها قوة أخلاقية .

ومع هذا فإن فى صراحة مكيفلى قوة جافزة / دافعة إلى حد ما . ذلك أنا إذا قرأنا كتابه ، واجهنا فى وضوح لا مثيل له عند غيره من المؤلفين ، ذلك السؤال الذى قلما تعرض له غيره من الفلاسفة : هل سياسة الحكم مقيدة بالمبادئ الأخلاقية ؟ وقد نخرج من كتبه بنتيجة واحدة على الأقل : وهى أن الأخلاق الطيبة لا يمكن أن توجد إلا بين أفراد مجتمع مسلح بالوسائل التى نستطيع تعليمها وإلزام الناس باتباعها ، وأن المبادئ الأخلاقية التى يجب أن تتبعها الدول جمعاء يجب أن تؤجل حتى تقوم منظمة تضم الدول جمعاء ، ويكون لها من القوة المادية وفيها من الرأى العام ما تستطيع بهما المحافظة على القانون الدولى . وإلى أن يحين ذلك الوقت فستظل الأمم كالوحوش فى الغاب ؛ وأيا كانت المبادئ التى تجهر بها حكوماتها ، فإن السنن التى تسيطر عليها هى الواردة فى كتاب الأمير :

وإذا ما عدنا بأنظارنا إلى المائتى عام من الثورة الفكرية التى سادت إيطاليا من أيام پترارك إلى مكيفلى ؛ تبين لنا أن جوهر هذه الثورة وأساسها لا يعدوان أن يكونا نقص الاهتمام بالعالم الآخر ، والاهتمام المتزايد بالحياة . . فقد ابتهج الناس إذ كشفوا من جديد حضارة وثنية لا يشغل بال الناس فيها الخطيئة الأولى ، أو عقاب الجحيم ، ترتضى فيها الغرائز الفطرية وتعد عناصر فى مجتمع نابض بالحياة خليقة بأن تغتفر . وفى هذه الحضارة فقد

النسك والزهد ، وإنكار الذات ، والإحساس بالخطيئة ما كان لها سلطان على الطبقات العليا من سكان إيطاليا ، وكادت تفقد ما كان لها عندهم من معنى . فاضمحلت الأديرة لقلة من كان يدخلها من الرهبان الجدد ؛ وكان الرهبان - والإخوان ، والبابوات أنفسهم يسعون وراء ملذات الدنيا بدل تعاليم المسيح . وتراخت قيود التقاليد والسلطان ، وكان صرح الكنيسة الضخم أخف على قلوب الناس وأغراضهم من ذي قبل . وأضحت الحياة أكثر اهتماماً بما هو في خارج الإنسان ؛ ومع أن هذه الضعة كثيراً ما اتخذت شكل العنف ، فإنها ظهرت كثيراً من النفوس من المخاوف والاضطرابات العصبية التي كانت تخيم على العقول في العصور الوسطى وتسبب لها الكآبة والظلمة . وأخذ العقل الطليق يمرح سعيداً في جميع الميادين عدا ميدان العلم ، وذلك لأن ما ينشأ عن هذا الانفلاق وذاك التحرر من خصب قلما كان يتفق حتى ذلك الحين مع ما تتطلبه التجارب والبحوث العلمية من تهذيب نفسى وصبر طويل ؛ فهذا التهذيب وذاك الصبر إنما يجيئان في الدور الإنشائي الذي يعقب التحرر . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد أفسحت أساليب التقى السبيل إلى عبادة العقل والعبقرية ؛ واستبدل بالسعى وراء الشهرة الخالدة الاعتقاد ، بألا ضرورة للتقيد بالمبادئ الأخلاقية وعادت المثُل الوثنية كاللحظ ، والأقدار ، والطبيعة على فكرة الله المسيحية .

وكان لا بد لهذا كله من ثمن . لقد قوض التحرر الساطع للعقل دعائم القوة العليا السماوية المشرقة على الأخلاق ، ولم توجد قوة أخرى لها ما لهذه من سلطان تحل محلها . وكانت النتيجة التحلل من جميع الموانع والقيود . وإطلاق العنان للأغرائز والشهوات ، وانتشار الفساد ، والاستمتاع المرح به استمتاعاً لم يعرف التاريخ له مثيلاً منذ أن حطم السوفسطائيون الأساطير ، وحرروا العقول ، وأرخصوا قيود الأخلاق في بلاد اليونان القديمة .

الباب العشرون

الانحلال الخلقى

١٣٠٠ - ١٥٣٤

الفضل الأول

منابع الفساد الخلقى وأشكاله

ليس ثمة ميدان يمكن أن يتعرض فيه المؤرخ لتأثير أهوائه وميوله فيفضل ويصدر أحكاماً خاطئة ، كالميدان الذى يطرقه حين يريد التحقق من المستوى الأخلاقى لعصر من العصور - اللهم إلا إذا كان هذا الميدان هو ميدان البحث فى أسباب ضعف العقيدة ، الدينية ، وهو ميدان وثيق الصلة بميدان الأخلاق ، فى كلتا الحالتين يكون أكثر ما يسترعى نظره هو الاستثناء غير المألوف الذى يؤثر فى النفس بمظهره فيصرف الإنسان عن الأحوال المألوفة التى لا تسجلها صفحات التاريخ . وإذا ما أقبل على المشكلة التى أمامه ولديه فكرة يريد أن يثبتها كالفكرة القائلة إن التشكك فى أمور الدين يؤدى إلى انحلال الأخلاق - نقول إنه إذا أقبل على المشكلة بهذه الفكرة زادت الحقائق انطماًساً فيعجز عن تبين الحقيقة كاملة . هذا إلى أن الحوادث المسجلة قد تفسر بالتقيضين ، ويكاد يستطيع قارئها أن يثبت بها أى شيء حسب ما يختاره من تلك الحوادث مدفوعاً إلى ذلك بميله وهواه . فى وسعه مثلاً أن يوجه اهتمامه إلى مؤلفات أريتينو Aretino وسر تشيليني Cellini الذاتية ، ورسائل مكيفلى وفتورى ليستم منها رائحة الانحلال ، كما أن

فى مقدوره أن يتقل من رسائل لزابلا وببتريس دست ، ورسائل لزبنا جندساجا والسندرا استرتسى ما يصور به الحنان الأخرى والحياة البيئية المثالية . ولهذا ينبغى لقارئى التاريخ أن يكون على حذر .

وكان ثمة عوامل كثيرة سببت ذلك الانحلال الخلقى الذى صاحب ما كان فى النهضة من رقى فكرى عظيم . وأكبر الظن أن العامل الأساسى فى هذا الانحلال هو زيادة الثراء الناتج من موقع إيطاليا الهام فى ملتقى الطرق التجارية بين أوروبا الغربية وبلاد الشرق ، ومن تدفق العصور وغيرها من القروض التى كانت ترد إلى رومة من ألف مجتمع مسيحى . وزاد انتشار الإثم بازدياد المال الذى تتطلبه نفقاته ، وأضعف انتشار الثراء اتخاذ الزهد مثلاً أعلى للحياة : فقد أصبح النساء والرجال يشمئزون من المبادئ الأخلاقية التى قامت على الفقر والخوف ، والتى أضعفت الآن تتعارض مع غرائزهم ووفرة ما لهم . وأخذوا يستمعون بعطف متزايد إلى آراء أبيقور للمقالة إن على الإنسان أن يستمتع بالحياة ، وإن كل الملذات يجب أن تعد بريئة حتى يثبت جرمها : وغلبت مفانن النساء أوامر الدين ونواهيها .

وربما كان العامل الثانى الذى يلى الثراء فى إفساد الأخلاق هو ما كان فى ذلك العصر من تقاتل سياسى . ذلك أن تطاحن الأحزاب والشيع المتعادية ، وكثرة الحروب ، وتدفق مرتزقة الجنود الأجانب ، وما حدث بعد ذلك من غزو الجيوش الأجنبية أرض إيطاليا ، وهى جيوش لم تكن تراعى فى تلك الأرض أى قيد من القيود الخلقية ، واضطراب أحوال الزراعة والتجارة بسبب ويلات الحرب وتخريبها ، وقضاء الحكام المستبدين على الحرية واستبداهم القوة الغاشمة بالسلم والقانون : كل هذه الظروف أشاعت الاضطراب فى حياة إيطاليا وحطمت العادات التى كان الأهليون يعتزون بها ويحافظون عليها ، وهى فى العادة الحارس الأمين على الأخلاق . ووجد الناس أنفسهم يضربون على غير هدى فى بحر عجاج من العنف والجبروت ،

بدا لهم فيه أن الدولة والكنيسة كلتيهما عاجزتان عن حمايتهن فتولوا هم أنفسهم تلك الحماية بأحسن ما يستطيعون ، بالسلاح وبالخداع ؛ حتى أصبح الخروج على القانون هو السنة المتبعة والشرعية المقررة . وانغمس الحكام الطغاة في الملذات جميعها بعد أن وجدوا أنفسهم فوق القانون يحيون حياة قصيرة ولكنها حياة مثيرة ، وحدث حذوهم أقلية الأهاين ذات الثراء .

وإذا شئنا أن نقدر أثر التحلل من الدين في تحلل بنى الإنسان الفطرى من القيود الخلقية ، وجب علينا أن نبدأ بالتفرقة بين تشكك القلة المتعلمة ، وتقوى الكثرة التى تعض على تقواها بالنواجذ . إن الاستنارة على الدوام من مزايا الأقليات ، والتحرر من صفات الأفراد ، لأن العقول لا تتحرر جماعات . . . فقد يحتاج عدد قليل من المتشككة على المخلفات الزائفة ، والمعجزات المزورة ، وصكوك الغفران التى تعرض تعهدا بالأداء الآجل نظير ثمن عاجل ؛ ولكن جمهرة الشعب تقبل هذه كلها فى رهبة وخشوع وأمل . وقد حدث فى عام ١٤٦٢ أن ذهب البابا العالم بيوس الثانى وجماعة من الكرادلة إلى ملقى ليستقبلوا رأس الرسول أندرو المحمول من بلاد اليونان ، وأتى الكردينال العالم بساريون Bessarion خطبة رهيبة حين وضع الرأس الموهوم الثمين فى كنيسة القديس بطرس . وكان الشعب يحج إلى لوريتو وأسيسى ، ويهرع إلى رومة فى سنى الأعياد ، ويطوف بمواضع الصليب من كنيسة إلى كنيسة ، ويصعد وأفراده ركع على الدرج المقدسة Seale Sanla التى قيل لهم إنها هى الدرج التى صعد عليها المسيح إلى محكمة بيلاطس . وقد يسخر الأقوياء من هذا كله وهم أصحاب ، ولكن قلما كان يوجد يبطالى فى عصر النهضة لا يطلب القربان المقدس وهو على فراش الموت . فيها هو ذا فيتيلتسو فيتيلي Vitellozzo Vitelli الزعيم المغامر المستأجر الذى حارب الإسكندر السادس ، وسيزارى بورجيا يتوسل إلى رسول أن يذهب إلى رومة ليسأل البابا أن يغفر له قبل أن يشد جلاد سيزارى .

الحبل حول عنقه ؛ وكانت النساء على الأخص يعبدن مريم ؛ ولم تكن قرية من القرى تخلو من صورة لها تصنع المعجزات ؛ وأضحيت المسيحية وقتئذ (ولعل ذلك كان في عام ١٥٢٤) الأداة المحببة للتسبيح والصلاة . وكان في كل بيت محترم صليب ؛ وصورة مقدسة أو صورتان ، وأمام الصورة أو الصورتين في كثير من البيوت مصباح يظل موقداً على الدوام . وكانت ميادين القرى وشوارع المدن تزدهن أحياناً بتمثال للمسيح أو العذراء موضوع في صندوق خاص أو كوة في جدار . وكانت أعياد التقويم الديني يحتفل بها في أبهة وفخامة تخفف عن عامة الشعب كدحهم وتدخل السرور على نفوسهم ، وكان تنويج البابا كل عقد من السنين أو نحوه تعرض فيه المواكب والألعاب ، تذكر عارفي التاريخ القديم بما كان يجري في رومة القديمة . ولم يكن قط دين من الأديان أجمل مناظر من الدين المسيحي حين أقام فنانون النهضة ونحتوا أضرحة ، وصوروا أبطال هذا الدين وقصصه ، وحين اجتمعت المسرحيات والموسيقى ، والشعر ، والبخور في عبادة الله ، وازدانت العبادة بما كان فيها من ألوان رائعة ؛ وروائع ذكية ، ومناظر فخمة .

ولكن هذا لم يكن إلا جانباً واحداً من جوانب المنظر فيه من الاختلاف والتناقض ما لا يليق معه وصفه بإيجاز . لقد كان كثير من كنائس المدن يخلو نسبياً من المصانين ، كما هي حالها في هذه الأيام^(١) . أما في الريف فلنستمع إلى ما يقوله أنطونيو كبير أساقفة فلورنس في وصف فلاحى أسقفيته حوالى عام ١٤٣٠ :

« وفي الكنائس نفسها كانوا أحياناً يرقصون ، ويقفزون ، ويغنون مع النساء . وفي أيام الأعياد لم يكونوا يقضون في الصلاة أو في سماع القداس إلا وقتاً جذاً قصيراً ؛ أما معظم الوقت فيقضونه في الألعاب ؛ أو في الحانات ، أو في النزاع عند أبواب الكنائس . وهم يجادلون في حق الله وأوليائه الصالحين ، أو ينطمون بأقوال مثيرة أقل من هذه قبحاً . تنطق ألسنتهم

بالكذب والخنث بالعهود وقول الزور ؛ ولا يؤثمنهم ضميرهم على الفسق والفجور وما هو أسوأ من هذا وذلك . وما أكثر من لا يعترفون منهم بذنوبهم ولو مرة واحدة في العام . وما أقل من يتناولون القربان المقدس . . . ولا يكادون يفعلون شيئاً يربون به أبنائهم كما يفعل الصالحون المؤمنون . . . يستخدمون الرقى والتعاويذ لأنفسهم وحيوانهم ، ولكنهم لا يفكرون أبداً في الله ولا في سلامة أرواحهم . . . أما قساوسة الأبرشيات فلا يعنى منهم أحد بالقطيع الذى يرعونه ، بل كل ما يعنون به هو أصواف ذلك القطيع وألبانه ، فلا يهدونه بالمواعظ العامة والاعتراقات أو بالتحذير الفردى ؛ بل يرتكبون نفس الخطايا التى يرتكبها من يرعونهم ، ويسرون سيرتهم الفاسدة (٢) » .

ومن حقنا أن نستدل من حياة رجال أمثال ميمونتسى ومكيثلى ، ومن موتهم الطبيعى ، على أن شطراً كبيراً من الطبقات المتعلمة فى إيطاليا عام ١٥٠٠ قد فقد إيمانه بالمسيحية الكاثوليكية ؛ ولنا أن نفترض ، فى حذر أكثر من هذا ، أن الدين حتى بين الطبقات غير المتعلمة ، قد فقد بعض ما كان له من سلطان على الحياة الأخلاقية . وكانت نسبة متزايدة من السكان قد نبذت العقيدة القائلة بأن القانون الأخلاقى موحى به من عند الله . وما كاد يبدو للناس أن الوصايا العشر من وضع البشر ، وما كادت تجرد مما فيها من نعم فى الجنة وعذاب فى النار ، حتى فقد ذلك القانون الأخلاقى ما كان له من رهبة وقوة ، فلم يعبأ أحد بالمحرمات ، وحل محلها قانون جر المغانم وانتهاب اللذات ؛ وضعف شعور الناس بالخطيئة ، والرهبة من الجريمة ؛ وتحرر ضمير الناس من القيود أو كاد ، وأخذ كل إنسان يفعل ما يبدو له ميسراً ولو لم يكن مما اعتاد الناس أن يروه حقاً . ولم يعد الناس يرغبون فى أن يكونوا صالحين ، بل كل ما يريدونه أن يكونوا أقوياء . ومارس كثيرون من الناس ، قبل مكيثلى بزمان طويل ، امتيازات القوة ، والغش والخداع - أى المبدأ القائل

بأن الغاية تبرر الوسيلة — التي يجيزها ذلك السياسي لحكام الدول . ولعل قانونه الأخلاقي لم يكن إلا صورة تمثلت له بعد أن شهد ما حوله من أخلاق وعادات . وقد عزا بلاتينا Platina لـهيبوس الثاني قوله إنه « حتى إذا لم يكن الدين المسيحي مؤيداً بالمعجزات ، فإن من الواجب مع ذلك أن يتقبل لما فيه من حث على الأخلاق الكريمة » (٣) . ولكن الناس لم يكونوا يتبعون هذه الفلسفة في تفكيرهم ؛ بل كل ما كانوا يقولونه : إذا لم تكن ثمة نار ولا جنة ، فإن من واجبنا أن نمتنع أنفسنا على ظهر الأرض ، ونترك العنان لشهواتنا ، دون أن نخشى عقاباً بعد الموت . ولم يكن شيء يستطيع أن يحل محل العقوبات السماوية الضائعة إلا رأى عام قوى مفكر ؛ ولكن رجال الدين ، والكتاب الإنسانيين ، ورجال الجامعات لم يرقوا إلى المستوى الذي يستطيعون معه أداء هذا الواجب .

ذلك أن الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقل فساداً من رجال الدين الذين يوجهون هم لهم سهام النقد . نعم إنه كان من بينهم قلة شاذة من العلماء الناهيين الذين يرون الاحتشام والوقار مما يتفق مع التحرر العقلي — أمثال أمبروجيو ترافيرسارى Ambrogio Traversari ، وفيتوريو دا فيلترى Vitoiro da Feltré ومرسلينو فيتشينو Mersilio Vicino ، وألدس مانوتيوس Aldus Manutius ولكن أقلية كبيرة من الرجال الذين بعثوا الآداب اليونانية والرومانية كانت تعيش كما يعيش الوثنيون الذين لم يسمحوا قط شيئاً عن المسيحية . وكان تنقل أفرادها سبباً في اقتلاعهم من كل بيئة وجدوا فيها ؛ فقد كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يطلبون في كل منها المجد أو المال ، ولا يستقرون في واحدة منها . وكانوا مولعين بالمال ولع المرابي أو زوجته ، مزهوين بعبقريتهم ، ومكاسبهم ، وملاحمهم ، وثيابهم ؛ غلاظاً وقحين في ألفاظهم ، غير كريمين حقيرين في أحاديثهم ، غير أوفياء في صداقتهم ، متقلبين في حيلهم ، وهامو ذا أريستو ، كما قلنا من قبل ، لم يجرؤ على أن

يعهد بآبئه إلى معلم من الكتاب الإنسانيين خشية أن تصيبه عدوى المعلم الخلقية .
وأكبر الظن أنه لم ير من الضروري أن يحرم على ولده قراءة قصة أورلاندو
فيوريوسو Orlando Furioso التي كانت تتخللها بعض العبارات الوقحة
الحلوة النغمة . وقد كشف فلا ، وبيجو وبيكاديلي Becadelli ، وفيلافو
بإيجاز بليغ في حياتهم المستهتره عن إحدى المسائل الأسامية في علم الأخلاق
وفي الحضارة بوجه عام : ونعني بها « هل ينبغي أن يكون القانون الأخلاقي ،
إذا أريد أن يكون ذا أثر في النفوس ، مؤيداً من قوة غير قوة بنى الإنسان —
وهل لابد لأن يكون له ذلك الأثر أن يؤمن الإنسان بحياة غير هذه الحياة
الدنيا أو يعتقد أن هذا القانون الأخلاقي منزل من عند الله ؟

الفصل الثاني

أخلاق رجال الدين

لقد كان يسع الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أن رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع . ولكن كثرتهم الغالبة ارتضت ما في أخلاق زمانها من شر وخبث ، وكانوا هم أنفسهم مرآة تنعكس عليها ما في سيرة غير رجال الدين من أضداد . فقد كان قس الأبرشية خادماً ساذجاً ، لم يوث في العادة إلا قسماً ضئيلاً من التعليم ، ولكنه غالباً ما يعيش معيشة يقتدى بها^(٤) (وإن خالفنا في هذا رأى الراهب الصالح أنطونينو) ، لا يعبأ به رجال الفكر ، ولكن يرحب به الشعب . وكان بين الأساقفة ورؤساء الأديرة بعض من يحيون حياة منعمة ، ولكن كان منهم كثيرون من الرجال الصالحين ، ولعل نصف مجمع الكرادلة كانوا يسلكون مسلك أتقياء المسيحيين المتدينين الذى يخزى مسلك زملائهم الدنيوى المرح^(٥) .

وانتشرت في جميع أنحاء إيطاليا المستشفيات ، وملاجئ اليتامى ، والمدارس ، وبيوت الصدقات ، ومكاتب القرض وغيرها من المؤسسات الخيرية يديرها رجال الدين . واشتهر الرهبان البندكتيون ، والفرنسيس المتشددون ، والكرثوزيون بمستوى حياتهم الخلق الرفيع إذا قيس إلى أخلاق أهل زمانهم . وواجه المبشرون مئات الأخطار وهم يعملون لنشر الدين في أراضى « الكفار » وبين الوثنيين المقيمين في العالم المسيحي . واختفى المتصوفة عن أعين الناس وابتعدوا مما كان في زمانهم من عنف ، وأخذوا يعملون للاتصال القريب بالخالق جل وعلا .

وكان بين هذا التقى والورع كثير من التراخي في الأخلاق بين رجال

الدين ، نستطيع أن نثبت بما نضربه من مثات الأمثال . فهاهو ذا بترارك نفسه الذى بقى مخلصاً لدين المسيح إلى آخر أيام حياته ، والذى صور ما فى دير الكرثوزين ، الذى كان يعيش فيه أخوه ، من نظام وتقى فى صورة طيبة مستحبة ، ها هو ذا يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى أفينيون . وإن الحياة الخلية التى كان يحياها رجال الدين الإيطاليون ، التى نقرأ عنها فى روايات بوكاتشيو المكتوبة فى القرن الرابع عشر إلى روايات فلتشيو فى القرن الخامس عشر ، إلى روايات بنديتلو فى القرن السادس عشر ، إن هذه الحياة الخلية موضوع يتكرر وصفه فى الأدب الإيطالى فبوكاتشيو يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات طبيعية كانت أو غير طبيعية^(٦) . ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم « نخدم الشيطان » . منغمسون فى الفسق واللواط ، والشرب ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين^(٧) .

وهاهو ذا أريتينو الذى لم يتورع عن أية قذارة يسخر من الطابعين بقوله إن أخطأهم لا تقل عن خطايا رجال الدين ؛ ويزيد على ذلك قوله : « والحق أنه لأسهل على الإنسان أن يعثر على رومة مستفيدة عفيفة من أن يعثر على كتاب صحيح »^(٨) وديكا بيجيو Poggio يفرغ كل ما عرفه من ألفاظ السباب فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرهم ، وجهلهم ، وغطرستهم^(٩) . وبقص فولينجو Folengo فى كتاب أرلندينو Oriandino هذه القصة نفسها ؛ ويبدو أن الرهابات ، ملائكة الرحمة فى هذه الأيام ؛ كان لمن نصيب ، فى هذا المرح ، أو أنهم كن مرحات رشيقات فى البندقية بنوع خاص حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قريباً يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين فى فراش واحد . وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجسمى بين الرهبان والراهبات^(١٠) . ويتحدث أريتينو عن راهبات البندقية حزيناً لا تطاوع الإنسان نفسه على أن

ينطق به^(١١) ؛ وجوتشياردينى ، الرجل الرزين المعتدل عادة ، يخرج عن طوره ويفقد اتزانته حين يصف رومة فيقول : « أما بلاط رومة فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحي أبد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم » .

ويبدو أن هذه شهادات مبالغ فيها ، وقد تكون غير نزيهة ، ولكن استمعوا إلى قول القديسة كترين السينائية :

« إنك أينما وليت وجهك - سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحرار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغاراً فى السن أو كباراً - لم تر إلا شراً ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة . لأنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء . . . تخلوا عن رعاية الأرواح . . . اتخذوا بطونهم إلهاً لهم ، يأكلون ويشربون فى الولائم الصاخبة ، حيث يتمرغون فى الأقدار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور . . . ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء . . . ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجن »^(١٢) .

وهنا أيضاً يجب أن نسقط بعض ما يحتويه هذا الوصف من مبالغة ، إذ ليس فى وسع الإنسان أن يثق بأن الولي الصالح يتحدث عن سلوك الآدميين وهو غير غاضب . ولكن فى وسعنا أن نصدق هذه الخلاصة التى يعرضها مؤرخ كاثوليكي صريح :

« وإذا كانت هذه هى حال الطبقات العليا من رجال الدين فإن المرء لا يعجب إذا كان من دونهم من الطبقات ومن القساوسة قد انتشرت بينهم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأخذ انتشارها يزداد على مدى الأيام . ألا إن إن الحياء قد زال من العالم . . . ولقد كان أمثال أولئك القساوسة هم الذين دفعوا إرزمس ولوثر إلى وصفهما المبالغ فيه لرجال الدين حين زارا

رومة في أيام يوليوس الثاني . غير أن من الخطأ أن يظن المرء أن القساوسة كانوا في رومة أكثر فساداً منهم في غيرها من المدن . ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين في كل مدينة تقريباً من مدن شبه الجزيرة الإيطالية . بل إن الحال في كثير من الأماكن — كالبندقية مثلاً — كانت أسوأ كثيراً منها في رومة . فلا عجب والحالة هذه إذا تضاعل نفوذ رجال الدين كما يشهد بذلك مع الأسف الشديد الكتاب المعاصرون ، وإذا كان المرء لا يكاد يجد في كثير من الأماكن أى احترام يظهره الشعب للقسيسين . ذلك أن الفساد قد استشرى بينهم إلى حد بدأنا نسمع معه آراء تجدد زواجهم ولقد كان الكثير من الأديرة في حال يرثى لها . وأغفلت في بعضها الأيمان الثلاث الأساسية بالتزام الفقر ، والعفة ، والطاعة إغفالا يكاد يكون تاماً ولم يكن النظام في كثير من أديرة النساء أقل من هذا فساداً (١٥) .

وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسي والانهماك في ملاذ المأكل والمشرب فإننا لا نستطيع أن نغفوا عن أعمال محاكم التفتيش ، وإن كانت هذه المحاكم قد اضمحل شأنها في إيطاليا اضمحلالاً كبيراً أثناء القرن الخامس عشر . مثال ذلك أن أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi ، أحد علماء الرياضة ، حوكم في عام ١٤٤٠ لأنه اتهم بالمادية وصدر الحكم ببراءته ؛ وحدث في عام ١٤٧٨ أن حكم بالإعدام على جاليتو مارتشيو Galeotto Marcio لأنه كتب يقول إن أى إنسان يحيا حياة صالحة يكون مصيره الجنة أيا كان دينه ، ولكن البابا سكستس الرابع أنجاه من الموت (١٥) ؛ وفي عام ١٤٩٧ حوكم جبريل داسالو Gabriele de Salo هذا الطبيب من محكمة التفتيش مع أنه قال إن المسيح ليس لها ، بل هو ابن يوسف ومريم ، حملت به أمه بنفس الطريقة السخيفة التي تحمل بها كل أم ، وإن جسم المسيح لا يحتويه العشاء الرباني ، وإنه لم يفعل المعجزات بقوة إلهية

بل بتأثير النجوم^(١٧) ؛ وهكذا تنفي كل أسطورة غيرها من الأساطير ،
وفي عام ١٥٠٠ أحرق جيورجيودا ناڤارا Giorgio da Navara في بولونيا
لأنه ، على ما يظهر ، أنكر ألوهية المسيح ، ولم يكن له من يحميه من
الأصدقاء أصحاب النفوذ . وفي ذلك العام نفسه أعلن أسقف أرندا Aranda
أن ليس ثمة جنة ولا نار ، وأن صكوك الغفران ليست إلا وسيلة لجمع الأموال ،
ولم يوقع عليه مع ذلك أى عقاب^(١٨) . وفي عام ١٥١٠ أراد فردناند
الكاثوليكي أن يدخل محاكم التفتيش في نابلي ، ولكنه لقي مقاومة عنيفة
من جميع السكان على اختلاف طبقاتهم اضطر معها إلى التخلي عن هذه
المحاولة^(١٩) .

وكان في وسط هذا الانحلال الكنسى عدة مراكز للإصلاح الطيب .
من ذلك أن البابا بيوس الثانى أبعد أحد رؤساء الرهبان الدمينيكين من
مركزه ، وأدخل النظام في أديرة البناذية ، وبرتشيا ، وفلورنس ، وسينا .
وفي عام ١٥١٧ أنشأ سادوليتو ، وجيبرتي Geberti ، وكارفا Caraffa
وغيرهم من رجال الكنيسة « محراب الحب القدسى » ليكون مركزاً لأنقياء
الرجال الذين يريدون ملجأً مما في رومة من انهماك وثنى مفاتن الدنيا .
وفي عام ١٥٢٣ أنشأ كارفا طائفة الثياتين Theatines ، التى يعيش فيها
القساوسة غير المنتمين إلى طوائف الرهبان معيشة يستمسكون فيها بقواعد
الرهبة ، من عفة ، وطاعة ، وفقر . ونزل الكردنال كارفا عن كل
مرتباته ووزع جميع أملاكه على الفقراء ؛ وحذا حذوه القديس جيتانو
Saint Gaetano وهو أيضاً من مؤسسى طائفة الثياتين . وكان كثيرون من
هؤلاء الأنقياء الصالحين رجالا كرام المحبة ، عظيمى الثراء ، وقد أدمسوا
رومة باستمساكهم الشديد بالقواعد التى فرضوها على أنفسهم ، وبزياراتهم
لضحايا الطاعون دون أن يخشوا الموت . وفي عام ١٥٣٣ أنشأ أنطونيو ماريا
زكريا Antonio Maria Zaccaria طائفة مماثلة لهذه من القساوسة في ميلان ،
سمى أفرادها أولا قساوسة القديس بولس النظاميين ، ولكنهم لم يلبثوا أن

تسموا باسم البرنابيين Barnabites نسبة إلى كنيسة القديس برنابا St. Barnabas . ووضع كارفا برنابجاً طيباً لإصلاح رجال الدين في البندقية ، وحاول جيبيرتي إدخال إصلاحات مثلها في أسقفية فيرون (١٥٢٨-١٥٣١) . وأصلح إيجيديو كانيسيو Egidio Canisio أحوال الأساك الأوغسطينيين ، وكذلك أدخل جريجوريو كرتيزي Gregoreo Cortese إصلاحات شبيهة بإصلاحاته بين الرهبان البندكتيين في بلدوا .

وكان أكبر ما بذل من الجهود لإصلاح الأديرة في ذلك العصر هو تأسيس طائفة الكاپوتشين Capuhin Order . فقد نبيل إلى ماتو دي بسى Matteo di Bassi أحد الرهبان الفرنسيين المتزمطين من مونتي فلكوني Montefalcone أنه رأى القديس فرانسيس في رؤي رأته سمعه يناديه بقوله : « أحب أن تتبع قاعدتي بنصها ، بنصها ، بنصها » . وعرف أن القديس فرانسيس كان يلبس قلنسوة مستدقة ذات أربعة أركان ، فأتخذ مثلها غطاء لرأسه . وسافر إلى رومة وحصل من البابا كلمنت السابع (١٥٢٨) على إذن بإنشاء فرع جديد من طائفة الرهبان الفرنسيين يمتازون من غيرهم بقلانسهم ، وبالزمامهم القنانة الأخيرة من قواعد القديس فرانسيس . وكانوا يلبسون أحشن الثياب ، ويمشون حفاة طول العام ، ويعيشون على الخبز ، والخضر ، والفاكهة ، والماء ؛ ويراعون فروض الصيام الدقيق ، وينامون في صوامع ضيقة في أكواخ فقيرة مقامة من الخشب والطين ، ولا يسافرون قط إلا راجلين . ولم يكن عدد أفراد الطائفة الجديدة كبيراً ولكنها كانت مثلاً حافزاً للإصلاح الواسع الانتشار الذي تسرب إلى طوائف رهبان الأديرة والرهبان المتسولين في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٢٠) .

وقد بدت بعض هذه الإصلاحات استجابة إلى دعوة الإصلاح البروتستنتي ؛ لكن كثيراً منها قد نشأ من تلقاء نفسه ، وكان شاهداً على ما في الممحيية والكنيسة من قوة حيوية كانت سبباً في نجاحهما .

الفصل الثالث

الأخلاق الجنسية

ولنتقل بعدئذ إلى أخلاق غير رجال الدين ، ونبدأ بالعلاقة بين الرجال والنساء ، ونذكر من بادي الأمر أن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج ، وأن لا شيء يستطيع أن يقنعه بالزوجة الواحدة إلا أقصى العقوبات ، ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق ، ومراقبة زوجته له مراقبة دأمة . ولسنا واثقين من أن الزنا كان في العصور الوسطى أقل انتشاراً مما كان في عصر النهضة ؛ وكما أن الزنا في العصور الوسطى كانت تخفف من مساوئه روح الفروسية وما فيها من شهامة ، كذلك كان يخفف من هذه المساوئ بين الطبقات المثقفة التقدير المثالي لركة المرأة المتعلمة ومفاتها الروحية . وساعدت زيادة التكافؤ بين الجنسين في التعليم والمركز الاجتماعي على خلق رفقة عقلية جديدة بين الرجال والنساء ؛ فكانت الحياة في مانتوا ، وميلان ، وأريينو ، وفيرارا ، ونابلي تزدان وتزداد حية بظهور النساء الفاتنات المثقفات .

وكانت فتيات الأسر العريقة يحتجن إلى حتما عن الرجال من غير أسرهم . وكن يلقن على الدوام دروساً في مزايا الاستعفاف قبل الزواج ؛ وكان هذا التلقين يلقى أحياناً من النجاح درجة نسمع معها أن نثاء أغرقت نفسها بعد أن اعتدى على عفافها ، وإن كان هذا بلا شك فعلا شاذاً بدليل أن أسقفاً اقترح أن يقام لهذه الفتاة تمثال (٢١) ، وفي المقابر الرومانية امرأة عريقة النسب خنقت نفسها لتنفذ شرفها ، وحمل جسمها في موكب نصر مخترقاً شوارع رومة وعلى رأسها إكليل من الغار (٢٢) . بيد أنه كانت هناك بلا شك مغامرات كثيرة من فتيان وفتيات قبل الزواج ؛ ولولا هذا

لما استطعنا أن نفسر وجود ذلك العدد الجرم من الأبناء غير الشرعيين في كل بلد من بلاد إيطاليا في عصر النهضة . لقد كان من ليس له أبناء غير شرعيين من الرجال والنساء يعد شخصاً ممتازاً يحق له أن يفخر على غيره ، ولكن وجود أولئك الأبناء لم يكن يحلل أبويهم عاراً كبيراً ؛ وكان الرجل إذا تزوج يستطيع في العادة أن يقنع زوجته بأن تقبل انضمام أبنائه غير الشرعيين إلى أسرته لكي يربوا مع أبنائها منه ، ولم تكن حال الابن غير الشرعي عقبة كأداء في سبيله ؛ ويكاد المجتمع لا يلقى بالاً مطلقاً إلى هذه الوصمة الاجتماعية . وكان في وسع النغل أن يعد ابناً شرعياً بهبة ينقحها لرجال الكنيسة . كما كان في وسعه أن يرث أملاك أبويه ، وأن يرث العرش نفسه إذا لم يكن له أخ شرعي يليق بهذه الوراثة ، أو لم يكن له أخ شرعي على الإطلاق . مثال ذلك أن فيرانتي الأول خلف ألفنسو الأول على عرش نابلي ، وأن ليونلو دست خلف نقولو الثالث على عرش فيرارا . ولما أن قدم بيوس الثالث إلى فيرارا في عام ١٤٩٥ استقبله سبعة من الأمراء كلهم أبناء غير شرعيين (٢٣) . وكان التنافس بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين مصدر كثير من حوادث العنف في عصر النهضة ؛ كما كانت نصف الروايات تدور حول إغواء النساء ، وكانت النساء يقرأن في العادة هذه القصص أو يستمعن لها ، وكل ما يظهرنه من دلائل الحياء أن يطرقن بأبصارهن لحظات قصارا . وقد وصف روبرت أسقف أكويوني في أواخر القرن الخامس عشر أخلاق الشبان في أسقفيته بأنها فاسدة ، وقال إن أولئك الشبان لا يستحقون من هذا الفساد . ويروى أنهم كانوا يقولون له إن الفسق ليس من الخطايا ، وإن العفة من الأوامر التي عفا عليها الزمان ، وإن عادة احتفاظ البنات بعذرتهن آخذة في الزوال (٢٤) . وحتى مضاجعة المحارم كان لها من يجذبونها ويتباهون بها .

أما اللواط فقد كاد يصبح من مستلزمات بعث الحضارة اليونانية .

وكان الكتاب الإنسانيون يكتبون عنه بما يشبه الاعتزاز العالمي ، ويقول
أريستو إنهم كلهم كانوا منغمسين فيه . وكان پولتيان ، وفليبو ، واستروتسي
وسنودو Sanudo صاحب اليوميات يتهمون هذه العادة اتهاماً له ما يبرره (٢٥) .
كذلك اتهم بها ميكيل أنجيلو ، ويوليوس الثاني ، وكلمنت السابع ، وإن
لم يبلغ هذا الاتهام من القوة والإقناع مبلغه في الحال السالفة الذكر . وقد
وجد القديس برنردينو هذه العادة منتشرة في نابلي انتشاراً لم يسعه معه إلا أن
ينذر هذه المدينة بأنها سيصيبها ما أصاب سدوم وعموره (٢٦) . ويقول أرتيزو
إن هذا الشلوذ الجنسي كان شائعاً واسع الانتشار في رومة (٢٧) ؛ وإنه هو
كان يطلب إلى دوق مانتوا أن يبعث إليه بن كل خلية وأخرى فتي وسياً (٢٨) ،
وتلقى مجلس العشرة في مدينة البندقية في عام ١٤٥٥ مذكرة رسمية تصف
« انتشار رذيلة اللواط انتشاراً واسع النطاق في هذه المدينة » ، وأراد المجلس
« أن يتقى غضب الله » فعين رجلين في كل حي من أحياء البندقية مهمتهما
القضاء على هذه العادة (٢٩) . وعرف المجلس أن بعض الرجال قد اعتادوا
لبس أثواب النساء ، وأن بعض النساء قد أخذن يرتدين ملابس الرجال ،
وقد سمى هذا العمل « ضرباً من اللواط » (٣٠) . وأدين رجل من الأشراف
وآخر من رجال الدين في عام ١٤٩٢ بممارسة اللواط ، فأعدموا في الميدان
العام وأحرق رأسهما أمام الجماهير (٣١) . ولقد كانت هذه حالات شاذة
بطبيعة الحال لا يليق بنا أن نتخذها أساساً لحكم عام ؛ ولكن لنا أن نفترض
أن اللواط كان منتشر انتشاراً أكثر من العادة في إيطاليا أثناء عصر النهضة
وأنه ظل منتشر فيها حتى قامت حركة الإصلاح المعارضة .

وفي وسعنا أن نقول هذا القول نفسه عن الدعارة . فإذا أخذنا بقول
إنفسورا - الذي كان يميل إلى المبالغة فيما يورده من الإحصاءات عن رومة
في عهد البابوات - قلنا إنه كان في رومة ٦٨٠٠ من العاهرات مسجلات
في عام ١٤٩٠ ، بخلاف العاهرات اللاتي يمارسن هذه الحرفة خفية ، وذلك

بين سكان البلد البالغين ٩٠.٠٠٠ نسمة (٣٢) ويقدر التعداد الذى أجرى فى البندقية عام ١٥٠٩ عدد العاهرات بـ ١١٦٥٤ عاهراً من بين سكانها البالغ عددهم نحو ٣٠٠.٠٠٠ (٣٣) . وقد نشر طابع مغامر « سيجلا بأشهر المحاطى وأشرفهن فى البندقية احتوى أسماءهن ، وغناوينهن ، وأجورهن » . وكن فى الطرق يترددن على الحانات ، وفى المدن ينزلن عادة فى ضيافة الفنانين اليافعين ، والفنانين المتلهفين . ويصف لنا متشيلبنى ليلة قضائها مع حظية له كأنها حادث عادى غير ذى بال ، كما يصف عشاء للجماعة من الفنانين من بينهم جوليو رومانو وهو نفسه ، وقد طلب إلى كل واحد من الحاضرين أن يأتى بامرأة غير متمنعة ، وفى مأدبة أخرى أرقى من هذه درجة أقامها لورندسو استروتسى المصرى فى عام ١٥١٩ لأربعة عشر شخصاً من بينهم أربعة كرادلة وثلاث نساء من الخليعات (٣٥) .

ولما ازداد الثراء وازدادت الرغبة فى التمتع بدأ الأثرياء المنعمون يطلبون المحاطى اللائى يتمتعن بقسط من التعليم والمفاتيح الاجتماعية ، وكما أن طائفة الخليات قد نشأت فى أثينة أيام سفكليز للوفاء بهذا المطلب ، كذلك نشأت فى رومة فى أواخر القون الخامس عشر وفى البندقية فى القرن السادس عشر طبقة من الخليات المهذبات ينافسن أطرف السيدات فى ثيابهن ، وآدابهن ، وثقافتهن ، بل وفى تقاهن وترددهن على الكنائس فى أيام الآحاد : وبينما كانت العاهرات العموميات يمارسن حرفتهن فى المواخير ، كانت الخليات الرومانيات السالفات الذكر يقمن فى بيوتهن ، وينفقن بسخاء كبير على المآدب ، ويقرأن الكتب ، ويقرضن الشعر ، ويغنين ، ويعزفن على الآلات الموسيقية ، ويشتركن فى الأحاديث مع الطبقة المثقفة المتعلمة ؛ ومنهن من كن يجمعن الصور والتماثيل ، والطبعات النادرة من الكتب وآخر ما صدر منها ؛ ومنهن من كن يعقدن الندوات الأدبية . وأردن أن يحتفظن بمقامهن لدى الكتاب الإنسانيين فتسمت الكثيرات منهن بأسماء لاتينية — كامليا ، يولكسينا ، وپنثسيليا Penthesilea ، وفوستينا Faustina ، وإمپيريا .

Imperia ، وتوليا Tullia . وكتب أحد الظرفاء الأفاكين ، في أيام البابا اسكندر السادس مجموعة من النكت الشعرية بدأها بطائفة ما في مدح العذراء أو القديسين ثم اتبعها بلا جياء بطائفة أخرى في الثناء على العشيقات في أيامه (٣٦) . ولما ماتت إحدى أولئك العشيقات حزن عليها نصف سكان رومة ، وكان ميكل أنجيلو من الكثيرين الذين أنشأوا الأغاني تخليداً لذكرها (٣٧) .

وأشهر هاته الخليلات المهذبات إمبرتا ده كنياتس Imperia de Cugnatis . وقد أثرت هذه السيدة مما كان يغدقه عليها نصيرها وحاميا أجستينو تشيجي Agostino Chigi ، فزينت بينها بالأثاث المترف الوثير والتحف النادرة ، وجمعت حولها طائفة كبيرة من العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، ورجال الدين ؛ وحتى سادوليتو Sadoletto النقي نفسه كان يتغنى بمدحها (٣٨) . وأكبر الظن أن إمبريا هذه هي التي اتخذها رفائيل نموذجاً لسافو في صورة البرناسوس Barnassus . وماتت في ريعان شبابها ونضرة جمالها ولم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها (١٥١١) ؛ وكزمت بعد موتها بأن دفنت في كنيسة سان جريجوريو San Gregorio ، وأقيم لها قبر من الرخام محفور أجمل حفر ومصقول أحسن صقل ؛ ورثاها مائة شاعر بأفخم المراثي (٣٩) . (وجدير بالذكر أن ابنتها أثرت الانتحار على التفريط في عرضها (٤٠)) . ولا تقل عنها شهرة توليا الأرغونية Tullia d' Aragona ابنة كوردنال أرغونة الغير الشرعية . وكان أهل زمانها يعجبون بشعرها الذهبي وعينيها الراقنتين ، وسخائها ، وعدم اهتمامها بالمال ، ورشاقة قوامها ، وسحر حديثها ؛ واستقبلت في نابلي ، ورومة ، وفلورنس ، وفيرارا استقبال الأمراء الزائرين . وقد وصف سفير مانتوا في فيرارا دخولها المدينة في رسالة غير دبلوماسية بعث بها إلى إزابلا دسيت عام ١٥٣٧ قال فيها : أرى من واجبي أن أسجل متلهم سيادة ظريفة بلغ من تواضعها في سلوكها وافتتان الناس بأدبها مبلغاً لا يسعنا معه إلا أن نصفها بأنها ربانية . وهي تنني

ارتجالا جميع النغمات والألحان . . . وليس في فيرارا كلها سيدة واحدة ، ولا فكتوريا كولونيا Victória Colonna دوقة بسكارا Pescara يمكن أن تقارن بتوليا (٤١) .

وقد رسم مورتوده بريشيا Moretto de Brescia صورة ساخرة لها تبدو فيها بريئة براءة الراهبة الحديثة العهد بالرهينة . وقد أخطأت إذ عاشت بعد أن زالت مفاتها ، وماتت في كوخ حقير قريب من نهر التبر ؛ وبيع كل ما تملكه بالمزاد فلم يزد ثمنه على اثني عشر كروناً (١٥٠ ؟ دولاراً) ولكنها احتفظت رغم فقرها بعودها ومعزفها إلى آخر أيام حياتها . وتركت وراءها أيضاً كتاباً ألفته في هلاور الحب الطامل (٤٢)

وما من شك في أن هذا العنوان يدل على الطراز الذى كان يتحدث به المتحدثون ويكتب به للكتاب عن الحب العذرى في عهد النهضة . فإذا لم تسمح امرأة لنفسها أن تزنى في تلك الأيام ، فقد كان يسمح لها على الأقل بأن تثير في الرجل نوعاً من الغرام الشعرى ، فتهدى إليها القصائد والمجاملات الأدبية والمؤلفات . وثشأت في تلك الأيام بتأثير هيام شعراء الفروسية الغزلين ، والحياة الجريئة لدانتى ، وأحاديث أفلاطون عن الحب الروحى في عدد قليل من الجماعات عاطفة رقيقة من الهيام بالمرأة — كانت عادة زوج رحل غير المستهام بها . على أن الكثرة الغالبة من الناس لم يكونوا يعنون قط بهذه الفكرة ويفضلون على هذا الحب العذرى الحب الشهوانى الصريح ؛ فكانوا يكتبون الأغاني ولكن همهم الوحيد كان هو الاتصال الجسدى ، وقاما كان هذا الحب ينتهى بالزواج إلا في حالات جد نادرة لا تتجاوز واحداً في المائة . وذلك على الرغم مما يكتبه الكتاب في رواياتهم الغرامية .

ذلك أن الزواج في تلك الأيام كان مسألة مال ، وكان جمع المال مستطاعاً دون حاجة إلى نزعات الشهوة الجسمية ، وكانت خطبة الزواج تنظم في مجالس الأسر ، ويقبل معظم الشبان والفتيات دون احتجاج ذى أثر من

يختار زوجاً له أولاً . وكان من المستطاع خطبة البنت وهى فى الثالثة من عمرها ، وإن كان الزوج يؤجل فى العادة حتى تتم الثانية عشرة . وكانت البنت فى العصور الوسطى ، إذا بقيت حتى الخامسة عشرة دون زواج ، تجلّل أسرتها العار . ثم أجلت تلك السن التى تجلب العار على الأسرة حتى السابعة عشرة فى القرن السادس عشر ، وذلك لكى يترك للفتاة من الوقت ما تستطيع معه الحصول على قسط من التعليم العالى^(٤٣) : أما الرجال الذين يستمتعون بجميع ميزات الاختلاط الجنسي دون زواج ولا يجدون أية صعوبة فى هذا الاختلاط ، فلم يكن يستطيع إغراؤهم بالزواج إلا إذا جاءت الزوجة معها ببائنة قيمة . ومن أجل هذا وجدت فى أيام سفنرولا Savonarola كثيرات من البنات الصالحات لأن يكن زوجات واللاتى عجزن عن أن يحدن أزواجهن لحاجتهن إلى البائنات . ولهذا أيضاً أنشأت فلورنس نوعاً من التأمين الذى يقضى بأن تقوم الدولة بأداء البائنات لمن هن فى حاجة إليها وأطلق على هذا النظام اسم : مال العذارى Motne delle fauciulle وكانت البنات يحصلن منه على بائنتهن إذا أدين قسماً سنوياً قليلاً^(٤٤) . وفى سينا بلغ عدد الشبان العزاب من الكثرة ما اضطر المشرعين إلى فرض عقوبات قانونية عليهم ؛ وفى لوقا صدر فى عام ١٤٥٤ مرسوم يقضى بحرمان كل العزاب ما بين سن العشرين والخمسين من الوظائف العامة . وكتبت السندرا إسترسى Alessandra Strozzi فى ذلك الوقت (١٤٥٥) تقول : « إن تلك الأيام غير ملائمة للزواج^(٤٥) . ورسم رفائيل نحو خمسين صورة للعذارى ولكنه لم يرسم قط صورة زوجة ، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذى اتفق معه ميكيل أنجيلوفيه ، وكانت حفلات الزفاف نقسها تستنفد مبالغ طائلة من المال ؛ وها هو ذا ليوناردو برونى Leonardo Bruni يشكو من أن زواجه قد ذهب بميراثه^(٤٦) . وكان الملوك والملكات ، والأمراء والأميرات ، يقفون ما يعادل مليون دولار على حفلة زفاف بينما كان القمح يقضى على حياة أبناء الشعب^(٤٧) . وأعد ألفنسو العظيم Alfonso the Magnificent صاحب

نايلي مأدبة عشاء لثلاثين ألفاً على ساحل الخليج . وكان أجمل من هذا وأفخم الحفل الذى أقامه أربينو لاستقبال الدوق جويلدو حين جاء من مانتوا بعروسه إلزبتا جندساجا : فقد اصطفت على سفح أحد التلال نساء المدينة فى أبهى الحلل ، واصطف أمامهن أطفالهن يحملون أغصان الزيتون ؛ ومن ورائهم منشدون على ظهور الجياد فى أشكال بديعة يرددون أغاني وضعت لهذه المناسبة خاصة ، وقدمت سيدة جميلة تمثل إحدى الإلهات إلى الدوقة الجديدة ولاء أهل المدينة وعظيم محبهم (٤٨) .

وكانت المرأة بعد الزواج تحتفظ عادة باسمها الخاص ؛ فهى ذى زوجة لورندسو ظلت تسمى السيدة كلارثى أرسيني Clarice Orsine ، على أنه كان يحدث أحياناً أن تضيف الزوجة إلى اسمها اسم زوجها - مثل ماريا سلفيانى ده ميديتشى Maria Salviati de Medici وكان ينتظر حسب نظرية الحب فى العصور الوسطى أن ينشأ الحب بين الرجل وزوجته أثناء اشتراكهما خلال الزواج فى الأفراح والأتراح ، والرخاء والشدة ، ويلوح أن هذا هو الذى كان يحدث فى معظم الحالات . ولسنا نعرف حياً نشأ بين فتى وفتاة أعمق أو أصدق من الحب الذى نشأ بين فيكتوريا كولنا والمركزى بيسكارا Pescara وقد خطبت له وهى فى الرابعة ، كما لا نعرف إخلاصاً أعظم من إخلاص إلزبتا جندساجا التى صحت زوجها المقعد فى جميع ما أصابه من محن وننى ، وظلت وفية لذكره حتى توفيت .

ومع هذا فإن الزنا كان واسع الانتشار (٤٩) . ولإذ كانت معظم الزيجات التى تعقد بين أفراد الطبقات العليا زيجات دبلوماسية تبتغى بها المصالح الاقتصادية أو السياسية ، فقد كان كثيرون من الأزواج يرون أن من حقهم أن تكون للواحد منهم عشيقة ؛ وكانت الزوجة فى العادة تغض عن عينيها عن هذه الإساءة أو تطبق شفتيها فلا تنطبق بشيء مما قد تشعر به من أسى نتيجة لهذا التصرف . وكان بعض رجال الطبقات الوسطى يدعون أن الزنا من

الملاهي المشروعة : ويلوح أن مكثلي وأصدقائه لم يكونوا يتخرجون عن تبادل الرسائل المفصحة عن خياناتهم لزوجاتهم . وإذا ما تأثرت الزوجة لنفسها من زوجها فاقتدت به كان الزوج في كثير من الأحيان يتجاهل فعلها هذا ويحمل قرنيه راضياً^(٥٠) . لكن تدفق الأسبان على إيطاليا عن طريق ناپلى وبتشجيع الإسكندر السادس وشارل الخامس جاء إلى الحياة الإيطالية بالغيرة على العرض والشرف ، فكان الزوج في القرن السادس عشر يرى من واجبه أن يعاقب زوجته بالموت إذا زنت في الوقت الذي يحتفظ فيه هو بميزاته القظرية كاملة غير منقوصة . وكان في وسع الزوج أن يهجر زوجته وأن ينعم مع ذلك بالحياة ؛ أما الزوجة إذا هجرها زوجها فلم يكن أمامها إلا أن تطالب برد بائنتها ، ثم تعود إلى بيت أهلها ، وتعيش عزبة لأنها لم يكن يسمح لها بأن تتزوج مرة أخرى . وكان في وسعها أن تدخل الدبر ، ولكنه كان ينتظر منها في هذه الحال أن تهبه جزءاً من بائنتها^(٥١) . ويمكن القول بوجه عام إن الزنا كان يتخذ سلوى يستعاض بها عن الطلاق :

الفصل الرابع

الرجل في عصر النهضة

كان اجتماع التحرر الفكري والتحرر من القيود الخلقية هو الذى أوجد « رجل النهضة » ؛ غير أنه لم تكن له من الخواص ما يجعله خليقاً بتلك اللقب . فقد كان فى ذلك العصر كما كان فى غيره من العصور أكثر من عشرة أنماط . وكل ما كان له من ميزة أنه كان متمماً طريفاً ، ولعل سبب ذلك أنه كان من طراز شاذ غير مألوف . وكان فلاح النهضة هو الفلاح بعينه فى جميع العهود إلى أن جعلت الآلات الزراعة صناعة . وكان دهاء المدن الإيطالية فى عام ١٥٠٠ كما كانوا فى رومة فى عهد القياصرة أوفى أيام مسوليني ، ذلك أن المهنة هى التى تطبع الرجل بطابعها ، كذلك كان رجل الأعمال فى عصر النهضة شبيهاً بأمثاله فى الماضى والحاضر . أما القس فى ذلك العصر فكان يختلف عن قس العصور الوسطى أوقس هذه الأيام ؛ فقد كان أقل إيماناً منهما بالدين وأكثر استمتاعاً بالدنيا ، وكان فى وسعه أن يعشق ويحارب . ثم حدث فى هذه الأنماط تغير فجأتى يستلقت النظر ، أدى إلى انحراف فى النوع وفى طراز العصر ، ونشأ عنه الرجل الذى ترتسم صورته فى ذهننا حين نقول إن رجل النهضة طراز فذ فى التاريخ ، وإن كان ألقبيداس إذا رآه أحس بأنه طراز قديم ولد من جديد .

وكانت خصائص هذا الطراز تدور حول بؤرتين : الجرأة الفكرية والخلقية . كان حاد الذهن ، يقظاً ، متعدد الكتابات ، مستعداً لقبول كل مؤثر وكل فكرة ، مرهف الحس بالجمال ، حريصاً على نيل الشهرة . وكانت له روح ذات نزعة فردية جريئة عديمة المبالاة ، تعمل على تنمية جميع المواهب الكامنة فيها ؛ روح مزهوة فخورة تسخر من النالة المسيحية ،

وتحتقر الضعف والجبن ، وتتحدى العرف ، والتقاليد ، والأخلاق ،
والمحرمات ، والبابوات ، بل تتحدى الله نفسه في بعض الأحيان . وكان في
وسع هذا الرجل أن يقود حزباً ثائراً في المدينة ، أو جيشاً في الدولة ، فإذا
كان من رجال الكنيسة فقد كان يسعه أن يجمع مائة منصب تحت مسوحه ،
وأن يستخدم ثروته في الوصول إلى السلطان . وفي الفن لم يعد هذا الرجل
صانعاً يعمل مغموراً مع غيره في مشروع جماعي كما كان يعمل نظيره في
العصور الوسطى ؛ لقد كان شخصاً « منفرداً منفصلاً عن غيره » يطبع
أعماله بطابعه ، ويوقع باسمه على ما يرسمه من الصور ، بل كان من حين
إلى حين يحفره على ما يصنعه من تماثيل كما حفر ميكيل أنجيو اسمه على تماثيل
العذراء وهي تندب طفلها . ومهما تكن الأعمال التي يقوم بها رجل النهضة
هذا فقد كان في حركة دائمة ، ساخطاً ، متأففاً من القيود ، تواقاً لأن يكون
« رجلاً عالمياً » - جريئاً في تفكيره ، حاسماً في أفعاله ، فصيحاً في أقواله ،
ماهرأ في فنه ، ملماً بالأدب والفلسفة ، ليس غريباً على النساء في القصور
ولا عن الجند في المعسكرات .

ولم يكن فساد خلقه إلا جزءاً من نزعة الانفرادية . وإذا كان هدفه
هو أن ينجح في التعبير عن شخصيته ، وكانت بيئته لا تفرض عليه أية معايير
يتقيد بها فلا يجد قدوة يقتدى بها بين رجال الدين ، ولا يجد ما يرهبه في
العقيدة الربانية ، فإنه يجز لنفسه أن يسلك أية وسيلة تبلغه غايته ، ويستمتع
بكل لذة تصادفه في الطريق . لكنه رغم هذا كله كانت له فضائله . لقد كان
رجلاً واقعياً ، قلما ينطق بتافه القول إلا لامرأة برمة . وكان مؤدباً إذا لم يكن
يقتل ، وحتى في هذه الحال كان يفضل أن يقتل في غير قسوة . وكان
ذا نشاط ، وقوة في الخلق ، وذا إرادة موجهة موحدة ؛ وكان يقبل المعنى
الذي يفهمه الرومان الأقدمون من لفظ الفضيلة وهو « الرجولة » ؛ ولكنه
كان يضيف إلى هذا المعنى الخلق والدكاء . ولم يكن مسرفاً في القسوة من

غير داع ، وكان يمتاز عن الرومان الأقدمين باستعدادده لأن يكون تقياً صالحاً . وكان معجباً بنفسه ، غير أن هذا الإعجاب لم يكن إلا وليد إحساسه بالجمال وحسن الشكل . وكان تقديره للجمال في المرأة والطبيعة ، وفي الفن والجريمة : هو المصدر الأساسي للنهضة . وقد استبدل حاسة الجمال بالحاسة الخلقية ؛ ولو أن هذا الطراز من الرجال قد تضاعف وغلب على غيره لحلت أرسطراطية في الذوق لا تمهظها تبعات محل أرسطراطية المولد أو الثروة .

لكننا نقول مرة أخرى إنه لم يكن غير نوع واحد من أنواع كثيرة من رجل النهضة . ألا ما أعظم الفرق بين بيكودى النزعة المثالية واعتقاده بقدرة بنى الإنسان على أن يبلغوا بأخلاقهم درجة الكمال ، وبين سقنرولا الصارم الذى لا تبصر عينه الجمال ، والمنهمك فى التقي والاستقامة ، وبين رفايل الظريف الرشيق الذى ينشر الجمال من حوله بسخاء ، وميكل أنجيلو ذى الجنة ، الذى طغى على عقله التفكير فى يوم الحساب قبل أن يصوره ، وبوليتيان صاحب النغم الحلو الذى ظن أن الرحمة موجودة حتى فى الجحيم ، وفنورينودا فلترى الأمين الذى نجح فيما نجاح فى الجمع بين زينون والمسيح ؛ وجوليانو ده ميديتشى الثانى الذى بلغ من رحمته فى عدالته درجة رأى معها أخوه البابا أنه لا يصلح للقيام بأعباء الحكم ! ما أعظم الفرق بين هؤلاء مع أنهم جميعاً من رجال النهضة . ولنا لندرك رغم ما نبذله من الجهد فى اختصار البحث ، وصياغة القواعد العامة ، أنه لم يكن ثمة رجل يصح أن يطلق عليه اسم « رجل النهضة » : لقد كان فى ذلك العصر رجال لا يتفقون إلا فى شيء واحد ! وهو أن الحياة لم تبلغ من الشدة ما بلغت فى تلك الأيام . لقد كانت العصور الوسطى تقول - أوتدعى أتقول - روح الحياة ؛ أما النهضة فكانت تقول لها نعم بقلها ، وروحها ، وبكل ما كان فيها من قوة .

الفصل الخامس

المرأة في عصر النهضة

كان ظهور المرأة في المجتمع من أبهج مظاهر ذلك العصر ؛ وكانت مكانتها في التاريخ ترتفع في العادة كلما زاد الثراء وإن استثنينا من ذلك حالها في البلاد الشديدة القرب من الشرق في أيام بركليز . ويرجع السبب في ارتفاع منزلة المرأة كلما زاد الثراء إلى أن الرجل إذا لم يعد يخشى الجوع ولى وجهه نحو المرأة ؛ وأنه إذا ما ظل يسخر حياته لطلب المال فإنما يفعل ذلك ليضعه بين قدمي المرأة ، أو بين يدي الأطفال الذين جاءت له بهم ، وإذا قاومته تصورت له في صورة المثل الأعلى ؛ وقد أوتيت في العادة من الحصافة ما يجعلها تقاومه ، وتتقاضى منه أعلى ثمن نظير النعمة التي يغمر بهاؤها مشاعره إذا ما فكر فيها ، وإذا ما جمت إلى مفاتها الجنسية محاسن عقلها وخلقتها ، وهبته أعظم ما يطمع فيه من السعادة التي لا يسمو عليها إلا ما يطمع فيه من المجد وخلود الذكر ، وهو في نظير هذا يرفع منزلتها حتى تصبح مالكة حياته المسيطرة عليها .

على أننا لا ينبغي أن نظن أن هذه المكانة العليا كانت هي نصيب المرأة العادية في عصر النهضة ، فالواقع أنه لم ينلها إلا قلة من النساء المحظوظات ؛ أما الكثيرة الغالبة منهن فكانن يخلعن ثياب العرس ليحملن أعباء المنزل ومتاعب الأسرة حتى يوارين الثرى ؛ وليستمع القارئ إلى برنرد ينو يحدد الوقت المناسب لضرب الزوجة :

« وأوصيكم أيها الرجال ألا تضربوا زوجاتكم وهن حاملات فإن في ذلك أشد الخطر عليهن . ولست أعني بهذا أنكم يجب ألا تضربوهن أبداً ؛ ولكن الذي أعنيه أن تختاروا الوقت المناسب لهذا الضرب وأنا أعرف

رجالاً يهتمون بالدجاجة التي تضع بيضة في كل يوم أكثر من اهتمامهم بأزواجهم . فقد تكسر الدجاجة أحياناً وعاء أو قدحاً ، ولكن الرجل لا يضر بها خشية أن يفقد بذلك البيضة التي يحصل عليها منها ، إذن فما أشد جنون الكثيرين من الرجال الذين لا يطيقون سماع كلمة من زوجاتهم اللاتي يأتين هن بهذه الثمار الطيبة ! ذلك أن الواحد منهم إذا سمع من زوجته كلمة يرى أنها نابية ، عمد من فوره إلى عصا وشرع يضربها بها ، أما الدجاجة التي لاتنقطع عن الوقوفة طول النهار فإنه يصبر عليها من أجل بيضتها (٥٢) .

وكانت الفتاة من الأسر العريقة تدرب عادة على النجاح في الحصول على الزوج الثرى والاحتفاظ به ، وكان هذا التدريب أهم مادة في منهج تعليمها . وكانت تبقى إلى ما قبل زواجها بضعة أسابيع في عزلة إلى حد ما إما في دير أو في منزل أبويها ، تتلقى من معلمها أو من الراهبات تعليمها لابقبل درجة عما يتلقاه جميع من في طبقتهما من الرجال إذا استثنينا منهم العلماء . وكانت في العادة تتعلم شيئاً من اللغة اللاتينية ، وتدرس إلى حد ما كبار الشخصيات في تاريخ اليونان والرومان ، وآدابهم ، وفلسفتهم . وكانت تعزف على بعض الآلات الموسيقية ، وتمارس أحياناً فن النحت والتصوير . وكان بعض النساء يبلغن منزلة العلماء ، ويناقشن علناً بعض المسائل الفلسفية مع الرجال ؛ ومن هؤلاء كسندرا فيديلي من نساء البندقية ؛ ولكن أمثالها كن من الشواذ النادرات الوجود . وكان عدد لابس به منهن يقرض الشعر الجيد مثل قسطنديا فارانا Contanza Varana ، وفيرونيكا جبارا Veronica Gambara ، وفثوريا كولنا . غير أن المرأة المتعلمة في عصر النهضة ظلت محتفظة بأنوثتها ، وعقيدتها المسيحية وما توجهه عليها هذه العقيدة من القانون الأخلاقي ؛ وكان احتفاظها بهذه الصفات يهبها وحدة في الثقافة والحلق يعز على رجل النهضة الراقى أن يقاومها .

ذلك أن الرجل المتعلم في ذلك العصر كان يحس بجاذبيتها أشد الإحساس ،

وكان هذا الإحساس يصل به إلى درجة تدفعة إلى أن يؤلف ويقرأ الكتب التي تحلل مفاتها تحليلاً علمياً مفصلاً . من ذلك أن أنيولو فيرنندسو Agnolo Firenzulo الراهب القلمبروزي Vallobrosan ألف حواراً موضوعه جمال المرأة ، وأظهر في هذا الموضوع الشاق حذقاً وعلماً غزيراً لا يكادان يليقان بالرهبان . وهو يعرف الجمال نفسه كما يعرفه أفلاطون وأرسطو بأنه « التآلف المنتظم ، والتوافق الذي لا يستطيع الوصول إلى كنهه ، والذي ينتج من وجود عناصر مختلفة ، واتحادها ، وتفاعلها ، بحيث أن كل عنصر من هذه العناصر يتناسب مع العناصر الباقية أتم تناسب وأحسنه ، وأن يكون بمفرده جميلاً بمعنى ما ؛ ولكنها قبل أن تجتمع لتكون جسماً واحداً تختلف فيما بينها وتتنافر » (٥٣) . ثم يمضي فيبحث بمنتهى الدقة كل جزء من أجزاء المرأة ويضع الموازين القسط للجمال كل واحد منها ، فيقول إن الشعر يجب أن يكون غزيراً ، طويلاً ، أشقر - ويفسر الأشقر بأنه أصفر خفيف الزرقة قريب من السمرة ؛ أما البشرة الجميلة فهي البراقة الصافية ولكنها ليست البيضاء الشاحبة ؛ والعينان الجميلتان هما السوداوان الكبيرتان ، الممثلتان ، اللتان فيهما مسحة من الزرقة في حدة بيضاء ؛ أما الأنف فيجب ألا يكون أقنى ، لأن الأنف الأقنى منفر في المرأة بنوع خاص ؛ ويجب أن يكون الفم صغيراً ، أما الشفتان فلا بد أن تكونا ممثلتين ، والذقن يجب أن يكون مستديراً ذا نونة ؛ والعنق يجب أن يكون مستديراً طويلاً بعض الطول - ولكن يجب ألا تظهر فيه الحرقدة (*) ؛ ويجب أن تكون الكتفان عريضتين ، وأن يكون الصدر ممثلثاً منحدرّاً انحداراً أو مرتفعاً في ظرف وخفة ، واليدان بضمتين ممثلتين ناعمتين ؛ والساقان طويلتين ، والقدمان صغيرتين (٥٤) . ولنا لنحس بأن فيرنندسو لو قد أمضى كثيراً من الوقت يفكر في موضوعه ، وأنه اكتشف موضوعاً جديداً بديعاً من موضوعات الفلسفة .

(*) الحرقدة عقدة الحنجور Adam's apple .

ولم تقنع المرأة في عهد النهضة بهذه المفاتن فضت كما مضت أنحتها في جميع العصور تصبغ شعرها - لتحيله على الدوام تقريباً أشقر - وتضيف إليه الضفائر المستعارة تكمله بها ؛ وتبتاعها من القرويات اللاتي كن يتحصن غداثرهن بعد أن يذهب جملهن ويعرضنها للبيع^(٥٥) . وكانت المرأة الإيطالية في القرن السادس عشر تجن جنوناً بالعطور ، تضحخ بها شعرها ؛ وقبعتها ، وقبصها ، وجوربها ، وقنازها ، وحذاءها جميعها . ولقد امتدح أريتينو الدوق كوزيمو لأنه عطر له المال الذي بعث به إليه ، « ولا تزال بعض مخلفات ذلك العصر محتفظة برائحها الذكية لم تفقدها بعد »^(٥٦) . وكانت منضدة لباس السيدة ذات الثراء تמיד بما عليها من مواد التجميل ، تحتويها عادة قوارير بديعة الشكل من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب . ولم تكن الأصباغ الحمراء تستخدم في الوجه وحده ، بل كانت يزين بها أيضاً الثديان ، وكانا في المدن الكبيرة يترك الجزء الأكبر منهما عارياً^(٥٧) . وكانت مستحصرات كثيرة تستخدم لإزالة العيوب الجسمية ، ولتلميع أظافر اليدين ، ولجعل البشرة ناعمة ملمساً . وكانت الأزهار تزين الشعر والثياب ، واللؤلؤ والماس ، والياقوت ، والصفير (الياقوت الأزرق) والزمرد ، والعقيق ، والجمشت ، والزبرجد ، والياقوت الأصفر ، والمقيق تزين الأصابع في الخواتم ، واللراعين في الأساور ، والرأس في الأكاليل ، والأذنين (بعد ١٥٢٥) في الأقراط ، وكانت الحلى فوق ذلك ترصعها أغشية الرأس ، والأثواب ، والأحذية ، والمراوح .

وكانت ملابس السيدات ، إذا جاز لنا أن نحكم عابها من صورهن ، كثيرة الكلفة ، ثقيلة الوزن ، غير مريحة للجسم . وكانت الأثواب المصنوعة من الخمل ، والحرير ، والفراء تتدلى في ثنيات ضخمة من الكتفين ، أو من مشابك فوق الثديين إذا كانت الكتفان عاريتين . وكانت الأثواب تشد بمنطقة في الوسط وتكنس الأرض خلف القدمين . وكان حذاء المرأة الثرية

عالياً عند باطن القدم وعند الكعب ، لكي يحفظ قدمها من أقدار الشوارع ؛ ومع هذا فإن وجهه الأعلى كان يصنع عادة من الديباج الرقيق المقصب . وكانت نساء الطبقات العليا وقتئذ تستخدم المناديل ، تصنع في العادة من التيل ، وكثيراً ما كانت تخطط بالخيوط الذهبية أو توشى بالخرم (الدنتلا) . كذلك كانت الثنورات والثياب الداخلية توشى بالخرم وتطرز بالحرير ، وكانت الأثواب أحياناً تعلق حتى تلتف حول العنق وتمنعها من التثني أسلاك معدنية ، وكانت في بعض الأحيان ترتفع فوق الرأس . أما أغطية رءوس النساء فكانت تتخذ مائة شكل وشكل : كان منها عمامات ، وتيجان ، ومناديل رأس ، أو أقنعة ، تمسك بالآلي ؛ أو قلانس مقامة على أسلاك معدنية ، أو شبيهة بقلانس الغلمان أو حراس الخراج . ولما زار بعض الفرنسيين مدينة مانتوا سُروا وذهلوا حين رأوا المركيزة إزبلا تلبس قلنسوة ذات ريش من الجواهر ، ولكنها عارية الكتفين والصدر حتى حلمتي الثديين (٥٨) . وكثيراً ما شكوا الواعظون من ارتفاع صدور النساء ارتفاعاً يراد به استلفات عيون الرجال . وكانت شهوة العرى تملك النساء أحياناً إلى حد تخرج معه عن المعقول ، حتى لقد قال ساتشقي إن بعض النساء يتعرين تماماً إذا خلعن أحديثهن (٥٩) . وكانت بعض النساء يشددن أجسامهن بمشدات يمكن تضيقها بإدارة مفتاح لها ، وقد رثى بترارك « لبطونهن التي ضغطنها في غير رحمة حتى ليقياسين من الغرور آلاماً كالتى يقاسيها الشهداء لتسكهم بالدين » (٦٠) .

وتسلحت نساء الطبقات العليا في عصر النهضة بهذه الأسلحة الفتاكة فرفعن جنسهن من رق العصور الوسطى ومن حياة الدير المحترقة حتى أصبحن متساوين مع الرجال . فقد كانت المرأة تتحدث مع الرجل حديث الند للند في الأدب والفلسفة ، وكانت تحكم الدول حكماً يتصف بالفطنة والحصافة ، كما فعلت إزبلا ، أوبقوة ليست كمثلهما قسو الرجال كما فعلت كترينا اسفورديسا .

وكانت أحياناً تلمس الزرد ، وتتبع زوجها إلى ميدان القتال ، وتفوقه فيما يصدر من أوامر العنف والقسوة . وكانت تأبى أن تغادر المجلس حين تروى القصص البذيئة ؛ ولم تكن تستحي مما تسمع ، فكانت تستمع إلى الألفاظ الصريحة المكشوفة دون أن تخدش هذه الألفاظ حيائها أو تفقدها فتنها . وكمن من امرأة إيطالية في عهد النهضة سما بها عقلها أو سميت بها فضائلها إلى أرقى منزلة . نذكر منهن بيانكا مارية فسكنى Bianca Maria Visconti التى حكمت ميلان في غياب زوجها فرانتشيسكو اسفوردسا بحزم وقوة لم يسعه معها إلا أن يقول إنه يثق بها أكثر مما يثق بـجيشه كله ، ثم إنها في الوقت عينه اشتهرت « بالتقى ، والرافة وكثرة الصدقات ، وروعة الجمال » (٦١) ونذكر كذلك إميليا پيو Emilia Pio التى مات زوجها وهى في نضرة الشباب ، ولكنها احتفظت بذكراه إلى درجة أنه لم يعرف عنها فيما بقى من حياتها أنها شجعت رجلاً ما بالالتفات إليها ؛ ولكريديسيا تورنابوني Lucrezia Tornaboni أم لورندسو الأفخم ومشكلة أخلاقه ، والزبتا جندساجا ، وبيتريس دست ، ولكريديسيا بورجيا الظرفية المفترى عليها وكترينا كرنارو Caterina Cornaro التى جعلت أسولو Asoło مدرسة الشعراء والفنانين ، والرجال المهذبين ، وفيرونيكاجمارا Veronica Gambara الشاعرة صاحبة الندوة فى كريبجيو Correggio ؛ وفورتوريا كولنا ربة ميكل أنجيلو التى لم يمسمها بشر .

وتمثلت فى فورتوريا ، دون ما زهو وخیلاء ، جميع الفضائل الهادئة التى كانت للبطلات الرومانيات فى عهد الجمهورية ، ثم جمعت إلى هذه الفضائل أنبل الصفات المسيحية . وكانت فرع شجرة طيبة ممتازة : فكان والدها فريدسيو كولنا Fabrizio Colonna ، كبير رجال الشرطة فى نابلى ، وأمها أنيزى ده منتيفيلترو Agnese de Montafellro ابنة فيديريجيو دوق أربينو المتبحر فى العلم : وقد خطبت وهى فى سن الطفولة لفيرانتى فرانتشيسكو دا فالوس Ferrante Francesco d'Avalos مركزى پيسكارا ؛

وتزوجت به حين بلغت التاسعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) وكان الحب الذى ألف بينهما قبل الزواج وبعده قصيدة أجمل من كل الأغاني التى تبادلوها أثناء حروبه . ولما جرح فى واقعة رافنا (١٥١٢) وأدناه الجرح من منيته وأسر ، انتهز الفراغ الذى أتاحه له أسره فألف كتاب الحب وأهداه إلى زوجته . وكان فى هذه الأثناء قد اتصل بإحدى وصيفات إزابلا دست (٦٣) فلما أطلق سراحه عاد مسرعاً إلى فتوريا ، ثم خرج إلى حرب بعد حرب ، حتى لم تكد تراه فيما بعد . فقد قاد جيوش شارل الخامس فى باثيا (١٥٢٥) ، وانتصر بها فى معركة حاسمة ، ولما عرض عليه تاج باثيا إذا رضى أن ينضم إلى المؤتمرين على الإمبراطور فكر قليلاً ثم كشف لشارل عن المؤامرة ، ولما حضرته الوفاة (فى نوفمبر من عام ١٥٢٥) لم يكن قد رأى زوجه طيلة ثلاث سنين . وجهلت هى أو تجاهلت خياناته الزوجية ، فقضت السنين العشرين التى ترملتها بعده فى أعمال البر ، والتقى ، والوفاء لذكراه . ولما طلب إليها أن تتزوج مرة أخرى أجابت بقولها : « إن زوجى فردناند الذى تظنونونه مات ، لم يمت بالنسبة لى » (٦٣) . وعاشت بقية حياتها فى عزلة هادئة فى إسكيا Ischia ثم أوت إلى دير فى أرفيتو وانتقلت منه إلى دير آخر فى فيتربو ، ثم عاشت فى عزلة شبيهة بعزلة الدير فى رومة . وهنا اتخذت لها عدداً من الأصدقاء الإيطاليين الذين كانوا يعطفون على حركة الإصلاح الدينى وإن ظلت هى مستمسكة بدينها القديم . ووضعت فترة من الزمان تحت رقابة محكمة التفتيش ، فكان الذى يجرؤ أن يكون صديقاً لها يتعرض للاتهام بالإلحاد . ولكن ميكال أنجيلو عرض نفسه لهذا الخطر ، ونشأت بينه وبينها علاقة حب روحانى لم يتعد قط حدود الشعر .

وحررت نساء النهضة المتعلقات أنفسهن دون أن يقمن بدعابة ما لهذا التحرر ، ولم تكن وسيلتهن إليه غير ذكائهن ، وخلقهن ، وكياستهن ، وبما أرهفن من حواس للرجال بمفاتنهن الجنسية والروحية والعقلية . وقد

أثرن في زمنهن في كل ميدان من الميادين . في الميدان السياسي لقدرتن على حكم الدول بدلا من أزواجهن الغائبين ؛ وفي ميدان الأخلاق يجمعن بين الحرية وطيب العادات ، والصلاح ؛ وفي الفن بما أظهرن من جمال الأمومة الذى صورت على مثاله مئات من صور العذراء الأم ، وفي الأدب إذ فتحن أبوابهن للشعراء والعلماء وعطفن عليهم وابتسمن لهم . ولسنا ننكر أن كثيراً من الهجاء قد وجه وقتئذ للنساء كما وجه إليهن في كل عصر من العصور ؛ ولكن كل بيت مرير أو ساخر قيل فيهن كان يقابله أوراد وتسابيح من المديح والابتهال . وقصارى القول أن النهضة الإيطالية ، كالأستنارة الفرنسية ، قامت على أكتاف الجنسين ؛ فكانت النساء يرتدن كل ميدان من ميادين الحياة ؛ وتجرد الرجال من خشونتهم وغلظتهم ، ورقت آدابهم وألفاظهم ، وخطت الحضارة رغم تحللها وعنفها نحو الرشاقة والرقه خطوات . لم تشهد أوربا مثلها مدى ألف عام .

الفصل السادس

المنزل

وتبدت الرقة المطردة الزيادة في شكل البيت وفي الحياة المنزلية . لقد ظلت مساكن الشعب كما كانت من قبل - ذات جدران مغطاة بالبلاط أو الجص مطلية بالجير ، عارية عن الزينة ، وأرض مغطاة بالبلاط ، وفناء داخلي به في العادة بئر ، ويحيط بالفناء طبقة أو طبقتان من الغرف مزودتان بأبسط لوازم الحياة . أما قصور العظماء والأغنياء الحديثي الثراء فكانت روعة وترف تذكر الإنسان مرة أخرى بقصور رومة الإمبراطورية . ذلك أن الثروة التي كانت محبوسة من قبل على الكتدرائيات قد صبت الآن صباً على القصور فجاءتها بالأناث ، ووسائل النعيم والمتعة ، والزينة التي قلما نجد لها إذا تخطينا جبال الألب في قصور الأمراء والملوك . فها هو ذا بيت تشيجي الريفى ، وقصر مسمى Massimi اللذان خططهما بلدسارى پروتسى Baldassare Peruzzi يحتوى كل منهما على متاهة من الغرف تزدان كل واحدة منها بالعمد الأسطوانية والمربوعة ، أو الأطناف المنقوشة ، أو السقف ذات اللوحات المذهبة ، أو القبة والجدران المصورة ، أو المصطلى المحلى بالتماثيل ، أو الصور المنحوتة في الجص ، أو النقوش العربية ، أو الأرضية المصنوعة من الرخام أو القرميد . وكان في كل قصر سرر ، ونضد ، وصناديق ، وأصونة صنعت لتعيش مائة عام وتسرى الناظرين . وكانت خزائن أدوات المائدة أو نضدها مثقلة بالصحاف الفضية والأواني الخزفية الجميلة الأشكال ، وكان في القصر فرش وثيرة مريخة ، وطنافس جميلة ، وستر بديعة ، وكثير من الملابس الداخلية المتينة الصنع المعطرة . وكانت مدافئ عظيمة تدفئ الحجرات ، والمصابيح أو المشاعل ، أو القناديل

تثيرها . ولم يكن شيء ما ينقص هذه القصور غير الأطفال .

ذلك أن تحديد النسل يكثر كلما كثر المال اللازم لإعالة الأطفال ، وكانت الكنيسة والكتب المقدسة تأمر بزيادة النسل ومضاعفة عدد الأبناء ، ولكن الرغبة في التمتع كانت تشير بالإقلال منهم ؛ وحتى في الريف حيث يكون الأطفال مصدر ثراء كانت الأسر التي بها ستة أبناء نادرة الوجود ، وفي المدن حيث يكون الأطفال عبئاً على الآباء كانت الأسر صغيرة العدد — وكلما زاد ثراء الأسرة قل عدد أفرادها — وكثير من الأسر لم يكن فيها أبناء على الإطلاق^(٦٤) . غير أن الأسر الإيطالية كان في مقدورها أن تنجب أطفالاً ظرفاء كما نتبين ذلك من صور الأطفال التي رسمها الفنانون ومن رسوم دوناتلو ولوكا دلا ريبيا Luca della Robbia ، والتماثيل المنحوتة كتمثال « القديس يوحنا الشاب » الذي نحته أنطونيو رسيلىنو والمحفوظ في المتحف الأهلي بواشنطن . وإن تضامن الأسرة ، والولاء والحب المتبادلين بين الآباء والأطفال ليزيدهما رونقاً وجمالاً ما كان سائداً في ذلك الوقت من انحلال في الأخلاق .

وكانت الأسرة لا تزال وحدة اقتصادية ، أخلاقية ، جغرافية ، إذا عجز أحد أعضائها عن الوفاء بما عليه من دين وفي به سائر الأعضاء ، وتلك ظاهرة تخالف ما اتسم به ذلك العصر من نزعة فردية . وكلما كان عضو يتزوج أو يترك البلاد دون موافقة أسرته ، وكان الخدم أعضاء في الأسرة أحراراً بمولدهم ، صريحين في حديثهم . وكان للوالد على الأبناء سلطان كامل ، وأمره مطاع في الأزمات ، ولكن الأم كانت هي التي تحكم المنزل في العادة ، ولم يكن حب الأم أبناءها يختلف عند الفقيرات عنه لدى الأميرات ، انظر إلى ما كتبه بيترس دست عن والدها الصغير إلى أختها . لاذبلاً : « كثيراً ما تمنيت أن تكوني هنا لتشاهديه بعينيك ، فلو أنك كنت هنا لما خالجتني أقل شك في أنك لن تستطيعي أن تحاجزي نفسك عن تقبيله وتدليله »^(٦٥)

وكانت معظم الأسر من الطبقة الوسطى تحتفظ بسجل يحوى تواريخ ميلاد أعضائها ، وزواجهم ، وموتهم ، والحوادث الهامة فى حياتهم تتخللها فى بعض المواضع تعليقات ناطقة بالحب والمودة . فقد كتب چيوفانى روتشيللى Giovanni Rucelli (أحد أسلاف الكاتب المسرحى صاحب هذا الاسم نفسه) هذه العبارة فى أواخر أيامه فى سجل من هذا النوع لأسرته :

« أحمد الله الذى خالقنى إنساناً عاقلاً مخلداً ؛ فى بلد مسيحى ؛ قريب من رومة ، مركز العقيدة المسيحية ؛ وفى إيطاليا أشرف بلاد العالم المسيحى ؛ وفى فلورنس أجمل مدائن العالم كله . . . أحمد الله الذى جعل لى أمماً ممتازة ، رفضت بعد موت أبى كل عروض الزواج مع أنها لم تكن تتجاوزت سن العشرين عند وفاته ، وكرست حياتها كلها للعناية بأبنائها ؛ كما رزقنى أيضاً زوجة صالحة ، حبتنى حباً صادقاً ، ووجهت أعظم عنايتها لبيتها وأبنائها ، أبقاها الله لى كثيراً من السنين ، وكان موتها أفدح خسارة أصابتنى أو يمكن أن تصيبنى طوال حياتى . فإذا ما تذكرت جميع هذه النعم والمزايا ، فإنى الآن وأنا فى سن الشيخوخة أحب أن أتجرد من جميع المنافع الدنيوية لكى أتوجه بروحى كلها إلى التسبيح بحمداك يا الله والثناء عليك يا حى يا قيوم يا من وهبتنى الحياة (٦٦) » .

وكتب رجلمان ، أو لعلهما رجل واحد ، حوالى عام ١٤٣٦ رسالتين عن الأمرة وطريقة حكمها . لقد كان أنيولو بندلفينى Anolo Pandolfini فى أغلب الظن صاحب الرسالة الفصيحة المسماة رسالة فى حكم الأسرة Trattato del governo della famiglia ؛ وكتب ليون باتستا ألبيرتى .

Leon Battista Alberti بعده بقليل رسالة فى الأسرة Trattato della

famiglia ، يشبه الكتاب الثالث من كتبنا « الاقتصاد Economico » أعظم الشبه الرسالة السابقة حتى لقد ظن بعضهم أن الكتابين ليسا إلا صورتين .

مختلفتين لرسالة واحدة من قلم ألبرتى. وليس بعيد أن تكون نسبة كل واحدة منهما لصاحبها صحيحة ، وأن ما بينهما من تشابه كبير يرجع إلى أن كلا المؤلفين قد اعتمد في رسالته على كتاب اكسنوفون Xenophon في الاقتصاد Oeconomicus ورسالة بندلثيني أحسن الرسالتين . وكان صاحبها رجلاً ثرياً شبيهاً في هذا بآل روتشلاى ؛ وقد خدم فلورنس في مناصب دبلوماسية ، وكان سخياً في هباته للمشروعات العامة . وقد كتب رسالته في أواخر حياته . الطويلة ووضعها في صورة حوار بينه وبين أبنائه الثلاثة : فهم يسألونه هل يسعون إلى المناصب العامة ؛ ولكنه يشير عليهم بالابتعاد عنها ، لأنها تتطلب أعمالاً تتصف بالخيانة والقسوة ، والسرقه ، وتعرض صاحبها لارتباب الناس ، وحسدهم ، وتوجيه السباب له . ويقول لهم إن نجاح المرء في نيل السعادة لا يقف على نيل المناصب العامة أو الشهرة الواسعة ، بل إن سعادته تعتمد على زوجته ، وأبنائه ، ونجاحه الاقتصادى ، وسمعته الطيبة ، وأصدقائه الأوفياء . وينبغي للمرء أن يتخذ له زوجة تنقص عنه في السن إلى درجة تجعلها خاضعة لتعاليمه قابلة لأن يشكلها على هواه ؛ وعليه أن يعلمها ، في السنين الأولى من زواجهما ، واجبات الأمومة ، وفنون تدبير المنزل . والحياة الهنيئة مصدرها الاقتصاد والنظام في العناية بصحة الجسم والعقل ، وحسن استخدام المواهب ، والوقت ، والمال : فأما العناية بالصحة فتكون بالتعفف ، والرياضة ، والاعتدال في الطعام ؛ وأما حسن استخدام المواهب فوسيلته الدرس ، والتخلق بالأخلاق الشريفة باتباع أوامر الدين وبالقدوة الصالحة ؛ والانتفاع بالوقت يكون بتجنب البطالة ، والانتفاع بالمال يكون بحسن تدبير الدخل ، والنفقات ، والادخار والعمل على توازن هذه العوامل الثلاثة . والرجل الحكيم يستثمر ماله أولاً في مزرعة أو ضيعة بصرف شئونها بحيث تملئه هو وأسرته بمسكن ريفى ، وبما يلزمه من الخبز والنبيد ، والزيت ، والطيور ، والخشب وبأكثر ما يستطيع الحصول عليه من ضرورات الحياة

الأخرى . ويحسن به كذلك أن يكون له بيت في المدينة ، حتى يستطيع
أبنائه أن ينفذوا بما فيها من وسائل التربية والتعالم . ويتعلموا بعض الفنون
الصناعية (٦٧) . لكن من واجب الأسرة أن تقضى أكبر جزء تستطيعه من
الوقت في بيتها الريفي :

« ذلك أن للبيت الريفي مزايا عظيمة شريفة على حين أن كل ما للإنسان
من ملك يتطلب من صاحبه العمل ويعرضه للخطر ، والخوف ، وخيبة
العمل . أما البيت الريفي فهو على الدوام صادق شفيق رحيم ففي الربيع
تبعث الأشجار الخضراء ، ويبعث تغريد الطيور ، في نفسك الهجة والأمل ،
وفي الخريف يعود عاكك الجهد المعتدل بشجرة تعادله مائة مرة ، وأنت
طول العام أبعد ما تكون عن الحزن والكآبة . ذلك أن البيت الريفي هو البقعة
التي يحب فيها الرجال الصالحون الأشراف أن يجتمعوا بعضهم ببعض . . .
فأسرع إذن إلى هناك ، وطر من كبرياء الأغنياء وخيانة أشرار الرجال (٦٨) » .

ويرد على هذا كاتب يسمى جيوفاني كمانو Giovanni Compano
بالنيابة عن ملايين الملايين من الفلاحين فيقول : « لو لم أكن من أبناء
الريف ، لابتهجت من فوري بهذا الوصف للسعادة الريفية ؛ أما وأنا
الريفي الزارع ، « فإن ما ترونه أنتم سبباً للهجة ، أراه أنا باعثاً للملل
والسآمة » (٦٩) .

الفصل السابع

الأخلاق العامة

لقد كان بندلفيني محقاً في حكم واحد من أحكامه على الأقل - وهو أن الأخلاق المتصلة بالمعاملات التجارية وعند الجماهير بوجه عام كانت أكثر ما ينفر منه الإنسان في حياة عصر النهضة - ذلك بأن النجاح ، لا الفضيلة ، في ذلك الوقت كان هو الميزان الذي توزن به أقدار الرجال وحتى بندلفينو . التقي المستقيم نفسه يدعو الله أن يرزقه الثراء لا السمعة الخالدة . لقد كان الناس في ذلك الوقت كما هم الآن يجرون وراء المال ، ولا يؤنبهم ضميرهم كثيراً بسبب ما يتبعونه من الوسائل لجمعه . فكان الملوك والأمراء يغدرون بخلفائهم ، وينكثون أقوى عهودهم إذا لاح لهم بريق الذهب . ولم يكن رجال الفن أحسن حالاً من الملوك والأمراء ! فكثيرون منهم تناولوا مقدم أجور عن أعمال عجزوا عن إتمامها أو عند البدء فيها ، ولكنهم احتفظوا مع ذلك بما قبضوا من أجور ، وكان بلاط البابا نفسه مضرب المثل في هذا الجشع المالى . ولنستمع مرة أخرى إلى أعظم مؤرخ للبابوية .

« لقد استشرى الفساد ومد جذوره في جميع مناحي الإدارة البابوية . . . وخرج عدد الهبات التي تنصب فيها صباً والقروض التي تفتصبها اغتصاباً عن كل حد . . . يضاف إلى ذلك أن العقود كانت تتداول وتزور بأيدي الموظفين أنفسهم ، فلا عجب والحالة هذه إذا ارتفعت من جميع أنحاء العالم المسيحية أعلى الصيحات بالشكوى من هذا الفساد وذلك الاغتصاب المالى الذى يقوم به موظفو الإدارة البابوية ، حتى لقد قيل إن لكل شيء في رومة ثمنه » (٧٠) .

وكانت الكنيسة لا تزال تحرم أخذ الفائدة على الأموال وتعدّها بجميع

أنواعها من قبيل الربا ، وكان الواعظون ينددون بهذا العمل ، وحرمته أحياناً بعض المدن - مثل بياتشندسا - وأُنذرت من يمارسه بالحرمان من القربان المقدس ومن الدفنة المسيحية عند مماته . ولكن إقراض المال بالفائدة ظل يجري في مجراه ، لأن هذه القروض لم يكن منها بد في الأعمال الاقتصادية ، التجارية والصناعية ، الآخذة في الاتساع . وسنت القوانين تحرم أن يزيد سعر الفائدة على عشرين في المائة ، ولكننا مع ذلك نسمع عن حالات بلغ فيها هذا السعر ثلاثين في المائة . وكان المسيحيون ينافسون اليهود في عقد القروض ، حتى لقد شكوا مجلس فيرونا البلدى من أن المسيحيين يفرضون على المدنيين شروطاً أقسى مما يفرضه اليهود^(٧١) . غير أن غضب الشعب قد حل أشده على اليهود ، وكثيراً ما أدى إلى أعمال العنف الموجهة إلى الساميين . وواجه الرهبان الفرنسيين هذه المشكلة وحاولوا تخفيف العبء عن أشده المدنيين بوساً بإنشاء أرصدة الإحسان (*monti di pieta*) ومعناها الخرفى (أكوام الإحسان) جمعوها من الهبات والوصايا ليقترضوا منها المحتاجين ؛ وكانوا في أول الأمر يقترضونهم بغير فائدة . وكان أول رصيد من هذا النوع هو الذى أنشئ في أرفينو عام ١٤٦٣ ؛ ولم تلبث كل مدينة كبيرة أن حذت حذوها ؛ وتطلب ازدياد مقدار هذه الأرصدة تخصيص بعض المال لإدارتها والإشراف عليها ؛ فما كان من مجلس لاتران الخامس الذى عقد في عام ١٥١٥ إلا أن منع الرهبان الفرنسيين الحق في أن يفرضوا على كل قرض ما يكفى من المال لتغطية نفقات الإدارة والإشراف . وسار بعض رجال الدين في القرن السادس عشر على هذه السنة نفسها فأجازوا أخذ فائدة معتدلة على القروض^(٧٢) . ثم أخذ سعر الفائدة ينخفض انخفاضاً سريعاً في القرن السادس عشر بفضل منافسة أرصدة الإحسان ، وأكثر من هذا في أغلب الظن بفضل ازدياد مهارة رجال المصارف المحترفين ومنافستهم للأفراد المقرضين .

وازداد النظام الصناعى قوة باتساع مداه وباختفاء العلاقة الشخصية بين العامل وصاحب العمل . ذلك أن رقيق الأرض فى نظام الإقطاع كان يستمتع ببعض الحقوق فى مقابل ما يفرض عليه من الأعباء ، فقد كان ينتظر من سيده أن يعنى به إذا مرض ، أو حلت بالبلاد أزمة اقتصادية ، أو شبت فيها نار حرب ، أو بلغ سن الشيخوخة . وكانت نقابات الحرف فى المدن الإيطالية تؤدى بعض هذه الواجبات للطبقة العليا من العمال ، ولكن العامل « الحر » كان فى العادة « حرّاً » فى أن يموت جوعاً حين لا يجد عملاً يقتات منه ، فإذا وجده كان لابد له أن يقبله بالشروط التى يفرضها عليه صاحب العمل نفسه ، وما كان أقسى هذه الشروط . وكان كل اختراع وكل تحسين فى وسائل الإنتاج وفى الأنظمة المالية يزيد من أرباح صاحب العمل ، وقبلما كان يزيد الأجور . وكان رجال الأعمال يقسو بعضهم على بعض بقدر ما يقسون على عمالهم : فنحن نسمع عن كثير من الحيل التى كانوا يلجئون إليها فى تنافسهم ، وعن عقودهم الخادعة ؛ وعن وثائقهم المزورة التى يخططها الحصر (٧٣) . فإذا ما تعاونوا كان تعاونهم يهدف لخراب بيوت منافسيهم فى بلد غير بلدهم . بيد أننا نجد أحياناً أمثلة دالة على الإحساس بواجب الشرف بين كثيرين من التجار الإيطاليين ، واشتهر رجال المال فى إيطاليا بالأمانة والاستقامة فى المعاملة أكثر مما اشتهر بها أمثالهم فى أوروبا (٧٤) .

وكانت الأخلاق الاجتماعية مزيجاً من العنف والعفة . ولنا لنجد فى الرسائل التى كانت تتبادل بين الأفراد فى ذلك الوقت شواهد كثيرة على ما كانوا يتصفون به من الرقة والحنان ؛ ولم يكن الإيطاليون العاديون يضارعون الأسبان فى شراستهم أو الجنود الإيطاليين فى إقدامهم على ذبح أعدائهم جماعات . ولكن ما من أمة فى أوروبا كان فيها من الاغتيال ونهش الأعراض مثل ما كان يدور حول جميع الرجال البارزين فى رومة ؛ وهل يستطيع أحد غير الإيطاليين فى عهد النهضة أن يصف أريتينو بأنه من أولياء

الله الصالحين ؟ . وانتشر العنف بين الأفراد انتشاراً واسع النطاق . وكان من أسباب قوة النزاع بين الأسر زوال العادات القديمة والعقيدة الدينية ، والتراخي في أخذ الناس بالقانون ، ولهذا كان الناس يثأرون لأنفسهم بأنفسهم ، وظلت الأسر يقتل بعضها بعضاً جيلاً بعد جيل ، كما ظل التبارز عادة مألوفة مشروعة في إيطاليا لا يقف حتى يقتل أحد المتبارزين نده ، وحتى الأولاد الصغار كان يسمح لهم بأن يقاتل بعضهم بعضاً بالمدى ، ويعد هذا أيضاً من الأعمال المشروعة (٧٥) . وكان النزاع بين الأحزاب أشد منه في أى مكان آخر في أوروبا ، وكانت الجرائم وأعمال العنف بخطتها الحصر . وكان من المستطاع ابتياع السفاحين بأثمان لا تكاد تزيد على أثمان صكوك الغفران ، وكانت قصور رومة تزدحم بأولئك السفاحين المستعدين لاغتتيال أى إنسان بإشارة من سادتهم . وكان كل إنسان يحمل خنجرأ ، وكان عاجزو السموم يجدون كثيرين من طالبي سمومهم ، حتى بلغ الأمر أن أهل رومة قلما كانوا يعتقدون أن إنساناً ذا شخصية بارزة أو مال موفور مات ميتة طبيعية ... وكان كل ذى شخصية يطلب أن يذوق شخص آخر بين يديه كل ما يقدم له من طعام أو شراب . وانتشرت في رومة قصص عن سم بطيء لا يسرى مفعوله إلا بعد فترة طويلة تكفى لستر آثار من يقدمه . وكان على الإنسان أن يكون يقظاً محاذراً في تلك الأيام ؛ فإذا غادر المنزل في ليلة من الليالى ، فقد ينصب له كمين ويسرق ماله ، ويكون من حسن حظّه ألا يلقى حتفه ؛ وحتى في الكنيسة نفسها لم يكن الشخص آمناً على نفسه ، وكان عليه إذا سار في الطرق العامة أن يستعد لمقاومة قطاع الطرق . ولهذا كان من الواجب أن يصير عقل رجل النهضة حاداً كحدة نصل السفاح .

وكانت القسوة أحياناً قسوة جماعية تسرى عدواها في الأفراد والجماعات . مثال ذلك أن فتنة اندلع لهايبها في أرتسو عام ١٥٠٢ ضد أحد المندوبين الفلورنسيين ، فقتل فيها مئات من أرتسو في شوارعها محبت فيها أسر

بأكملها ، ووجد أحد الضحايا من ثيابه وشنق ووضع شعلة مثقولة بين عجزيته ؛ فما كان من الجماهير المرحمة المبهجة إلا أن أطلقت عليه اسم الملوط (٧٦) . وانتشرت قصص العنف ، والقسوة ، والشهوات انتشار الحرافات ؛ حتى لقد كان بلاط فيرارو الذي يزدان بالشعر والأدب تروعه جرائم الأمراء وما يوقعه الملوك من ضروب العقاب . وكان تحلل الحكام المستبدين أمثال آل فسكنتي ومالاتسنا أنموذجاً ينسج على منواله ذوو العنف الهواة من أفراد الشعب ، وحافزاً لهم على تقليده .

وتدهورت المبادئ الأخلاقية الحربية على مر الزمن . فقد كانت المعارك كلها تقريباً في بواكير عهد النهضة لا تزيد على اشتباكات غير ذات بال بين جنود مرتزقة يحاربون في غير عنف شديد ، ويعرفون متى يقفون القتال ، وكان النصر ينال إذا ما سقط في حومة الوغى عدد قليل من الرجال ، وكان السجين الحى الذى يستطاع فداؤه أعظم قيمة من العدو الميت . ولما ازدادت قيمة الزعماء المغامرين المأجورين ، وكبرت الجيوش وتطلبت نفقات ضخمة ، سمح للجنود بأن ينهبوا المدن المفتوحة بدل أن تؤدي إليهم أجور منتظمة ؛ وكانت مقاومة التهب تؤدي إلى المذابح التى يهلك فيها العدد الجلم من السكان ؛ وكانت وحشية الجنود الفاتحين تزداد حينما يشمون رائحة الدم المسفوك . ومع هذا كله فقد كانت قسوة الإيطاليين في الحرب أقل من قسوة الغزاة الأسبان والفرنسيين . مثال ذلك أنه حين استولى الفرنسيون على كابوا في عام ١٥٠١ أوقعوا بأهلها مذبحه ، شنيعة سقط كثير من النساء حتى اللاتي كرسن أنفسهن لعبادة الله . : ضحية لشهواتهم أو شرهم ، وبيع كثير من أولئك المخلوقات البائسات في رومة بعدئذ بأبخس الأثمان (٧٧) كما يقول جوتشياردينى . وغير خاف أنهم بعن للمسيحيين . وزاد استرقاق أسرى الحرب كلما تقدمت أساليبها في عصر النهضة .

ولسنا ننكر أنه كان ثمة أمثلة من الولاء الجميل بين الإنسان والإنسان ،

حويين المواطن والدولة ؛ ولكن ازدياد المقدرة على المكر والدهاء زاد من قدر الغش والخداع . فكان القواد يبيعون أنفسهم لمن يؤدي إليهم أعظم الأثمان ، فلماذا ما احتدم القتال أخذوا يفاوضون العدو للحصول على أثمان أكبر من التي اشترى بها . كذلك كانت الحكومات تبدل موقعها في أثناء الحرب فيصبح الحلفاء أعداء بحجة قلم . وكان الأمراء والبابوات يغدرون بمن آمنوهم على أنفسهم من القادمين إلى بلادهم والخارجين منها (٧٨) ، والحكومات توافق على اغتيال أعدائها سرّاً في الدول الأخرى (٧٩) . وكان الخونة يوجدون في كل مدينة وفي كل معسكر : ومن أمثلة هؤلاء بيرنر دينو دل كورتى Bernardino del Corte الذي باع قلعة لدفيكو لفرنسا ؛ والسويسريون والإيطاليون الذين غدروا بلدفيكو وباعوه للفرنسيين ؛ وفرانتشيسكو ماريا دلاروفيري الذي منع جنوده من أن يخفوا لتجدة الباهة في عام ١٥١٧ ، ومالاتستا بيجليوني الذي باع فلورنس في عام ١٥٣٠ . . . ولما ضعفت العقيدة الدينية حلت محل فكرة الحق والباطل في كثير من العقول فكرة النافع وغير النافع من الوجهة العملية ؛ وإذا كانت الحكومات في العادة قصيرة الأجل لا تصبح ذات سلطان شرعي بطول الزمن ، فقد ضعفت هند الناس عادة إطاعة القانون ، وكان لابد من أن نحل القوة في هذا محل العادة ؛ ولم يكن ثمة طريق للخلاص من استبداد الحكومات إلا قتل المستبدين .

وعم الفساد كل فرع من فروع الإدارات الحكومية . ففي سينا مثلاً كن لا بد من وضع الإدارة المالية في آخر الأمر في أيدي راهب اشتهر بالتقى والورع لأن كل إنسان آخر قد اختلس مال المدينة . وساءت سمعة المحاكم كلها عدا محاكم البندقية لكثرة ما كان فيها من الفساد والرشوة . ونروى قصة من قصص ساكشتي Sacchetti أن قاضياً ارتشى بثور ولكن خصم الراشي بعث إلى هذا القاضى نفسه بقرة وعجلاً فحكم

لصالحه (٨٠) . وكان التقاضى كثير النفقة ، ولهذا اضطر الفقراء إلى الاستغناء عنه ، ووجدوا أن قتل الخصم أرخص من مقاضاته . وكان القانون نفسه آخذاً في الرقي ولكن رقيه كان مقصوراً على الناحية النظرية . وقد أنجبت بدوا ، ويولونيا ، وبيزا ، وبيروجيا كثيرين من فقهاء القانون أمثال تشينو دا بستويا Cino da Pistoia ، وبرتولوس من أهل ساسوفيراتو Bartolus of Sassoferrato ، وبلدو دجلى أوبلدى Boldo degli Ubalbi الذى طل شرحه للقانون الرومانى أكبر مرجع فى فقه القانون قرنين كاملين . وكان القانون البحرى والتجارى يتسع نطاقه باتساع نطاق التجارة الخارجية ؛ ومهد جيوفنى دا لنيانو السبيل لجروتوس برسالة عن الحرب Tractatus de Bello (١٣٦٠) ، وهى أقدم كتاب معروف عن قوانينها .

لكن تطبيق القانون لم يبلغ من السمو مبلغ نظريته ، ذلك أن نظام الشرطة لم يمار فى تقدمه سير الجرائم ، وإن كانت مهمته فى حماية الأنفس والأموال قد أخذت تظهر وتشكل وخاصة فى فلورنس . وكثر المحامون ، وظل التعذيب يستخدم فى استجواب الشهود والمتهمين . وكانت العقوبات قاسية همجية . ففى بولونيا مثلاً كان يمكن تعليق المذنب فى قفص من أحد الأبراج المائلة ، ويترك حتى يتقرح جسده فى الشمس (٨١) ، وفى سينا كان الرجل المحكوم عليه يمزق لإرباً على مهل فى شوارع المدينة (٨٢) ؛ وفى ميلان أثناء حكم جيوفنى فسكونتى مضيف بترارك كان المسيجون تبتز أطرافهم طرفاً بعد طرف (٨٣) ؛ وبدأت فى أوائل القرن السادس عشر عاد الحكم على المساجين بجذب المجاذيف الثقيلة التى كانت تزود بها السفن ، مشاهد ذلك أن سفائن يوليوس الثانى كانت تحمل على ظهورها أرقاء شددودين إليها من أرجلهم (٨٤) .

على أننا نستطيع أن نذكر فى مقابل هذه الأعمال الهمجية تطور الإحسان المنظم ورقيه ، فقد كان كل من يترك وصية يفرد جزءاً من ماله لبوزع

على الفقراء من أهل الأبرشية التي يعيش فيها . وإذ كان المتسولون لا يحصى لهم عدد ، فإن بعض الكنائس كانت تقيم ما يشبه مطاعم الشعب الحديثة ، وجرياً على هذه السنة كانت كنيسة القديسة مارية (سانتا ماريا) في كامپو سانتو برومة ، تطعم ثلاثة عشر متسولاً في كل يوم وألقى متسول في أيام الإثنين والجمعة (٨٥) ، وكانت المستشفيات العامة ، ومستشفيات المجنومين ، وملاجئ المرضى الميئوس من شفائهم ، والفقراء ، واليتامى ، والحجاج المعدمين ، والعاهرات التائبات ، كانت هذه كلها كثيرة العدد في إيطاليا إبان عصر النهضة . واشتهرت بستويا وثيربو باتساع نطاق مؤسساتها الخيرية ، وفي مانتوا أنشأ لدوفيكو جندساجا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore للعناية بالفقراء والعجزة ، وخصه بثلاثة آلاف دقة كل عام من الأموال الحكومية (٨٦) . وأنشئت في البندقية جمعية عرفت باسم جمعية الهليجريتي Pellegrini من أعضائها تيشيان وابنى سانسوفيني Sansovini لتقديم المعونة المتبادلة لأعضائها والباثئات للبنات الفقيرات ، إلى غير هذه وتلك من أعمال البر . وكان في فلورنس في عام ١٥٠٠ ثلاث وسبعون منظمة مدنية تقوم بأعمال الإحسان . وتأسست في عام ١٢٤٤ جمعية الإخوان البائسين Fraternita della Mesericordia ، ولكنها أهملت حتى ماتت ، ثم أعيدت في عام ١٤٧٥ ؛ وكان أعضاؤها من غير رجال الدين الذين أخذوا على أنفسهم أن يزوروا المرضى ، ويقوموا بأعمال البر الأخرى ، واستمالوا لإيهم قلوب الشعب بإقداهم بشجاعة على العناية بضعحايا الطاعون ؛ ولا تزال مواكبهم الصامئة التي يسرون فيها بأثوابهم السود من أعظم المناظر رهبة وتأثيراً في المشاعر في فلورنس (٨٧) . وكان في البندقية جماعة من هذا النوع تدعى إخوة سان روكو Confraternita di San Rocco ؛ وأنشئت في رومة جماعة الإخوة الحزونين Sodality of the Doloros

التي تبلغ الآن من العمر خمسمائة عام وأربعة أعوام ، وأسس الكردنال
جوليوده ميديتشى فى عام ١٥١٩ جماعة أخوة الصداقه **Confraternita**
della Carita للعناية بالفقراء الذين هم أعلى من طبقة المتسولين ؛ ولتقوم
بدفن المعلمين دفنة كريمة . هذا إلى أن الصدقات الفردية التي كان يقدمها
ملايين الأفراد ممن لم تعرف أسماءهم كانت تخفف بعض الشيء من كفاح
الإنسان لأنجيه الإنسان ، ومن صراعه مع الطبيعة والموت .

الفصل الثامن

العادات العامة ووسائل التسلية

بين العنف وعدم الأمانة ، والحياة الصاخبة التي كان يحياها طلبة الحمامات ، والفكاهة الخشنة والحنان اللذين يتصف بهما الفلاحون والعمال ، بين هذا كله نشأت الآداب العامة الطيبة كأنها فن آخر من فنون النهضة ، فتزعمت إيطاليا وقتئذ أوروبا كلها في قواعد الصحة الشخصية والاجتماعية ، والثياب ، وآداب المائدة وطهو الطعام ، وآداب الحديث ، والرياضة البدنية . وكانت فلورنس تدعى أنها هي التي تتزعم إيطاليا في هذا كله عدا الملابس . وكانت تدفعها روحها الوطنية لأن ترثي لما في المملدن الأخرى من قذارة ، كما كان الإيطاليون يتخذون لفظ « ألماني » مرادفاً للخشونة في اللغة والحياة (٨٨) . واحتفظت الطبقات المتعلمة في إيطاليا بالعادة الرومانية القديمة عادة الاستحمام الكثير ، وكان أثرياء القوم يقباهون بأثوابهم الجميلة ويؤمون الأماكن ذات المياه المعدنية ، ويشربون المياه الكبريتية يطهرون بها بطونهم في كل عام مما أفرطوا فيه من الطعام والشراب . ولم تكن ملابس الرجال أقل زينة من ملابس السيدات ولا تنقص عنها إلا الحلي ، وكانت لهم أكماس ضيقة ، وجوارب ملونة ، وقبعات كبيرة كالتي شاهدها رفائيل على كستجليوني . وكان الجوارب يغطي الساق كلها حتى آخر القدم فيجعل الرجال يقفزون في مشيهم قفزاً يدعو إلى السخرية . أما في الجزء الأعلى من الجسم فقد كان في وسع الرجل أن يكون حسن الهندام ، فقد كان يرتدى صدرية من الخمل موشاة بالحرير ومزدانة بالمخرمات . (الدنتلا) ، ولم تكن القفازات والأحذية نفسها تنقصها هذه المخرمات . وأحدث في مهرجان للرجاس

لورندسو ده ميديتشى أن ارتدى أخوه جوليانو أثواباً كلفته ثمانية آلاف
دوقه (٨٩) .

وحدث في القرن الخامس عشر انقلاب تام في آداب المائدة حين ازداد استعمال الشوكة بدل الأصابع في تناول الطعام ونقله إلى الفم . ولشد ما دهش
تومس كريات Thomas Coryat حين زار إيطاليا حوالى عام ١٦٠٠ من
هذه العادة الجديدة التى لم يتعودها الناس في أى بلد آخر رأته في أسفارى «
على حد قوله ، وقد ساعد بنفسه على إدخال هذه العادة في إنجلترا (٩٠) .
وكانت السكاكين ، والشوك ، والملاعق تصنع من النحاس الأصفر ، ومن
الفضة في بعض الأحيان - فإذا كانت من الفضة أعيرت للعجيران حين
يقيمون المآدب . أما الطعام فقد كان طعاماً وسطاً إلا في المناسبات الهامة
أو المآدب التى تقيمها الدولة في المناسبات الرسمية ، فقد كان التعالى فيها أمراً
واجباً إجبارياً . وكانت التوابل - كالفلفل ، والقرنفل ، وجوزة الطيب ،
والقرقة ، والعرعر والزنجبيل وما إليها - تستخدم بكثرة لزيادة نكهة
الطعام وزيادة الظمأ إلى الشراب ، ولهذا كان كل مضيف يقدم لضيفه
أنواعاً مختلفة من الخمور . وفي وسعنا أن نرجع شيوع الثوم في إيطاليا إلى
عام ١٥٤٨ ، ولكن الذى لا شك فيه أن استعماله بدأ قبل ذلك بوقت طويل .
وقلما كان يؤخذ على القوم نهم أو شراهة في الطعام والشراب ؛ ذلك أن
الإيطاليين في عهد النهضة كانوا كالفرنسيين في العهود المتأخرة خيرين
بالأطعمة والأشربة لانهم فيها . وإذا ما تناول الرجال طعامهم بمعزل عن
النساء كانوا يدعون معهم بعض المحاظى - واحدة أو اثنتين - كما فعل
أريتينو حين عزم تيشيان . أما من هم أكثر احتشاماً فقد كانوا يجملون
وجبات الطعام بالموسيقى ، وارتجال الشعر ، والحديث المثقف الدال على
حسن التربية .

وقد اخترع فن الحديث - الحديث الجميل - الحايث الذى ينم على

الذكاء ، والأدب ، والتهذيب ، والمتسم بالوضوح ، وروح الفكاهة -
اخترع هذا الفن من جديد في عهد النهضة . وكانت بلاد النوبة القديمة ،
ورومة قد عرفنا هذا الفن من قبل ، وظل حياً يتعثر في العصور الوسطى
في أماكن متفرقة من إيطاليا كبلات فرديريك الثاني وإنوسنت الثالث مثلاً .
ثم ازدهر الآن مرة أخرى في فلورنس في أيام لورندسو ، وفي أرينو على
عهد اليزابتا ، وفي رومة أيام ليو : فكان النبلاء وزوجاتهم ، والشعراء
والفلاسفة ، وقواد الجيوش والعلماء ، والفنانون والموسيقيون « يجتمعون في
رفقة العقول ، يتناقلون أقوال أشهر المؤلفين ، ويظهرون في بعض الأحيان
احترامهم وطاعتهم لأوامر الدين ، ويحملون حذلقهم بلمسة خفيفة من
الخيال العجيب ، ويستمتعون بالإصغاء بعضهم إلى بعض . وقد بلغ من
إعجاب القوم بهذه الأحاديث أن صاغوا كثيراً من المقالات والرسائل في
لغة الحوار حتى تستطيع استيعاب هذا الضرب من التطرف . لكنهم أفرطوا
في هذا آخر الأمر حتى أضحت اللغة والأفكار مسرفة في الرقة والأناقة ،
وحتى أوهن الولع بهذه الرقة مقتضيات الرجولة ، وأضحت أرينو في إيطاليا
كما كانت رامبوييه Rambouillet في فرنسا ، وحتى قام مولير يهاجم
« الضحك النفيس » في وقت استطاع فيه أن ينجى فن الحديث الطيب
ويحتفظ به لفرنسا .

وقد احتفظ الحديث الإيطالي - رغم التأني الذي كان طابع القليل منه --
بحرية في موضوعه وألفاظه إلى قدر لا تجزئه الآداب الاجتماعية في هذه الأيام .
وإذ كانت النساء غير المتزوجات ذوات السمعة الطيبة قلما يستمعن إلى الحديث
العام ، فقد كان المفروض أن يناقش الرجال المسائل الجنسية بكثير من
الصراحة . لكن الأمر لم يقتصر على هذا ؛ ففي أرقى مجامع الرجال ، كنت
ترى الفكاهات الجنسية المجردة من الاحتشام ، والتحرر المرح في الشعر ،
والبذاءة النظفة في التمثيل ، وكل هذه تبدو لنا الآن من المظاهر التي تشحز

منها النفس في عصر النهضة . ولم يكن الرجال المتعلمون يتورعون عن كتابة الشعر البذيء على القوائم ، وقد كتب بمبو المذهب الرقيق فيما كتب يثنى على پريابوس Priapus^(٩١) . وكان الشبان يتنافسون في النطق بأفحش الألفاظ وأكثرها بذاءة ليبرهنوا بذلك على أنهم بلغوا الحلم . وكان الرجال على اختلاف طبقاتهم يسبون ويلعنون وكثيراً ما يتطرق سبهم إلى أقدم الأسماء في الدين المسيحي . ورغم هذا كله فإن عبارات المجاملة لم تكن في وقت ما أكثر ازدهاراً مما كانت في تلك الأيام ، كما لم تكن صيغ التخطيب أكثر ظرفاً ورشاقة . وكانت النساء يقبلن يد كل صديق حميم من المذكور حين يقابلنه أو يودعنه ، كما كان الرجال يقبلون أيدي النساء ؛ ولم تكن الهدايا تنقطع بين الصديق والصديق ، وبلغت الكياسة في الأقوال والأفعال درجة خيل إلى أوروبا الشمالية أنها لا تستطيع الوصول إليها ، وأضحت الكتب الإيطالية التي تعلم تلك الآداب هي النصوص المحببة التي تدرس فيما وراء جبال الألب .

ومثل ذلك يقال عن الكتب الإيطالية في الرقص ، والمثاقفة ، وغيرها من ضروب الرياضة ، فقد كانت إيطاليا تزعم العالم المسيحي في الرياضة كما تزعمه في الحديث والبذاءة ، فكانت البنات يرقصن في ليالي الصيف في ميادين فلورنس ، وكانت أرشقهن قواماً وأبرعهن رقصاً تجاز بإكليل من الفضة ؛ وفي القرى كان الفتيان والفتيات يراقصون على الحمامات وفي البيوت وفي حفلات الرقص الرسمية : كان النساء يرقصن مع النساء أو الرجال ، كما كان الرجال يراقصون الرجال أو النساء ؛ وكان الهدف في كل حالة من الحالات هو الرشاقة . وانتشر رقص الباليه في عهد النهضة به وأضيف شعر الحركات إلى غيره من الفنون .

وكان لعب الورق أكثر من الرقص انتشاراً ، فقد أضحى في القرن الخامس عشر ولعاً نجح به جميع الطبقات ، حتى لقد أدمنه ليو العاشر نفسه .

وكثيراً ما كان يتضمن المقامرة ؛ وحسبنا شاهداً على هذا أن نعيد ما سبقت الإشارة إليه وهو أن الكردينال رفائلو رياريو *Rafaello Riario* كسب ١٤٠٠٠ دوقة في دورين لعبهما مع ابن إنوسنت الثامن . وكان الرجال يقامرون أيضاً بالنرد ، وكانوا أحياناً يغشون في هذا اللعب بأن يضيفوا إلى النرد أثقالاً تؤثر في وضعه بعد رميه (٩٢) . وأولع القوم أيضاً أشد الولع بهذه اللعبة ؛ ولم تفلح القوانين في تخفيف حدتها . وكم من أسرة نبيلة خرب الميسر بيتها في البندقية ، حتى لقد حرم مجلس العشرة مرتين بيع ورق اللعب أو الكعوب وأهاب بالخدم أن يبلغوا عن أسيادهم الذين يخالفون أوامر التحريم (٩٣) . وكان نظام القرض الحسن الذي أنشأه سفرولا عام ١٥٤٩ يطلب إلى المقترضين أن يتعهدوا بالامتناع عن الميسر إلى أن يوفوا بالقرض على أقل تقدير (٩٤) .

وكان الذين تعودوا الجلوس وقلة الحركة يقضون الوقت في لعب الشطرنج ويقتنون مجموعات منه غالية الثمن ، مثال ذلك أن جياكومو لورندانا من أشراف البندقية كان له قطع من الشطرنج تقدر قيمتها بخمسة آلاف دوقة .

وكان للشبان ألعابهم الخاصة ، أغلبها في الخلاء . فكان الفتي الإيطالي من أبناء الطبقات العليا يدرب على ركوب الخيل ، واستخدام السيف والرمح ، والظعن في ألعاب البرجاس ؛ وكانت المدن تستعد لهذه المباريات في بعض أيام الأعياد والعطلات بتسوير مكان فسح في أحد الميادين يسهل عادة أن تطل عليه النوافذ والشرفات التي تستطيع أن تنظر منها السيدات لتشجيع فرسانهن . وإذا لم يكن في هذه المعارك ما يكفي من الجراح والقتل ، فقد أدخل بعض الشبان المتهورين في الكاوسيوم الرومانية عام ١٣٣٢ مصارعة الثيران ، بحيث يصارع الثور رجلاً واقفاً على قدميه وليس معه من السلاح إلا حربة . وقتل في هذه المصارعة الأولى ثمانية عشر فارساً

كلهم من أبناء الأسر العريقة ، ولم يقتل من الثيران إلا أحد عشر ثوراً (٩٥) . وتكررت هذه المباريات في رومة وسينا ، ولكنها لم تستهوَ الذوق الإيطالي في يوم من الأيام ، وكان سباق الخيل أحب منها إلى الشعب ، وكان يشير حماسة أهل رومة وسينا وفلورنس على السواء . وتنتهى المباريات بصيد الحيوان والطير بالزاة ، وسباق الجرى ، وسباق الزوارق ، والملاكمة ، وبها يحتفظ الإيطاليون بشجاعتهم أفراداً ، أما من حيث هم جماعة فقد كانوا يكلون أمر الدفاع عن مدنها إلى الجنود الأجانب المرتزقين .

ويمكن القول بوجه عام إن الحياة كانت ممتعة مبهجة بالرغم مما فيها من كدح وأخطار ، ومما تتسم به من رهبة ومخاوف ، منها ما هو طبيعي ومنها ما هو وهمي وخرافي . وكان سكان المدن يستمتعون بالانتقال إلى الريف رجالاً وركباناً ، وإلى ضفاف الأنهار وشواطئ البحار ، وكانوا يزرعون الأزهار ليزينوا بيوتهم وأنفسهم ، وينشئون إلى جوانب بيوتهم الريفية حدائق غناء ذات أشكال هندسية بدية . وكانت الكنيسة سخية على الأهلى بأعيادها ، كما كانت الدولة تضيف إلى هذه الأعياد الدينية أعياداً مدنية . فكانت أعياد المياه تقام على بحيرات البندقية ومياها الضحلة ، وعلى مياه نهر الأرنو في البندقية ، ونهر منتشيو في مانتوا ، وتشينو في ميلان . وفي بعض الأيام الخاصة كانت مواكب فخمة تسير في شوارع المدن مصحوبة بالمركبات والأعلام ، وضع الفنانون ذوو الشهرة العالمية تصميمها لنقابات الحرف . وكانت الفرق الموسيقية تعزف في هذه المواكب ، والبناات الحسان يغنين ويرقصن ، وأعيان المدينة يسرون فيها ، حتى إذا جن الليل أطلقت الألعاب النارية تشق أجواز الفضاء بأشكالها العجيبة وتختفي في طبقات الجو العليا . وفي يوم سبت النور في فلورنس يوثى بثلاث قطع من الطران جىء بها من الضريح المقدس في بيت المقدس لتوقد شريطاً يضئ شمعاً تدفعها فوق سلك يمامة صناعية حتى تصل إلى الصورايخ الموضوعة في عربة اتخذت

رمزاً للدولة في الميدان أمام الكتدرائية فتشعلها . وفي يوم عيد الجسد الطاهر يتقف الاستعراض ليستمع الموكب إلى أنشودة تغنيها جماعة من البنات والأولاد ، أو يشاهد حادثة من الحوادث التاريخية الواردة في الكتاب المقدس أو الأساطير الوثنية ، تمثلها إحدى الهيئات . وإذا ما جاء عظيم في زيارة للمدينة كان يستقبل بموكب تشترك فيه العربات على نمط موكب النصر الروماني القديم الذي كان يستقبل به القائد المنتصر ، مثال ذلك أنه لما زار ليو العاشر فلورنس ما بينته الحبوبة في عام ١٥١٣ خرج أهل المدينة على بكرة أبيهم ليشاهدوا مركبة نصره التي زخرفها ورسم صورها بنتورمو Pontormo وهي تمر تحت أقواس عظيمة منصوبة في شارع المدينة الرئيسي ، وسارت سبع عربات أخرى في هذا الموكب يستقلها أفراد يمثلون مبعدة أشخاص كبار في التاريخ الروماني ، وفي آخرها غلام عار مغطى بالذهب يرمز إلى حلول العصر الذهبي بمجيء ليو ؛ ولكن الغلام توفي بعد الموكب بجليل من تأثير الطلاء الذهبي (٩٦) .

وكان يحدث أحياناً أن ترمز مواكب العربات في عيد المساخر بفلورنس إلى فكرة معينة مثل الفطنة ، أو الأمل ، أو الخوف ، أو الموت ؛ أو العناصر ، أو الرياح ، أو الفصول ؛ أو كانت تمثل أحياناً بطريقة الإشارات الصامتة قصة كقصص باريس أمير طروادة وهلين اليونانية ؛ أو باخوس وأدرياني ، مصحوبة بالأغاني التي تتناسب مع كل منظر من مناظرها . وقد كتب لورندسو أغنيته الذائعة الصيت الموجهة إلى الشباب والرح لإحدى هذه « المقنعات » . وكان كل من في المدينة - من العلماء إلى الكرادلة - يلبس قناعاً ، ويلعب ألعاباً ، ويغازل ويتحرر من كل قيد تحرراً يثار فيه لنفسه مقدماً من الصوم الكبير . وفي عام ١٥١٢ حين بدأ أن فلورنس لا تزال تنعم بالرخاء ، ولكن الكوارث التي لم تكن تخطر بالبال تكن بعيدة عنها بأكثر من بضعة شهور ، أمد پرو دي كوزيمو

Piero di Cosimo موكب « مقنعة لانتصارات الموت » ، سارت فيه عربة ضخمة تجرها جاموستان سوداوان وعليها غطاء أسود رسمت عليه هياكل عظمية وصلبان بيض . ووقف في العربة تمثال ضخم يمثل الموت يمسك بيده منجلا ، ومن حوله قبور وأشكال حزينة رسمت على أثوابها السود عظام بيض تبرز في الظلام ، ومشت وراء العربة شخوص مقنعة تغطي رؤوسها قلانس سود رسمت عليها رؤوس موتى من الأمام ومن الخلف . وقامت من القبور المصورة على العربة شخوص أخرى رسمت بحيث تبدو عظاماً لا غير ، وكانت هذه الهياكل العظمية تنشد نشيداً يذكر الناس بأن الموت حق على الجميع . وسارت أمام العربة وخلفها قافلة من الحيل الهرمة الضعيفة تحمل جثث أموات^(٩٧) . وهكذا نطق بيرو دي كوزيمو والموكب قائم على قدم وساق بحكمه على إيطاليا المنغمسة في المللذات وتنبأ بما كتب لها من سوء المصير ، وكان في حكمه وتنبؤه يردد أقوان سفرولا .

الفصل التاسع

التمثيل

وترجع بعض أصول المسرحيات الإيطالية إلى هذه المقتعات والاحتفالات الساخرة . ذلك أن منظراً من التاريخ الدينى فى العادة كثيراً ما كان يمثل على إحدى عربات الموكب أو على مسارح مؤقتة فى بعض نقاط من طريق الموكب . أما المصدر الأول للمسرحيات الإيطالية فهو ما كانوا يطلقون عليه لفظ « الديشورتىونى » وهو إحدى حوادث القصص الدينى المسيحى يمثلها أعضاء إحدى نقابات الحرف ، أو ممثلون محترفون فى بعض الأحيان ، ينتمون إلى هيئة تتخذ عرض هذه المناظر عملاً لها . وقد وصات إلينا نصوص بعض هذه التمثيليات من تلك الأيام ، وهى تدل على عظمة مسرحية مذهشة . فواحدة منها تروى قصة العذراء تعثر على المسيح فى بيت المقدس ، ثم تفقده مرة أخرى ، وتبحث عنه وهى ذاهبة العقل وتصبح : « أى بنى العزيز المحبوب ! أى بنى ، أين ذهبت ؟ أى بنى اللطيف ، من أى باب خرجت ؟ أى بنى القدسى ، لقد كنت حزينا كاسف البال حين غادرتنى ! خبرونى بالله أين ، أين ذهب ولدى ؟ » (٩٨) .

وفى القرن الخامس عشر نشأ فى إيطاليا عامة ، وفى فلورنس خاصة نوع من المسرحيات أرقى من هبذه يعرف بالتمثيليات المقدسة *sacra rappresentazione* يمثل فى مصلى إحدى نقابات الحرف ، أو فى مطعم أحد الأديرة ، أو فى حقل من الحقول ، أو فى أحد الميادين العامة : وكثيراً ما كانت المناظر المعدة لتلك التمثيليات معقدة تنم عن كثير من الذكاء

والقطة : فكانت السماء تمثل بستر ضخمة رسمت عليها النجوم ، والسحب تمثل بأكداس من الصوف معلقة في الهواء تتمايل مع الريح ؛ والملائكة يمثلهم غلمان مرفوعون على قوائم من المعدن مخفية في أقنعة متماوجة ههههه . وكانت القصة نفسها شعراً في العادة ، تصحبها الموسيقى تعزف على الكمان أو العود ؛ وكان لورندسوده ميديتشي ، وپلتيشي Pulci من بين الشعراء الذين كتبوا ألفاظ بعض هذه التمثيليات الدينية ؛ وجاء بوليتيان في مسرحية أورفيو Orfeo فكيف صيغة التمثيلية المقدسة كي تتفق مع الموضوعات الوثنية .

وكانت عناصر أخرى من الحياة الإيطالية تسهم في هذه الأثناء في مولد المسرحية الإيطالية . منها المسرحيات الهزلية *farse* التي كان يمثلها من زمن بعيد أفراد متنقلون في بلدائن العصور الوسطى ، والتي تحتوى أصول المسلاة الإيطالية . وقد برع بعض ممثلها في ارتجال الحوار لمناظر القصص وحبكاتهما . وكان هذا الحوار وسيلة محببة لإظهار قدرة الإيطاليين على الهجاء والمجون . ومن هذه المهازل ظهرت الشخصيات الهازلة الساخرة في المسالى الشعبية واتخذت صورها وأسماءها المعروفة بها في تلك اللغة — الپنتالوني ، والأرلكنينو ، والبلكنينلا أو الينكنيلو (٥)

وكان للكتاب الإنسانيين نصيبهم في العوامل المعقدة التي أدت إلى نشأة المسرحية ، وذلك بإعادة نصوص المسالى الرومانية القديمة والإعداد للتمثيل . وقد كشف هؤلاء اثنتى عشرة مسرحية لبلوتوس في عام ١٤٢٧ وكان اكتشافها حافزاً جديداً ، فنلت في البندقية ، وفيرارا ، ومانتوا ، وأربينو ، وسينا ، ورومة مسالى بلوتوس ، وترنس ، وانتقلت التقاليد الأدبية القديمة على مر القرون لتكون من جديد المسرحيات الدبوية . وفي عام ١٤٨٦

(١) Punchinello, Pu'chinella, Arlecchino, Pantalone. وتعني كاهنًا فريسيًا
من المهرجين.

عرضت مسرحية ميناكمي Menaechmi تأليف بلوتوس للمرة الأولى في إيطاليا ، وبذلك مهد السبيل للمسرحية النهضة أتم التمهيد . ولما آذن القرن الخامس عشر بالرحيل فقدت المسرحية الدينية ما كان لها من سلطان على النظارة المتعلمين في إيطاليا ، وأخذت الموضوعات الوثنية تحل بالتدريج المطرد الزيادة محل الموضوعات الوثنية ؛ ولما أن ألف الكتاب الإيطاليون أمثال بيبينا Bibbiena ومكيغلي ، وأريستو ، وأريتينو مسرحياتهم ، كتبوها بأسلوب بلوتوس البنىء بعيدة كل البعد عن قصص مريم والمسيح التي كانت من قبل محببة للإيطاليين ؛ وعادت إلى الظهور في هذه المسالى الإيطالية جميع مناظر المسلاة الرومانية ، وجميع الحركات المصطنعة السطحية التي تدور حول الأخطاء الجنسية ، أو الخطأ في تمييز الأشخاص بعضهم من بعض ، أو في المراتب والطبقات . وظهرت في المسلاة كذلك جميع أنواع الشخصيات ، ومنها القوادون والعاهرات ، التي كان بلوتوس يَسْرُّ بها الطبقات الدنيا من النظارة ، وخشونة الطبقات السفلى القديمة واسمئطارها .

ولم يكن للأساءة مكان ما فوق مسرح النهضة رغم احتفاظ هذا العصر بمسرحيات سنكا ، ورغم استكشاف المسرحيات اليونانية من جديد . ذلك أن أهل ذلك الوقت كانوا يفضلون المتعة والتسلية على الدرس العميق ، ولهذا كانوا ينظرون شزراً إلى مسرحية سوفونيسبا Sophonisba (١٥١٥) لحيان ترسينو Gian Trissino ومسرحية روزا مندا Rosamunda لحيوفني روتشلاي . وقد مثلت هذه المسرحية الأخيرة أمام ليو العاشر في فلورنس في ذلك العام نفسه .

وكان من سوء حظ المسلاة الإيطالية أنها تشكلت حين كانت أخلاق الإيطاليين في الحضيض . وإن قدرة مسرحية مثل طالما Calanda تأليف بيبينا ، ومندرامولا Mandragola لمكيغلي ، على إشباع رغبات الطبقات

العليا من الإبطالين ، وملاءمتها لأذواقهم حتى في أربينو المعروفة بركة أهلها ،
وإن تمثيلها أمام البابوات دون أن تثير أى احتجاج ، إن هذا وذاك ليدلنا
كيف تجتمع الحرية العقلية مع الانحطاط الخلقي . ولما قامت حركة الإصلاح
المعارضة بعد انعقاد مجلس ترنت Trent (١٥٤٥ وما بعدها) ، وجه أشد
النقد إلى أخلاق رجال الدين والدنيا على السواء ، ومحيت مسلاة النهضة.
فلم يعد لها مكان في تسلية المجتمع الإيطالي :

الفصل العاشر

الموسيقى

لقد كان من المظاهر التي أنقذت المسلاة الإيطالية أن الرقص التمثيلي ،
والمسرحيات الصامتة ، والعزف الموسيقى الجماعي كانت تعرض كلها بين الفصول ،
ذلك أن الموسيقى كانت عند الإيطاليين - بعد العشق - أهم أنواع التسلية
والسأوى عند كل طبقة من طبقات المجتمع في إيطاليا . يدلنا على ذلك أن
مونتاني وهو مسافر في تسكانيا عام ١٥٨١ قد « أدهشه أن يرى الفلاحين وفي
أيديهم الأعواد وإلى جانبهم الرعاة ينشدون قصائد أريستو عن ظهر قلب » ،
ولكن هذا ، كما يقول بعدئذ ، « هو الذي نستطيع أن نشاهده في جميع أنحاء
إيطاليا » (١٩) . وقد حفظ لنا فن التصوير في عهد النهضة ألف صورة
وصورة لأشخاص يعزفون على الآلات الموسيقية من الملائكة العازفين على
العود عند قدمي العذراء في كثير من الصور التي تمثل منظر التنوير ، إلى الملائكة
الصغار المنشدين في صور ميلتسو Melzzo ، إلى نشوة الرجل العازف على
لقيثارة في صورة الحفلة الموسيقية . وما أروع صورة الغلام - الذي يصعب
علينا أن نعتقد أنه هو المصور نفسه - في وسط صورة أعمار الرُساء الثلاثة
لسيباستيانو دل بيومبو Sebastiano del Piombo ، كذلك تنقل لنا الكتب
التي ألقت في ذلك العصر صورة لشعب يغني أو يعزف على الآلات الموسيقية
في منزله ، وفي أثناء عمله ، وفي الشارع ، وفي الجماع الموسيقية ، وأديرة
الرجال والنساء ، والكنائس ، والمواكب ، والمقنعات ، ومواكب النصر ،
والاستعراض ، والمسرحيات الدينية والدينيوبة ، وفي الفقرات الغنائية ، وفيما بين
الفصول في المسرحيات ، وفي الرحلات الخلوية كالتى تصورها بوكاتشيو

في كتابه ديكرون Decameron ، وكان الأثرياء يحتفظون في بيوتهم بطائفة من الآلات الموسيقية المختلفة الأنواع ، وكانوا ينظمون فيها حفلات موسيقية خاصة . أما النساء فكان ينشئن النوادي لدراسة الموسيقى ولممارستها ، واتصاري القول أن إيطاليا كانت - ولا تزال - نجل جنونا بالموسيقى .

وازدهرت الأغاني الشعبية في كل وقت من الأوقات ، ومن هذا المعين الذي لا ينتضب كانت الموسيقى العلمية تستمد من آن إلى آن ما ينعشها ويبعث الحياة فيها . فكانت النغمات الشعبية تكيف حتى تتفق مع القصائد الغزلية المعقدة ، ومع الترانيم ، وحتى مع القطع الموسيقية التي تعزف في الكنائس في ساعات القداس . وفي « فلورنس » ، كما يقول تشيليني ، « كان من عادة الأهلين أن يلتقوا في الشوارع العامة في ليالي الصيف » ليغنوا ويرقصوا^(١٠٠) . وكان مغنو الشوارع أو الميادين — Cantori di Piazza — يوقعون ألحانهم الحزينة أو المرححة على أعواد جميلة ، كما كان السكان يجتمعون ليغنوا أناشيد المديح للعلماء عند أضرحتهم المقامة في الشوارع أو على جوانب الطرق ؛ وفي مدينة البندقية كانت أغاني العرس تصعد إلى قمر السماء من مئات قوارب الزهرة ، أو ترتفع من حناجر العشاق الذين يتغزلون في حبيباتهم في ظلمات الليل على ضفاف القنوات الملتوية . ويكاد كل إيطالي في ذلك الوقت يستطيع الغناء ، كما يكاد كل إيطالي يستطيع التغنى بعبارة بسيطة متوافقة . وقد وصلتنا مئات من هذه الأغاني الشعبية المسماة بذلك الاسم الجميل فروتولي Frottole أي الفاكهة الصغيرة ؛ وهي في العادة قصيدة غزلية ، أهم أصواتها السبران (أعلى الأصوات) وإلى جانبه المران ، والرخيم ، والصور^(*) . وبينما كان الصوت الرخيم في القرون الحالية هو المسيطر على النغم ولذلك وصف به ، فقد أصبحت للسبران — أعلى الأصوات — السيطرة عليه في القرن الخامس عشر ، وقد سمي بهذا

(*) أصوات موسيقية مختلفة .

الاسم Soprano لأن علاماته الموسيقية كانت تكتب فوق سائر العلامات ، ولم يكن هذا الجزء من الغناء في حاجة إلى صوت النساء ، فقد كان كثيراً ما يغنيه غلام أو كان هو الصوت النشاز falsetto من رجل كهمل (ولم يظهر الغلمان المخصصون بين الممثلين لدى البابوات قبل عام ١٥٦٢) (١٠١) .

وكان قدر كبير من العلم بالموسيقى يطلب إلى أفراد الطبقة المتعلمة ، فكان كستجليوني مثلاً يتطلب إلى رسوله أو رجله المهذب أن يكون من هواة الموسيقى وأن يبرع فيها إلى حد ما لأنها « لا تجعل عقول الرجال حاوة فحسب ، بل إنها في كثير من الأحيان تبذل الوحوش إلى حيوانات مستأنسة أليفة » (١٠٢) . وكان ينتظر من كل شخص مثقف أن يقرأ الموسيقى البسيطة بمجرد النظر إليها ، وأن يعزف على آلة ما وهو يغني ، وأن يشترك في أية حفلة موسيقية دون سابق استعداد (١٠٣) . وكان الأهل في بعض الأحيان يقيمون حفلات تجمع بين الغناء ، والرقص ، والعزف على الآلات الموسيقية . وكانت الجامعات بعد عام ١٤٠٠ تقدم للطلاب برامج موسيقية وتمنح فيها درجات علمية ؛ وكان في إيطاليا ميثاق من الجامعات الموسيقية ؛ وأسس فتورينو دا فلترى حوالى عام ١٤٢٥ مدرسة لتعليم الموسيقى في مانتوا ؛ ولفظ كنسيرفتورى Conservatory الذى يطلق على المعاهد الموسيقية في هذه الأيام يرجع في الأصل إلى لفظ كنسيرفتورى (Conservatori) أى الملاجئ ، لأن الملاجئ في نابلى كانت تتخذ أيضاً مدارس لتعليم الموسيقى (١٠٤) . وكان مما ساعد على انتشار الموسيقى غير ما سبق استخدام فن الطباعة في طبع العلامات الموسيقية ؛ فقد حدث حوالى عام ١٤٧٦ أن طبع أريخ هاهن Ulrich Hahn في رومة كتاباً كاملاً للصلوات بالعلامات الموسيقية المتنقلة والسطور ؛ وفي عام ١٥٠١ بدأ أتافيانو ده بيتروتشى Ottaviano Petrucci في البندقية أعمال الطباعة التجارية للأناشيد الدينية « والفأكة الصغيرة » .

وفي بلاط الملك والأمراء كانت الموسيقى أبرز الفنون عدا فنون الزينة

الشخصية والأناقة . فقد كان الحاكم يختار عادة كنيسة محبة له ، ويجعل
المرنمين فيها موضع عنايته ، ويتفق المال بسخاء ليجذب إليها أجمل الأصوات
وأحسن الآلات من إيطاليا ، وفرنسا ، وبرغندية ، فكان يدرّب المغنين
الجدد منذ طفولتهم كما فعل فيدريجو في أرينو ، وكان ينتظر من أفراد
المرنمين أن يقيموا للدولة حفلات غنائية ولبلاطه أعياداً من حين إلى حين .
وقد ظل جويوم دوفاي Guillaume Dufay من أهل برغندية يشرف
على الموسيقى في قصور آل مالانستا في ريمينى وبزارو وفي معبد البابا في
رومة نحو ربع قرن (١٤١٩ - ١٤٤٤) . ونظم جالياتسو ماريّا اسفوردسا
Galeazzo Maria Sforzo حوالى عام ١٤٦٠ جماعتين من المرنمين الدينيين ، وجاء
إليهم من فرنسا بجوسكان دبريه Josquin Deprès الذى كان وقتئذ أشهر
المؤلفين جميعاً في أوروبا الغربية . ولما احتفى لودفيكو اسفوردسا بليوناردو في
ميلان كان احتفائه به بوصفه موسيقياً ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أن
ليوناردو اصطحب معه في سفره من فلورنس إلى ميلان أطلانطى مجليورفى
Atlante Migliorotti وهو موسيقى ذائع الصيت وصانع آلات موسيقية .
وأشهر من أطلانطى هذا فى صناعة القيثارة ، والعود ، والأرغن ،
والبيان البدائى ، لورندسو جوسناسكو Lorenzo Gussasco من أهل
پافيا الذى اتخذ ميلان كغيرها من المدن موطناً له . وكان بلاط لودفيكو
يموج بالمغنين نذكر منهم نارتشسو Narcisso وتبستاجرسا Testagrossa
وكودير Cordier من أهل فلاندرز ، وكوستوفورو رومانو Cristoforo
Romano الذى أحبته بيتريس حباً طاهراً عقيفاً . وكان بدرو ماريّا
Pedro Maria الأسباني يقود الحفلات الموسيقية فى القصر وحفلات الجماهير ،
وأنشأ فرنكشيتو جافورى Franchino Gaffuri مدرسة خاصة ذائعة الصيت
فى ميلان واشتغل فيها بتعليم الموسيقى . وكانت لزابلا دست مرلعة أشد الولع
بالموسيقى ؛ واتخذتها أهم موضوع لخرقة حجرتها الداخلية الخاصة ،

وكانت هي نفسها تعزف على عدة آلات . ولما أن أمرت بإحضار بيان بدائي من لورندسو جوسناسكو اشترطت أن تستجيب لوحة المفاتيح للمس الخفيف ، « لأن يديها رقيقتان إلى حد لا تستطيع معه أن تجيد العزف إذا كانت المفاتيح جامدة » (١٠٥) . وكان يعيش في بلاطها أشهر عازف على العود في زمانه ، وهو ماركتو كارا Marchetto Cara ، كما كان يعيش فيه بارتوليميو ترميبونتشينو Bartolomeo Tromboncino الذي ألف أغاني غزلية بلغ من روعتها وإعجاب الناس بها وبه أنه حين قتل زوجته الحائنة ، لم يوقع عليه عقاب ما ومرت المسألة كأنها خلاف لا يلبث أن يزول .

وآخر ما نذكره من هذا النبيل أن الموسيقى كانت تتردد أصداؤها في الكاتدرائيات والكنائس وفي أديرة الرجال والنساء ، وكانت الراهبات في البندقية ، وبولونيا ، ونابلي ، وميلان يتشدن في صلوات المساء ترانيم يبلغ من تأثيرها أن الجموع كانت تهرع من كافة الأنحاء لسماعها . وقد نظم سكستس الرابع جوقة المرنمين في معبد سستيني ، وأضاف يوليوس الثاني إلى المرنمين في كنيسة القديس بطرس جوقة خاصة منهم تدرب المغنين وتعدهم للانضمام لمرنمي معبد سستيني . وكان هذا ذروة الموسيقى في العالم اللاتيني في عهد النهضة . وأقبل على هذه الجماعة أعظم المغنين من جميع البلاد التي تدين بالمذهب الكاثوليكي الروماني . وكان الغناء البسيط لا يزال هو الذي يفرضه القانون

على الموسيقى الكنسية ، ولكن الفهم الجديد Ars nova الفرنسي - وهو فن معتمد معارض له - كان يتسلل إلى جماعات المرنمين في الكنائس الرومانية ويمهد السبيل لپالسترينا Palestrina وفيكتوريا . وكان الاعتقاد السائد في وقت من الأوقات أن ليس من الكرامة أن يصحب الترنيم في الكنيسة من الآلات الموسيقية إلا الأرغن ، ولكن عدداً من الآلات المختلفة أدخل إلى الكنائس في القرن السادس عشر لكي تخلع على الموسيقى الكنسية بعض الروعة والجمال اللذين تمتاز بهما الموسيقى غير الدينية . وظل الأستاذ الفلمنكي أدريان

ولا لبرت Adrian Willaert من أهل بروچ Bruges يرأس فرقة المرنمين في كنيسة القديس مرقص بالبندقية خمسة وثلاثين عاماً درب أفرادها فيها تدريباً حسدهم عليه رومة . وفي فلونس نظم أنطونيو اسكوارتشيا بولى مدرسة موسيقية كان لورندسو عضواً فيها . وظل أنطونيو جيلا كاملاً يسيطر على فرقة المرنمين في الكندراتية العظيمة تردد النغمات التي أسكتت صوت كل شك فلسفى . يدلنا على ذلك أن ليون باتستا ألبرتى Leon Battista Alberti كان من المتشككين حتى إذا غنت الفرقة صدق وآمن وقال :

« إن جميع أنواع الغناء الأخرى تمل بال تكرار ، أما الموسيقى الديدية وحدها فلا تمل . ولست أعلم مبلغ تأثير غيرى بهذه النغمات ، أما أنا فإن هذه الزانيم والمزامير التي أستمع إليها في الكنيسة تحدث في ذلك الأثر الذي وضعت من أجله ، فهدى من جميع اضطرابات النفس ، وتبعث في شيئاً من الفتور الذي تعجز الألفاظ عن وضعه ، وتملأ قلبي لإجلال الخالق جل وعلا . وأى قلب قد بلغ من القسوة درجة لا يلبس معها إذا سمع ذلك الارتفاع والانخفاض المتزن المتناسق في الأصوات الكاملة الحقة بتلك النغمات العذبة اللينة ؟ وأؤكد لكم أنى ما استمعت فقط . . . إلى النغنين اليونانيين كبرى إيسود (ارحمنا يارب) اللذين يدعوان الله إلى أن يقينا شر بوئسنا البشرى إلا أنهمج الدمع من عيني . . . وفي تلك اللحظة أفكر كذلك في مبلغ ما للموسيقى من قدرة على تهديتنا والترفيه عنا » (١٠٦) .

بيد أن الموسيقى ، رغم هذا الانتشار الواسع ، كانت هي الفن الوحيد الذى تأخرت فيه إيطاليا عن فرنسا في الجزء الأكبر من عهد النهضة . ذلك أن إيطاليا قد أثر فيها انتقال البابوات إلى أفنيون فحرمها من الموارد المالية البابوية ، ولم يكن بلاط الأمراء المستبدين في القرن الرابع عشر قد بلغ درجة كبيرة من النضوج الثقافى ، ومن أجل هذا كان يعوزها المال والروح اللذان لا غنى عنهما للدرجات العليا من الموسيقى . نعم إنها أخرجت أغاني

غزلية جميلة (يسمونها مدرجال Madrigal وهى كلمة لا يعرف اشتقاقها على وجه التحقيق) ، ولكن هذه الأغاني التى صيغت على غرار أغاني شعراء الفروسية الغزلين البروفنساليين كانت تلحن تلحيناً جليلاً منتظماً متعدد النغمات فلم تلبث أن قضى عليها جمودها .

وكان فخر الموسيقى فى القرن الرابع عشر فى إيطاليا هو فرانتشيسكو لانديني Francesco Landini ، العازف على الأرغن ولسان لورندسو فى فلورنس . وقد فقد هذا الفنان بصره منذ طفولته ، ولكنه أصبح رغم ذلك أظرف الموسيقيين وأجهم إلى الشعب فى زمنه ، وقد برع فى العزف على الأرغن ، والعود ، وفى تأليف الأغاني ، وقول الشعر ، وفى الفلسفة . ولكن هذا الرجل نفسه أخذ الفن أولاً عن فرنسا ، فقد طبق فى قطعه الموسيقية الدنيوية التى ألفها ، والبالغ عددها مائتى قطعة ، الفن الحديد الذى استهوى فرنسا قبل تلك الأيام بجيل من الزمان . وكان هذا « الفن الحديد » جديداً جيدة مزدوجة : فقد قبل الإيقاع الثانى كما قبل التوقيت الثلاثى الذى كانت تتطلبه من قبل موسيقى الكنائس ، وابتكرت له علامات موسيقية كثيرة التعقيد والمرونة . ووجه البابا يوحنا الثانى والعشرون الذى كان يصب صواعقه فى جميع الاتجاهات ، وجه هذا البابا إحدى تلك الصواعق على « الفن الحديد » ورماه بأنه خيال وهم ومنحط ، وكان لتحريمه إياه بعض الأثر فى الحيلولة دون تقدم الموسيقى فى إيطاليا . على أن يوحنا الثانى والعشرين لم يكن مخلصاً ، وإن كان قد بدا للناس فى بعض الأوقات أن هذا قد يكون ؛ فلما قضى نحبه فى سن التسعين (١٣٣٤) ، انتصر الفن الحديد فى موسيقى فرنسا ، وأعقب هذا انتصاره أيضاً فى إيطاليا .

وكان المغنون والمؤلفون الفرنسيون والفلمنكيون يؤلفون فرق المرمين البابوية فى أفنيون . فلما أن عادت البابوية إلى رومة جاءت معها بعدد كبير من المؤلفين والمغنين الفرنسيين ، والفلمنكيين ، والهولنديين ، وظل هؤلاء

الموسيقيون الأجانب وخلفاؤهم قرناً من الزمان المسيطرين على الموسيقى الإيطالية : وظل المغنون في الفرق البابوية حتى زمن سكستس الرابع ينفدون إلى إيطاليا من وراء جبال الألب ، كذلك سيطرت الأصوات الأجنبية على موسيقى البلاط في القرن الخامس عشر . من ذلك أنه لما مات اسكواراتشيا لوني Squarcialuni (حوالى عام ١٤٧٥) اختار لورندسو رجلا هولندياً هو هنريخ اسحق Henrich Ysaac ليخلفه في العزف على الأرغن بكتدرائية فلورنس . وكان هنريخ هو الذى وضع الألحان الموسيقية لبعض أغاني المساخر ، وبعض أغاني بولتيان ، وهو الذى علم الرجل الذى أصبح فيما بعد ليو العاشر أن يحب الأغاني الفرنسية - بل أن يؤلف بعضها (١٠٧) . وظلت الأغاني الفرنسية وقتاً ما تغنى في إيطاليا ، كما كانت قصائد شعراء الفروسية الغزولين تغنى فيها وقتاً ما .

وأثمر غزو الموسيقيين الفرنسيين في إيطاليا ، وهو الذى سبق غزو الجيوش الفرنسية إياها بقرن من الزمان ، أثمر حوالى عام ١٥٢٠ انقلاباً تاماً في الموسيقى الإيطالية . ذاك أن أولئك الرجال القادمين من الشمال - والإيطاليين الذين دربوا على أيديهم - قد انغمروا في فيض الفن الجديد واستخدموه في تلحين الشعر الغنائى الإيطالى . وقد وجد هؤلاء عند پترارك ، وأريستو ، وستادسارو ، وبمبو - كما وجدوا بعدئذ في تاسو وجوارينى - شعراً مطرباً يتحرق شوقاً للموسيقى . ألم يكن الشعر في الواقع يتطلب حلى الدوام أن ينلى إذا لم يكن يتطلب أن يغنى ؟ وكانت مقطوعات پترارك قد أغوت من قبل الموسيقيين ، أما الآن فقد لحن كل بيت منها ، ولحن بعض مقطوعاتها اثنتى عشرة مرة أو أكثر ، حتى لقد أصبح پترارك أكثر من لُحِّن له من الشعراء في الأدب العالمى . ولقد كانت هناك أغان صغيرة لا يعرف مؤلفوها ، ولكنها تعبر عن حواطف ساذجة ذات حيوية تمس شغاف كل قلب ، وتنادى أوتار كل آلة . انظر مثلاً إلى هذه الأغنية :

أبصرت فتيات حسناً يتفیان ظلّال أشجار الصّيف ،
ينسجن تيجاناً براقّة وهن ينشدن أغاني الحب بصوت خفيض ،
وتستعير كل واحدة منهن من أختها أوراق الأشجار وأزهارها ،
وفي خلال هذه الأخوة العذبة حولت
أجلهن عينها الناعستين نحوى وهمست قائلة : « خذ ! »
ووقفت مشدوها حائراً في الحب لم أنبس ببنت شفة ،
لكنها قرأت ما تنطوى عليه جوانحي وناولتني تاجها الجميل ،
فأصبحت من أجل ذلك خاذمها حتى الممات (١٠٨) .

وطبق المؤلفون على هذه الأشعار الموسيقى الدينية الكاملة المعقدة الكثيرة
الأنغام ذات الأربعة الأصوات - التي يغنيها أربعة أو ثمانية - المتساوية
القيمة التي تخضع فيها ثلاثة أصوات لصوت واحد . وجميع هذه النغمات
المعقدة الدقيقة المتسلسلة تجمع الأصوات الأربعة المستقلة في نغم متوافق
متألف . . . وهكذا نشأت أغنية الحب في القرن السادس عشر فكانت من
أبتع أزاهير الفن الإيطالي ، وبينما كانت الموسيقى في أيام دانتى خادمة للشعر ،
أضحت الآن بعد أن اكتمل نموها شريكة له على قدم المساواة ، لا تخفى
فيها الألفاظ ، ولا تختفى فيها العواطف بل تجمع بين هذه وتلك في الحان
تزيد من قدرتها على استثارة النفس ، في الوقت الذي تبعث بمهارتها الفنية.
أسباب البهجة في عقول المتعلمين .

ووجه المؤلفون العظام في إيطاليا أثناء القرن التاسع عشر ، بما فهمهم
بالإسترينا نفسه ، وجهوا كلهم تقريباً فهم من آن إلى آن إلى القصائد
الغزلية . ويتنازع فيليب فيرديلو Philippe Verdelot ، وهو رجل فرنسي
عاش في إيطاليا ، وقسطنديا فيستا Quatanza Festa الإيطالي الموطن ، شرف
الأسبقية في تنمية هذه الصور الجديدة من صور الشعر بين عامي ١٥٢٠
و ١٥٣٠ . ثم جاء بعدهم بزمن قليل أركاديل Arcadelt وهو رجل فلمنكي

كان يعيش في رومة ، وذكره ربلية في كتاباته^(١٠٩) . وفي البندقية أعفى
أدريان ولايرت Adrian Willaert من واجباته بوصفه رئيس فرقة المرنمين
في كنيسة سان ماركو لكي يؤلف أجمل قصائد الغزل في أيامه .

وكانت القصيدة الغزلية تغنى عادة دون أن يصحبها عزف موسيقى على
الآلات . نعم إن الآلات الموسيقية كان يخططها الحصر ، ولكن ما من
واحدة منها ، سوى الأرغن وحده ، كانت تجزو على أن تنافس الصوت
الآدمي . ولقد نشأت موسيقى الآلات نشأة بطيئة في أوائل القرن السادس
عشر ، وكانت نشأتها من صيغ موسيقية وضعت أولاً للرقص أو الغناء الجماعي ؛
وعندنا نشأ البوان والسلطاريل والسرنييد^(١١٠) نشأة تدريجية من الرقص المصاحب
للغناء مع الآلات مفردة أو مجمعة ، وأضحى موسيقى الغزل التي تعزف
دون غناء هي الكانزوني التي نشأت منها السوناتة بعد زمن طويل^(١١١) ،
ومن ثم كانت هي منشأ السمفونية .

وكان الأرغن في القرن الرابع عشر قد وصل في تطوره ورقبه الدرجة
التي هو عليها الآن تقريباً ، فقد ظهرت لوحته الدواسة في ألمانيا والبلاد
الوطيئة في ذلك العهد ، وسرعان ما أذنت في فرنسا وأسبانيا ، أما إيطاليا
فقد تأخرت في قبولها حتى القرن السادس عشر . وكانت الكثرة الغالبة من
الأراغن قد أصبح لها قبل ذلك الوقت لوحتان أو ثلاث لوحات من المفاتيح
وعدد مختلف من الوقفات والأجهزة التي يمكن بها استخدام عدة مفاتيح
في وقت واحد . وكانت الأراغن الكبرى في الكنائس نحتاً فنية في حد ذاتها
يقوم الأساتذة العظام بتصميمها ، وحفرها ، ونقشها . كذلك سرى حب
الجمال في الشكل إلى غير الأرغن من الآلات الموسيقية ، فالعود مثلاً
— وهو آلة البيت المحبة — كان يصنع من الخشب والعاج ، ويتخذ شكل
الكمرى ، وتخرق فيه ثقوب الصوت في نظام جميل . وكانت لوحة الأصابع
فيه تقسم بتقوش من الفضة أو الشبة ، وتنتهى بصندوق للأوتاد يصنع زواوية

(١) كلها مربوط من الرقص وموسيقاه .

خادة مع عنقه . وكانت فتاة جميلة تجذب أوتار العود الذى تمخو عليه في حجرها فتتكون منه ومنها صورة جميلة يهوى إليها قلب كل إيطالى حساس . وكان الكثير من الآلات الموسيقية التى يعزف عليها بالأصابع هى الأخرى بحبة جميلة .

أما الذين يفضلون العزف بالوتر على العزف بالأصابع فكان لهم أنواع مختلفة من الكمان الذى يمسك على الذراع والذى يتكى على الساق . وقد تطور النوع الثانى حتى أصبح هو الكمان الجهير وأصبح الأول فى عام ١٥٤٠ هو الكمان الصغير . وكانت آلات النفخ أقل انتشاراً من الآلات الوترية ، ذلك أن عصر النهضة كان يبغيض الموسيقى التى تحدث بانتفاخ الخلود . كما كان يبغيضها ألقبيادس اليونانى ؛ ومع هذا فقد وجد الناي ، والفيف ، والقربة ، والبوق ، والقرن ، والصفارة ، والشون ، والمزمار . وأضافت آلات الطرق - الطبل ، والدف ، والصنوج ، والطنبور والصنوج الصغيرة التى تستعملها الراقصات - . أضافت هذه الآلات ضجيجها إلى العازفين والسامعين . وكانت جميع الآلات الموسيقية فى عصر النهضة شرقية الأصل . ما عدا لوحة المفاتيح التى أضيفت إلى غير الأرغن من الآلات للدق على الأوتار أو جدها بطريقة غير مباشرة . وأقدم هذه الآلات ذات لوحات المفاتيح هو البيان البدائى المسمى كلافيكورد Clavichord (ومعنى كلافس هو المفتاح) ؛ وقد ظهرت هذه الآلة فى القرن الثانى عشر ، وكان للعاطفة شأن فى بعثها من جديد فى أيام باخ Bach ؛ وكانت أوتارها تدق بملامس نحاسية صغيرة تحركها المفاتيح . ثم حلت محلها فى القرن السادس عشر آلة الكلافيتشيمبالو Clavicembalo التى كانت أوتارها تجذب بريشة أو قطعة من الجلد متصلة برافعات خشبية ترتفع إذا ما ضغط على المفاتيح . وقد اتخذت هذه الآلة فى إنجلترا وإيطاليا صورتين مختلفتين سميت فى الأولى فريجنال Virginal وفى الثانية اسپينيت Spinet .

وكانت هذه الآلات كلها حتى ذلك الوقت أقل شأنًا من الصوت

الآدمى ، ولذلك كان جميع الفنانين الفارحين فى عصر النهضة مغنين . لكننا نسمع فى وقت تعميد ألفنسو صاحب فيرارا فى عام ١٤٧٦ عن حفل فى قصر اسكفانيو Schifanio كانت فيه حفلة موسيقية اشترك فيها مائة من النافخين فى الأبواق والزمارين والضاربين على الطنبور . وفى القرن السادس استخدم مجلس السيادة فى فلورنس فرقة منتظمة من الموسيقيين كان منها تشلىنى . وكانت عدة آلات يعزف عليها فى ذلك العهد مجمعة ، ولكن هذا النوع من الحفلات قد اختصت به القلة الأرستقراطية . أما العزف المفرد على الآلات فقد كان شائعاً إلى حد يشبه الجنون ، فلم يكن الناس يؤمنون الكنائس للصلاة على الدوام ، بل كانوا يؤمنونها فى كثير من الأحيان ليستمعوا إلى عازف شهير على الأرغن مثل اسكوارتشيا لوبى أو أوركانيا Orcagna . ولما أن عزف بيتر بونو Pietro Bono على العود فى بلاط يورسو بفيرازا طارت أرواح المستمعين ، على حد قولهم ، من هذه الدار إلى الدار الآخرة (١١٠) . وكان كبار العازفين من أسعد الناس وأحبهم إلى القلوب فى تلك الأيام ، ولم يكونوا يطلبون لأنفسهم حسن السمعة ممن يخلفونهم بل كانوا يحصلون على كل ما يطعمون فيه من الشهرة قبل مماتهم .

أما النظريات فى الموسيقى فقد تأخرت عن الأعمال بنحو جيل : ذلك أن العازفين كانوا يجددون ، أما الأساتذة فكانوا يرفضون ، ثم يجادلون ، ثم يوافقون . وفى هذه الأثناء صيغت مبادئ الكرصته (*) ، والنغبات المتعددة المشتركة ، والتسلسل الموسيقى ، لكى يسهل تعلم الموسيقى وانتقالها . لهذا لم تكن أعظم السمات الموسيقية فى عصر النهضة هى النظريات ، بل لم تكن التقدم الفنى للموسيقى ، بل كانت استجالاتها من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ، ولهذا لم تعد الموسيقى الدينية فى القرن السادس عشر هى التى تقدمت ، وأجريت عليها التجارب ، بل كان الذى تقدم وجرب هو موسيقى القصاصد

(*) كثرت الأصوات وهو لفظ منحوت Polyphone . (المترجم)

الغزلية وموسيقى البلاط . ذلك أن الموسيقى الإيطالية في القرن السادس عشر خرجت من سيطرة الكنيسة كما خرج الأدب والفلسفة من هذه السيطرة ، وانعكست عليها السمات الوثنية لفن النهضة وما كان فيها من انحلال خالق ، وأخذت الموسيقى تبحث عن إلهام لها في شعر الحب وانتهى النزاع القديم بين الدين والجنس إلى وقتاً بانتصار الحب . وذلك انقضى عصر العذراء وبدأ سلطان المرأة ، ولكن الموسيقى في كليهما كانت خادمة للملكة والمؤتمرة بأمرها .

الفصل الحادى عشر

نظرة شاملة

تُرى هل كانت أخلاق إيطاليا فى عصر النهضة أسوأ من أخلاق غيرها من البلاد أو العصور؟ إن المقارنة لمن الأمور العسيرة ، لأن الشواهد كلها محض اختيار . فعصر القبيادس فى أثينة مثلاً يكشف عن كثير مما فى عصر النهضة من فساد فى العلاقات الجنسية والمماحكات السياسية ، ففيه أيضاً كان يحدث الإجهاض على نطاق واسع ، وفيه اتسع المجال للعاهرات المثقفات المتأدبات ؛ وفيه أيضاً تحررت العقول والغرائز فى وقت واحد ، وفيه استبق السوفسطائيون أمثال شرازيبولوس فى جمهورية أفلاطون مكيفلى إلى مهاجمة الفضائل ووصفوها بأنها من سمات الضعف ، ولربما كان العنف الفردى فى بلاد اليونان القديمة أقل منه فى إيطاليا على عهد النهضة ، كما كان الفساد فى الدين والسياسة عند اليونان أقل بعض الشيء منه فى إيطاليا (ونقول ربما عامدين لأننا فى هذه المسائل إنما نعتمد على ما ينطبع فى عقولنا لا على ما نجزم به واثقين) . وكذلك الحال فى أيام الرومان الأقدمين ؛ ففي قرن كامل فى تاريخ الرومان - من عهد قيصر إلى عهد نيرون - نجد الفساد فى الحكم ، والانحلال فى عقدة الزواج أكثر منهما عهد النهضة ؛ ولكن كثيراً من الفضائل الرواقية قد بقى فى أخلاق الرومان حتى فى ذلك العصر الفاسد نفسه ، فقد كان قيصر ، رغم ما يتصف به من قدرة على الجمع بين الضدين فى الرشوة والحب ، أعظم القوادى فى أمة كل رجالها قواد عظام .

وكانت النزعة الانفرادية فى عصر النهضة ناحية أخرى من نواحي حيويتها ونشاطها ، ولكنها لا تضارع فى الناحيتين الأخلاقية والسياسية ما كانت عليه النزعة الاستقلالية فى مدن العصور الوسطى ، وأكبر الظن أن الخلداع والغدر

والجريمة لم تكن في فرنسا ، وألمانيا وإنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أقل مما كانت في إيطاليا ؛ ولكن هذه الأفطار قد أوتيت من الحكمة والحصافة ما حال بينها وبين إخراج رجل مثل مكيفلي لينشر مبادئها السياسية ويعرضه على الأنظار . لقد كانت العادات والآداب العامة لا المبادئ الأخلاقية أكثر فظاظة وغلظة في شمال جبال الألب منها في جنوبها ، إذا استثنينا من هذا الحكم طبقة صغيرة في فرنسا - يمثلها الفارس الشهيم بايار Bayard وجاستن ده فوا Gaston de Foix - كانت لا تزال تحتفظ بالناحية الطيبة من نظام الفروسية . لكن الفرنسيين إذا ما أتبحت لهم الفرص التي أتبحت للإيطاليين لم يكونوا أقل منهم انهماكاً في الزنا ؛ وما على القارئ إلا أن يتذكر كيف انتشر داء الزهري بينهم انتشاراً سريعاً ، أو أن يلاحظ الاختلاط الجنسي التي تصفه لنا الأساطير الشعرية ، أو يحصى العاشقات الأربع والعشرين اللاتي كان يستمتع بهن فليب دوق برغندي ، ويتذكر أنييه سورل Agnel Sorels وديان ده بواتيه Dianas de Poitiers من حاشية ملوك فرنسا ؛ أو فليقرأ ما كتبه في ذلك برانتوم Brantome .

وإذا كانت ألمانيا وإنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تضارعا إيطاليا في الفساد الخلقي فقد كان منشأ ذلك فقر هذين البلدين . ولهذا فإن من جاءوا منهما إلى إيطاليا قد ذهلوا مما شاهدوا في الحياة الإيطالية من انحلال في الأخلاق . ولما زار لوثر إيطاليا في عام ١٥١١ قال من فوره إنه « إذا كان هناك جحيم ، فإن رومة قد بنيت من فوقه ؛ وهذا ما سمعته في رومة نفسها »^(١١) . وليس منا من لم يعرف الحكم الصارم الذي نطق به في ذهوله روجر آسك Roger Ascham العالم الإنجليزي الذي زار إيطاليا حوالي عام ١٥٥٠ :

« لقد كنت يوماً ما في إيطاليا نفسها ، ولكني أحمد الله إذ لم أقم فيها إلا تسعة أيام ؛ ومع هذا فإني شاهدت في هذا الزمن القصير ، وفي مدينة

واحدة ، من الانغماس في الذنوب والتحرر من قيود الأخلاق أكثر مما سمعته يقال في تسعة أيام عن بلدتنا النobile لندن . لقد رأيت هناك أن في مقدور المرء أن يرتكب الخطايا دون أن يتعرض للعقاب ودون أن يهتم بخطايا أي إنسان ، وقد أوتي من الحرية في ارتكابها بقدر ما أوتي ساكن لندن من حرية في أن يختار دون لوم أن يلبس حذاء أو خفاً (١١٢) .

وهو يورد من الأمثال السائرة قولهم « إن الإنجليزى المتطلين هو الشيطان المجسد » .

وإننا نعرف عن فساد إيطاليا أكثر مما نعرفه عن فساد ما وراء الألب لأننا نعرف عن الأولى أكثر مما نعرف عن الثانية ، ولأن غير رجال الدين من الإيطاليين لم يحاولوا قط أن يخفوا فسادهم ، بل إنهم في بعض الأحيان ألفوا الكتب للدفاع عن هذا الفساد . على أننا نعود فنقول إن مكيفلى الذى ألف كتاباً من هذا النوع كان يرى أن إيطاليا « أكثر فساد من كل ما عداها من الأقطار ، ثم يليها في ذلك الفرنسيون ثم الأسبان » (١١٣) . وكان يعجب بالألمان والسويسريين ويقول إنهم لا يزالون يتصفون بكثير من فضائل الرجولة التى كانت لأهل رومة القديمة . وفي وسعنا أن نقول بشيء من الحذر والتردد إن إيطاليا كانت أكثر من غيرها فساداً لأنها كانت أكثر ثراء ، وأضعف حكماً ، وأقل خضوعاً لسلطان القانون ، وإنها كانت أكثر رقياً في ذلك التطور الذهنى الذى يؤدى في العادة إلى التحلل من القيود الأخلاقية .

ولقد بذل الإيطاليون جهوداً مشكورة في مقاومة ذلك الانحلال . وكانت أقل هذه الجهود ثمرة هى قواعد النفقات التى وضعت في الدول الإيطالية كلها تقريباً والتي كانت تحرم الإسراف في الإنفاق على الملابس المتبرجة ، غير ما كان يتصف به الرجال والنساء من زهو وخيلاء كان أقوى من قوة القانون . وكان البابوات ينددون بالفساد الخلقى ، ولكن

التيار القوي كان يجرهم معه في بعض الأحيان ، وكانت المحاولات التي يبذلونها لإصلاح مفاصل الكنيسة يحول دون نجاحها عدم رغبة الكهنة في الإقلاع عن عاداتهم السيئة أو محافظتهم على مصالحهم المكتسبة . على أنهم هم أنفسهم لم يبلغوا من الفساد المبلغ الذي يصورهم به المؤرخون المغالون ، غير أنهم كانوا أكثر اهتماماً بإعادة سلطان البابوية السياسي منهم بإعادة صلاح الكنيسة الأخلاقية . وفي ذلك يقول جوتشيارديني : « إن الحبر الأعظم ليوصف بالصلاح ويمتدح إذا لم يكن أكثر شراً من غيره من الناس » (١١٤) . ولقد بذل وعاز ذلك العصر العظيم جهوداً جبارة لإصلاح ذلك الفساد ؛ ونذكر منهم على سبيل المثال القديس برناردينو السينائي ، وروبرتو دا لثو Roberto da Lecce ، وسان جيوفاني دا كاستراتوا ، وسفرولا . ولقد كانت عظائمهم ، وكان مستمعوهم ، جزءاً من لون ذلك العصر وطبيعته . فقد كانوا ينددون بالرديلة بأقوال مفصلة واضحة ، أذاعت بين الناس شهرتهم وجذبت إليهم القلوب ؛ وقد أقنعوا رجال الإقطاع بالتخلي عن عادة الأخذ بالثأر ، وبالعيش في وئام وسلام ، وحلوا الحكومات على أن تطلق سراح المدينين المقلسين ، وتسمح للمنفين بأن يعودوا إلى أوطانهم آمنين ؛ وعادوا بالآثمين الذين قست قلوبهم من الذنوب إلى ما أهملوه من الصلاة ومن مراعاة لقواعد الدين .

غير أن هؤلاء الوعاظ الأقوياء أنفسهم قد أخفقوا فيما كانوا يبتغون ؛ فقد عادت إلى الظهور تلك الغرائز التي تكونت خلال مائة ألف عام قضاهها الإنسان صياداً متوحشاً ، حين خرجت من قشرة الأخلاق التي تشقت بعد أن فقدت تأييد العقيدة الدينية واجترام السلطة العليا والقانون الثابت المقرر ، ولم يعد في مقدور الكنيسة التي كانت من قبل تحكم الملوك أن تحكم أو تظهر نفسها . وكان انهيار الحرية السياسية في دولة إثر دولة قد ثلم حدة الشعور الوطني الذي بث روح الحرية والنبل في حكومات مدن العصور الوسطى

المستقلة ؛ فلم نعد نرى إلا أفراداً بعد أن كنا نرى مواطنين . ووجد أولئك الأفراد أنفسهم محرومين من الاشتراك في حكم بلادهم ، وبأيديهم ثروة ضخمة ، فاتجهوا إلى طلب اللذات ، حتى إذا دهمهم الغزو الأجنبي وجدهم في أحضان العاهرات . وقد ظلت دول المدن قرنين من الزمان توجه قواتها ، وحذقها ، ودهاءها ، وغدرها ، بعضها نحو بعض ، حتى أصبح مستحيلاً عليها أن تضم شملها للوقوف أمام عدوها مشترك . ولما أخفق الوعاظ أمثال سفرولا في كل ما لجأوا إليه من وسائل لإصلاح الحال ، أخذوا يدعون الله ليصب جام غضبه على إيطاليا ، وتنبأوا بأن رومة سيحرقها الخراب ، وأن الكنيسة ستتحطم وتبديد (١١٥) . وملت فرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا لإرسال الخراج لسد نفقات الحروب التي تشنها الولايات البابوية ، وتمكين الإيطاليين من أن يحيا حياتهم المترفة ، وأخذوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى شبه الجزيرة التي فقدت إرادتها وجردت من سلطانها ، والتي تستهوى القلوب بجبالها وثراتها . وتجمعت الطيور الجارحة وأخذت تحلق في سماء إيطاليا توشك أنه تنقض عليها لتشيع منها نهمها .

الباب الحادى والعشرون

الانهيار السياسى

١٤٩٤ - ١٥٣٤

الفصل الأول

فرنسا تكشف إيطاليا ١٤٩٤ - ١٤٩٥

نعود بالقارئ إلى الموقف فى إيطاليا فى عام ١٤٩٤ . لقد نشأت قبل ذلك العام دول المدن بفضل قيام طبقة وسطى من السكان أثرت من اشتغالها بأعمال التجارة والصناعة التى اتسع نطاقها . وكانت هذه المدن قد فقدت استقلالها الذاتى وحريتها لعجز حكوماتها شبه الديمقراطية عن حفظ النظام بسبب التقاتل بين الأسر والنزاع بين الطبقات . وبقيت اقتصادياتها محلية فى تكوينها حتى فى الوقت الذى وصلت فيه أساطيلها وغلاتها إلى الثغور النائية ، وكان بعضها ينافس البعض الآخر أشد مما ينافس الدول الأجنبية ، ولم تضم فى يوم ما صفوفها لتقاوم مجتمعة توسع الفرنسيين ، والألمان ، والأسبان التجارى فى الأقاليم التى كانت تسيطر عليها المدن الإيطالية من قبل . ومع أن إيطاليا هى التى أنجبت الرجل الذى أعاد كشف أمريكا ، فإن أسبانيا هى التى أمدته بالمال ؛ واقتفت التجارة خطاه ، وصحب الذهب عودته ، وازدهرت الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى ، ولم يعد البحر المتوسط الموطن المحب لحياة الرجل الأبيض الاقتصادية ؛ وأخذت البرتغال تسير السفن إلى

الهند والصين حول قارة إفريقيا ، وتمجنب العراقيل التي توضع في طريقها في بلاد الشرق الأدنى والأوسط ، وحتى الألمان أخذوا يسفرون سفنهم من مصاب نهر الرين بدل أن ينقلوا متاجرهم فوق جبال الألب في إيطاليا . وأخذت الأقطار التي ظلت قرناً من الزمان تبتاع منسوجات إيطاليا الصوفية تنسج هي أصوافها ، كما أخذت الأمم التي تؤدي أرباح الأموال إلى المصارف الإيطالية تنمي هي موارد المالية ، وأضحت الزكاة ، والمراتب الأولى للمناصب الكنسية التي من حق الكنيسة ، وبنسات بطرس (*) وأثمان صكوك الغفران ، ونقود الحجاج ، أصبحت هذه أهم ما تؤديه إلى إيطاليا البلدان الأوروبية الواقعة وراء الألب ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى حول ثلث أوربا مجرى هذا المال : ولهذا حدث في ذلك الجيل الذي رفعت فيه الثروة المخزنة في إيطاليا مدنها إلى ذروة مجدها وعلا فيها شأن فنونها ، نقول إنه في هذا الجيل نفسه قضى فيه على مركز إيطاليا الاقتصادي

ونختم في ذلك الوقت عينه على مصيرها السياسي ، فبينما كانت هي منقسمة إلى نظم اقتصادية متعادية ودول سياسية متخاربة ، كان تطور الاقتصاد القومي في غيرها من المجتمعات الأوروبية برغم هذه المجتمعات على الانتقال من عهد الإمارات الإقطاعية إلى عهد الدول الملكية ، ويقدم المال اللازم لهذا الانتقال . ففي ذلك الوقت توحدت فرنسا تحت حكم لويس الحادي عشر ، وأخضعت باروناتها فجعلتهم حاشية للملوك ، وجعلت من سكان مدنها رجالاً عامرة قلوبهم بالروح الوطنية . واتحدت أسبانيا بزواج فرديناند صاحب أرغونة من إزبلا ملكة قشتالة ، وفتحت غرناطة ، ومكنت بدماء أهلها وحدتها الدينية . كذلك توحدت إنجلترا تحت حكم هنري السابع ،

(*) ضريبة قديمة مقدارها بنس كان يؤديها كل صاحب بيت في إنجلترا إلى الكرسي البابوي ثم أصبحت بعد عام ١٨٦٠ ضريبة اختيارية يؤديها أتباع المذهب الكاثوليكي الروماني إلى هذا الكرسي . (المترجم)

ومع أن ألمانيا لم تكن أقل تشبهاً وانقساماً من إيطاليا ، فإنها كانت تعرف بالسيادة للملك واحد ولإمبراطور ، وتمده أحياناً بالمال والجند ليحارب بهما هذه الدولة الإيطالية أو تلك . ثم إن إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا أنشأت جيوشاً قومية من أهلها ، وأمدتها أشرافها بالفرسان والقادة . أما المدن الإيطالية فلم تكن لها إلا قوات صغيرة من الجنود المرتزقة لا هم لها إلا السلب والنهب ، يتولى قيادتها زعماء مغامرون أبغض الأشياء إليهم أن يصابوا بجروح قاتلة . وكانت معركة واحدة كافية لأن تكشف لأوروبا ضعف إيطاليا وعجزها عن الدفاع عن نفسها .

وكان نصف بيوت المالكين في أوروبا يزخر وقتئذ بالدسائس الدبلوماسية يريد كل واحد منها أن يحرز قصب السبق في الاستيلاء على الغنيمة . ونادت فرنسا بأنها صاحبة الحق الأول ، لأسباب كثيرة ، منها أن جيان جاليدسو لسكونتي قد زوج ابنته فالنتينا (١٣٨٧) من لويس أول دوق لأورليان ، وكان ثمن هذه الصلة الطبية المريحة بأسرة مالكة هو اعترافه بحقها وبحق الذكور من أبنائها في أن يرثوا دوقية ميلان إذا لم يكن له وريث ذكر من صلبه ؛ وتم ذلك فعلاً حين توفي فيليبو ماريا فسكونتي (١٤٤٧) . فاستولى صهره فرانتشيسكو اسفوردسا حينئذ على ميلان بدعوى أنها من حق زوجته بيانكا ابنة فيليبو ماريا ؛ ولكن شارل دوق أورليان طالب بعرش ميلان بوصفه ابن فالنتينا ، ونادى بأن آل اسفوردسا مغتصبون ، وأعلن تصميمه على الاستيلاء على الإمارة الإيطالية إذا ما حانت له الفرصة .

وفضلاً عن هذا فإن شارل دوق أنجو كان قد حصل كما يقول الفرنسيون على مملكة نابلي من البابا إربان الرابع (١٢٦٦) ، مكافأة له على حماية البابوية من ملوك آل هوهنشتاوفن ؛ ثم أوصت جوانا Joanna الثانية ملكة نابلي بهذه المملكة إلى رينيه René دوق أنجو (١٤٣٥) ؛ وكان ألفنسو صاحب أرغونة قد طالب بها بدعوى أن جوانا قد تبنته إلى وقت ما ،

أقام بالقوة بيت أرغونة على عرش نابلي : وحاول ويذه أن ينتزع المملكة منه ولكنه لم يفلح ؛ وانتقل حقه القانوني فيها بعد موته إلى لويس التاسع ملك فرنسا ؛ وفي عام ١٤٨٢ دعا سكستس الرابع - وكان على خلاف مع نابلي - لويس للاستيلاء على ميلان وقال « إنها ملك له » . وحدث في ذلك الوقت أن شن حلف من الدول الإيطالية الحرب على البندقية فلجأت في يأسها إلى لويس تطلب إليه أن يهاجم نابلي أو ميلان ، وقالت إنها تفضل أن يهاجم الاثنين : وكان لويس وقتئذ مشغولاً بتوحيد فرنسا ، ولكن ابنه شارل الثامن ورث حقه في نابلي واستمع إلى المنفيين من أهلها وإلى أنصار أسرة أنجو في بلاطه ، وأدرك أن تاج نابلي كان منضمًا إلى تاج صقلية ، وأن هذا مرتبط بتاج بيت المقدس . لهذا خطرت بباله تلك الفكرة الكبيرة ، أو لعل أحداً أوعز إليه بها ، وهي الاستيلاء على نابلي وصقلية ، على أن يتوج بعدئذ ملكاً على بيت المقدس . ثم يقود حملة صليبية لقتال الأتراك . وحدث في عام ١٤٨٩ أن قام النزاع بين إنوسنت الثامن وبين نابلي ، فعرض إنوسنت المملكة على شارل إذا قدم للاستيلاء عليها . لكن الإسكندر الثالث (١٤٩٤) حذر الملك من عبور الألب وإلا كان نصيبه الحرمان ؛ غير أن الكردينال جوليانو دلا روفيري عدو الإسكندر - الذي حارب فيما بعد حين أصبح هو البابا يوليوس الثاني ليطرده الفرنسيين من إيطاليا - قدم إلى شارل في ليون Lyons ونحرضه على غزو إيطاليا وخلع الإسكندر . ووجه سفرولاً دعوة أخرى إلى شارل يرجو من ورائها أن يخلع هذا الملك بـيرو ده البيديتشي عن عرش فلورنس والإسكندر عن عرش البابوية في رومة ، وقبل كثير من أهل فلورنس أن يتولى الراهب زعامتهم . وأخيراً عرض لدوفيكو صاحب ميلان على شارل أن يسمح له باختراق أملاك ميلان إذا ما اعتزم أن يوجه حملة إلى نابلي ، وكان الباعث على هذا خوفاً من أن تهاجمه نابلي نفسها .

ووجد شارل أن نصف إيطاليا يشجعه فأخذ يستعد لغزو نابلى . وأراد أن يحمى جناحيه أثناء الغزو فنزل عن أرتوا Artois وفرانش كمتيه Francho Compte إلى مكسميليان إمبراطور الدولة الرومانية ، كما نزل عن رسيون Rousillon وسرداني Cerdagen إلى فرديناند ملك أسبانيا ، ونفح هنرى السابع بمبلغ كبير من المال نظير تخليه عن المطالبة بمقاطعة بريطاني الفرنسية . وفى شهر مارس من عام ١٤٩٤ حشد جيشه فى ليون ، وكان مؤلفاً من ١٨ر٠٠٠ من الفرسان ، و ٢٢ر٠٠٠ من المشاة ، وسير أسطولا ليضمن ولاء جنوى لفرنسا ، فاسترد فى الثامن من سبتمبر بلدة رابلو Rapallo من قوة نابلية كانت قد نزلت بها ؛ وروعت أنباء المذبحة الرهيبة التى أعقبت هذه المعركة الأولى لإيطاليا كلها التى لم تتعود إلا المذابح المعقولة . وفى ذلك الشهر عينه عبر شارل وجيشه جبال الألب ووقف عند أستي Asti . وسار لدوفيكو صاحب ميلان ، وإركولى صاحب فيرارا لمقابلته . وأقرضه لدوفيكو مالا ؛ وعاقبت إصابة شارل بالجدري تنفيذ خطة الغزو الموضوعة ، فلما شفى قاد جيشه مخترقاً أراضي ميلان إلى تسكانيا ؛ وكان فى وسع القلاع المقامة على حدود فلورنس أن تقاومه ، ولكن بيرو ده ميديتشى جاء بنفسه ليسلمها إليه ومعها بيزا وليفورنو Livorno . وفى السابع عشر من نوفمبر اجتاز شارل ونصف جيشه مدينة فلورنس ؛ وأعجبت جماهير الشعب بمنظر الفرسان الذى لم تشاهد مثله من قبل ، وساءهم ما ارتكبه الجند من السرقات الصغيرة ، ولكنهم ذهب عنهم الروع حين رأوهم يمتنعون عن السلب والنهب . وفى شهر ديسمبر تقدم شارل نحو رومة .

لقد سبق أن نظرنا إلى لقاء الملك والبابا من وجهة نظر الإسكندر ، وبقي أن نقول إن شارل سلك مسلكاً معتدلاً ، فلم يطلب إلا أن يسمح لجيشه بحرية المرور فى لاتيوم ، وأن يتولى هو الوصاية على الأميرجيم التركى

السجين البابوى (وكان يمكن استخدامه مطالباً بالسلطنة وخليفة إذا ما سير
حمله ضد الأتراك) ، وأن يصحبه سيزارى بورچيا ليكون رهينة لديه .
ووافق الإسكندر على هذه الشروط ، وزحف الجيش نحو الجنوب (٢٥)
يناير سنة ١٤٩٥) ، لكن بورچيا لم يلبث أن فر ، وكان فى وسع الإسكندر
بعد فراره أن يعدل خططه الدبلوماسية .

وفى الثامن والعشرين من فبراير دخل شارل نابلى دخول الظافرين
دون أن يلتقى مقاومة . وسار فى المدينة ومن فوقه مظلة من القماش الموشى
بخيوط الذهب يحملها أربعة من أعيان نابلى . ويتلقى تحيات الجماهير .
وأظهر رضاءه وتقديره بأن خفض الضرائب وعفا عن قاوموا مجيئه ؛ وأقر
نظام الاسترقاق بناء على طلب الأعيان الذين كانوا يحكمون الأرض
الواقعة وراء المدينة . وظن أن الأمر قد استتب له فأصبح آنساً مطمئناً ،
فتوانى وعهد إلى الراحة والاستمتاع بجو البلدة ومناظرها الجميلة ؛ وكتب
بلهجة حماسية إلى دوق بوربون يصف الحداثق التى كان يعيش فى وسطها ،
والتي لا ينقصها إلا حواء كى تصبح جنة النعم ؛ وأبدى دهشته مما فى المدينة
عن عمائر ، وتماثيل ، وصور زيتية ، واعتزم أن يأخذ معه إلى فرنسا
طائفة ممتازة من الفنانين الإيطاليين ؛ وإلى أن يحين ذلك الوقت بعث إلى
فرنسا بسفينة محملة بالتحف الفنية المسروقة من المدينة . وسحرتة نابلى
بجمالها فأنسته كل شئ عن بيت المقدس وعن حربه الصليبية .

وبينا هو يلهو ويضيع الوقت سدى فى نابلى ، وبينما كان جيشه يستمتع
بنساء الشوارع والمواخير ، فيصاب « بالمرض الفرنسى » أو ينشر هذا الداء
الوبيل بين الأهلىن ، كانت المتاعب تتجمع من خلفه . ذلك أن أعيان
نابلى حرموا فى كثير من الحالات من ضياعهم التى انتزعت منهم لترد إلى
ملإكها من أسرة أنجول أو للوفاء بما على شارل من ديون لخدمه ، وذلك
بدلاً من أن يكافأ هؤلاء الأعيان على ما قدموا من معونة لخلع ملكهم

السابق ؛ يضاف إلى هذا أن جميع مناصب الدولة قد أعطيت للفرنسيين ، ولم يكن شيء يستطيع الحصول عليه منهم إلا إذا قدم لهم من الرشاوى . ما أغضب الأهلين لتجاوزه القدر الذى اعتادوا تقديمه . ثم إن جيش الاحتلال أضاف الإهانة إلى الأذى بما كان يظهره من احتقاره للشعب الإيطالى ، فلم تمض إلا أشهر قليلة حتى خسر الفرنسيون ما قبلوا به من ترحيب واستبدلوا به كرها يتربص بهم الدوائر ، ويتربص الفرصة التى تتاح له لطرد الغزاة .

فلما كان اليوم الحادى والثلاثون من شهر مارس انضم الإسكندر الرجل المرن الذى لا يكاد يتلقى الطعنة حتى يفتق منها ، ولدوفيكو التائب النادم . على ما فعل ، وفرديناند الغضوب ، ومكسميليان الغيور الحسود ، ومجلس شيوخ البندقية الحذر ، انضم هؤلاء فى حلف للدفاع المشترك عن إيطاليا . ومضى شهر على الملك شارل وهو يحوس خلال نابلى بمسك الصوبلخان . يلحذى يديه ويمسك بيده الأخرى كرة - نظنها تمثل الكرة الأرضية - قبل أن يدرك أن الحلف الحديد يعد جيشاً لقتاله . وفى الحادى والعشرين من مايو عهد أمر نابلى إلى ابن عمه كونت مونتپنسييه Montpensier وزحف على رأس نصف جيشه نحو الشمال ، فلما وصل ذلك الجيش البالغ عدده عشرة آلاف مقاتل إلى فورنوفو Fornovo القائمة على نهر تارو من أملاك پارما وجد أن جيشاً عدته أربعون ألف رجل بقيادة جيان فرانتشيسكو جندساجا مركز ما انتوا يسد عليه الطريق . وفى الخامس من يوليه سنة ١٤٩٥ امتحنت قوة الجيوش الإيطالية والفرنسية وخططهما العسكرية لأول مرة . وأساء جندساجا إدارة المعركة وإن كان قد حارب ببسالة . فلم يشترك فى القتال إلا نصف جنده ؛ لم يكن الإيطاليون مستعدين من الناحية العقلية لقتال محاربين لا يرحمون من يقع فى أيديهم ، فولى الكثيرون منهم الأدبار ؛ وضرب فارسن بايار وهو صبي فى العشرين من عمره أروع المثل لرجالهم

بشجاعته ومجازفته في القتال ، وحتى الملك نفسه قاتل قتال الأبطال ، وكانت المعركة غير حاسمة ادعى فيها كلا الطرفين أنه هو الظافر ، وخسر الفرنسيون قافلة مؤنهم ولكنهم ظلوا المسيطرين على الميدان ، ولمساجن الليل تقدموا نحو أستي دون أن يلقوا مقاومة ، وفيها كان ينتظرهم لويس دوق أورليان الثالث ومعه المدد ، وفي شهر أكتوبر عاد شارل إلى فرنسا بعد أن خسر الكثير من سمعته ولكنه لم يصب بأذى شديد .

وكانت النتائج الإقليمية لهذه المعركة تافهة : أهمها أن جندسالو Gonzalo « القائد العظيم » طرد الفرنسيين من نابلي وكلبريا ، وأعاد أسيرة أرغونة إلى عرشها في شخص فيديريجو Federigo الثالث (١٤٩٦) . أما النتائج البعيدة لهذا الغزو فقد تجاوزت كل حد : فقد أثبت تفوق الجيش القومي على الجنود المرتزقة المأجورة ، ويستثنى من هذا الحكم العسام الجنود السويسريون المرتزقون وإن يكن هذا الاستثناء مؤقتاً قصير الأجل . ذلك أن أولئك الجنود السويسريون المسلحين بالحراب البالغ طولها ثمان عشرة قدماً والمنظمين في فرق مترابطة متلاصقة كانت سداً منيعاً شاكاً أمام الفرسان الزاحفين . ولهذا قدر لأولئك الجنود أن يكسبوا كثيراً من الوقائع . ولكن هذه القوة الهائلة التي أعادت إلى الذاكرة صفوف المقدونيين المترابطة في حروب الإسكندر الأكبر لم تلبث أن أضحت عديمة الجدوى أمام تقدم المدفعية . ولعل هذه الحرب هي التي حدث فيها لأول مرة أن وضعت المدافع على العربات فأمكن بذلك توجيهها بسهولة في الاتجاهات المختلفة وتغيير مدى مرماها . وكانت هذه العربات تجرها الخيول لا الثيران (كما كانت العادة في إيطاليا حتى ذلك الوقت) . وقد جاء الفرنسيون إلى الميدان — كما يقول جوتشباردينى — بعدد كبير من « مدافع الميدان والمدافع المدمرة التي لم تر إيطاليا مثيلاً لها من قبل » (٣) . وقاتل الفرسان الفرنسيون أحفاد أبطال فرواسار ، قتال الأبطال في فورنوفو ، ولكن الفرسان أيضاً ما لبثوا أن خضعوا للمدافع ،

وهكذا تبدلت الحال عما كانت في العصور الوسطى ؛ فقد كانت فنون الدفاع في تلك الأيام متقدمة على وسائل الهجوم ، وكان هذا سبباً في عدم تشجيع الحروب . أما الآن فقد أخذت أساليب الهجوم تتقدم على أساليب الدفاع ، وأصبحت الحرب من ثم أكثر سفكاً للدماء . وثمة نقطة أخرى عظيمة الخطر : تلك هي أن حروب إيطاليا قلما كانت حتى ذلك الوقت تشغل أهلها أنفسهم ، وكانت تلحق الأذى بحقولهم أكثر مما تلحقه بأرواحهم ؛ أما الآن فقد قدر لهم أن يروا إيطاليا كلها يحل بها الدمار وتخضب أرضها بالدماء ؛ وعرف السويسريون في تلك الحرب التي دامت طوال العام ما تنطوي عليه بهول لمباردى من خصب ونماء ، وطالما غزوها بعدئذ المرة بعد المرة . وأدرك الفرنسيون أن إيطاليا منقسمة ومشتتة وأنها تنظر المغير الفاتح . نعم إن شارل الثامن قد ألقى بنفسه في أحضان العاشقات ، وكاد يمتنع عن التفكير في نابلي ، ولكن ابن عمه ووريثه كان أصاب منه عوداً ، وما لبث لويس الثاني عشر أن عاود الكرة .

الفضل الثاني

تجدد الهجوم : ١٤٩٦ - ١٥٠٥

وأضاف مكسميليان « ملك الرومان » - أى الألمان - فصلاً آخر إلى هذه المسرحية ، فلقد كان يؤله ويقض مضجعه أن يفكر فى أن مدونه الكبرى ، أى فرنسا ، تعظم وتقوى ، وتطوقه باستيلائها على إيطاليا . وكانت قد ترامت إليه أخبار غنى هذه البلاد وجمالها وضعفها ، ولم تكن قد أصبحت بعد دولة ، بل كانت شبه جزيرة . وكانت له هو أيضاً ادعاءات ومطالب فى إيطاليا ، فقد كانت مدن لباردى لا تزال من الوجهة القانونية إقطاعيات تابعة للإمبراطورية ، وكان من حقه قانوناً بوصفه رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن يعطيها لمن يشاء ؛ ألم يرشهُ الدوفيكو بالفلورينيات وبيبانكا أخرى لكى يمنحه دوقية ميلان ؟ يضاف إلى هذا أن كثيرين من الإيطاليين دعوه إلى المجيء : فللدوفيكو والبندقية قد طلبا إليه (١٤٩٦) أن يدخل إيطاليا ويساعدهما على صد هجوم فرنسى آخر يهدد البلاد ، ولجى مكسميليان الدعوة ومعه عدد قليل من الجنود ، واستطاعت البندقية بدائها أن تقنعه بالهجوم على ليفورنو ، فرضة فلورنس الأخيرة على البحر المتوسط ، وبذلك يضعف هذه المدينة التى لا تزال متحالفة مع فرنسا ومنافسة على الدوام للبندقية ، وأنخفضت حملة مكسميليان لأنها كانت يعوزها التنسيق والتأييد الكافى ، فعاد إلى ألمانيا دون أن يستفيد من هذا الدرس إلا الشيء القليل (ديسمبر سنة ١٤٩٦) .

وفى عام ١٤٩٨ أصبح دوق أورليان هو لويس الثانى عشر . وإذا كان هو حفيد فالنتينى فسكونتى فإنه لم يندس قط ما كانت أسرته تدعيه من

حقوق لها في ميلان ؛ وإذ كان هو ابن عم شارل الثامن ، فقد ورث مطالب آل أنجو في نابلي . ومن أجل هذا فإنه في يوم تنويجه اتخذ فيها اتخذ من ألقاب : دوق ميلان ، وملك نابلي وصقلية ، وإمبراطور بيت المقدس . وأراد أن يمهد السبيل لنفسه فجدد معاهدة سلام مع إنجلترا وعقد معاهدة مثلها مع أسبانيا ؛ ثم أغرى البندقية فوقعته معه شروط حلف « للاشتراك في حرب ضد دوق ميلان لدوفيكو اسفوردسا وضد أى إنسان آخر عدا الحبر الأكبر بابا رومة لكى يرد إلى صاحب الجلالة الملك المسيحي . . . دوقية ميلان ملكه الشرعى القديم » ، ووعداها في نظير ذلك بكريمونا ، والأراضي الواقعة شرق أدا . ثم عقد بعد شهر من ذلك التاريخ (مارس ١٤٩٩) اتفاقاً مع المقاطعات السويسرية لكى تمده بالجنود نظير إعانة مالية قدرها عشرون ألف فلورين . وفي شهر مايو استدرج الإسكندر إلى محالفته بأن أعطى سيزارى بورجيا زوجة فرنسية يجرى في عروقتها الدم الملكى ، ودوقية فالنتينو Valantino وقطع له عهداً بأن يساعده على استرداد الولايات البابوية . وشعر لدوفيكو بالضعف أمام هذه الأحلاف ؛ ففر إلى النمسا ، ولم تمض إلا ثلاثة أسابيع حتى اختفت دوقيته بعد أن اقتسمتها البندقية وفرنسا ، وفي السادس من شهر أكتوبر سنة ١٤٩٩ دخل اويس ميلان ظافراً ورحبت به إيطاليا كلها تقريباً عدا نابلي .

والواقع أن إيطاليا بأجمعها عدا البندقية ونابلي أضحت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا أو نفوذها ؛ فقد أسرع مانتوا ، وفيرارا ، وبولونيا وأعلنت خضوعها واستسلامها ؛ وتمسكت فلورنس بحلفها مع فرنسا لأنها رأت فيه الوسيلة الوحيدة لحمايتها من سيزارى بورجيا . وحتى فرديناند ملك أسبانيا ، رغم ما بينه وبين الأسرة الأرجونية من وئام القربى ، عقد في غرناطة (١١ نوفمبر سنة ١٥٠٠) ميثاقاً سرياً مع ممثلى لويس يتضمن الاشتراك معه في فتح جميع إيطاليا الواقعة جنوب الولايات البابوية .

وعاونهما الإسكندر السادس الذى كان بحاجة إلى معونة فرنسا لاسترداد هذه الولايات ، بأن أصدر مرسوماً بأبويأ خلع به فيديريجو الثالث ملك نابلى وأيد تقسيم مملكته بين فرنسا وأسبانيا .

وفى شهر يوليه عام ١٥٠١ زحف جيش فرنسى بقيادة استيورت دوبينى Stuart Daubigny الاسكتلندى ، وسيزارى بورچيا ، وفرانثيسكو دى سان سقرينو الذى غدر بلدوفيكو بعد أن كان من المقربين إليه ، زحف هذا الجيش مخترقاً إيطاليا إلى كاپوا واستولى عليها ونهبها ، وتقدم صوب نابلى ، ورأى فيديريجو أن أنصاره جميعاً قد انفضوا من حوله فسلم المدينة إلى الفرنسيين نظير قبوله لاجئاً آمناً فى فرنسا ومعاشاً سنوياً . وفى هذه الأثناء استولى الفأمر الأكبر جندسالو القرطبي Gonzalo de Cordoba على كالبريا وأبوليا باسم فرديناند وإزبلا . وأرسل فرانتى بن فيديريجو سجيناً إلى أسبانيا بناء على طلب فرديناند ، وذلك بعد أن سلم تارنتو Taranto ووعده جندسالو بأنه سبطلق سراحه . ولما أن اتصل الجيش الأسباني بالجيش الفرنسى على الحدود الواقعة بين أبوليا وأبروتسى قام النزاع بينهما على الحد الفاصل بين ما استولى عليه كل منهما ، وقامت الحرب بين أسبانيا وفرنسا على تقسيم الأسلاب . واغتنب بذلك الإسكندر أيما اغتباط (يوليه سنة ١٥٠٢) ، وقال البابا لسفير البندقية : « لو أن الله لم ير الخلاف بين فرنسا وأسبانيا ، لما عرفنا الآن أين نكون ؟ » .

وابتسم الحظ للفرنسيين فى هذه الحرب الجديدة إلى حين ، فقد اجتاحت قوات دوبينى جنوبى إيطاليا كله تقريباً : وحبس جندسالو جنوده فى مدينة بارليتيا الحصينة . وهنا وقعت حادثة من حوادث العصور الوسطى الطريفة ألفت شيئاً من الهجة على هذه الحرب المشثومة (١٣ فبراير سنة ١٥٠٣) . ذلك أن ضابطاً فرنسياً وصف الإيطاليين بأنهم شعب مخنث جبان دنى ، فثار قائد إحدى الفرق الإيطالية فى الجيش الأسباني لهذه الإهانة

وطلب أن يقاتل ثلاثة عشر من الفرنسيين مثلهم من الإيطاليين . واتفق على هذا ، وأرجئ القتال ، ووقف الجيشان المتحاربان يشاهدان النزال ، بينما كان المحاربون الستة والعشرون يقتتلون حتى أئخن الفرنسيون الثلاثة عشر بالجراح التي أعجزتهم عن مواصلة البراز ووقعوا أسرى في أيدي الإيطاليين ، وأخذت جندسالو الشهامة الأسبانية التي لا تقل في بعض الأحيان عن القوة الأسبانية ، فافتدى الأسرى من ماله الخاص وردهم إلى جيشهم (٦) .

وأعادت هذه الحادثة الروح المعنوية لجنود القائد الأكبر ، فخرجوا من بارليتا ، وهزموا المحاصرين وبددوا مثلهم ، ثم هزموا الفرنسيين مرة أخرى عند تشيرنيولو Cerignolo . وفي السادس عشر من شهر مايو سنة ١٥٠٣ دخل جندسالو نابلي دون أن يلقى مقاومة ، ورحب به أهلها ، وهم الذين يستطيع كل منتصر أن يعتمد دائماً على ترحيبهم ، وسير لويس الثاني عشر جيشاً آخر لقتال جندسالو ، فالتقى ذلك القائد به على شاطئ كارجليانو ، وأوقع به هزيمة منكرة (٢٩ ديسمبر سنة ١٥٠٣) ؛ وغرق بيرو ده ميديتشي الذي كان يفر مع الفرنسيين في أثناء الفوضى التي أعقبت هذه الهزيمة ؛ ثم ضرب جندسالو الحصار على جيتا Gaeta آخر معاقل الفرنسيين في جنوبي إيطاليا ؛ وعرض على من فيها شروطاً سخية سرعان ما قبلوها (أول يناير سنة ١٥٠٤) ؛ وأظهر من الوفاء في المحافظة على هذه الشروط بعد أن جرد الفرنسيين من سلاحهم ما جعلهم يلقبونه بالقائد الظريف لأنه خرج عن جميع السوابق أشد الخروج (٧) . وعقد لويس مع الأسبان معاهدة بلوا Blois (١٥٠٥) ، التي أنقذ فيها شرفه ظاهرياً بأن نزل عن حقوقه في نابلي إلى قريبته جرمن ده فوا Germaine de Foix التي تزوجت بعدئذ فرديناند الأرملة وجاءت له بنابلي بائعة لها ، وبذلك أضيف تاج نابلي وتاج صقلية إلى تيجان فرديناند الهم ، وبقيت بعدئذ مملكة نابلي تابعة لآسبانيا حتى عام ١٧٠٧ .

الفصل الثالث

حلف كمبريه : ١٥٠٨ - ١٥١٦

أضحى نصف إيطاليا الآن في أيدي الأجانب : فقد كان جزؤها الجنوبي ملكاً لأسبانيا ، وجزؤها الشمالى الغربى الممتد من جنوى مجنازاً ميلان إلى حدود كريمونا في يدى فرنسا ، وكانت الإمارات الصغرى خاضعة لنفوذ فرنسا ، ولم يكن فيها بلد مستقل استقلالاً نسبياً سوى البندقية والولايات البابوية ، ولطالما اشتبكنا في حرب متقطعة للاستيلاء على مدن رومانيا . ذلك أن البندقية كانت تتوق إلى المزيد من الأسواق وإلى موارد الثروة في شبه الجزيرة لتعوض ما استولى عليه الترك من أسواقها ومواردها أو هددته طرق الملاحة البحرية إلى الهند عن طريق المحيط الأطلنطى . ولهذا اغتنمت فرصة موت الإسكندر ومرض سيزارى بورجيا للاستيلاء على فائزرا ، ورافنا ، وريميني ، وأخذ يوليوس الثانى يضع الخطط لاستعادتها لنفسه ؛ فأقنع لويس ومكسمليان في عام ١٥٠٤ بأن يضعاً حداً لنزاعهما الذى يخالف تعاليم الدين المسيحى ، وأن ينضما إليه في مهاجمة البندقية ، وأن يقتسما فيما بينهما أملاكها في شبه الجزيرة (٨) . ولم يجد مكسمليان في نفسه ما يمنعه من قبول هذا العرض ، لكن خزائنه كانت خاوية ، ولم تحقق هذه المؤامرة نتيجة ما . غير أن الفكرة ظلت تراود يوليوس وظل هو يحاول إخراجها إلى حيز الوجود .

فى العاشر من ديسمبر دبرت مؤامرة كبرى في كمبريه ضد البندقية ، انضم إليها الإمبراطور مكسمليان لأن البندقية كانت قد انتزعت جوريسا Goriza ، وتريست ، وبردينونى ، وفيومى من سيطرة الإمبراطور ، وتجاهلت حقوقه الإمبراطورية في فيرونا وبدوا ؛ وأبت عليه وعلى جيشه

الصغير حربة المرور إلى رومة لتحقيق الهدف الذى طالما تمناه وهو أن يتوجه البابا لمبراطوراً . وانضم لويس الثانى عشر إلى هذا الحلف لأن النزاع شجر بين فرنسا والبندقية حول اقتسام شمالى إيطاليا . وانضم إليه كذلك فرديناند ملك أسبانيا لأن البندقية أصرت على الاحتفاظ برنديزى ، وأترانتو Otranto وغيرهما من ثغور أبوليا التى ظلت عدة قرون جزءاً من مملكة نابلى ، ولكن البندقية استولت عليها أثناء المتاعب التى لاقها البندقية فى عام ١٤٩٥ . وانضم يوليوس للحلف (١٥٠٩) لأن البندقية لم تكن برفض الجلاء عن رومانيا ، بل لأنها فضلاً عن ذلك لم تتردد فى الجهر برغبتها فى الاستيلاء على فيرارا — التى تقر بأنها إقطاعية بابوية . وكانت الخطة التى وضعتها الدول الأوروبية وقتئذ هى أن تستولى فيما بينها على جميع أملاك البندقية فى أرض إيطاليا ، فتسترد أسبانيا ما كان لها من المدن على شاطئ البحر الادريائى ، ويسترد البابا إقليم رومانيا ، ويحصل مكسمليان على بلدوا ، وفيثندسا وتريفيزو ، وفريولى ، وفيررنا ، ويستولى لويس على بيرجامو وهريشيا ، وكريما ، وكريمونا ، ووادى نهر أدا . ولو قدر النجاح لهذه الخطة لانتمحت إيطاليا من الوجود ، ولوصلت فرنسا وألمانيا إلى نهر البوه ، وكادت أسبانيا تصل إلى التبر ، ولأحاطت أملاك الأجانب بالولايات البابوية وضيق عليها الخناق ولحطمت البندقية التى كانت وقتئذ خط الدفاع ضد زحف الأتراك . ولم تتقدم دولة إيطالية لمعونة البندقية فى هذه الأزمة الطاحنة ، ذلك أنها كانت قد أغضبتها كلها تقريباً بجشعها ، حتى أن فيرارا نفسها التى كانت ترتاب فيها بحق خذلتها وانضمت إلى الحلف ، وعرض جندسالو النبيل ، الذى أقاله فرديناند من منصبه بغلظة وجفاء ، خدماته على البندقية ليكون قائداً لجيوشها ، ولكن مجلس شيوخها لم يجرؤ على قبول هذا العرض ، لأن أملة الوحيد فى البقاء هو أن يفصل من الحلف أعضائه واحداً بعد واحد .

ولم تكن البندقية تستحق العطف وقتئذ إلا لأنها وقفت بمفردها أمام قوات ضخمة لا قبل لها بها ، ولأن أغنياءها الأوفياء وفقراءها المجندين كافحوا جنباً إلى جنب بإصرار وعزم لا يكاد يتصور ، فانتصروا في الميدان نصراً كلفهم ما لا يطيقون . وعرض مجلس الشيوخ أن يرد فائزاً وريعي للبابوية ، ولكن يوليوس الغاضب النائر رد على هذا العرض بقرار الحرمان وأرسل جنوده ليستولوا من جديد على مدن إقليم رومانيا ، بينما كان زحف الفرنسيين يرغم البندقية على تركيز قواتها في لباردى . وهزم الفرنسيون البنادقة عند أنيادلوف في معركة من أشد المعارك هولاً وأكثرها إراقة للدماء في أيام النهضة (١٤ مانو سنة ١٥٠٩) ، قتل فيها ستة آلاف رجل في يوم واحد . واستدعى مجلس السيادة في ساعة محنته ويأسه بقية جنوده إلى البندقية وتركوا الفرنسيين يحتلون جميع أراضي لباردى ، وجلوا عن أبوليا ورومانيا ، واعترفت فيرونا وفيتشنديسا ، وpledوا بأنها لم يعد في وسعها أن تحمها ، وأطلقت لها كامل حريتها في أن تسلم للإمبراطور أو تقاومه حسبما تختار . وانقض مكسمليان بأكبر جيش شهدته تلك البلاد حتى ذلك الوقت - فقلبه كانت عدته نحو ٣٦,٠٠٠ مقاتل - وضرب الحصار على پلدوا . وسبب الفلاحون المحيطون بالمدينة لجيش الإمبراطور أكثر ما يستطيعون من المتاعب ، وحارب أهل پلدوا نفسها ببسالة تشهد بصلاح الحكم الذي كانوا يستمتعون به تحت راية البندقية . ونفذ صبر مكسمليان ، وكان على الدوام شديد الحاجة إلى المال ، فغادر الميدان وهو غاضب مشمئز إلى التيرول ، وأصدر يوليوس أمراً فجأة إلى جنوده أن ينسحبوا من الحصار ، وعادت پلدوا وفيتشنديسا مختارتين إلى سيطرة البندقية ، وسرح لويس الثاني عشر جيشه بعد أن حصل على نصيبه من الأسلاب .

وكان يوليوس قد أدرك قبل ذلك الوقت أن انتصار الحلف انتصاراً كاملاً إذا تم كان هزيمة للبابوية ، لأنه يترك البابوات تحت رحمة دولتين

من دول الشمال ، وبدأت حركة الإصلاح الديني فيهما تفصح عن نفسها . ولهذا فإنه عندما عرضت عليه البندقية أن تجييه إلى كل ما يطلب « قبل ما عرضته عليه وكان قد أقسم أنه لن يقبل » (١٥١٠) . وبعد أن استرد كل ما يرى أنه ملك حق مشروع للكنيسة ، أصبح حرّاً في أن يوجه غضبه نحو الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يسيطرون على لمباردى وتسكانيا ، فكانوا بذلك جيراناً للولايات البابوية غير مرغوب فيهم . وأقسم وهو في ميرندولا ألا يخلق لحيته حتى يطرد الفرنسيين من إيطاليا . وهكذا طالت الحياة الفخمة الخلية التي تظهر في صورة رفائيل . ونادى البابا وقتئذ في إيطاليا بذلك الشعار المثير : « ليخرج البرابرة ! » *Fuori i barbari* ، ولكنه نداء جاء بعد فوات الأوان . واعتزم أن ينفذ خطته فألف في ١١ أكتوبر سنة ١٥١١ « حلف الوحدة المقدسة » منه ومن البندقية وأسبانيا ، ثم ما لبث أن ضم إليه سويسرة وإنجلترا . ولم ينته شهر يناير سنة ١٥١٢ حتى استردت البندقية مدينتي بريشيا وبرجامو بمعاونة الأهلين الفرحين المستبشرين . واستبقت فرنسا معظم جنودها في بلادها للدفاع عنها إذا ما هاجمتها إنجلترا وأسبانيا .

غير أن قوة فرنسية واحدة بقيت في إيطاليا بقيادة شاب جرىء في الثانية والعشرين من عمره من رجال البلاط يدعى جاستون ده فوا *Gaston de Foix* . ومل هذا الشاب الحمول والحمود ، فسار على رأس جيشه وفك الحصار أولاً عن بولونيا ثم هزم البنادقة في إيزولا دلا اسكالا *Isola della scala* ثم استعاد بريشيا ، وأحرز أخيراً نصراً مؤزرّاً ولكنه غالى الثمن عند رافنا (١١ أبريل سنة ١٥١٢) . ونخضبت ميدان القتال دماء نحو عشرين ألف قتيل ، وأصيب جاستون نفسه ، وهو يحارب في الصفوف الأمامية ، بجراح مميتة .

ونال يوليوس بالمفاوضة ما كان قد خسر في ميدان القتال ؛ فقد أقنع

مكسمليان أن يوقع هدنة مع البندقية ، وأن ينضم إلى الاتحاد الذي تألف لقتال فرنسا ، وأن يستدعى الأربعة الآلاف من الجنود الألمان الذين كانوا جزءاً من الجيش الفرنسي . ثم زحف السويسريون يتمريضه على المباردى بقوة تبلغ عشرين ألفاً : وتقهقرت القوات الفرنسية ، التي أفقدتها الانتصارات عدداً كبيراً من أفرادها ، وتخلت عنها الفرقة الألمانية ، أمام جمافل السويسريين والبنادقة والأسبان المحدثين بها ، وارتدت إلى جبال الألب ، بعد أن تركت حاميات قليلة في بريشيان ، وكريمونا ، وميلان ، وچنوى . وهكذا استطاع الاتحاد المقدس بعد شهرين من الهزيمة التي كانت تبدو ماحقة في رافنا أن يطرد الفرنسيين من أرض إيطاليا بفضل الدبلوماسية البابوية ، وسماه الإيطاليون محرر إيطاليا .

وعقد المنتصرون مؤتمر مانتوا (في أغسطس سنة ١٥١٢) لتوزيع الأسلاب ، وفيه أصر يوليوس على أن تعطى ميلان إلى مسيمليانو اسفوردسا Masaimiliano Sforza ابن لدوفيكو ، ونالت سويسرا لوجانو Lugano والإقليم الواقع عند رأس بحيرة مجيورى ؛ وأرغمت فلورنس على أن يسترد عرشها آل ميديتشى واستعاد البابا كل الولايات البابوية التي استولى عليها آل بورجيا ، ثم حصل فضلاً عن هذا على پارما ، وبيتشند ، ومودينا ، ورجيو ، ولم ينج من قبضة الخبر الأكبر إلا فيرارا . ولكن يوليوس أورث خلفه مشاكل كثيرة . أولها أنه لم يطرد الأجانب حقيقة من إيطاليا : فقد كان السويسريون لا يزالون مستولين على ميلان بوصفهم حراساً لاسفوردسا ؛ ولا يزال الإمبراطور يطالب بفيتشندسا وفيرونا مكافأة له ، وأما فرديناند الكاثوليكي أكثر المساومين دهاء فقد دعم قوة أسبانيا في جنوى إيطاليا . وكانت قوة فرنسا وحدها هي التي قضى عليها في إيطاليا . فقد سير لويس الثانى عشر جيشاً آخر للاستيلاء على ميلان ، ولكن السويسريين بددوا شمله عند نوفارا Novara وقتلوا من رجاله ثمانية آلاف

(٦ يونيو سنة ١٥١٣) . ولم يكن باقياً للويس عند وفاته من أملاكه الإيطالية التي كانت من قبل رجة لاموطي قدم مزعزع في جنوى .

ولكن فرانسس الأول أراد أن يسترد هذه الأملاك جميعها . وكان إلى هذا قد سمع (كما يؤكد لنا برانتوم Brantôme) أن سنيورا كليريتشي الميلانية Signora Clerice of Milan أجمل نساء إيطاليا ، وتحرق شوقاً إليها^(٩) . ولهذا زحف في شهر أغسطس من عام ١٥١٥ على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف رجل وتساق بهم ممرأ جديداً في جبال الألب ؛ وكان ذلك أكبر جيش شهدته هذه المعارك . وتقدم السويسريون لملاقاته ؛ ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة في مارنيانو على مبعدة أميال قليلة من ميلان ، ودامت يومين كاملين (١٣ - ١٤ ديسمبر سنة ١٥١٥) ؛ وحارب فيها فرانسس نفسه حرب الأبطال ومنحه الفارس بابار في ميدان المعركة نفسه لقب فارس تكريماً له واعتزافاً ببسالته . وترك السويسريون وراءهم في أرض المعركة ١٣٠٠٠ قتيل ؛ وتخلوا هم واسفورديسا عن ميلان ، ووقعت المدينة مرة أخرى غنيمة في أيدي الفرنسيين .

وطلب مستشارو ليو العاشر في تقلبهم وترددهم نصيحة مكثلى . فحذروهم من أن يقفوا موقف الحياد بين الملك والإمبراطور بحجة أن البابوية ستكون حقيقة لاحول لها أمام المنتصر ، كما لو كانت قد اشتركت في القتال ؛ وأشار بعقد اتفاق مع فرنسا بوصفها أهون الشرين^(١٠) ، وأمر ليو بالعمل بهذه النصيحة ؛ وفي الحادى عشر من ديسمبر عام ١٥١٥ اجتمع فرانسس والبابا في بولونيا ليضعوا شروط الاتفاق . ووقع السويسريون صلحاً شبيهاً بهذا مع فرنسا ؛ وانسحب الأسبان إلى ناپلى ؛ وحاققت الخيبة مرة أخرى بالإمبراطور ، فسلم فيرونا للبندقية . وهكذا انتهت (١٥١٦) حروب جنتف كبريه الذى بدل فيه المشتركون موافقهم كأنهم في مرقص ؛ وعادت الأحوال في آخر الأمر في جوهرها كما كانت في أوله ، ولم يفصل قط في

شيء إلا في أن تكون إيطاليا هي الميدان الذي تتطاحن فيه الدول الكبرى وتنشب فيه بينها معركة في إثر معركة أملا في السيادة على أوروبا . وسلمت البابوية بارما وبياتشندسا لفرنسا ، واستردت البندقية أملاكها في شمال إيطاليا ، ولكنها حل بها الخراب ماليا ، ونحربت إيطاليا ولكن الفنون والآداب ظلت فيها مزدهرة ، سواء كان ذلك بدافع الحوادث المفجعة أو بقوة الماضي الرضى الهى . لكن المستقبل كان يخفى لها أفدح الكوارث .

الفصل الرابع

ليو وأوروبا: ١٥١٣ - ١٥٢١

ووضع مؤتمر بولونيا الهيبة الدبلوماسية في كفة ، راجرة السطوة في كفة أخرى ، وبقي أن تُعرف أية الكفتين هي الراجحة . وأقبل الملك الشاب الوسيم يزهو في معطفه الموشى بالذهب وفراء السمور ، والنصر معقود لألويته ، وجيشه من ورائه ؛ يتوق إلى أن يلتمهم إيطاليا عن آخرها ، ولا يبقى فيها إلا البابا حارساً له على أملاكه ؛ وليس لليو في مقابل هذا إلا سحر منصبه ودهاء آل ميديتشى . ومن ثم فإذا كان ليو قد أثار الملك على الإمبراطور ، وانتقل من جانب إلى جانب بالحيلة والمراوغة ، ووقع مع كل منهما المعاهدات ضد الآخر ، إذا كان قد فعل هذا بحكم الظروف فليس لنا أن نغالى في وزن أعماله هذه بميزان العدالة الصارمة . ذلك أنه لم يكن لديه من السلاح ما يستخدمه لنيل أغراضه غير هذه الوسيلة ، ولقد كان عليه أن يدافع عن تراث الكنيسة الذى وكل أمره إليه ؛ ثم إن أعداءه كانوا هم أيضاً يستخدمون هذا السلاح نفسه بالإضافة إلى جيوشهم ومدافعهم .

ولقد بقيت الاتفاقات السرية التى عقدت في ذلك الاجتماع في طيات الخفاء إلى يومنا هذا . ويلوح أن فرانسس حاول أن يستدرج ليو إلى محالته ضد أسبانيا ؛ فطلب إليه ليو أن يمهله حتى يفكر في الأمر - وتلك هي الطريقة الدبلوماسية في الرفض ؛ وسبب ذلك أن سياسة الكنيسة التقليدية التى طال عليها الأمد لا تسمح بأن تطوق دولة واحدة أملاكها من الشمال والجنوب^(١) . وكانت النتيجة الواضحة الوحيدة لاتفاق عام ١٥١٦ هي

إلغاء قرار يورج التنظيمي The Pragmatic Sanction of Bourges . وكان هذا القرار المعقود في عام ١٤٣٨ قد أقام مجلساً عاماً له السلطة العليا على البابوات ومنح ملك فرنسا حق تعيين ذوى المناصب الكنيسة الكبرى في فرنسا . ووافق فرانسيس على إلغاء هذا القرار ، بشرط أن يبقى للملك حق الترشيح لهذه المناصب ؛ وقبل ليو هذا الشرط . وقد يبدو أن هذا كان هزيمة للبابا ، ولكن ليو حين قبله إنما كان يجرى على سنة جرى بها العمل في فرنسا من عدة قرون ؛ وكان يفعله هذا يوفق دون قصد بين الكنيسة والدولة في فرنسا توفيقاً لا يُبقى للملكية الفرنسية أسباباً مالية لتأييد حركة الإصلاح الديني . ثم إنه بهذا العمل قد وضع حداً للنزاع الذي طال عليه الأمد بين فرنسا والبابوية على سلطة المجالس والبابوات وحدود هذه السلطة .

واختتم المؤتمر بأن طلب الزعماء الفرنسيون إلى ليو أن يغفر لهم أنهم شنوا الحرب على سلفه ؛ ووجه إليه فرانسيس بهذه المناسبة الخطاب قائلاً : « أيها الأب المقدس ! ليس لك أن تعجب من أننا كنا أعداء لوبلوس الثاني فقد كان هو على الدوام أعدى أعدائنا ، ولم نأت في أيامنا خصماً أقوى منه ، ذلك بأنه كان في واقع الأمر قائداً بارعاً ممتازاً ، ولو أنه كان قائداً للجنود ، لكان أعظم منه باباً » (١٢) . وغفر ليو ذنوب أولئك الثائبن الأشداء على بكرة أبيهم ، وباركهم ، وكادوا في آخر الاجتماع أن يقطعوا قدميه تقييلاً (١٣) .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا تعلقو هامته هالة من المجد ، واستسلم زمناً ما للعشق واللهو . ولما مات فرديناند الثاني (١٥١٦) ، فكر ملك فرنسا مرة أخرى في غزو نابلي ، ولعله أراد أن يتخذ هذا العمل وسيلة مجيدة للتخلص من زيادة السكان في فرنسا . ولكنه مع ذلك عقد معاهدة للتصلح مع شارل الأول حفيد فرديناند الذي أصبح الآن ملكاً على أرغونة ، وقشتالة ، ونابلي ، وصقلية . فلما مات مكسميليان (١٥١٩) ، ورشح حفيده شارل ليخلفه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ظن فرانسيس

أنه أجدر بتاج الإمبراطورية من ملك أسبانيا البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، وأخذ يسعى بنشاط لأن يفوز بالانتخاب لهذا المقام الرفيع . ووجد ليو نفسه مرة أخرى في أخطر المواقف . لقد كان يفضل أن يؤيه فرانسس ، لأنه رأى أن اتحاد نابلي ، وأسبانيا ، وألمانيا ، والنمسا ، والأراضي الوطينة ، تحت سلطان ملك واحد ، يوسع رقعة ملكه ، ويزيد ثروته وعدد رجاله زيادة تحل بتوازن القوى ، ذلك التوازن الذى كان فيه حتى ذلك الوقت وقاية للولايات البابوية . لكن اختيار شارل رغم معارضة البابا سينفر منه الإمبراطور الجديد فى الوقت الذى يحتاج فيه أشد الاحتياج إلى معونته للقضاء على الفتنة البروتستنتية . وتردد ليو أطول مما يجب فى أن يشعر الناجين بنفوذه ، واختير شارل الأول إمبراطوراً وأصبح هو شارل الخامس . وواصل البابا سياسة توازن القوى فعرض على فرانسس أن يحالفه ، ولما تردد الملك كما تردد هو من قبل وقع ليو على حين غفلة اتفاقاً مع شارل (٨ مايو سنة ١٥٢١) ، عرض عليه الإمبراطور الشاب فيه كل شيء تقريباً : عودة بارما وبياتشندسا ، ومعونته ضد فيرارا وواوثر ، وإعادة فتح ميلان وإعطائها إلى آل اسفوردسا ، وحماية الولايات البابوية وفلوننس إذا هوجمت .

وتجدد القتال فى شهر سبتمبر من عام ١٥٢١ ، وقال الإمبراطور فى ذلك : « لى أنا وابن عمى فرانسس على تمام الوفاق ؛ فهو يريد ميلان وأنا أريدها » (١٤) . وتولى قيادة القوات الفرنسية فى إيطاليا أوديه ده فوا Odet de Foix فيكونت لوتريه Vicomte de Lautrec . وكان فرانسس قد ولاه هذه القيادة بناء على رجاء أخته التى كانت فى ذلك الوقت عشيقة الملك . وغضبت لويز أميرة سافوى Louise of Savoy أم الملك من هذا التعيين وحولت فى الخفاء المال الذى أعده فرانسس لجيش لوتريه إلى أغراض أخرى (١٥) ؛ وامتنع من كان فى ذلك الجيش من السويسريين عن القتال لمنع مرتباتهم عنهم . ولما اقترب من ميلان جيش بابوى قوى بقيادة القائد

المحتلك برسبيرو كيرلنا ماركيز يسكارا والمؤرخ جوتشيارديني ، أثار انتصار
الإمبراطورية من حزب الجبلين فتنة ناجحة بين الأهلين الذين كانوا يرزحون
تحت أعباء الضرائب الفادحة ، انسحب على أثرها لومفريه من المدينة إلى
أملاك البندقية ؛ واستولى جنود شارل وليو على المدينة وكادوا لا يريقون في
سبيل ذلك قطرة دماء ؛ وأصبح فرانكشيسكو مارييا لسفورديسا وهو ابن آخر
من أبناء لدوفيكو دوقاً لميلان تابعاً للإمبراطور ، وكان في مقدور ليو أن
يواجه الموت وهو في نشوة الانتصار .

الفصل الخامس

أدريان السادس : ١٥٢٢ - ١٥٢٣

وكان البابا الذى خلفه غير ما كان عليه البابوات فى رومة إبان عصر النهضة : كان بابا عاقداً العزم على أن يكون رجلاً مسيحياً مهما كلفه ذلك من جهد . وكان مولده من أسرة وضيعة فى أوترخت (Utrecht) (١٤٥٩) ، وأشرب حب العلم والتقى من طائفة « إخوان الحياة المشتركة » فى ديكنتر ، Deventer والفلسفة المدرسية واللاهوت فى لوفان Louvain ؛ واختير فى الرابعة والثلاثين من عمره مديراً لتلك الجامعة ، ثم عين فى سن السابعة والأربعين مربيّاً لشارل الخامس ، وفى عام ١٥١٥ أرسل فى بعثة إلى أسبانيا ، وفيها أعجب فرديناند بمقدرته الإدارية ، وباستقامته الخلقية إعجاباً حمله على تعيينه أسقفاً لطرطوشة . ولما توفى فرديناند ساعد أدريان الكردينال اكسيمنس Ximenes على أن يحكم أسبانيا أثناء غيبة شارل ؛ وفى عام ١٥٢٠ أصبح نائباً للإمبراطور على قشتالة . وظل وهو يتدرج فى معارج الرقى متواضعاً معتدلاً فى كل شىء عدا قوة العقيدة ، بسيطاً فى معيشته ، يتعقب الملحدين بحماسة جمعت قلوب الشعب على حبه . ووصلت أنباء فضيلته إلى رومة فاختره ليو كروندالا ، ولما انعقد المجلس المقدس بعد وفاة ليو رشح أدريان للجلوس على كرسى البابوية ، وكان ذلك فيما يظهر على غير علم منه ، وأكبر الظن أنه كان بتأثير شارل الخامس . وفى الثانى من شهر يناير سنة ١٥٢٢ اختير للجلوس على كرسى البابوية رجل من غير الإيطاليين لأول مرة منذ عام ١٣٧٨ ؛ ومن التيونون لأول مرة منذ عام ١١٦١ .

ترى كيف يستطيع أهل رومة وهم الذين لا يكادون يسمعون شيئاً عن أدريان يصفحون عن هذه الإهانة التى لحقت بهم باختياره بابا ؟ لقد اتهم

الشعب الكرادلة بأنهم طاشت أحلامهم ، : وأنهم « خانوا دم المسيح » وأذيعت على الشعب منشورات يطلب فيها أصحابها أن يعرفوا كيف « استسلمت الفاتيكان لغضب الألمان » (١٦) . وكتب أريتينو قصة كانت آية في الطعن والهجاء سمي فيها الكرادلة « غوغاء مدنسين » ، ودعا الله أن يواروا الثرى أحياء (١٧) . وغطى تمثال يسكويينو بالمطاعن والهجاء ؛ وتوارى الكرادلة لأنهم كانوا يخشون أن يظهرُوا أمام الجماهير ، وعزوا هذا الاختيار إلى الروح القدس الذي أوحى به إليهم على حد قولهم (١٨) . وغادر كثير منهم مدينة رومة فراراً من وقاحة الشعب وبطش الإصلاح الكنسي . أما أدريان فقد بقى هادئاً في أسبانيا ينجز فيها عمله الذي لم يكن قد تم بعد . وأبلغ الحكومة البابوية أنه لا يستطيع القدوم إلى رومة قبل أن يحل شهر أغسطس . ولم يكن يعلم بفخامة الفاتيكان ، فكتب إلى صديق له من أهل رومة يطلب إليه أن يستأجر له بيتاً متواضعاً ذا حديقة ليقم فيه . ولما قدم إلى المدينة آخر الأمر (ولم تكن عيناه قد وقعتا عليها من قبل) ؛ روع وجهه الأصفر الزاهد وجسمه النحيل من شاهده ، وبعثا في قلوبهم لإجلاله ومهابته ؛ ولكنه حين نطق وظهر للإيطاليين أنه لا يعرف اللغة الإيطالية ، وأنه حين يتكلم اللاتينية يخرج الحروف من حلقه ، فكان بذلك بعيداً كل البعد عن النغم الإيطالي الغذب والرشاقة الإيطالية ، لما فعل هذا امتلأت قلوب أهل رومة غضباً وبأساً .

وأحس أدريان أنه سيجن في الفاتيكان وأعلن أن ذلك القصر أرق بقسطنطين منه بالقديس بطرس ، وأمر بوقف جميع أعمال الزخرفة في - حجره ، وأقال جميع أتباع رفائيل الذين كانوا يقومون بهذا العمل ، وأبعد جميع السائسين الأربعائة الذين كان ليو يستخدمهم في أسطبلاته هذا أربعة منهم . ولم يبق من خدمه الخصوصيين إلا اثنين لا أكثر - كلاهما من الهولنديين - وأمرهما أن يخفضا نفقات بيته إلى دوقه واجدة (اثني عشر دولاراً ونصف

دولار) في اليوم . واشتأزت نفسه مما شاهده في رومة من الفساد الجنسي ومن بذيء القول والكتابة ، وقال ما قاله لورندسو ولوثر من أن عاصمة المسيحية بوثة أقدار ومظالم . ولم يكن يعنى أقل عناية بما عرضه عليه الكرادلة من روائع الفن القديم ، وندد بالتماثيل ووصفها بأنها من بقايا الوثنية ، وسور قصر بلفدير الذي كان يحتوى على أحسن مجموعة في أوربا من التماثيل الرومانية القديمة (١٩) . وكان يفكر فوق ذلك أن يضيق الخناق على الكتاب الإنسانيين والشعراء ، فقد خيل إليه أنهم يعيشون ويكتبون كما يعيش ويكتب الوثنيون الذين نفوا للمسيح . ولما أن هجاه فرانتشيسكو بيرني بأقذع الألفاظ ووصفه بأنه هولندي همجي عاجز عن فهم ما ينطوى عليه الفن الإيطالي والآداب والحياة الإيطالية من ظرف ورقة ، أنذره أدريان هو وأمثاله بأن سوف يغرق جميع الهجائين في نهر التيبر (٢٠) .

وكان هم أدريان الأول ومظهر عاطفته الدينية وتقواه في أثناء ولايته أن يعود بالكنيسة من حالها في أيام ليو إلى ما كانت عليه في عهد المسيح . ولهذا اتخذ أقصر الطرق دون مجاملة أو مداخلة لإصلاح ما استطاع أن يصل إليه من المفاسد الكنسية ؛ فألغى ما لا ضرورة له من المناصب ، واستخدم في ذلك من العنف ما كان في بعض الأحيان طيشاً منه وعدم بصيرة ؛ وألغى العقود التي ارتبط بها ليو بأن يدفع معاشاً سنوياً لمن ابتاعوا مناصب في الكنيسة ؛ وبذلك خسر ٢٥٥٠ ممن ابتاعوا هذه المناصب واستثمروا فيها أموالهم ، خسروا رأس المال والفائدة إذا صح هذا التعبير ، وترددت أصدااء صرخاتهم في أرجاء رومة ونادوا بأنهم قد خدعوا ونهبت أموالهم ، وحاول أحد الضحايا أن يغتال البابا ، وقال البابا لأقاربه الذين جاءوه يطلبون أن يعينهم في مناصب دينية ذات مرتبات مرغدة لا يقابلها عمل يقومون به - قال لهم ارجعوا واكسبوا العيش بالعمل الشريف ، وقطع دابر الرشا ومنح المناصب للأقارب ، وتعقب ما في الحكومة البابوية من فساد ، وفرض

عقوبات صارمة على الرشوة واختلاس الأموال العامة ، وعاقب الكرادلة المذنبين بنفس العقوبات التي كان يوقعها على أصغر رجال الدين . وأمر الأساقفة والكرادلة أن يعودوا إلى مقر مناصبهم ، وألقى عليهم دروساً في الأخلاق التي يريد منهم أن يتصفوا بها ، وكان مما قاله لهم إن سمعة رومة السيئة أصبحت تلوكها الألسنة في جميع أنحاء أوروبا . ولم يشأ أن يتهم الكرادلة أنفسهم بالرذيلة ، ولكنه اتهمهم بأنهم يتركون الرذيلة تنفث في قصورهم دون أن تلقى عقاباً . وطالبهم بأن يضعوا حداً لترفهم ، وأن يقنعوا بإيراد أقصاه ٦٠٠٠ دوق (٧٥,٠٠٠ دولار) في العام . وكتب سفير البندقية في الفاتيكان وقتئذ يقول : « إن جميع رجال الكنيسة في رومة قد ذهب عقولهم من شدة الرعب ، حين رأوا ما استطاع البابا أن يفعله في خلال ثمانية أيام » (٢١) .

لكن الأيام الثمانية لم تكف لتقطع دابر الفساد كما لم تكف لتقطع دابره الثلاثة عشر شهراً من ولاية أدريان النشيطة . لقد أخفت الرذيلة رأسها إلى حين ، ولكنها لم يقض عليها القضاء المبرم ، ذلك أن الإصلاح قد ضايق العدد الجرم من الموظفين ، ولقى مقاومة مكبوتة ، وأثار أملا في أن يجعل الله منية أدريان . وأحزن البابا وأقضى مضجعه عجز الإنسان عن أن يصلح الناس ، وكثيراً ما جهر بقوله : « ما أكثر ما تعتمد مقلدة الإنسان وكفائته على العصر الذي يقوم فيه بأعماله ! » - وقال لصديقه القديم هيز Heeze وهو قلق مضطرب خاطر : « ما أكبر الفرق بين هذه الحياة وما كنا ننعم به من هدوء في لوفان ! » (٢٢) .

وكان وهو في هذه المتاعب الداخلية يواجه بأقصى ما يستطيعه من شرف مشاكل السياسة الخارجية الخطيرة . فقد أعاد أربينو إلى فراتشيسكو ماريادلا روفيري . وترك أنفوسو في فيرارا لايزعجه شيء . ولما أن انتهز الطغاة المطرودون من بلادهم فرصة سياسة البابا السلمية فاستولوا على

زمام السلطة في بروجيا ، وريميني وغيرها من الولايات البابوية ، أهاب
أدريان بالإمبراطور شارل وبالمملك فرانسس أن يتصالحا أو في القليل أن
يتهادنا ، ويشتركا في صد الأتراك الذين كانوا يستعدون لغزو رودس .
ولكن شارل فضل أن يوقع مع هنرى الثامن ملك إنجلترا معاهدة ونزر
Windsor (١٩ يونية سنة ١٥٢٢) التي تعهدا فيها بالاشتراك في الهجوم
على فرنسا ، وفي الحادى والعشرين من ديسمبر استولى الأتراك على رودس
آخر معاقل المسيحية في شرق البحر المتوسط ، وترددت الإشاعات بأنهم
يضعون الخطط للنزول بأبوليا والاستيلاء على إيطاليا المضطربة المختلة
النظام . ولما اعتقل بعض الجواسيس الأتراك في رومة بلغ الطلع بين السكان
حداً أذكر الناس بالخوف الذى انتشر فيها حين توقعت أن يغزوها هنيبال
بعد انتصاره في كاني عام ٢١٦ ق . م . وكان مما أترع الكأس ألما لأدريان
أن الكردينال فرانتشيسكو سُدِرَينى كبير وزرائه وموضع ثقته ، ونائبة
الأول في المفاوضات التى كانت تهدف إلى عقد صلح أوررى ، أخذ يدبر في
السرمع فرانسس هجوماً فرنسياً على صقلية . ولما أن كشف أدريان المؤامرة ،
وترأى إليه أن فرانسس يحشد الجند على حدود إيطاليا ، خرج عن الحياد
وعقد حلفاً بين البابوية وشارل الخامس . وبعد أن تحطم جسمه وروحه
على هذا النحو أصابه المرض ومات في الرابع عشر من سبتمبر عام ١٦٢٣ .
وأوصى بتوزيع أملاكه كلها على الفقراء ، وكان آخر ما أصدره من
التعليمات أن تكون جنازته هادئة قليلة النفقة .

وحيت رومة موته بهجة أعظم مما كانت تحيى بها المدينة نجاتها من الترك
لو أنهم جاءوها فاتحين . وقال بعضهم إنه قد سُمِّ لمعاداته الفنون ، وألصق
أحد الماجين على باب طبيب البابا رقعة كتب عليها بالإيطالية Liberratori
Patriae تلها الحروف الآتية S P Q R يعبر بها عن شكر مجلس الشيوخ
وشعب رومة « لحرر الوطن » . وكتب عدد لا يحصى له من عبارات المجاء

لتسوثة سمعة الخبر المتوفى ، فاتهم بالنهم ، والسكر ، وأفطع أنواع الفساد الخلقى ، وبذل الخقد والسخرية كل عمل قام به في حياته فأصبح شراً وخبثاً ، واحتفرت « صحافة » رومة بما كان باقياً لها من حرية بمقالاتها في الطعن على البابا قبرها بنفسها : لقد كان مما يؤسف له أن أدريان لم يستطع أن يفهم النهضة على حقيقتها ، ولكن عجز النهضة عن أن تسمح بوجود بابا مسيحي في عهدها كان أكثر من ذلك جرماً وأشد حماقة :

الفصل السادس

كلمنت السابع

الفترة الأولى من حياته

ظل المجمع المقدس الذى اجتمع فى أول اكتوبر سنة ١٥٢٢ سبعة أسابيع فى نزاع دائم حول اختيار من يخلف أدريان ، ثم انتهى أخيراً بترشيح رجل كان بإجماع الآراء خير من يصلح لهذا المنصب . كان جولييو ده ميديتشى ابنا غير شرعى للرجل الظريف جوليانو الذى خر ضحية مؤامرة باتسى من عشيقة له تدعى فيورنا ما لبثت أن اختفت من صفحات التاريخ . وأخذ لورندسو الغلام إلى بيته بين أسرته ورباء مع أبنائه ؛ وكان منهم ليو الذى أعفى وهو بابا جولييو من العقبة القانونية القائمة فى سبيله ، وهى أنه ابن غير شرعى ، ثم عينه كبير الأساقفة فى فلورنس ، ثم رفاه كردنالا ، ثم كان المدير الحازم لمدينة رومة ، وكبير وزراء حكومته البابوية ، ولما بلغ كلمنت الخامسة والأربعين كان طويل القامة ، وسيم الخلق ، عظيم الثراء غزير العلم ، حسن الآداب ، طيب السيرة ، يعجب بالآداب ، والعلوم ، والموسيقى ، والفن ، ويناصرهما . ورحبت رومة بارتقائه الكرسي البابوى بالفرح والابتهاج ورأت فيه دعوة إلى عهد ليو الذهبى ، وتنبأ بمبوء بأن كلمنت السابع سيكون خير من عرفتهم الكنيسة من حكامها وأعظمهم حكمة (٣٣) .

وبدأ عهده أحسن بداية ، فوزع على الكرادلة جميع المناصب الدينية التى كانت له ، والى كانت تدر عليه دخلاً سنوياً مقداره ٦٠.٠٠٠ دوقية . وقد

جمع حوله قلوب العلماء والنسّاحين باجتذابهم إلى خدمته ، أو نفحهم بالهبات ، ووزع العدالة بين الناس بالقسطاس المستقيم ، واستمع إلى كل من له شكاية ، ومنح الصدقات بسخاء ، إذا كان أقل من سخاء ليو فإنه كان أكثر منه حكمة ، وسحر جميع القلوب بمجاملته كل إنسان وكل طبقة . وقصارى القول أن بابا من البابوات لم يبدأ حكمه بداية طيبة مثل بدايته ولم يختتمه بأسوأ من خاتمته .

وكان العمل الذى يواجهه كلمنت وهو قيادة سفينة البابوية السياسية الطريق المأمون بين فرانسس وشارل فى حرب تكاد تكون حرب حياة أو موت ، فى الوقت الذى كان الأتراك يحتاجون فيه بلاد المجر ، وكانت الثورة تشتعل نارها فى ثلث أوروبا ضد الكنيسة ، كان هذا العمل أكثر مما تستطيعه مقدرة كلمنت كما كان أكثر مما تستطيعه مقدرة ليو . وخلق بنا أن نقول إن الصفات التى تبرزها الصورة الفخمة التى رسمها سبستيانو دل بيومبولكلمنت فى بداية حكمه صورة خادعة . ذلك أنه لم يظهر فى أعماله تلك العزيمة الماضية التى تبدو واضحة فى ملامح وجهه ، وحتى فى هذه الصورة يبدو شيء من الملل والضعف فى الجفون المتعبية المنسدلة فوق العينين الضجرتين . والحق أن كلمنت قد اتخذ ضعف العزيمة خطة له وسياسة مرسومة . وكان يسرف فى التفكير ويظنه خطأ بديلاً من العمل ، بدل أن يكون هادياً له ومرشداً . ولقد كان فى وسعه أن يجد مائة سبب وسبب لاتخاذ قرار بإبرام أمر من الأمور ، ومائة سبب وسبب مثلها تبرر عدم إبرامه ، وكأنما كان أغبى المخلوقات طراً يجلس على عرش البابوية . وقد هجاه بيرنى فى أبيات مريرة تنبأ بحكم الخلف عليه فقال :

بابوية تتألف من التبعيات ،

والمناقشات ، والاعتبارات ، والمجاملات

ومن عبارات أكثر من هذا ، ومن ثم ، ونعم ، وحسن ، وربما ،

وقد يكون ، وما إليها من الألفاظ المتناقضة . . .

ومن قدمين ثقيلتين كالرصاص ، وحياد بارد خامل . . .

وإن شئت الحق الصريح ، فإِنَّكَ ستعيش لتري .

البابا أدريان وقد نودى به قديساً بفضل هذه البابوية (٢٤) .

واتخذ له من المستشارين چيان ماتيو جبرتي Gianmatteo Giberti الذى كان يميل إلى فرنسا ، ونيقولوس فن اسكونبرج Nikolaus von Segönberg الذى كان يميل إلى الإمبراطورية ، وترك عقله مشتتاً بين الرجلين ، ولما أن قرر الانحياز إلى فرنسا — قبل أسابيع قليلة من الكارثة التى حلت بها فى پافيا — استنزل على رأسه وعلى بلده كل ما يتصف به شارل من مكر ودهاء ، وكل ما له من قوة ، وكل ما يثور فى قلوب الجيش البروتستنتى من غضب دفين صبه على رومة .

وكانت الحجة التى يهرربها كلمنت موقفه أنه يخشى قوة الإمبراطور وفى يده لمباردى وناپلى ؛ ويرجو بانحيازه إلى فرنسا أن يحصل على صوتها حين يعرض شارل فكرته التى تراوده وتقلق خاطره وهى تأليف مجلس عام يفصل فى أمور الكنيسة . ولما عبر فرانسس جبال الألب بجيش جديد قوامه ٢٦,٠٠٠ من الفرنسيين ، والإيطاليين ، والسويسريين ، والألمان ، واستولى على ميلان ، وحاصر بافيا ، وقع كلمنت سراً شروط حلف مع فرانسس (١٢ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى الوقت الذى كان يؤكد فيه لشارل وفاءه ومودته ؛ ثم ضم فلورنس والبندقية إلى هذا الحلف ، وأجاز لفرانسس المنتصر على كره منه أن يجمع الجند من الولايات البابوية ، وأن يرسل جيشاً ليحارب ناپلى مخترقاً أراضى البابا . ولم يغفر له شارل قط هذه الخديعة ، وأقسم قائلاً : « لأذهبن إلى إيطاليا ، وأثأرن لنفسى من أساءوا لى ، وعلى رأسهم البابا الجبان النذل . ولعل مارتن لوثر سيصبح رجلاً ذا شأن فى يوم من الأيام » (٢٥) . وفكر بعض الناس وقتئذ فى اختيار لوثر

بابا ، وأشار عدد ممن يحيطون بالإمبراطور أن يطعن في اختيار كلمنت بحجة أنه ابن غير شرعي (٢٦) .

وسير شارل جيشاً ألمانيا بقيادة جورج فون فرندسبرج Georg von Frundsberg وماركيز بيسكارا Marquis of Pescara ليهاجم الفرنسيين خارج باثيا . وعطلت الحركات العسكرية الضعيفة عمل المدفعية الفرنسية ، في الوقت الذي كانت فيه نيران البنادق الأسبانية تهزأ برماح السويسريين ؛ وكاد الجيش الفرنسي أن يفنى عن آخره في موقعة من أشد المواقع الحاسمة في التاريخ (٢٤ - ٢٥ من فبراير سنة ١٥٢٥) . وسلك فرانسيس في هذه المحنة مسلك الشهامة والكرامة : فبينما كان جيشه يتقهقر إذا هو يقفز في وسط صفوف العدو ويقتل بيده منهم مقتلة عظيمة ؛ ولما قتل جواده من تحته لم ينقطع عن القتال ، حتى إذا خارت قواه آخر الأمر ، ولم يعد يقوى على المقاومة ، وقع في الأمر مع عدد من ضباطه . وكتب من خيمة بين المنتصرين إلى أمه رسالة كثيراً ما يقتبس نصف عباراتها المقتبسون ، قال فيها « لقد خسرنا كل شيء إلا الشرف - وإلا بدنى فهو سليم » . وأمر شارل موكان وقتئذ في أسبانيا أن يرسل الملك ليسجن في قلعة قرب مدريد .

وانحازت ميلان إلى الإمبراطور ، وشعرت إيطاليا كلها أنها أصبحت تحت رحمته ، ونفخته دولة إيطالية في إثر دولة بالرشا المختلفة لكي يسمح لها بالبقاء . وخشى كلمنت أن يغزو جيشن الإمبراطور بلاده ، وأن يثور الشعب في فلورنس على آل ميديتشى ، فخرج من حلفه مع فرنسا وأمضى (في أول أبريل سنة ١٥٢٥) معاهدة مع شارل ده لانوى Charles de Lannoy عامل شارل على ناپلى ، تعهد فيها البابا والإمبراطور بأن يتعاونوا فيما بينهما ؛ فيحمي الإمبراطور آل ميديتشى في فلورنس ويرضى أن يقيم فرانتشيسكو ماريا اسنوردسا نائباً عنه في ميلان ؛ على أن يدفع البابا لشارل مقابل إهاناته السابقة له ، وضماناً لخدمات الإمبراطور المستقبلية ، مائة ألف دوقية

(١,٢٥٠,٠٠٠ دولار) (٢٧) ، كانت الجيوش الإمبراطورية في أشد الحاجة إليها . ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى أغض كلمنت البصر عن مؤامرة دبزها جيرولومو موروني Girolomo Morone لتحرير ميلان من سيطرة الإمبراطور . وكشف مركزه فيسكارا سر هذه المؤامرة لشارل ، وزج موروني في السجن . وعامل شارل فرانسس الأسير بالماملة التي يعامل بها السنور الفأر الواقع في قبضته ، ذلك أنه بعد أن نخلد أعصابه بسجنه ومجاملته أحد عشر شهراً ، وافق على أن يطلق سراحه مشروطاً عليه ذلك الشرط المستحيل التنفيذ ، وهو أن يسلم الملك كل ما لفرنسا من الحقوق ، ثابتة كانت أو مزعومة ، على جنوى ، وميلان ، ونابلي ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وتورنای ، وبرغندي ، ونبره (نايفار) ؛ وأن يمد فرانسس شارل بما يحتاجه من السفن والرجال لتسيير حملة على رومة أو على الأتراك ، وأن يتزوج فرانسس إلبانورا أخت شارل ، وأن يسلم الملك أكبر ابنيه وهما فرانسس البالغ من العمر عشر سنين ، وهنرى البالغ تسعاً إلى شارل ليكونا رهينتين عنده ضماناً للوفاء بهذه الشروط . ووافق فرانسس على هذه الشروط كلها بمقتضى معاهدة مدريد (١٤ يناير سنة ١٥٢٦) . وأكد هذه الموافقة بأغلظ الأيمان ، وإن كان ضميره يداجي ويوارب . وسمح له بعدئذ في السابع عشر من مارس أن يعود إلى فرنسا تاركاً ولديه سجينين في مكانه . فلما وصل إليها أعلن أنه لا ينوى الاستمساك بالوعود التي بذلها تحت الضغط والإرهاب ؛ وأعفاها كلمنت مستعيناً بالقانون الكنسى من التمسك بأيمانه ، وفي الثاني والعشرين من مايو وقع فرانسس ، وكلمنت ، والبندقية ، وفلورنس ، وفرانتشيسكو ماريا اسفورديسا حلف كنيائهم ، وتعهدوا فيه بإرجاع آستى ، وجنوى إلى فرنسا ، وإعطاء اسفورديسا ميلان إقطاعية فرنسية ، وأن ترد إلى كل ولاية إيطالية كل ما كان لها من أملاك قبل الحرب ، وأن يفتدى الأسرى الفرنسيون بمليون كرون ، وأن تمنح نابلي

لأى أمير إيطالى يرضى أن يودى عنها إلى ملك فرنسا جزية سنوية مقدارها ٧٥,٠٠٠ دوقية . ووجهت دعوة رقيقة إلى الإمبراطور لتوقيع هذا الاتفاق ، وقرر الحلف الجديد أنه إذا رفض الإمبراطور توقيع شروطه ، حاربه حتى يطرد هو وجميع قواته من إيطاليا (٢٨) .

وندد شارل بالحلف وأعلن أنه يناقض الأيمان المقدسة التى أقسمها فرانسيس ، كما يناقض شروط المعاهدة التى وقعها كلمنت مع لانوى . وإذا كان هو غير قادر على الذهاب إلى إيطاليا فى ذلك الوقت ، فقد كلف هوجو ده منكادا Hugo de Moncada بأن يجتذب كلمنت إلى صفه بالوسائل الدبلوماسية ، فإذا عجز أثار ثورة على البابا يقوم بها آل كولنا وسكان رومة . وقام منكادا بهذه المهمة أحسن قيام ، وأوثق صلات المودة بين كلمنت وآل كولنا ، وأقنع البابا بأن يسرح الجنود الذين يقومون بحراسته ، وسمح لآل كولنا بأن يمضوا فى تأمرهم للاستيلاء على رومة . وبينما كانت المسيحية ماضية فى الغدر والافتتال على هذا النحو ، كان الأتراك بقيادة سليمان القانونى يضربون أهل المجر الضربة القاسية فى موهاكس Móhacs (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٦) ، ويستولون على بودابست (١٠ سبتمبر) . وارتاع كلمنت لخوفه من أن لا تصبح أوروبا بروتستنتية فحسب ، بل مسلمة أيضاً ، فأعلن إلى الكرادلة أنه يفكر فى الذهاب إلى برشلونة بنفسه ليطلب إلى شارل أن يعقد الصلح مع فرانسيس ، وأن يضم العاهلان قواتهما لمحاربة الأتراك . وكان شارل فى ذلك الوقت يجهز أسطولا ، يقصد به كما قيل فى رومة ، أن بغزو إيطاليا ويخلع البابا (٢٩) .

وفى العشرين من سبتمبر دخل آل كولنا رومة ومعهم خمسة آلاف جندى ، وتغلبوا على ما لقوا من مقاومة ضعيفة ، ونهبوا قصر الفاتيكان ، وكنيسة القديس بطرس ، وبورجو فتشيو القريبة منها ، وفر كلمنت إلى قلعة سانت أنجيلو . وجرد قصر البابا من كل ما فيه بما فى ذلك الصور

التي رسمها رفائيل على أقشة الجدران وسرق تاج البابا نفسه ، والأواني المقدسة ، والمخلفات المدخرة ، والملابس البابوية الثمينة ؛ وخرج جندي استخفه المرح فارتندي ثوب البابا الأبيض ، وقلنسوته الحمراء ، وأخذ يوزع البركات البابوية بوقار ساخر (٣٠) . وفي اليوم التالي رد منكادا لكلمنت التاج البابوي ، وأكد له أن الإمبراطور لا يصر للبابوية إلا الخير ، وأرغم البابا المرتاع أن يوقع هدنة مع الإمبراطورية تدوم أربعة أشهر ، وأن يعفو عن آل كولنا .

ولم يكذ منكادا ينسحب إلى نابلي حتى حشد كلمنت قوة بابوية جديدة قوامها سبعة آلاف جندي ، أمرها في آخر شهر أكتوبر بأن تزحف على حصون آل كولنا ، وطلب في الوقت نفسه إلى فرانسيس الأول وهنري الثامن أن يمداه بالعون ؛ فأما فرانسيس فقد بعث إليه يعتذر ويسوف ، وأما هنري فقد كان منهمكا في الواجب الثقيل واجب إنجاب ابن يخلفه ، ولهذا لم يرد بشيء . وكان ثمة جيش بابوي آخر في الجنوب أعجزته عن العمل سياسة التسوية الغادرة في ظاهرها التي جرى عليها فرانتشيسكو ماريا دلا روفيري دوق أربينو الذي لم ينس أن ليو العاشر أخرجه من دوقيته ، ولم يكن يرى في سماح أدريان وكلمنت له بالعودة إليها والبقاء فيها فضلا لها كبيرا يشكره لها . وكان مع هذا الجيش قائد أعظم منه بسالة هو الشاب جيوفاني ده ميديتشي الوسيم الخلق ابن كترينا اسفوردسا الذي ورث عنها روحها العالية والذي سمى جيوفاني دلي باندني نيري - جيوفاني ذا الرباط الأسود - لأنه هو وجنوده قد لبسوا شرائط سودا حزنا على موت ليو (٣١) . وكان جيوفاني هذا يتحرق شوقا إلى قتال ميلان ، ولكن فرانتشيسكو ماريا تغلب عليه .

الفصل السابع

نهب رومة : ١٥٢٧

وكان شارل لايزال مقيماً في أسبانيا يحرك منها بيادقه التي يسرطر عليها سيطرة الساحر من بعيد . ومنها أمر عماله بأن يحشدوا جيشاً جديداً . فاتصل هؤلاء بجورج فن فرندنسبرج الزعيم التيرولى المغامر ، الذى كانت جنوده الألمانية المرتزقة قد ذاعت شهرتها فى الآفاق . ولم يكن فى وسع شارل أن يعرض على هذا الزعيم المغامر وجنوده إلا القليل من المال ، ولكن عماله منوهم بالنهب الكثير فى إيطاليا . وكان فرندنسبرج لايزال كاثوليكياً بالاسم ، ولكنه كان شديد العطف على لوثر ، ويكره كلمنت لأنه فى رأيه عدو الإمبراطورية اللدود . ورهن هذا الزعيم المغامر قصره وسائر أملاكه ، وحتى حلى زوجته نظير مبلغ ٣٨,٠٠٠ جولدن^(٥) . واستطاع بهذا المال أن يجمع عشرة آلاف من الرجال الراغبين أشد الرغبة فى المغامرة والنهب ، ليس منهم من يتردد فى أن يحطم حريته فوق رأس البابا ؛ ويقال إن منهم من كان يحمل جبلاً معقوداً ليشنقه به^(٢٢) . وفى نوفمبر من عام ١٥٢٦ عبر هذا الجيش المرتجل الجبال وزحف على بريشيا ، وجازى ألفنسو دوق فيرارا البابوية على ما بذلته من جهود متكررة لخلعه ، بأن أرسل إلى فراندسبرج أربعة من أقوى مدافعه . وحدثت مع الغزاة مناوشة بالقرب من بريشيا أصيب فيها جيوفنى دلى باندى بالرصاص ؛ ومات فى مانتوا فى ٣٠ نوفمبر وهو فى السادسة والعشرين من عمره . ولم يبق بعد وفاته من يمنع دوق أربينو من أن يفعل أى شئ . يريد .

(٥) عملة ألمانية وهولندية قديمة تماثل الفلورين ، أى ما يقرب من نصف جنيه . (المترجم) .

وعبر غوغاء فرنديسبرج نهر اليو كما فعل نجوفى ونهبوا حقول لمباردى
الغنية نهباً بالغ من شدته أن السفراء الإنجليز وصفوا أرضه بعد ثلاث سنين
من ذلك الوقت بأنها « أشقى أرض وجدت في العالم المسيحي في وقت
من الأوقات » (٣٣) . وكان قائد جيش الإمبراطور وقتئذ في ميلان هو
شارل دوق بوربون ، الذى عين وقتئذ قائداً أعلى للجيش الفرنسية
لما أظهره من البسالة في ماربانو . وكان شارل هذا قد خرج على فرانسيس
حين حرّمته أم الملك ، حسب اعتقاده ، من أراضيها الخاصة ؛ فانحاز إلى
الإمبراطور ، وكان له نصيب في هزيمة فرانسيس في بافيا ، وعين دوقاً
لميلان . وأراد وقتئذ أن يحمّد جيشاً لمساعدة شارل ويؤدى له مرتباته ،
ففرّض من الضرائب على أهل ميلان ما كاد يقتلهم قتلاً ، وكتب إلى
الإمبراطور يقول إنه استنزف دماء المدينة ؛ وكان جنوده الذين أسكنهم
في بيوت أهلها لا يفتأون بضايقونهم بالسرقة ، والمعاملة الوحشية ، وهناك
الأعراض ، مما حمل كثيرين منهم على أن يشنقوا أنفسهم أو ينتحروا بلقاء
أنفسهم من الأماكن العالية في الشوارع (٣٤) . وفى أوائل شهر فبراير من
عام ١٥٢٧ مخرج بوربون على رأس جيشه من ميلان ، وضمه إلى جيش
فرنديسبرج بالقرب من بيانشندسا . واتجه هذا الجيش المختلط الذى بلغت
عدته الآن ٢٢ر٠٠٠ جهة الشرق متتبّعاً طريق إيميليا ، متجنباً المدن الحصينة ،
ولكنه ينهب كل ما يجده في طريقه . ويترك البلاد وراءه قاعاً صفصفاً .

ولما تبين كلمنت أن ليس لديه من الجنود ما يكفي لصد الغزاة ، توسل
إلى لانوى أن يعمل لعقد هدنة . وجاء هذا الحاكم من نابلى ووضع شروط
هدنة مدتها ثمانية أشهر : وتتضمن أن يقف كلمنت وكونا الحرب ويتبادلا
ما فتحاه من الأرضين . ودفع البابا ستين ألف دوقه يرشو بها جيش
فرنديسبرج حتى يبقى خارج الولايات البابوية . ورأى كلمنت أنه أوشك على
الإفلاس ، وظن أن فرنديسبرج وبوربون ميزاعيان شروط الاتفاق الذى

وقعه نائب الإمبراطور بشرف وأمانة ، فمخض جيش رومة إلى ثلثمائة جندي لا أكثر . غير أن جنود بوربون السارقين النهابين ثاروا غضابا حين سمعوا بشروط الهدنة . ذلك أنهم ظلوا أربعة أشهر يقاسون آلاف الصعاب وكل ما يأملونه هو نهب رومة ؛ وكانت كثرتهم الغالبة ترتدى الآن أسما لا بالية ، وتمشى حافية الأقدام ؛ وكانوا كلهم جوعاً ولم يتناول منهم أحد مرتبه . ولهذا أبوا أن يشتروا بمبلغ تافه لا يزيد على ستين ألف دوقة ، يعرفون أنه لن يصل إلى جيوبهم منه إلا جزء قليل . وإذا كانوا يخشون أن يوقع بوربون شروط الهدنة ، فقد حاصروا خيمته ، ورفعوا عقيرتهم قائلين : « الأجور ! الأجور ! » واختفى بوربون في مكان آخر ، ونهب الجند خيمته ، وحاول فرندسبرج أن يهدئ ثورة غضبهم ، ولكنه أصابته نوبة تشنجية في أثناء هذه المحاولة . ولم يشترك بعدها في الحملة حتى مات بعد عام واحد من ذلك الوقت . وتولى بوربون القيادة العليا على شرط أن يزحف على رومة . وفي التاسع والعشرين من مارس بعث برسله إلى لانوى وكلمنت يبلغهما أنه لا يستطيع كبح جماح جنوده ، ولهذا فهو مرغم على نقض الهدنة .

وأدركت رومة أخيراً أنها هي الأفريسة الضعيفة المقصودة . وفي يوم خميس الصعود (٨ إبريل) بينما كان كلمنت يمنح بركته لجموع محتشاة تبلغ عشرة آلاف نفس أمام كنيسة المقديس بطرس ، إذ صعد شخص متعصب مشهور ، لا يلبس إلا ميدعة من الجلد ، فوق تمثال المقديس بولص وصاح في وجه البابا قائلاً : « أيها النغل اللائط ! إن رومة ستدمر بسبب خطاياك ؛ فكفر عن ذنوبك وارجع عن غيك ! وإذا لم تصدقني فستري بعد أربعة أشهر ما يحل بها . وفي مساء يوم عيد الفصح أخذ هذا الزاهد الناسك — بارتوليو كاروسى Bartolommeo Carosi الذى يطلق عليه اسم يرندانو Brandano — يطوف بالشوارع وهو يصيح : « رومة ، كفرى

عن ذنوبك ! لأنهم سيعاملونك كما عامل الله سدوم وعمورة ، (٣٥) .

وأرسل بوربون إلى كيمنت يطلب ٢٤٠,٠٠٠ دوق ، ولعله كان يأمل أن يرضى جنوده بهذه الزيادة الكبيرة في ماله ؛ فرد عليه كلمنت بأنه عاجز كل العجز عن جمع هذه القدية الضخمة . وزحف الجحفل اللجب إلى فلورنس ، ولكن جوتشياردينى دوق أرينو . ومركز سالتسو كانا قد حشدا من الجنود ما يكفي للدفاع عن حصونها دفاعاً قوياً ؛ ولهذا ارتدت تلك الجحافل خاسرة ، واتخذت طريقها إلى رومة . ووجد كلمنت أن الهدنة غير كفيّلة بنجاته ، فانضم إلى حلف كنيك المناوى لشارل ، وطلب المعونة من فرنسا ، ودعا أغنياء رومة أن يسهموا في جمع المال اللازم للدفاع عنها ، فكانوا أشحاء في الاستجابة إلى رغبته ، واقترحوا عليه طريقة أجدى من هذه وهى بيع القلائس الحمر(*) . ولم يكن كلمنت قد باع المناصب بالمال إلى جماعة الكرادلة ، ولكنه أخذ بهذا الاقتراح حين وصل جيش بوربون إلى فيتربو التى لا تبعد عن رومة بأكثر من اثنين وأربعين ميلا ، وباع ستة من هذه المناصب . وقبل أن يؤدى المرشحون المال أبصر البابا من نوافذ الفاتيكان الجحافل الجياع تتقدم مجتازة حقول نيرون ، وكان لديه في ذلك الوقت أربعة آلاف جندى يدفعون عن رومة ضد عشرين ألفاً من المهاجمين .

وفي السادس من مايو اقتربت جموع بوربون من الأسوار مستترية بالضباب ، ولكنها صدت عنها بوابل من الرصاص ، وأصيب بوربون نفسه برصاصة قضت عليه لساعته تقريباً . ولكن هذا لم يمنع المهاجمين من أن يعاودوا الهجوم ، لأنهم لم يكن أمامهم غير واحدة من اثنين ، فلما أن يستولوا على رومة ولما أن يموتوا جوعاً . واتفق أن عثروا على موقع ضعيف في خط الدفاع ، فاخترقوه عنوة ، وتدفقوا إلى داخل المدينة .

(*) قلائس الكرادلة - أى بيع مناصبهم بالمال . (المترجم)

وحارب حرس رومة ، والحرس السويسرى ببسالة ، ولكنهما أبيدا عن آخرهما . وفر كلمنت ، ومعظم الكرادلة المقيمين فى المدينة ومئات من الموظفين إلى قلعة سانت أنجيلو حيث حاول تشيليني وغيره أن يقفوا زحف الغزاة بنار المدفعية . ولكن الغزاة دخلوا المدينة من اتجاهات مختلفة أوقعت الارتباك فى صفوف المدافعين ، فن المهاجمين من سترهم الضباب ، ومنهم من اختلطوا بالفارين اختلاطاً لم تستطع معه مدافع القاعة أن تضربهم من غير أن تقتل معهم الجاهل الذى فقدت قوتها المعنوية ، وما لبثت المدينة أن أصبحت تحت رحمة الغزاة .

ولما اندفع هؤلاء فى شوارعها أخذوا يقتلون كل من واجهوه فى طريقهم دون أن يفرقوا بين الرجال ، والنساء ، والأطفال . واشتد تعطشهم إلى سفك الدماء ، فدخلوا مستشفى سانتو اسپيريتو (الروح القدس) وملجأ اليتامى فيه ، وذبحوا كل من فيها من المرضى كلهم تقريباً . ثم انجهوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وذبحوا من لحأوا إلى هذا الحرم المقدس ، ونهبوا بعدئذ كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه من الكنائس والأديرة ، وحولوا بعضها إلى اسطبلات لحيولهم ، وقتلوا مئات من القساوسة ، والرهبان ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وجردت كنيسة القديس بطرس والفاتيكان من أعلاهما إلى أسفلهما من كل ما فيها ، وربطت الخيول فى حجرقة رفائيل^(٣٦) . ونهب كل بيت فى رومة وحرق الكثير منها عدا اثنين لا أكثرهما قصر الكانتشيريا Cancelleria الذى كان يشغله الكردينال كولنا ، وقصر آل كولنا الذى لجأت إليه إزبلا دست ، ومعها بعض أغنياء التجار ، ونفج هؤلاء زعماء الغوغاء بخمسين ألف دوقة لينجوم من الهجوم ، ثم سمحوا لألفين من اللاجئين أن يحتموا وراء الأسوار . وأدى كل قصر من القصور القدية نظير حمايته ، ولكن هذه القصور نفسها هاجمتها جماعات أخرى واضطرت أن تفتدى نفسها من جديد . وقد حدث فى معظم البيوت أنه

اضطر من فيها جميعاً إلى افتداء أنفسهم بمبلغ محدد ؛ فإذا لم يوفوا به كله تعرضوا لألوان من العذاب ، وقتل منهم آلاف ، وأتى بالأطفال من النوافذ العليا ، لكي يضطر آباؤهم إلى إخراج ما اكتنزوه من المال وأخفوه ، حتى غصت الشوارع بالقتلى . وشهد الثرى دومينيكو صاحب الملايين بعينية أبنائه يقتلون ، وابنته يهتك عرضها ، وبيته يحرق ، ثم انتهى الأمر بقتله هو نفسه . ويقول بعض الواصفين : « ولم تكن في المدينة كلها نفس فوق الثالثة من العمر لم تضطر إلى أن تتنازع سلامتها بالمال » (٣٧) .

وكان نصف الغوغاء المنتصرين من الألمان ، لم يكن يشك معظمهم في أن البابوات والكرادلة لصوص ، وأن ثروة الكنيسة في رومة سرقة ونهب من الأمم ، وفضيحة للعالم . وأرادوا هم أن يخففوا من هذه القضيحة ، فاستولوا على جميع ما في الكنائس من ثروة متقولة بما فيها من الأواني المقدسة ، والتحف الفنية ، وخرجوا بها ليلدبوها أو يفتدوا بها أنفسهم ، أو يبيعوها . أما المخلفات المقدسة فقد تركوها مبعثرة على الأرض . وارتدى أحد الجنود الإثواب البابوية ، ولبس غيره قلانس الكرادلة ، وقبلوا قدميه ، ونادى جماعة من الغوغاء في الفاتيكان بلوثر بابا . وكان أتباع مذهب لوثر من الغزاة يجدون لذة خاصة في نهب أموال الكرادلة ، وتقاضي فديات عالية منهم نظير تركهم أحياء ، وتعليمهم مراسم دينية جديدة . ويقول جوتشيارديني إن بعض الكرادلة « أركبوا دواب قدرة حقيرة ، وأدبرت وجوههم نحو ذبونها وعليهم ملابس مناصبهم وشاراتها ، وطاف الغوغاء ببعضهم في شوارع المدينة معرضين لأقسى ضروب السخرية والاحتقار ، وعذب بعض من لم يستطيعوا جمع كل ما طلب إليهم من مال الفداء تعذيباً قسى على حياتهم في التو والساعة أو بعد أيام قلائل » (٣٨) . وأنزل أحد الكرادلة في قبر من القبور وهدد بأنه سيدفن فيه حياً إن لم يأت بالفدية في زمن محدد ؛ وجاء هذا المال في اللحظة الأخيرة (٣٩) . ولم يلق الكرادلة الألمان ، الذين ظنوا

أنفسهم بمنجاة من شر أبناء وطنهم ، خيراً مما لقيه غيرهم . وهتكت أعراض الراهبات والمحصنات من النساء في بيوتهن أو في الأديرة أنفسها ، أو حمان ليشيع فيهن جماعات من الجند شهواتهم بوحشية في أماكنهم^(٤٠) . وهوجمت النساء على أعين أزواجهن أو آبائهن ؛ واستبد اليأس بكثيرات من الفتيات بعد هتك أعراضهن فأغرقن أنفسهن في نهر التير^(٤١) .

وكان الدمار الذي حاق بالكتب ، والمخطوطات ، ونفائس الفن يجلب عن الوصف . واستطاع فليبرت Philibert ، أمير أورنج Prince of Orange الذي تولى وقتئذ قيادة هذه الحشود المختلة النظام ، أو ما يشبه قيادتها ، استطاع هذا الأمير أن ينقذ مكتبة الفاتيكان باتخاذها مقراً لقيادته ، ولكن كثيراً من مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة التهمت النيران ، وضاعت بذلك كثير من المخطوطات القيمة . ونهبت كذلك جامعة رومة وبدد شمل موظفيها . وشهد العالم كولوتشي بيته يحترق عن آخره هو وما جمعه فيه من المخطوطات وروائع الفن . وأبصر الأستاذ بالدوس تعليقاته الجديدة على كتاب بلني تتخذ لإشعال نار في معسكر الناهبين . وفقد الشاعر ماروني Marone قصائده ، ولكنه كان أسعد حظاً من غيره ؛ أما الشاعر باولو بمباستي Paolo Bombasti فقد قتل ؛ وعذب العالم كرسstofور مارتشيلو Cristoforo Marcello بنزع أطافر يديه ظفراً بعد ظفر ، أما الفنانان بيرينو دل فاجا Perino del Vaga ، وماركنتوريو ريمندى Marcantorio Raimoudi وكثيرون غيرهما فقد عذبوا وجردوا من كل ما يمتلكون ، وتفرق شمل مدرسة رفائيل فلم يبق لها وجود . وليس من المستطاع إحصاء عدد من قتلوا في هذه الكارثة المدممة ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله أن ألغى جثة ألقيت في نهر التير من شاطئه الذي تقع عليه الفاتيكان ؛ وأن ٨٠٠ من الموتى دفنوا ؛ وما من شك في أن عدداً آخر كبيراً من الناس قد قتل . وتقدر قيمة المنهوبات تقديراً متواضعاً بأكثر من مليون دوقية ، وقيمة ما دفع من مال الفداء بثلاثة ملايين ، وقدر

كلمنت مجموع الخسائر بعشرة ملايين (١٢٥٠٠٠٠٠٠٠ دولار) (٤٣) .
ودام السلب والنهب ثمانية أيام ، كان كلمنت في خلالها يشاهده بعينه
من أبراج سانت أنجيلو ؛ ويتوسل إلى الله كما توسل إليه أبواب المعذب :
« فلماذا أخرجتني من الرحم ، كنت قد أسلمت الروح ولم ترني عين » (٤٤) !
وامتنع وقتئذ عن خلق لحيته ، فلم يخلقها بعد ذلك أبداً ، وظل سجيناً في
القلعة من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وهو يأمل أن تأتيه النجاة
من جيش دوق أربينو ، أو من فرانسيس ، أو هنري الثامن . وسر شارل ،
وكان لا يزال وقتئذ في أسبانيا ، عند سماعه بسقوط رومة ، ولكنه روع
حين ترامت إليه أنباء وحشية الناهيين ، وتنصل من تبعة هذه المنكرات ،
ولكنه أفاد كل الإفادة من ضعف البابا وخذلانه . وفي السادس من شهر
يونيه أرغم مشلوه - وقد يكون ذلك على غير علم منه - كلمنت بأن يوقع
شروط سلم مهينة ، وافق البابا بمقتضاها على أن يؤدي لهم وللجيش
الإمبراطوري ٤٠٠ ر ٠٠٠ دوقية ، وأن يسلم إلى شارل مدائن بياتشتسا ،
وبارما ، ومودينا ، وقصور أستيا ، وتشفيتا فيتشيا ، وسانت أنجيلو نفسها ؛
وأن يبقى سجيناً في هذه القلعة الأخيرة حتى يسلم المائة والخمسين ألفاً الأولى
من هذا المبلغ ، ثم ينقل بعدئذ إلى جايتا Gaeta أو نابلي ، حتى يقرر شارل
نفسه مصيره . وسمح لجميع من كانوا في قلعة سانت أنجيلو بمغادرتها ما عدا
كلمنت وثلاثة عشر من الكرادلة ، الذين صحبوه إليها ، وعهد إلى الجنود
الأسبان والألمان بحراسة الحصن ، وأبقوا البابا على الدوام تقريباً محصوراً
في جناح ضيق منه ، وصفه جوتشيارديني في ٢١ يونيو بقوله : « لأنهم
لم يتركوا له فيه من المتاع ما يساوي عشرة اسكودوات (*) » . وأسلم كل
ما كان قد أخذه معه في فراره من الفضة والذهب إلى أسريه ليوفى بذلك
مائة ألف دوقية من مال الفداء .

(*) عملة إيطالية كانت موجودة من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر في إيطاليا وصقلية
تيمتها أقل قليلاً من الدولار الأمريكي . (المترجم)

وفي هذه الأثناء استولى ألفنسو صاحب فبرارا على رجيو ومودينا
اللتين كان لفبرارا فيهما حقوق من أقدم الأزمنة ، كما استولت البندقية على
رافنا . وطردت فلورنس آل ميديتشى للمرة الثالثة وأعلنت يسوع
المسيح ملكا على الجمهورية الجديدة ، وبدأ أن صرح البابوية كله مادياً
وروحياً أخذ في الانهيار ، وحركت مأساة هذا الخراب أسى الناس جميعاً حتى
الذين كانوا يشعرون بأن خيانات كلمنت ، وآثام البابوية ، وشره حكومتها ،
وتترف رجال الدين ، ومظالم رومة ، كانت كلها خليقة ببعض العقاب .
وسمع سادوليتو ، وهو آمن مطمئن في كارپنتراس Carpentras بسقوط
رومة فروعه النبأ ، وتحسر على مضي تلك الأوقات الحلوة الهادئة التي
جعلها يحب ، وكستجليونى ، وإزبلا ، ومائة من العلماء ، والشعراء ، وأنصار
العلم والفن ، موطناً لها حتى بلغا فيها ذروة مجدهما . وكتب إرازمس لسادوليتو
يقول : « لم تكن رومة كعبة الدين المسيحى ، ومهد النفوس النبيلة ، وموطن
الأداب والعلوم والفنون فحسب ، بل كانت أيضاً أم الأمم . وكم من الناس
كانت أعز عليهم وأحلى لهم ، وأعظم قيمة لديهم ، من بلادهم نفسها !...
ألا إن هذا الخراب لم يكن فى الحقيقة خراب بلدة واحدة ، بل كان
خراب العالم أجمع » (٤٦) .

الفصل الثامن

شارل المنتصر : ١٥٢٧ - ١٥٣٠

فشا الطاعون في رومة عام ١٥٢٢ وأنقص عدد سكانها إلى ٥٥,٠٠٠ ،
سوما من شك في أن حوادث القتل ، والانتحار ، والهرب في أثناء الحرب
قد أنقصتهم أيضاً إلى أقل من ٤٠,٠٠٠ في عام ١٥٢٧ . وفي شهر يولييه من
هذا العام الأخير جاء الطاعون مرة أخرى في أشد شهور العام قيصاً ،
وانضم إلى القحط والجحافل المخرّبة فأصبحت رومة مدينة الرعب ، والفزع ،
والخراب . وامتلاّت الكنائس والشوارع مرة أخرى بجثث الموتى ، ترك
الكثير منها يتعفن في الشمس ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من الرمم
والأقدار قوية إلى حد لم يطقه السجنانون والمسجونون ففروا من أسوار القلعة
إلى حجراتهم ، وحتى في داخل الحصن مات الكثيرون من الوباء ، وكان
من بينهم خديم البابا . ولم يفرق الطاعون بين الأهلين والغزاة . فمات من
الألمان ٢٥٠٠ في رومة في ٢٢ يولييه سنة ١٥٢٧ ، وأهلك الزهري ، والملاّريا ،
وسوء التغذية نصف عدد الجيش .

وشرح أعداء شارل يفكرون جدياً في إنقاذ البابا . وكان هنري الثامن
يخشى ألا يمنحه الحبر السجين إذناً بتطبيق كترين الأرغونية ، فأرسل الكردينال
ولزى إلى فرنسا ليفاوض فرانسيس في الوسائل التي تتبع لإطلاق سراح
كلمنت ، وفي أوائل شهر أغسطس عرض الملكان على شارل الصلح
و٢,٠٠٠,٠٠٠ دوقية على شرط أن يطلق سراح البابا والأمراء الفرنسيين ،
وأن ترد الولايات البابوية إلى الكنيسة . فلما رفض شارل هذا العرض ،
عقد فرنسيس وهنري معاهدة أمين (١٨ أغسطس) التي تعهدا فيها بمحاربة
شارل ، وما لبثت البندقية وفلورنس أن انضمتا إلى الحلف الجديد ،

واستولت القوات الفرنسية على جنوى وباثيا ونهبت المدينة الثانية نهياً يكاد يكون تاماً ، ولا يقل عما أوقعه الجيش الإمبراطورى برومة : وخشيت مانتوا وفيرارا الفرنسيين القريبين منهما أكثر مما كانتا تخشيان شارل البعيد عنهما ، فانضممتا أيضاً إلى الحلف ؛ غير أن القائد الفرنسى لوترك Lautrec عجز عن دفع رواتب جنده ولم يجروا على الزحف بهم على رومة .

وأمل شارل في أن يسترد مكانته في العالم المسيحي الكاثوليكي ، وأن يهدئ من تحمس الحلف المطرد الزيادة ، فوافق على إطلاق سراح البابا مشروطاً ألا يقدم كلمنت أية مساعدة إلى الحلف ، وأن يدفع من فوره إلى الجيش الإمبراطورى في رومة ١١٢,٠٠٠ دوقه ، وأن يقدم الرهائن ضماناً لحسن سلوكه . وجمع كلمنت المال اللازم ، يبيع مناصب الكرادلة ؛ ومنح الإمبراطور عشر إيراد الكنيسة في مملكة نابلى ، وفي السابع من ديسمبر ، غادر كلمنت سانت أنجيلو بعد أن قضى في السجن سبعة أشهر وتحفى في زى خادم ، واتخذ سبيله وهو ذليل خارج رومة إلى أرفينو ، لا يشاك من يراه في أنه رجل محطم .

وفي أرينو أسكن قصرأ مخرباً خر سقفه ، وتعرت جدرانه وتشققت ، نصفر الريح في جوانبه . ولما قدم عليه السفراء الإنجليز ليحصلوا هنرى على طلاق زوجته ، وجدوه مكوماً في الفراش ، وقد اختفى نصف وجهه الممتقع الضامر الناحل تحت لحية طويلة خشنة . وفي هذا القصر قضى البابا الشتاء ، ثم نقل بعده إلى فيتيبزو . وفي السابع عشر من يناير جلا الجيش الإمبراطورى عن رومة بعد أن حصل من شارل على كل ما يستطيع الحصول عليه منه ، لأنه كان يخشى فتك الطاعون ، واتخذ هذا الجيش سبيله جنوباً إلى نابلى . وزحف لوترك وقتل بحيشه جنوباً ، مؤملاً أن يجاصر نابلى . ولكن الملاريا كانت قد أهلكت عدداً كبيراً من رجاله ، وقضى هو ونحوه ، وتقهقرت جيوشه المختلة النظام نحو الشمال (٢٩ أغسطس .

سنة ١٥٢٨) . وفقد كلمنت كل أمل في معونة الحلف ، فعرض على شارل أن يستسلم له استسلاماً تاماً ؛ وفي السادس من شهر أكتوبر سمح له بالعودة إلى رومة . وروعه أن رأى أربعة أخماس بيوتها قد هجرها أصحابها ، وآلاف المباني قد تخربت ؛ وذهل الناس إذ رأوا ما أحدثه الغزو الذي دام سبعة أشهر في عاصمة العالم المسيحي .

ويبدو أن شارل فكر في وقت ما في خلع كلمنت ، وضم الولايات البابوية إلى مملكة نابلي ، واتخاذ رومة عاصمة لإمبراطوريته ، وأنزل البابا منزله الأساسية وهي أن يكون أسقف رومة وخاضعاً للإمبراطور (٤٧) . ولكن هذا إذا حدث كان من شأنه أن يدفع شارل إلى أحضان اللوثرين في ألمانيا ؛ ويوقد نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، ويشتر فرنسا ، وإنجلترا ، وهولندا ، والمجر لمقاومته بجميع قواها المتحدة . ولهذا تخلى عن ذلك المشروع ، واتجه إلى جعل البابوية حليفته التي تعتمد عليه ، وعونه الروحي في تقسيم إيطاليا بينهما . ولهذا عقد مع البابا معاهدة برشالونة (٢٩ يونيو سنة ١٥٢٩) التي نزل فيها البابا عن أشياء كثيرة هامة : منها أن يرد للكنيسة الإمارات التي انتزعت منها ، وأن يعيد بالسياسة أو بالقوة أقارب البابا الميديتشين في فلورنس ، وحتى يفراراً نفسها وعد أن يعيدها إلى البابا . ووافق البابا في نظير هذا على أن يمنح شارل ملك نابلي بصفة رسمية ، وأن يجيز للجيش البابوي حرية المرور في الولايات البابوية ، وأن يلتقى بالإمبراطور في بولونيا في العام التالي ليثبتا قواعد الصلح وينظما إيطاليا .

وبعد قليل من ذلك الوقت التقت مرجريت عمة شارل ونائبته في حكم الأراضي الوطية بلويزا أميرة سافوي ، وأم فرانسس . واستعانتا بعدد من السفراء والمندوبين ، ووضعنا صيغة معاهدة كبريه (٣ أغسطس سنة ١٥٢٩) بين الإمبراطور والملك . وبمقتضى هذه المعاهدة أطلق شارل الأمراء الفرنسيين نظير فدية مقدارها ١,٢٠٠,٠٠٠ دوقه ؛ وتخلّى فرانسس باسم

فرنسا عن جميع مطالبه في إيطاليا ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وأراس ،
وتورناي^(١٨) . وهذا ترك حلفاء فرنسا في إيطاليا تحت رحمة الإمبراطور .

ثم التقى شارل وكلمنت في بولونيا في الخامس من نوفمبر سنة ١٥٢٩ ،
وكان كلاهما الآن مقتنعاً بأنه في حاجة إلى الآخر . ومن أغرب الأشياء أن
هذه كانت أول زيارة لإيطاليا يقوم بها شارل ؛ ذلك أنه فتح تلك البلاد
قبل أن يراها . ولما ركع أمام البابا في بولونيا ، وقبل قدم الرجل الذى مرغه
في الثرى ، كان ركوعه هذا هو المرة الأولى التى أبصر فيها كلا الرجلين صاحبه
- الرجل الذى يمثل الكنيسة في عهد اضمحلالها ، والرجل الذى يمثل الدولة
الحديثة الناشئة المنتصرة - وفارق كلمنت جميع كبريائه ، وغفر جميع ما لحقه
من إساءات ؛ ولم يكن من ذلك بد ؛ فلم يكن في وسعه آنئذ أن يتطلع إلى
عون فرنسا ؛ وكان لشارل جيش لا يقاوم في جنوبي إيطاليا وشمالها ،
ولم يكن يستطيع إعادة فلورنس لآل ميديتشى دون مساعدة الجيوش
الإمبراطورية ؛ وكان في حاجة إلى مساعدة الإمبراطور ضد لوثر في ألمانيا ،
وضد سليمان القانوني في الشرق . ووقف شارل وقتئذ وقف الرجل الكريم
الخصيف : فقد استمسك بجوهر شروط اتفاق برشلونة الذى عقده حين
لم تكن له هذه القوة التى لا تقاوم ، فأرغم البندقية على أن تعيد كل ما استولت
عليه من أملاك الولايات البابوية ؛ وسمح لفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا أن
يحفظ بميلان المخربة تحت رقابة الإمبراطور إذا أدى نظير ذلك غرامة حرية
كبيرة ؛ وأقنع كلمنت بأن يسمح لفرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى الجبان
أو الغادر بأن يحتفظ بأربينو . وغفر لآل فنسو انضمامه القريب العهد إلى فرنسا ،
وكافأه على ما قدم من معونة أثناء الزحف على رومة بأن سمح له بالاحتفاظ
بدوقيته على أن تكون إقطاعية بابوية ، وأعطاه مودينا ورجيو إقطاعيتين
من قبل الإمبراطورية ؛ وأدى آل فنسو للبابا في نظير ذلك مائة ألف دوقية
كان البابا في أشد الحاجة إليها . وأراد شارل أن يوطد دعائم هذه التسويات

كلها فدعا جميع الإمارات إلى الانضمام إلى اتحاد من جميع أجزاء إيطاليا للردفداع المشترك عنها ضد الهجوم الخارجى - ما عدا هجوم شارل نفسه - وهى الوحدة التى سمى إليها دانتى عند الإمبراطور هنرى السابع ، وبترارك عند الإمبراطور شارل الرابع ؛ وهى ذى الآن تتحقق بالخضوع المشترك إلى دولة أجنبية . وبارك كلمنت هذا الاتفاق كله ، وتوج شارل إمبراطوراً بأن وضع على رأسه تاج لمباردى الحديدى ، وتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة الإمبراطورى البابوى (٢٢ - ٢٤ فبراير سنة ١٥٣٠) .

وسجل حلف البابا والإمبراطور بدماء فلورنس . وتفصيل ذلك أن كلمنت اعتزم أن يعيد إلى أسرته ما كان لها من سلطان فدفع ٧٠٠٠٠ دوقه إلى فليبرت أمير أورنج (الذى أبقاه سجيناً) ، لينشئ بها جيشاً يحتاج به جمهورية الأثرياء التى أقيمت هناك فى عام ١٥٢٧ . وسير فليبرت للقيام بهذه المهمة عشرين ألفاً من الجنود الألمان والأسبانيين ، الذين اشترك الكثيرون منهم فى نهب رومة^(٤٩) . واحتلت هذه القوة بستويا وبراتو Prato فى شهر ديسمبر سنة ١٥٢٩ وضربت الحصار على فلورنس . وأراد أهل المدينة البواسل أن يعرضوا المهاجمين لثيران المدفعية الفلورنسية ، فدمروا كل بيت ، وحديقة ، وجدار ، فى مسافة تمتد ميلاً كاملاً حول حصون المدينة ؛ وترك ميكل أنجيلو أعمال الحفر التى كان يقوم بها فى قبور آل ميديتشى ليبنى الحصون والأسوار أو يعيد بناء ما كان قد تهدم منها . ودام الحصار سبعة أشهر قاست فيها المدينة الأهوال ، فقد شح فيها الطعام حتى بيع القار أو القطن بما يعادل اثنى عشر دولاراً ونصف دولار^(٥٠) . وسلمت الكنائس آنيهاً ، وسلم الأهليون صحافهم ، وتبرعت النساء بحملين ، كى تحول كلها إلى نقود لابتياح المؤن أو الأسلحة . وأخذ الرهبان الملتهبون وطنية أمثال الراهب . بنيديتو دا فويانا Benedetto Da Foiana يرفعون روح الأهلين المعنوية بعظاتهم الدينية . وفر رجل شجاع من أهل المدينة يدعى فرانتشيسكو فيروتشى

إلى خارجها ، ونظم قوة قوامها ثلاث آلاف رجل هاجم بهم المحاصرين . لكنه هزم وخسر من جنوده ألفي رجل ، وأمر هو نفسه ، وجيء به أمام فريديسيو مارمليدي Fadrizio Marmalidi وهو قائد من أهل كلابريا كان على رأس الخيالة في جيش الإمبراطور . وأمر مارمليدي أن يوثق بفيروتشي Ferucci مقبوضاً عليه أمامه ، وأخذ يدفع الخنجر في صدره حتى فارق الحياة^(٥١) . وأخذ القائد الذي استأجرته فلورنس ليتولى قيادة المدافعين عنها ، وهو مالانستا يجلوتي ، يتفاوض لعقد اتفاق غادر مع المحاصرين ، فأدخلهم المدينة ، وصوب مدافعه نحو الفلورنسيين . واضطرت المدينة بتأثير الجوع واختلال النظام إلى التسليم (١٢ أغسطس سنة ١٥٣٠) .

وأصبح ألسندرو ده ميديتشي دوقاً على فلورنس وجلل أسرته العار بما ارتكبه من أعمال النهب وما أظهره من قسوة ، فعذب مئات من الذين حاربوا دفاعاً عن الجمهورية ، أو نفوا منها ، أو قتلوا تقتيلاً . وأرسل الراهب بنيديتو إلى كلمنت ، فأمر هذا بسجنه في قاعة سانت أنجيلوا ، وفيها سجن الراهب حتى هلك من الجوع كما تقول إحدى الروايات التي لا يوثق بصحتها^(٥٢) . وحل مجلس السيادة الذي كان يتولى حكم المدينة ، وأطلق من ذلك الوقت اسم بالاتسو فيتشيو Palazzo Vecchio أى قصر فيتشيو (على بالاتسو دلا سنيوريا Palazzo della Sagnoria أى قصر السيادة) ؛ وأنزل الناقوس الضخم العظيم الذى يزن أحد عشر طناً والمسمى بالبقرة La Vacca ، والذى ظل أجيالاً طويلاً يدعو الناس من البرج الجميل إلى الاجتماع - أنزل هذا الناقوس من موضعه ، وحطم تحطياً ؛ « حتى لا تستمع بعدئذ إلى صوت الحرية العذب » كما يقول أحد كتاب اليوميات المعاصرين^(٥٣) .

الفصل التاسع

كلمنت التاسع والفنون

تؤكد الطريقة التي عامل بها البابا فلورنس تدهور أحوال آل ميديتشى ،
أما ما بذله من الجهود لإعادة رومة إلى سابق عهدها فيكشف عن جذوة
من العبقرية الإدارية وعن تقدير للجمال كانا من أسباب عظمة تلك الأسرة .
وقد صورته وقتئذ سباستيانو دل پيومبو ، وكان قد صورته من قبل فى عهد
نضوجه ، فى صورة شيخ طاعن فى السن ، حزين مكتئب ، غائر العينين ،
أبيض شعر اللحية ، يوزع البركات . ويبدو أن الآلام طهرته وأنها قوته
إلى حد ما ، فقد أقدم على بذل جهود قوية لحماية إيطاليا من الأسطول التركى
الذى كان وقتئذ يسيطر على شرقى البحر المتوسط ، فحصن أنكونا ،
وأسكولى ، وفانو ، وحصل على نفقات هذا التحصين بأن حمل مجمع
الكرادلة فى الحادى والعشرين من يونية سنة ١٥٣٢ على أن يفرض ضريبة
قدرها خمسون فى المائة من جميع إيراد رجال الدين الإيطاليين ومنهم الكرادلة
أنفسهم ، وذلك رغم معارضة الكرادلة (٥٤) . واستعان ببيع المناصب الدينية
وبغيره من الوسائل فجمع المال اللازم لإعادة ما تخرب من الكنائس ،
وجامعة رومة ، والعودة إلى مناصرة العلوم والفنون ، واتخذ الوسائل
الكفيلة بضمان وصول الحبوب إلى المدينة على الرغم من غارات قراصنة
البربر على السفن بالقرب من صقلية ، وبذلك لم يمض إلا قليل جداً من
الوقت حتى عادت رومة إلى القيام بواجبها بوصفها عاصمة العالم الغربى .

وكانت المدينة لا تزال غنية بالفنانين ، فقد جاء إليها كرادسا Caradosa
من ميلان ، وتشيلينى من فلورنس ، لكى يرفعا فن الصياغة إلى الذروة

التي بلغها في عهد النهضة ، وقد شغل هذان الفنانان وكثيرون غيرهما أوقاتهم في عمل ورود ذهبية ، وسيوف شرف يهديها البابا في المناسبات المختلفة ، وآنية لمذابح الكنائس ، وعصى من فضة لكبار رجال الكنيسة وللمواكب الدينية ، وأختام للكرادلة ، وتيجان وخواتم للبابوات . وصنع فاليريوبلي من أهل فيتشندسا Vicenza لكلمنت علبة فخمة من البلور الصخرى نقش عليها مناظر من حياة المسيح ؛ وهي الآن من أثنى التحف المحفوظة في قصر بنتي ، وقد أهديت إلى فرانسس الأول بمناسبة زواج ابنه من كترين الميديتشية .

وبدئ العمل من جديد في زخرفة حجرات الفاتيكان في عام ١٥٢٦ . وكانت أعظم الرسوم التي تمت في عهد ولاية كلمنت هي التي صورت في قاعة قسطنطين ؛ فيها رسم جيوليورومانو سُبج الصليب ، وواقعة جسر ملفي ؛ ورسم فرنشيسكو بني صورة تعمير قسطنطين كما رسم رفايلو دل كلي Raffaello del Colle صورة رومة مبهمة إلى البابا سلفستر من قسطنطين .

وكان أعظم المصورين في رومة بعد ميكل أنجيلو ، وبعد أن هاجر جيوليو رومانو إلى مانتوا هو سباستيانو لوتشيانو Sebastiano Luciano الذي لقب دل بومبو حين عين أميناً لأختام البابا ومصمماً لها (١٥٣١) . وكان مولده في البندقية (حوالى عام ١٤٨٥) ، وكان من حسن حظّه أن تتلمذ على جيان بليني ، وجيورجيو ، وتشيا . وكانت من أوائل صوره وأجملها صورة أعمامه الثلاثة . وقد صور فيها شاباً أيقاً بين مؤلفين شهيرين كانا وقتئذ في البندقية : يعقوب أبرخت Jacob Obrecht وفلبي فيرديلوت Philippi Veredlot . ورسم لكنيسة سان جيوفاني كرسطومو San Giovanni Cristomo - أو أكمل لجيورجيو - صورة

حية واضحة المعالم لذلك القديس وهو منهمك في التأليف ؛ ثم حدا في الوقت نفسه (١٥١٠) حذو طريقة جيورجوني الشهوانية في صورة فينوس وأدريس التي تبدو نساؤها الكريزمات كأنهن من عصر ذهبي وجد قبل أن تولد الخطيئة . وربما . كان سبستيانو قد صور في البندقية أيضاً صورته الذائعة الصيت المعروفة باسم صورة سيرة والتي ظلت زمناً طويلاً تعزى إلى رفائيل وتسمى لافورنارينا La Fornarina .

وفي عام ١٥١١ دعا أجستينو تشيجي Agostino Chigi سبستيانو إلى رومة ليساعد في زخرفة قصر تشيجي الرقي . وهناك قابل الفنان الشاب رفائيل ، وظل وقتاً ما يتلد طوازه في الزخارف الوثنية ؛ ويعلم رفائيل في نظير هذا سر الألوان الدفئة (*) الذي اختصت به البندقية . وما لبث سبستيانو أن أصبح صديقاً حميماً ليكل أنجيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين تلوين البندقية وتصميم طراز ميكل أنجيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين غرضه حين طلب إليه الكردينال جيوليو ده ميديتشي أن يرسم له صورة . واختار سبستيانو موضوعاً لتلك الصورة بعث العازرينافس بها عن عمد صورة العجلى التي كان رفائيل يرسمها في ذلك الوقت (١٥١٨) . ولم يجمع النقاد على معارضة حكمه هو بأنه كان فيها نداءً لمحبوب ليو (**).

وكان في مقدوره أن يرقى إلى أكثر مما وصل إليه لو لم يقتنع اقتناعاً عاجلاً بالحد الذي بلغه من الإتقان . غير أن رغبته الشديدة في التمتع بالفراغ قد حالت بينه وبين النبوغ . ذلك أنه كان شخصاً مزحاً لا يستطيع أن

(*) الألوان الدفئة هي التي تشعر الناظر إليها بالدفء ، وأهمها اللون القريب من الأحمر أو الأصفر ، وعكسها الألوان التي تشعر الإنسان بالبرودة ومنها اللون القريب من الأخضر أو الأزرق . (المترجم) .

(**) رفائيل نفسه . (المترجم)

يفهم لم ينهك الإنسان نفسه لينال فوق حاجته من الذهب والشهرة الخادعة الزائلة بعد الموت . ولهذا قصر معظم عمله بعد أن غال في الفاتيكان من نصيره الذى أصبح بابا وظيفة مرغدة لا يقوم فيها بعمل كبير — قصر بعدئذ معظم عمله على رسم الصور التى قلما فاقه فيها غيره من المصورين .

ويختلف عنه بلدا سارى بيروتسى Baldassari Peruzzi . فقد كان شخصاً طموحاً رددت الأجيال اسمه الطنان الرنان وراء جبال الألب الإيطالية . وكان ابن نساج (والفنانون فى أغلب الأحيان من أصل وضيع : لأن الطبقات الوسطى يجرى أفرادها أولاً وراء المرافق المادية ، يرجون أن يجدوا الفراغ الذى يمكنهم من الاستمتاع بالجمال إذا ما بلغوا سن الشيخوخة ؛ أما أبناء الطبقة العليا ، فهم وإن كانوا يغنون الفن ويناصرونه ، يوثرون فن الحياة على حياة الفن . وكان مسقط رأسه فى سينا (١٤٨١) وأخذ فن الرسم عن سدوما وپنتو وتشيو ثم عجل بالذهاب إلى رومة ؛ وبلوح أنه هو الذى رسم الصور التى فى سقف حجرة إليودورو فى الفاتيكان ، والتى رآها رفائيل من الحسن بحيث ترك معظمها دون أن يدخل عليه شيئاً من التغيير . وفى هذه الأثناء وقع فى حب الآثار القديمة ، كما وقع فى حبها برامنتى ، وأخذ يقيس أرض الطبقات السفلى من الهياكل والقصور القديمة ، ويدرس أشكال الأعمدة وتيجانها ونظام وضعها ، حتى صار خبيراً إحصائياً فى تطبيق فن المنظور على العمارة .

ولما اعتزم أجوستينو تشيجى أن يشيد قصر تشيجى الربى دعا بيروتسى لتصميمه (١٥٠٨) ؛ وسر الرجل المصرى من التصميم — سر مما توجت به الواجهة التى على طراز النهضة من قوالب وشرفات ؛ ولما وجد أن بيروتسى لا يستطيع التصوير بالألوان ، ترك للفنان الشاب الحرة فى زخرفة حد من الحجرات فى داخل القصر بالاشتراك مع سباستيانو دل پيومبو ورفائيل . ورسم بلداسارى فى الردهة التى فى مدخل القصر ، وفى الشرفة

للكشوفة صورة فينوس تمشط شعرها ؛ وليدا ويجمعتها ، وأوروبا Europa
 وثورها ؛ ودانتى وشاشه الذهبى ، وجنيملى ونسره ، وغيرها من المناظر
 التى تهدف إلى رفع روح ذلك المالى من عمل يومه الرتيب إلى شعر أحلامه ،
 وأحاط بيروتسى مظلماته بخطوط تحددها وراعى حيل فن المنظور مراعاة
 لم يسع تيشيان معها إلا أن يظن أنها نحت حقيقى بارز فى الحجر (٥٥) . وفى
 ردهة الطابق الأعلى رسم بلداسارى مبانى خادعة بالفرشاة : شرفات
 مرفوعة على صور عمد ، وأطناً مستندة على صور عمد مربوعة ، وأشباه
 وفوافذ مطلة على صور حقول . وجملة القول أن بيروتسى قد عشق فن العمارة ،
 واتخذ التصوير خادماً له ، يطيع جميع قواعد البنىء ، ولكنه يخلو من
 روحه . غير أننا نستثنى من هذا التعميم المناظر المأخوذة من الكتاب المقدس
 التى رسمها فى شبه قبة لسانتا ماريا دلا باتشى Santa Maria della Pace
 (١٥١٧) ، التى صور فيها رفائيل سييللات قبل ذلك بثلاث سنين . ولم
 تكن صور بلداسارى تقل عن صور رفائيل روعة ، لأن هذه كانت
 أحسن ما صور بلداسارى ، أما صور رفائيل فلم تكن خير صورته .

وما من شك فى أن ليو العاشر قد تأثر بما شاهده من تعدد كفايات
 بيروتسى ، لأنه عينه خلفاً لرفائيل كبيراً لمهندسيه فى كنيسة القديس بطرس
 (١٥٢٠) ، ثم عهد إليه أن يرسم مناظر مسلاة لـ La Calandra
 لبيينا (١٥٢١) . غير أن كل ما بقى من أعمال بيروتسى فى سان پيترو هو
 رسم قاعدة البناء ، التى وصفها سيمندس Symonds بأنها « تفوق فى الجمال
 والطرافة ما رسم من مثلها لكنيسة القديس بطرس » (٥٦) . وكان موت
 ليو ، وجلوس بابا ييفض الفن على كرمى البابوية ، سبباً فى عودة بيروتسى
 إلى سينا ، ومنها إلى بولونيا . وفى هذه المدينة الثانية صمم قصر أبرجاني
 Aebergati الجميل ، وعمل نموذجاً لواجهة كنيسة سان پيترونيو التى لم تتم
 أبداً . لكنه عجل بالعودة إلى رومة حين أعاد كلمنت السابع فتح جنة

الفنون ، وواصل عمله في كنيسة القديس بطرس ؛ وكان لا يزال فيها حين نهبت غوغاء الإمبراطور مدينة رومة . وقاسى محناً شديدة لأنه « كان وقوراً نبيلًا في مظهره ، حتى ظنه الغوغاء كبيراً من رجال الدين متخفياً » كما يقول فاسارى . واحتفظوا به حتى يفتدى بالمال الكثير ، فلما برهن على أصله الوضع برسم صورة ملونة رائعة ، قنعوا بالاستيلاء على كل ما يملكه عدا القميص الذى على ظهره ، وأطلقوا سراحه . واتخذ سبيله إلى سينا فوصل إليها لا يكاد يستر جسمه شيء . وسر حكومة سينا أن تستحوذ من جديد على ابنها الفاره المتلاف ، فعهدت إليه تصميم حصونها ، كما عهدت إليه كنيسة فينتيجيستا رسم صور جدارية أجمع النقاد على أنها أروع آياته الفنية — وكانت هذه الصورة الجدارية سيبيلا تعلن إلى أغسطس المرتاع نبأ مولد المسيح المرتقب .

ولكن أعظم ما نجح فيه بروتسى هو تصميم قصر مسمى دلى كولنى Palazzo Massimi delle Colonne الذى وضعه بعد عودته إلى رومة (١٥٣٠). وكان آل مسمى يدعون الانتساب إلى فابيوس مكسيموس ويقولون إن اسمهم مشتق من اسمه . وفابيوس هذا هو الذى خلد اسمه بالتعطل وتضييع الوقت (*) . أما لقبه فاشتق من المدخل ذى العمود Columned لمسكنهم السابق الذى ضرب أثناء نهب رومة . وكان من حسن حظ بروتسى أن استدارة مكان القصر وعدم انتظامه حالا بينه وبين اتخاذ الشكل المستطيل الكتيب ؛ ولهذا اختار له الشكل البيضى ، كما اختار له واجهة على طراز مباني النهضة ومدخلا على الطراز الدورى ، وكان البناء بسيطاً من

(*) إن في وصفه بالتعطل وإضاعة الوقت بعض المغالاة لأن ما فعله هذا القائد هو أنه لم يلتزم مع هنيبال في واقعة فاصلة حين هجم هذا على إيطاليا ؛ بل تركه يضعف على مهل ويفقد مؤنه ثم ينقض هو على من يتخلف وزاده من جنوده ، وكانت خطته هي التي أفقدت إيطاليا من القائد القرطاجي . (المترجم)

الخارج ، ولكنه أفاء على داخله من الزخرف والروعة ما جعله يضارع القصور الرومانية أيام الإمبراطورية مضافاً إليها ما يتسم به الفن اليوناني من رقة في التناسب والزخرف .

ومات بيروتسى فقيراً رغم ما كان له من كفايات متعددة ، لأنه لم تطاوعه نفسه على مساومة البابوات ، والكرادلة ، ورجال المال على أجور تناسب مع حذقه . ولما سمع البابا بولس الثالث أنه يحتضر ، ظن أنه لم يبق من الفنانين الذين يستطيعون رفع كنيسة القديس بطرس من جدران إلى قبة إلا بيروتسى وميكل أنجيلو . ولهذا بعث إلى الفنان بمائة كرون (١٢٥٠ دولاراً ؟) . فشكر له بلداسارى عمله ، ولكنه مات رغم ذلك في سن الرابعة والخمسين (١٥٣٥) . ويقول فاسارى بعد أن يلمح بأن منافساً له قد سمى إن « المصورين ، والمثالين ، والمهندسين المعماريين في رومة شيوعاً جنازته إلى قبره » .

الفصل العاشر

ميكل أنجيلو وكلمنت السابع : ١٥٢٠ - ١٥٣٤

مما يذكر في صحيفة الحسبات لكلمنت أنه ظل طوال أيام كوارثه يتحمل صابراً جميع نزوات ميكل أنجيلو وثوراته ، ويعهد إليه بالمهمة تلو المهمة ، ويمنحه من المزايا كل ما يليق بالعاقرة . ويقول في هذا : « إذا جاء بونارتي أمسكت بيدي على الدوام مقعداً وأمرته بالجلوس ، لأنني لا أشك في أنه سيجلس من تلقاء نفسه دون أن يستأذني » (٥٧) . وحتى قبل أن يصبح بابا تقدم باقتراح تبين أنه أكبر عمل من أعمال النحت عهد به إلى ذلك الفنان ، وهو أن يضيف إلى كنيسة «سان لورندسو بفلورنس» غرفة «مقدسات جديدة» لتكون قبراً لأشهر أفراد آل ميديتشي ؛ وتصميم مقابر لهم ، وتزيينها بما يليق بها من الصور . وكان كلمنت واثقاً كل الثقة من كفايات هذا الفنان الجبار المتعددة ، ولهذا طلب إليه أن يضع عدداً من التصميمات الهندسية للمكتبة اللورنتية ، تبلغ من السعة والمثانة ما تستطيع أن تقي كل المجموعات الأدبية للأسرة الميديتشي . وتم إنشاء السلم الفخم والدلهيز ذي العمدة في هذه المكتبة اللورنتية (١٥٢٦ - ١٥٢٧) ، بإشراف أنجيلو ، أما بقية البناء فقد أقامها فيما بعد فاساري وغيره على أساس رسوم بونارتي .

أما بناء نوفا ساجريستيا Nuova Sagristia فلا يمكن أن يعد من روائع الفن المعماري . فقد وضع تصميمها على أن تكون مربوعة الجوانب تقسمها عمد مربوعة وتعلوها قبة متواضعة ؛ وكان الغرض الأول من بنائها أن توضع التماثيل . الجوانب المتروكة في الجدران . وقد تم بناء «معبد آل ميديتشي» هذا في عام ١٥٢٤ ؛ وفي عام ١٥٢٥ بدأ أنجيلو العمل



(الصورة رقم ٣) أريينو - من عمل تيشان
معرض فرك بنيويورك . انظر ص ٢٤٠



(الصورة رقم ٢) مدين اورندسو ده ميديتي - من عمل
ويكل أنجلو - غرفة المقدسات الجديدة : بان لورندسو بفلورنس

في القبور ، وقد كتب إليه كلمنت في هذا العام الثاني خطاباً يستحثه في رفق يقول :

« إنك تعرف أن البابوات قصار الأجل ، ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى أن نرى المعبد وفيه قبور أقاربنا ، أو أن نسمع في القليل أنه قد تم ، ولا يقل عن هذا شوقنا إلى إتمام المكتبة ولهذا نعهد بهما جميعاً إلى همتك ونشاطك . وسنتدفع في هذه الأثناء (بناء على توصيتك) بالصبر الجميل ، داعين الله أن يعينك على أن تدفع المشروع كله إلى الأمام . ولا نخش قط أن سوف تعوزك الأعمال أو الجزاء ما دمنا على قيد الحياة . وداعاً على بركة الله وبركتنا - جيوليو » (٥٨) .

وكان المشروع يتضمن إنشاء ستة قبور : واحد لكل من لورندسو الأعظم ، وأخيه جيوليانو الذي اغتيل ، وليو العاشر ، وكلمنت السابع ، وجوليانو الأصغر الذي كان « أطيب من أن يستطيع حكم دولة » (والموتى عام ١٥١٦) ، ولورندسو الأصغر دوق أربينو (الموتى عام ١٥١٩) : ولم يتم من هذه إلا قبر الأخيرين ، ولكنهما مع ذلك أرقى ما وصل إليه فن النحت في عهد النهضة ، كما أن معبد سستيني هو ذروة ما وصل إليه التصوير في ذلك العهد . ويظهر القبران شكل من يحتويان من الموتى كما كانا في عنقوان الشباب ، ولم يحاول المثال إظهار شكلهما الصحيح أو ملاحظتهما الحقيقية : فقد أظهر جيوليانو في ثياب قائد روماني ، ولورندسو في صورة الرجل المفكر il Penseroso . ولما أن لاحظ ملاحظ غير حذر هذا البعد عن الواقعية ، رد عليه ميكل أنجيلو بالفاظ كشفت عن ثقته السامية الأكيدة بخلوده الفني فقال : « منذ الذي يعني بعد ألفي عام هل هذه ملاحظهم وليست هي ؟ » (٥٩) . ويتكئ على تابوت جيوليانو شخصان عاريان : عن اليمين رجل يفترض فيه أنه يرمز إلى النهار ، وعن اليسار امرأة يفترض أنها ترمز إلى الليل . ومثلهما صورنا شخصين متكئين على قبر لورندسو

أطلق عليهما اسما الشفق والفجر . وهذه التسميات مجرد فروض ولعل للخيال فيها أكبر نصيب . وأغلب الظن أن هدف المثال هو أن ينحت مرة أخرى معبوده الخفى ، أغنى الجسم البشرى ، بكل ما فيه من روعة قوة الرجولة ، والمحيط الخارجى الجميل لجسم المرأة بأكمله . ولقد كان نجاحه فى تصوير جسم الرجل أعظم من نجاحه فى تصوير جسم المرأة كما هى العادة ، وإن صورة للشفق الناقصة التى تسلم اليوم النشيط المضى إلى الليل على مهل ، لتضارع أنبل صور الآلهة فى الهانثيون .

وقامت الحرب فعملت أعمال الفن إلى حين . ولما سقطت رومة فى أيدى الجيوش الإمبراطورية (١٥٢٧) ، لم يعد فى وسع كلمنت أن يناصر الفنون ، وانقطع معاش ميكل أنجيلو الذى كان يتقاضاه من البابا ومقداره خمسون كروناً (٦٢٥ دولاراً) فى الشهر واستمتعت فلورنس فى هذه الأيام بعامين من الحرية فى ظل الحكم الجمهورى . ولما أن تصالح كلمنت مع شارل ، وأرسل جيش ألماني - أسباني للقضاء على الجمهورية وإعادة آل ميديتشى إلى الحكم ، عينت فلورنس أنجيلو (٦ إبريل سنة ١٥٢٩) عضواً فى لجنة العشرة للدفاع عن المدينة ، وبذلك أصبح فنان الميديتشيين بحكم الظروف مهندساً يعمل ضد الميديتشيين ، وشرع يشغل كالمحموم فى تخطيط الحصون والأسوار وتشيدها .

وبينا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق كان ميكل أنجيلو يزداد كل يوم اقتناعاً بأن المدينة لا يمكن الدفاع عنها دفاعاً ناجحاً . وهل تستطيع مدينة بمفردها منقسمة على نفسها فى روحها وفى ولائها ، أن تقاوم مدفعية الإمبراطورية والحرمان الدينى البابوى مجتمعين ؟ ومن أجل هذا حدث فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، أثناء حالة عارضة من الذعر ، أن فر الفنان من المدينة ، وهو يأمل أن يهرب منها إلى فرنسا ويلجأ إلى مليكها الظريف الوديع . ولما وجد طريقه مسدوداً بأرض يحتلها الألمان

لجأ مؤقتاً إلى فيراراً وكانت يؤمئذ تابعة للبندقية ، ومنها بعث برسالة إلى صديقه باتستا دلا پالا Battista della Palla العامل الفنان لفرانسس في فلورنس يسأله : هل ينضم إليه في الحرب إلى فرنسا (٦٠) ؟ ورفض باتستا أن يتخلى عن المنصب الذى عهد إليه في الدفاع عن المدينة ؛ وكتب إلى أنجيلو بدلاً من ذلك يدعوهُ دعوة حارة إلى العودة لواجبه ، وينذره إذا لم يعد بأن الحكومة ستصادر أملاكه ، وتترك أقاربه المعدمين في فقر مدقع . وبذلك عاد الفنان إلى عمله في حصون فلورنس حوالى اليوم العشرين من نوفمبر .

ويقول فاسارى إنه حتى في هذه الشهور المضطربة وجد متسعاً من الوقت ليواصل العمل سراً في قبور آل ميديتشى ، وليرسم لألفنسو دوق فيراراً صورة لا تعتبر قط عن طابعه وهى صورة ليدا والجمع ، وكانت في الحق صورة عجيبة يرسمها رجل قليل الميل الجنسية ، متمزمت إلى حد كبير . ولعلها كانت ثمرة اختلال مؤقت في عقله . ويظهر فيها الجمع يضاجع ليدا ، ويلوح أن ألفنسو لم يكن هو الذى اختار موضوعها وإن كان معروفاً بأنه كان رجلاً شهوانياً في الفترات التى بين الحروب . وأظهر الرسول الذى بعثه لإحضار الصورة الموعودة شدة امتعاضه منها حين رآها ، ولم يزد على أن قال « إن هذا عبث » ولم يحاول أخذها للدوق ، فما كان من أنجيلو إلا أن أعطى الصورة لخادمه أنطونيو مينى Antonio Mene الذى حملها إلى فرنسا حيث انتقلت إلى مجموعة فرانسس الأول النهم الذى لم يكن يفرق بين الطبيب منها والخبيث . وبقيت تلك الصورة في فنتينيلو إلى زمن لويس الثالث عشر حين أمر أحد كبار الموظفين بإتلافها لقبح موضوعها . ولسنا نعرف هل نفذ هذا الأمر أو لم ينفذ . وما هو تاريخ الصورة الأصلية بعد ذلك الوقت ، ولكننا نعرف أن نسخة منها باقية في سرايب المعرض الأهل بلندن (٦١) .

ولما أن سقطت فلورنس في أيدي الميديتشيين العائدين إليها أعدم

باتستا دلا بالا وغيره من الزعماء الجمهوريين ، وأخفى ميكل أنجيلو نفسه مدة شهرين في بيت صديق له ، كان في كل لحظة منهما يتوقع أن يلقى نفسه بالمصير ، ولكن كلمنت كان يظن أنه وهو حى أعظم قيمة منه وهو ميت ، فكتب البابا إلى أقاربه الحاكمين في فلورنس بأمرهم بالبحث عن الفنان ، ومعاملته بالحسنى ، وبأن يعرضوا عليه معاشه السابق إذا ما عاد إلى العمل في القبور. ووافق ميكل على هذا العرض ؛ ولكن الصورة التي كانت في عقل الخبر والفنان كانت أكبر مما تستطيع اليد تنفيذه ، كما حدث في قبر يوليوس ؛ ولم تطل حياة البابا حتى يشهد تمام المشروع . فلما توفى كلمنت في عام ١٥٣٤ خشى ميكل أنجيلو أن يصيبه ألسندرو ده ميديتشى بأذى بعد أن مات حاميه ونصيره ، فاغتم أول فرصة للهرب إلى رومة .

وتبدو على القبور مسحة من الحزن المكتئب العميق كما تبدو على صورة **عمراء ده ميديتشي** التي نحتها أنجيلو لحجرة الخلفات المقدسة . ولقد افترض المؤرخون المولعون بالديمقراطية (والمغالون فيما كانت عليه من مدى في فلورنس) أن الصور المضطجعة ترمز إلى مدينة تندب استسلامها للاستبداد والظلم على الرغم منها . ولكن أكبر الظن أن هذا التفسير وهم خيال : فقد صممت هذه الصورة بينا كان الميديتشيون يحكمون فلورنس حكماً صالحاً إلى حد معقول ؛ وقد نحت لبابا من آل ميديتشي كان على الدوام رءوفاً بميكل أنجيلو ، ونحتها فنان مدين لآل ميديتشي منذ شبابه . ولنا نعرف أنه كان يبنى الإساءة إلى الأسرة التي كان يعد لها قبورها ، وليس في تصويره لجيلوليانو ولورندسو ما يدل على تحقيره إياهما . والحق أن هذه الرسوم تعبر عن شيء أعمق من حب لأن تستمتع الأقلية الثرية بحرية حكم الطبقات الفقيرة ، دون أن تقف في سبيلها أسرة ميديتشي التي كانت في العادة محبوبة من الشعب عامة . إنها تعبر عن ملل ميكل أنجيلو من الحياة ، وعن التعب الذي حل برجل كله أعصاب وأحلام هائلة لا يستطيع تحقيقها .

وجد نفسه يصطدم بمئات الحن ، ويعوق كل مشروع من مشروعاته تقريباً
صلابة المادة التي يعمل بها وإياؤها عليه ، وكلال قوته وضيق وقته . ولم يكن
أنجيلو قد استمتع إلا بالقليل من مباحج الحياة ، ولم يكن له أصدقاء لهم
ما له من عقلية ، أما النساء فكان في رأيه أجساماً ناعمة تهدد السلام ، وحتى
أعظم انتصاراته كانت نتيجة الكد المنهك والألم ، واثتلاف التفكير الحزن.
والهزيمة التي لا مفر منها .

ولما سقطت فلورنس في أيدي أسوأ المستبدين بها ، وساد الرعب حيث
كان لورندسو يحكم حكماً موفقاً سعيداً ، أحس الفنان ، الذي كان قد نحت
في رخام أضرحة آل ميديتشى نقداً للحياة لا مجرد نظرية في الحكم ، أن هذه
الأشكال المكتوبة الخزينة تعبر ، فيما تعبر عنه ، عن المجد الغابر للمدينة التي كانت
مهد النهضة . ولما رفع الستار عن تمثال الليل كتب الشاعر جيان بانستا
استروتسي رباعية تعرض موضوعه عرضاً أدبياً قال فيها ما معناه :

أن الليلة التي تراها هنا واقفة في رشاقة
يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، قد صاغها مملك
من الحجر الصلد ، وسمانة ، تسرى فيها الحياة ،
فأيقظها أيها المخلوق الذي لا تصدق ، فإنها ستحدث إليك .
وقد غفر ميكل للكاتب ما في العبارة من تورية(*) هي في الوقت عينه
تمجيد له ، ولكنه لم يرض عن تفسير الكاتب للخصائص التمثال ، وكتب
هو تفسيراً لها في أربعة أسطر هي أكثر ما في شعره وضوحاً وإبانة عن
مقصده قال :-

ما أحسب نومي ، ولكن يزيده محبة أن يكون مجرد حجر
ما دام الخراب والقدر سائدين .
إن أشد ما يؤلمني ألا أرى شيئاً وألا أشعر بشيء ،
إذن فلا توقظني ، وتحدث في همس (٦٢)

(*) يقصد بالتورية عجز اسم ميكل أنجيلو وكلمة Angel أي ملك .

الفصل الحادى عشر

خاتمة عصر : ١٥٢٨ - ١٥٣٤

لم يمت كلمنت إلا بعد أن بذل سياسته مرة أخرى ، وبعد أن توج ما أصابه من كوارث بخروج إنجلترا من قبضة الكنيسة (١٥٣١) . ذلك أن انتشار ثورة لوثر فى ألمانيا قد خلق لشارل الخامس متاعب وأخطاراً ، كان يرجو أن تخف وطأتها بعقد مجلس عام . وألح على البابا بعقد هذا المجلس ، وأغضبه ما كان ينتحله البابا المرة بعد المرة من أعذار وتسويق : كذلك ساء كلمنت أن الإمبراطور قد منح فيرارا مدينتى ريجيو ومودينا ، فولى وجهه مرة أخرى شطر فرانسس ، وقبل عرضاً تقدم به فرانسس وهو أن تزوج كترينا ده ميديتشى من هنرى ثانى أبناء الملك ، ووقع مع الملك مواد سرية ارتبط فيها بمساعدة فرانسس على استعادة ميلان وجنوى (١٥٣١) (٦٣) ، وعرض شارل مرة أخرى فى مؤتمر ثان عقد فى بولونيا (١٥٣٢) . بن البابا والإمبراطور أن يجتمع مجلس عام يلتقى فيه الكاثوليك والبروتستانت لعلهم يجدون صيغة يوفقون بها بين المذهبين . ورفض هذا الاقتراح أيضاً . ثم عرض أن تزوج كترين من فرانتشيسكو ماريا اسفوردسلا نائب الإمبراطور فى ميلان ، لكنه تبين أن اقتراحه هذا جاء بعد فوات الوقت ؛ فقد كانت كترين قد بيعت من قبل لغيره . وفى الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٥٣٣ التقى كلمنت بفرانسس فى مرسلينا ، وزوج ابنة أخيه من هنرى دوق أورليان . وكان من أكبر العيوب التى يتصف بها آل ميديتشى بوصفهم بابوات أنهم كانوا يرون أنفسهم أسرة مالكة ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان يضعون مجد أسرهم فوق مصير إيطاليا أو الكنيسة .

وحاول كلمنت أن يقنع شارل بأن يصطلح مع فرانسس ؛ ولكن فرانسس رفض أن يجيبه إلى ما طلب ، وبلغ من الصفات أن طلب إلى البابا أن يوافق على عقد حلف مؤقت بين فرنسا ، والبروتستنت ، والترك ، ضد الإمبراطور (٦٤) . ولكن كلمنت ظن أن هذه خطوة جريئة لا يستطيع أن يخطوها .

« وفي هذه الظروف » ، كما يقول باستور Pastor ، « لا يسع الإنسان إلا أن يقول إن من حسن حظ الكنيسة أن كانت منية البابا قريبة » (٦٥) ، فقد بلغ الرجل أرذل العمر ؛ لقد كان هنرى الثامن ، وقت تنويع البابا ، لا يزال حامى حمى الدين الصحيح ضد لوثر ؛ ولم تكن الثورة البروتستنتية قد اقترحت حتى ذلك الوقت تغييراً أساسياً فى العقائد ، بل كان كل ما طلبته هو إصلاحات فى شئون الكنيسة شرعها مجلس ترنت Trent نفسه لها فى الجيل التالى ؛ تلك هى الحال وقت تنويعه ، أما عند وفاته (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٣٤) ، فقد كانت إنجلترا ، والدنمرك ، والسويد ، ونصف ألمانيا ، وجزء من سويسرا ، كانت هذه كلها قد انفصلت انفصالاً تاماً عن الكنيسة ، وكانت إيطاليا قد خضعت لسلطان أسبانيا خضوعاً شديداً انخطر على التفكير الحر والحياة الحرة اللذين تمتاز بهما النهضة خيراً كانا أو شراً . وما من شك فى أن عهده كان شرّاً لليهود كلها فى تاريخ الكنيسة . لقد ابتهج كل إنسان حين جلس كلمنت على كرسي البابوية ، كما ابتهج كل إنسان عند موته ، وكم من مرة دنس غوغاء رومة قبره (٦٦) .

الكتاب السادس

الخاتمة

١٥٧٦ - ١٥٣٤

الباب الثاني والثلاثون

أفول نجم البندقية

الفصل الأول

بعث البندقية

من الأمور العجيبة التي لا نجد لها تفسيراً أن هذا العصر — عصر الاستعباد والاضمحلال لسائر إيطاليا ، كان عصرأ ذهبياً بالنسبة للبندقية . لقد قاست هذه الدولة الأمرين من حروب حلف كبريه ، واستولى الترك على كثير من أملاكها الشرقية ، وكم من مرة اضطربت تجارتها مع بلاد شرق البحر المتوسط من جراء الحرب والقرصنة ، وكانت تجارتها مع الهند تنتقل من يدها إلى يد البرتغال . فكيف استطاعت إذن أن تعين في تلك الفترة من الزمان مهندسين معماريين مثل سانسوفينو Sansovino وبلاديو Palladio ، وكتاباً مثل أريتينو ، ومصورين مثل تيشيان ، وتنتورتو ، وفيرونيز ؟ وفي هذا العصر نفسه كان أندريا جبريلي Andrea Gabrieli يعزف على الأرغن ويرأس جوقة المرنمين في كنيسة سان ماركو (القديس مرقس) ، ويكتب قصائد غزل يتردد صداها في جميع أنحاء إيطاليا . وكانت الموسيقى مما يولع به الأغنياء والفقراء على السواء ؛ ولم يكن يضارع القصور القائمة على القناة العظمى في ترفها وفنها من الداخل إلا قصور رجال المصارف والكرادلة في رومة ؛ وكان مائة من الشعراء ينشدون أشعارهم في الخيام ، والحانات ، والميادين العامة ؛ وعشر فرق تمثل المسالي ؛ وأنشئت دور التمثيل الدائمة ، وكانت فيثوريلا

بيسني Vittoria Püsseni « ساحرة الحب الجميلة la bella maga d'Amore » محبوبة المدينة في التمثيل ، والغناء ، والرقص ، حين حلت النساء محل الغلمان في تمثيل أدوار النساء ، وبدأ من ذلك الوقت عهد المهرجانات .

وسنحاول هنا تفسير هذه الظاهرة الخفية تفسيراً أعرج هو كل ما نستطيعه في الوقت الحاضر . وأول ما نقوله في ذلك أن البندقية نفسها لم تُغزق وإن كانت قد أوديت أشد الأذى من جراء الحرب . ولهذا بقيت منازلها وحوانيتها قائمة سليمة . وكانت البندقية قد استردت ما لها من أملاك في شبه جزيرة إيطاليا ، وكانت تضم مدناً عامرة بالسكان أمثال يدوا ، وفيتشندسا ، وفيرونا ، بين روافدها التي تمدها بالعباقره من رجال التعليم ، والاقتصاد ، والفنانين (أمثال كولمبو وكرنارو Cornaro في يدوا ، وبلاديو في فيتشندسا ، وفيرونيز من فيرونا) . وكانت لا تزال تسيطر على مساحات واسعة للتجارة في البحر الأدرياتي وبالقرب منه . ولا يزال عند أسرها الشهيرة كنوز لم تفن بعد من الثروة المكتسبة الموروثة ؛ وظلت التجارة القديمة مزدهرة ووجدت لها أسواقاً جديدة في العالم المسيحي ؛ مثال ذلك أن زجاج البندقية قد وصل في ذلك العصر إلى حد الكمال في التبلور ؛ واحتفظت البندقية بما كان لها من زعامة في منتجات الترف ، وكان هذا العصر هو الذي اشتهرت فيه منتجاتها من المخمرات . وظلت البندقية ، رغم ما فرض عليها من الرقابة الدينية ، تأوى اللاجئين من السياسيين والمفكرين أمثال أريتينو والذي كان يتخلل فحشه وطربه من حين إلى حين كتابات أدبية تفيض تنقي وصلاًحاً .

وبرهنت البندقية في أواخر هذه الفترة مرتين على ما لها من نشاط مدني وقلدرة على الانتعاش ، ففي عام ١٥٧١ قامت بدور رئيسي مع أسبانيا والبابوية في تجهيز عمارة بحرية مؤلفة من مائتي سفينة حطمت أسطولا تركياً

مكوناً من ٢٢٤ مركباً بالقرب من ليبانتو Lepanto في خليج كورنث،
واحتفلت البندقية بهذا النصر الذي كان من شأنه أن يحتفظ بأوروبا الغربية
مسيحية احتفالاً دام ثلاثة أيام بلغ فيها المرح حد الجنون : فقد عُلقت في
ساحل الجزيرة بالبندقية أعلام مرصعة بالفيروز والذهب ، ورفعت في النوافذ
كلها أعلام أو طناقس ازدهت بها القناة الكبرى في المدينة ، وأقيم قوس
تصرف فوق جسر الجزيرة ، وعرضت في الشوارع صور من صنع بليبي ،
وجيورچوني ، وتيشيان ، وميكل أنجيلو . وكانت حفلات التنكر التي أعقبت
هذا النصر أكثر الحفلات التي عرفتها البندقية صخباً وضجيجاً ، وكانت
مثلاً احتلته حفلات تنكرية كثيرة فيما بعد ، فقد تنكر كل امرئ في المدينة
وأطلق العنان لمرحه وعبثه ، واطرح إلى حين كل قوانين الأخلاق ،
وانتقلت إلى أكثر من عشر لغات أسماء المهرجين أمثال پنتالوني Pantalone
ودساني Zonni (أي جوهاني Johanny) (*) .

ثم شبت حرائق مروعة في قصر الدوق في عامي ١٥٧٤ و ١٥٧٧ دمرت
كثيراً من حجراته وأتلفت كل فيها ، فاحترقت صور من أعمال چنتيلي
دا فبرياتو Gentile da Fabriano ، وأسرّة بليبي ، وأسرّة فيثارييني Vivarini
وتيشيان ، وپردينوني ، وتنتورتو ، وفيرونيزي ، واختفى في يومين كل
ما أخرجه الفن والجهد البشري من روائع . وتجلت روح الجمهورية بأجلى
مظاهرها في السرعة والعزيمة اللتين أصلح بهما داخل القصر وأعيد إلى سابق
عمره . فقد عهد إلى چيوفاني دا بنتي Giovanni da Bonte أن يعيد بناء
الغرف بالنظام الذي كانت عليه ، وصمم كرسstofورو سورتي Cristoforo
Sorte سقف قاعة المجلس الكبير Sala del Magior Consiglio العجيب في
تسعة وتسعين قسماً ، ورسم صور الجدران تفتورتو ، وفيرونيزي ، وپالما

(*) أصبح هذان اللغزان اسمين عامين يسمي بهما كل مهرج أو ماجن وهما في الأصل
اسمان لشخصين بعينهما عاشا في ذلك الوقت . (المترجم)

چيوفنى ، وفرانتشيسكو بسانو . وفي الحجرات الأخرى — كحجرة الاجتماع الخاصة بالدوج ومجلسه (Collegio) ، وحجرة الانتظار (Antecollegio) ، وقاعة اجتماع مجلس الشيوخ Sala de' Pregadi — صمم رسم السقف ، والأبواب ، والنوافذ أعظم مهندسى العمارة — ياقوبو سان سوفينو Jacopo Sansovino ، وپلاديو ، وأنطونيو اسكارپانينو Antonio Scarpagnino ، وألسندرو فتوريا .

وكان ياقوبو د أنطونيو دى ياقوبو تاتى Jacopo d' Antonio di Jacopo Tatti من مواليد فلورنس (١٤٨٦) . « وأرسل على كره منه شديد إلى المدرسة » كما يقول فاسارى ، ولكنه أولع بالرسم ، وشجعت أمه هذا الميل فيه ، وتغلبت على معارضة أبيه الذى كان يرجو أن يكون ابنه تاجراً . وهكذا ذهب ياقوبو ليتدرب على يد المثال أندريا كنتوتشى دى مونتى سان سافينو Andrea Contucci di monte San Savino الذى أحب الغلام حباً جماً ، وأخلص فى تعليمه إلى حد جعل ياقوبو ينظر إليه نظرته إلى أبيه — واتخذ Sasovino وهو لقب أندريا لقباً له . وكان من حسن حظ الغلام فوق ذلك أن اتخذ صديقاً له أندريا دل سارتو Andrea del Sarto ، وعلمه أخذ عنه أسرار التصميم الرشيق المليء بالحياة . ونحت المثال الشاب وهو فى فلورنس .

تمثال باهوس الذى يوجد الآن فى معرض بارجيلو Bargello والذى اشتهر بتوازنه التام ، وبالمهارة التى أمكنته من أن يقطع من قطعة واحدة من الرخام ذراع التمثال ، ويده ، وإناء الزهر المتزن بخفة فوق أطراف الأصابع . وكان كل إنسان يعطف على أندريا (عدا ميكى أنجيلو) ، ويساعده على تسنم ذروة التفوق والامتياز . فأخذ جوليانيو دا سانجلو Giuliano da Sangallo إلى رومة ، وهياً له مسكناً فيها ، وعهد إليه براءتى أن يصنع صورة من الشمع للاوكون Laocoön ، فأجاد المثال صنعها إجادة جعلت الكردنال جرمانى Grimani يطلب أن يصب له التمثال من البرنز . ولعل تأثير براءتى هو الذى

جعل أندريا يتحول من فن النحت إلى العمارة ، ولم يلبث أن عهدت إليه أعمال تدور عليه الكثير من المال .

وكان في رومة حين نهبت المدينة ، وفقد في أثناء النهب جميع ما يملك مثله في ذلك كمثل جميع الفنانين . واستطاع أن يتخذ طريقه للبندية يرجو أن يسافر منها إلى فرنسا ؛ ولكن الدوج أندريا جرنى Andrea Gritti رجاء أن يعدل عن هذا السفر وأن يعمل لتقوية عهد كنيسة القديس مرقس وقبابها ، وسر مجلس شيوخ المدينة من عمله سروراً ؛ فجعله يعينه مهندس الدولة (١٥٢٩) ؛ وظل ست سنين يكدح في تحسين ميدان سان ماركو ، فأزال حوائط القصابين التي كانت تشوه منظر جوانبه ، وشق شوارع جديدة ، وعمل على جعل ميسدان القديس مرقس ذلك المكان الرحب الذي نشاهده اليوم .

وفي عام ١٥٣٦ أنشأ دار الضرب (Zecca) ثم بدأ أشهر مبانيه كلها . وهو مبنى دار الكتب Libreria Vecchia ، المواجه لقصر الدوج . ووضع تصميمها للواجهة جعل لها فيه رواقين ذوى عمد دورية وأيونية الطراز ، وشرفات وأطناف ، وزينها بالتماثيل . ويقول بعضهم إن هذه المكتبة القديمة « أجمل بناء غير ديني في إيطاليا كلها » (١) ؛ غير أنها يؤخذ عليها الإسراف في العمد ؛ هذا إلى أن بناءها نفسه لا يضارع بناء قصر الدوج . ومهما يكن من شيء فإن ولاية الأمور أحبوها ، ورفعوا من أجلها مرتب سان سوفينو ، وأعفوه من الضرائب . وحدث في عام ١٥٤٤ أن انهارت إحدى البواكي الرئيسية ، وخرت إحدى القباب ، فألقى سان سوفينو في السجن ، وفرضت عليه غرامة كبيرة ، ولكن أريتينو وتيشيان أقنعا ولاية الأمور بالعفو عنه . ورمت الباكية والقبّة ، وتم البناء بنجاح في عام ١٥٥٣ . وكان سان سوفينو في هذه الأثناء (١٥٤٠) قد وضع تصميم اللوجيتا Logetta الجميلة أو شرفة الشرطة القائمة على الجانب الشرقي من برج الأجراس وزينها بالتماثيل

المصنوعة من البرنز أو القرميد ؛ وصب في كنيسة القديس مرقس أبواباً من البرنز لإحدى حجر الخلفات ، وانتهز هذه الفرصة . فصور بين النقوش البارزة أريتينو وتيشيان ، ولم يكتف بهذا بل صور نفسه أيضاً .

وكان الرجال الثلاثة وقتئذ قد أصبحوا من أحب الأصدقاء ، تحسدهم الدوائر الفنية في البندقية ، وتسميهم : « الحكومة الثلاثية "Triumvirate" » (*) . وكم من سهرة قضوها معاً يمتصون الوقت في الثرثرة أو يحتفلون بإحدى الحسان التي يستطيعون الاحتفال بها وقتاً ما . ولم يكن ياقوبو يقل عن أريتينو اثتلاًفاً مع أذواق النساء ، وقد عاش من العمر بقدر ما عاش تيشيان ، فقد ظل قوى الجسم ، سليم البدن ، يستمتع كما يؤكد عارفوه بقوة بصره كاملة حتى بلغ سن الرابعة والثمانين (٢) . وظل خمسين سنة لا يستشير طبيباً ، وكان في فصل الصيف يعيش على الفاكهة لا يكاد يطعم سواها . ولما استدعاه البابا بولس الثالث ليخلف أنطونيو داسينجالو في منصب كبير المهندسين في كنيسة القديس بطرس رفض هذه الدعوة وقال إنه لا يرضى أن يستبدل بحياته في ظل الجمهورية العمل في ظل حاكم مطلق (٣) . وعرض عليه كل من لإركولى الثاني صاحب فيرارا ، وكوزيمو دوق فلورنس ، مبالغ طائلة لكي يرضى بالإقامة في بلاطيهما ، ولكنه رفض ما عرضاه عليه . ومات مية هادئة في عام ١٥٧٠ بعد أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر .

وفي ذلك العام ظهر مؤلف في العمارة كان بداية عهد جديد في هذا الفن . واسم هذا الكتاب هو أربعة كتب في العمارة ومؤلفه أندريا بلامديو الذي سمي باسمه طراز من البناء لا يزال باقياً في أماكن متفرقة حتى يومنا هذا . وسافر أندريا إلى رومة كما سافر إليها كثيرون غيره من الفنانين ، وتأثرت مشاعره أشد التأثير بعظمة خرائب السوق العامة ، وشغف حبا بالعمد والتيجان المحطمة ، ورأى فيها أجمل الأفكار التي وصل إليها فن

(*) إشارة إلى الحكومة الثلاثية في رومة القديمة . (المترجم)

العمارة ؛ وكان يحفظ رسالة قثروفيوس عن ظهر قلب ، وقد حاول في كتابه هو أن يرد إلى مباني النهضة جميع تلك المبادئ التي قام عليها ، في رأيه ، مجد رومة القديمة . وقد خيل إليه أن أجمل المباني هي التي تباعد عن جميع الزخارف التي لا تنبت بنفسها من طراز الإنشاء نفسه ، والتي تستمسك بأدق النسب والصلوات ، وبتطابق الأجزاء ومواءمتها بحيث يتكون منها كل عضو، يسمو عظيمًا قوياً طاهراً طهارة العذراء العفيفة ، مهيباً كالإمبراطور العظيم .

وكان أول أعماله الكبيرة أحسنها على الإطلاق ، وهو من أبرز المنشآت غير الدينية في إيطاليا . ذلك أنه أقام حول قاعة البلدية Palazzo della Ragione في موطنه فيتشندسا Vicenza في عام ١٥٤٩ وما بعدها أروقة مقنطرة فخمة قوية حول بها مركز البناء القوطي الذي لا يمتاز بشيء عما حوله إلى باسلقا بلاديانا لا تكاد تقل شأنًا عن باسلقا لوليا التي كانت قائمة في الزمن القديم في السوق الرومانية : فهي مؤلفة من صف من الأقواس تعتمد على عمد دورية (*) اسطوانية ومربوعة ، وعارضات لها قوية ضخمة ، وسياج وشرفة منحوتة نحتاً رقيقاً ، ثم صف آخر من العقود فوق عمد أيونية الطراز ، وأطناف وسياج ، وفوق كل بندريل تمثال عال يطل على المدينة ويكسبها عظمة وفخامة . وقد كتب هو نفسه عنها في كتابه بعد واحد وعشرين عاماً من بنائها يقول : « لا شك عندي في أن هذا الصرح لا يقل جلالاً عن الصروح القديمة ، وأنه يمكن أن يعد من أروع وأجمل ما شيد من العمائر منذ أيام الأقدمين » (٤) . ولو أنه قصر هذا التحدي على المباني غير الدينية لما كان عليه فيه ثريب .

وأصبح بلاديو بعدئذ بطل فيتشندسا التي أحست بأنه قد تفوق على سانسو فينو ، وأن هذا الصرح أعظم من بناء دار الكتب . وألح عليه أثرياء

(*) أى من الطراز الدوري (Doric) . (المترجم)

المدينة يطلبون أن يقوم لهم ببناء القصور والبيوت الريفية ؛ كما ألح عليه رجال الدين ليشيد الكنائس ؛ وكانت نتيجة ذلك أنه كاد يجعل المدينة قبل وفاته عام ١٥٨٠ قطعة من رومة . وكان مما شاده فيها شرفة مكشوفة تدار منها شئون المدينة ، ومتحف جميل ، ودار تمثيل أطلق عليها اسم Teatro Olimpico . واستدعته البندقية وفيها خطط كنيسة من أجل كنائسها هما كنيسة سان جيورجيو مجورى ، وريدينتورى Redentore ، وأصبح حتى قبل وفاته ذا أثر قوى فى إيطاليا . ونقل إنيجو جونز Inigo Jones فى أوائل القرن السابع عشر الطراز البلاديونى إلى إنجلترا ، وانتشر بعدئذ فى أوروبا الغربية ثم انتقل إلى أمريكا .

وربما كان انتشار هذا الطراز من سوء حظ فن العمارة . ذلك أنه لم يبلغ قط ما بلغه فن العمارة الرومانية من روعة ومهابة ، فقد أرباك واجهات مبانيه بما ملأها به من العمد ، والتيجان ، والطنوف ، والصور ، والتماثيل ، فكانت هذه التفاصيل مما يزرى بما فى الصروح الرومانية الطراز من بساطة فى الخطوط ووضوح فى المنظر العام . ولقد نسى بلاديو وهو يعود متواضعاً إلى الطراز القديم أن الفن الحى يجب أن يعبر عن العصر الذى يعيش فيه ومزاجه ، لا عن عصر آخر ومزاج آخر . ومن أجل هذا فإننا حين نفكر فى عصر النهضة ، لا ترسم فى عقولنا مبانيه ، بل ولا تماثيله نفسها ، وإنما ترسم فيها صورته التى لا يتمثل فيها إلا القليل من تقاليد الإسكندرية ورومة ، التى حررت نفسها من القوالب البيزنطية المزدهجة الغير الطبيعية ، فكانت بذلك صوت ذلك العصر ولونه بحقى .

الفصل الثانی

أريتينو: ١٤٩٢ - ١٥٥٦ (٥)

وكان الأقدار أرادت أن تخلد ذكرى عام ١٤٩٢ فقدرت أن يولد بييترو أريتينو ، المنكل بالأمرء ، وأمير المبتزين المغتصبين ، كما قدرت أن يخرج إلى العالم في يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام . وكان والده حذاء فقيراً في أرتسو لا تعرف من اسمه إلا لوكا Luca . وسمى بييترو في الوقت المناسب ، كما كان يسمى كثيرون غيره من الإيطاليين ، باسم مسقط رأسه فصار أريتينو . وكان أعداؤه يصرون على أن أمه كانت عاهراً ؛ ولكنه كان ينكر ذلك ويقول إنها كانت فتاة حسناء تدعى تيتا Tita يتخذها المصورون نموذجاً لرسم صورة العذراء ، غير أنها في ساعة من الاستهتار حملت بييترو وهي في أحضان عشيق عارض ولكنه نبيل يدعى لويجي باتشي Luigi Bacci . ولم يكن أريتينو يعباً بأنه نغل ، لأن له زملاء ممتازين من هذا الصنف من الناس ، كذلك لم يكن أبناء لويجي الشرعيون يغضبهم أن يسميهم بييترو ، بعد أن ذاع صيته ، إخوته . لكن أباه كان هو لوكا :

ولما أتم الثانية عشرة من عمره شرع يعمل لكسب عيشه ، فاشتغل مساعد مجلد كتب في پروچيا ؛ وهناك درس الفن دراسة تكفي لأن تجعله فيما بعد نقاداً وخبيراً ممتازاً . ورسم هو بعض الصور الملونة . واتفق أن كانت في أشهر ميادين پروچيا صورة دينية يعزها أهل المدينة ويجلونها ، تمثل صورة مجدلين خاشعة عند قدمي المسيح . فما كان من أريتينو في إحدى الليالي إلا أن رسم عوداً في أحضان مجدلين فحول بذلك دعاءها إلى أغنية . ولما استشاطت المدينة غضباً من هذه الفعلة الطائشة ، تسالل بييترو من پروچيا وأخذ يطوف في إيطاليا ، فعمل خادماً في رومة ، ومغنياً في شوارع

فيتشندسا ، وصاحب نزل في بولونيا . واشتغل فترة من الزمان في مطبخ بعض السفن وعاملاً مأجوراً في دير ، لكنه طرد منه لاتهامه بالدعارة ، فعاد إلى رومة (١٥١٦) ، حيث عمل خادماً عند أجوستينو تشيجي . ولم يكن الرجل المصرفي يقسو في معاملته ، ولكن أريتينو كان قد كشف عما امتاز به من عبقرية ، وتضايق من الاشتغال بالخدمة ؛ فكتب قطعة من الهجاء اللاذع يصف فيها حياة الخادم الحقير الذي يقضى وقته في تنظيف المراحيض ، وتلميع المبال . . . وإشباع شهوات الطبائخين ورؤساء الخدم ، ولا يلبث أن يرى جسمه مرقطاً ومزداناً بالزهرى ^(٦) . وعرض قصائده على بعض ضيوف تشيجي ، وترامت الأنباء بأن بييترو أحد الهجائين لساناً وأعظمهم فكاهة . وبدأت قصائده تنتشر ، وسر منها البابا ليو ، وبعث في طلب مؤلفها ، وضحك من فكاهته الخشنة الصريحة ، وضمه إلى الموظفين البابويين ليكون في مركز وسط بين الشاعر والمهرج ، وظل بييترو ثلاث ستين في خدمة البابا يستمتع بلذيق المأكول والمشرب .

ثم مات ليو فجأة ، وبدأ أريتينو حياة التجوال مرة أخرى . ولما أبطأ مجمع الكرادلة في اختيار من يخلفه ، كتب عدة قصائد يهجو فيها الناصحين والمرشحين ، ولصقها على تمثال بسكوينو Pasquino وأخذ يكيل السخرية لكثيرين من الكبار حتى لم يكذبى له في المدينة كلها صديق . ولما انتخب أدريان السادس ، وبدأ حملة الإصلاح تفجرت منه أهل المدينة ، فر بييترو إلى فلورنس ، ثم إلى مانتوا (١٥٢٣) ، حيث عينه فيديريجو شاعر بلاطه بمرتب غير كبير . ولما استجيب دعاء رومة ومات أدريان ، وجاس ثرى من آل ميديتشى مرة أخرى على عرش العروش ، بادر بييترو بالذهاب إلى العاصمة كما بادر بالذهاب إليها آلاف غيره من الشعراء والفنانين ، والأوغاد ، والرقعاء .

وما كان يصل إليها حتى قضى بنفسه على ما لقيه فيها من ترحيب ..

ذلك أن جيوليو رومانو كان قد رسم عشرين صورة ، تصف عادة مواقف غرامية مختلفة . ووضع مركانتونيو نفوشاً محفورة لهذه الصور ، « وكتب بييترو أريتينو » . كما يقول فاسارى « أغنية بلغت من الفحش درجة لا أستطيع معها أن أقول أيهما شر من الأخرى : الرسوم أو الألفاظ » (٧) . وتداول المفكرون الصور والأغاني حتى وصلت إلى جيبرتى Giberti وهو الموظف المنوط ببحث حالات موظفى الحكومة البابوية ولياقهم لوظائفهم ، وكان هذا الموظف معروفاً بعدائه لأريتينو . وسمع بذلك بييترو فخرج من المدينة هائماً على وجهه مرة أخرى . ولما وصل إلى بافيا افتتن به فرانسيس الأول الذى أوشك أن يفقد كل شىء عدا الشرف . وفى ذلك الوقت بدل أريتينو موضوعه وانتقل من النقيض إلى النقيض ، ودهشت لذلك رومة وحبست أنفاسها من فرط الذهول ؛ فقد كتب ثلاثة قصائد فى المديح ، واحدة منها عن كلمنت ، وثانية عن جيبرتى ، وثالثة عن فيديريجو . وشفع له المركز لدى البابا ، ورق له قلب جيبرتى ، وأرسل كلمنت فى طلب أريتينو وعينه فارساً فى رودس ورتب له معاشاً . وقد وصفه فرانتشيسكو بىرتى منافسه الوحيد بين المهجائين وقتئذ بقوله :

لانه يسير فى شوارع رومة فى زى الأدواق ، ويشترك فى جميع مغامرات الأشراف ، ويشق لنفسه الطريق بالإهانات المتخفية فى الألفاظ الماكرة الخادعة . وهو يجيد الحديث ، ويعرف كل قصة من قصص الطعن والتشهير فى المدينة . ويسير متأبطاً أذرع أفراد أسرة أوست وجندساجا ، ويستمتع هؤلاء إلى ثرثرته : وهو يحترمهم ولكنه يشمخ بأنفه على كل واحد سواهم ، ويعيش من هباتهم . والناس يخشونه لما له من قدرة على الهجاء ، ويسره أن يستمع الناس يصفونه بأنه بياخر تمام وقح . وكل ما كان يحتاجه أن يظفر بمعاش ، وقد حصل عليه من البابا بعد أن وجه له قصيدة من الدرجة الثانية (٨) .

ولم يكن أريتينو يشك في أنه سيحصل على هذا كله . وكأنا أراد أن يثبت هذا فطلب إلى سفير مانتوا أن يرجو فيديريجو أن يهبه « قيصين مطرزين بالذهب . . . وآخرين مشغولين بالحرير ، ومعها قلنسوتان من الذهب » . فلما أبطأت عليه هذه المطالب أنذر بأنه سوف يهجو المركز هجوا يقضى عليه من فوره . وحذر السفير فيديريجو من هذا بقوله : « إن سموك لتعلم قوة لسانه ؛ ولن أقول لك شيئاً غير هذا » . وسرعان ما وصلت أربعة قصص مطرزة بالذهب ، وأربعة مطرزة بالحرير ، وقلنسوتان من الذهب ، وقبعتان من الحرير ، وكتب السفير يقول : « إن أريتينو راض قانع » . وكان في وسع بيترو أن يرتدى وقتئذ رداء الأدواق .

وقضى على فترة الرخاء الثانية في رومة حادث روائى أدى إلى إصابته خفية بطعنات خنجر . وتفصيل ذلك أن أريتينو قال أليانا أهان بها فتاة تعمل في مطبخ جبرتي ، فهاجمه خادم آخر من خدم جبرتي يدعى أتشيلي دلا قولتا Achille della Volta في أحد شوارع المدينة في الساعة الثانية صباحاً (١٥٢٥) ، وطعنه بخنجر في صدره طعنتين ، كما طعنه طعنة شديدة في يده اليمنى أدت إلى بتر إصبعين من أصابعها . ولم تكن الجراح مميتة ، وسرعان ما شفى منها أريتينو ، وطالب باعتقال أتشيلي ، ولكن كلمنت وجبرتي لم يتدخلوا في الأمر . وظن بيترو أن جبرتي يعمل لقتله ، فاستقر رأيه على أن الوقت قد آن للطواف مرة أخرى بإيطاليا ، فانتقل إلى مانتوا والتحق مرة أخرى بخدمة فيديريجو (١٥٢٥) . ولما سمع بعد عام من ذلك الوقت أن جيوفاني دلي باندو نيرى يجهز جيشاً يقصد به غزو فرنسبرج ، ثارت في نفسه ذرة خفية من النبل والكرامة ، فسافر راكباً نحو مائة ميل لينضم إلى جيوفاني في لودي Lodi . وعلى كل ما في عروقه من الدم حين فكر في أنه وهو الشاعر المسكين قد يصبح رجل جد وعمل ، وأنه قد يبلغ من أمره أن ينشئ بنفسه إمارة يتولى هو رياستها ، بدل أن يكون مجرد خادم مهين لأمير .

والحق أن القائد الشاب كان كريماً معه كرم دون كيشوت ، فوعده بأن يجعله مركزاً إن لم يكن أعظم من مركزه . ولكن جيوفني الباسل قتل ، وخلع أريتينو الخوذة التي أعطاها وعاد إلى مانتوا وإلى قلمه .

وألف وقتئذ تقويماً هزلياً لعام ١٥٢٧ تنبأ فيه بنبوءات سخيفة أوسيتها لمن كان يبغضهم ، وضم إلى ضحايا قلمه البابا كلمنت لغضبه عليه بسبب ضعف المعونة التي قدمها إلى جيوفني دلي باندی نرى وتردده في تقديمها . وأظهر كلمنت دهشته من أن يأوى فيديريجو مثل هذا العدو للبابوية الذي لا يظهر لها شيئاً من الإجلال ، فما كان من فيديريجو إلا أن نفح أريتينو بمائة كرون وأشار عليه بأن يتبعد عن تناول يد البابا . فر عليه بيتره يقول : « سأذهب إلى البندقية ، ففي البندقية وحدها تمسك العدالة بكفتين متزنيتين » . ووصل إليها في شهر مارس عام ١٥٢٧ ، واتخذ له بيتاً على القناة الكبرى . وافتنن بالمناظر التي كان يراها من وراء الأمواه الضحلة ، وبحركة المرور التي كان يشاهدها فيما أسماه « أجمل طريق كبير في العالم كله » ؛ وكتب في ذلك يقول : « لقد استقر رأيي على أن أعيش في البندقية طول حياتي » . وبعث بخطاب يهدي فيه تحياته وثناؤه العظيم إلى الدوج أندريا جيورقي ، ويمتدح فيه جمال البندقية وجلالها وعدالة شرائعها ، وما يستمتع به أهلها من أمن وطمأنينة ، وإبواءها اللاجئين السياسيين والمفكرين ، وأضاف إلى ذلك في عظمة وجلال : « أنا ، الذي قذفت الرعب في قلوب الملوك . . . أسلم نفسي إليكم يا آباء شعبكم »^(٩) . وقدره الدوج التقدير الذي قدر به نفسه ، وأكد له أنه سييسط عليه حمايته ، ووظف له معاشاً ، وشفع له عند البابا ، وبقي أريتينو مقمياً في البندقية وفيها لها طوال السنين التسع والعشرين الباقية من حياته ، وإن كانت قد جاءت الرسائل تدعوه إلى الإقامة في بلاط الكثيرين من رؤساء البلاد الأجنبية .

ويشهد ما جمعه في بيته الحديد من أثاث وتحف فنية بما كان لقلمه من

قوة. ، لأن هذا كله إنما صنع أو جمع نتيجة لكرم أنصاره أو خوفهم منه . من ذلك أن نتورتو نفسه هو الذى نقش سقف حجرات بيترو الخاصة ، وسرعان ما ازدانت جدرانها بصور من عمل تيشيان ، وسباستيانو دل بومبو ، وجيولورومانو ، وبرندسينو ، وفاسارى ؛ وكان فى الدار تماثيل من صنع ياقوبو سانسو فينو ، وألسندرو فتوريا . وكانت فيها علبة من خشب الأبنوس تحوى الرسائل التى تلقاها أريتينو من الأمراء ، والأخبار ، وقواد الجيوش ، والفنانين ، والشعراء ، والموسيقين ، وكرائم السيدات ؛ وقد نشر هذه الرسائل فيما بعد فى مجلدين يحتويان على ٨٧٥ صفحة كثيرة السطور . وكان فى الدار فوق ذلك صناديق وكراسى محفورة ، وسرير من خشب الجوز يليق بجسم بيترو الذى كان قد تضخم . وكان أريتينو يعيش وسط هذا الترف وهذه التحف الفنية ، يرتدى ثياب الأمراء ، ويوزع الصدقات على الفقراء من الجيران ، ويولم الولائم لعدد لا يحصى من الأصدقاء وللعشيقات اللاتى اتخذهن واحدة بعد واحدة .

ترى من أين جاء بالمال الذى يحيا به هذه الحياة المترفة ؟ لقد جاء ببعضه من بيع كتاباته للناشرين ، وبعضه من الهدايا والمربات التى كان يبعث بها إليه من يخشى سخطه أو يلتمس مديحه من الرجال والنساء . وكان أكثر الناس يقظة وشأناً فى إيطاليا يسارعون إلى ابتغاء ما يخطه قلمه من هجاء ، وقصائد ؛ ورسائل ، ومسرحيات ، وكلهم حريص على أن يعرف ما يقوله عن الأشخاص والحوادث ، ويسر من هجائه على ما هو منتشر فى تلك الأيام من فساد ، ونفاق ، وظلم ، وسوء خلق . وقد أضاف أريستو إلى الطبعة التى أصدرها فى عام ١٥٣٢ من *أرلندو فيورioso* *Orlando Furioso* بيتين من الشعر أضافا لقبين إلى اسم بيترو وإذ قال : « انظر والى المنكل بالأمراء ، بيترو أريتينو القدسى » ؛ وسرعان ما أصبح الطراز المألوف أن يتحدث الناس عن أكبر كاتب فظ بتدىء فى ذلك الوقت بأنه « قدسى » .

وزادت شهرته في أنحاء القارة الأوروبية ، وسرعان ما ترجم هجاؤه إلى اللغة الفرنسية ، وجمع أحد باعة الكتب في شارع سان چاك في باريس ثروة طائلة من بيعها مفردة (١١) ، ورحب بها سكان إنجلترا ، وبولنـدة ، والمجر ، وقال في ذلك أحد معاصريه إن أريتينو ومكيقلي هما دون غيرهما المؤلفان اللذان تقرأ مؤلفاتهما في ألمانيا ، وفي رومة حيث يقيم ضحايا قلمه المحبون كانت كتاباته تنفذ في يوم نشرها ، وإذا جاز لنا أن نأخذ بتقديره هر فإن إيراده من مؤلفاته المختلفة بلغ ألف كرون (١٢,٥٠٠ دولار ؟) في العام الواحد . وفضلا عن هذا فإن « كيمياء قلمي قد جاءت إلى بأكثر من ٢٥,٠٠٠ كرون ذهبي من أحشاء مختلف الأمراء » . وكان الملوك ، والأباطرة ، والأدواق ، والبابوات ، والكرادلة ، والسلاطين ، والقراصنة ، ممن يعطونه الجزية . عن يد وهم صاغرون . وها هو ذا شارل الخامس يعطيه طوقاً يقدر بثلاثمائة كرون ، وفليب الثاني يعطيه طوقاً آخر يقدر بأربعائة ، وفرانسيس الأول يهبه سلسلة أعظم منهما قيمة (١٢) . وكان فرانسيس وشارل يتنافسان في كسب مودته بما يعدانه به من معاش ضخم ، وقد وعده فرانسيس بأكثر مما وهبه ، وقال عنه أريتينو : « لقد كنت أجلته أعظم إجلال ، ولكن عجزى عن استئارة سخائه والحصول من هذه الاستئارة على المال ليكني لأن يبرد أفران مورانو (الضاحية التي تركز فيها صناعة الزجاج بالبندقية) » (١٣) . وعرض عليه لقب « فارس » من غير أن يصحب اللقب إيراد ما ، فرفضه وقال « إن الفروسية بلا دخل كالجدار الذي لا يحمل علامة « ممنوع » فعنده يرتكب كل إنسان ما يشاء من المضايقات » (١٤) . وهكذا منح أريتينو قلمه للثناء على شارل وخدمه بإخلاص لم يألفه قط . ودعى مرة لمقابلة الإمبراطور في بلدوا ، فلما أقبل على المدينة خرجت جموع كبيرة تحبيه كما تحيي أعظم العظماء المشهورين ، وآثر شارل أريتينو على جميع الحاضرين فاختره للركوب إلى جانبه وهو يطوف بالمدينة ، وقال له :

« إن كل سميذع في أسبانيا يعرف كتاباتك ، ويقرأ كل ما يصدر منها فور طبعه » . وجلس ابن الخداء في تلك الليلة عن يمين الإمبراطور ، الذى دعاه لزيارة أسبانيا ، فرفض بيتر و تبعه أن عرف ما هى البندقية . وكان أريتينو وهو جالس إلى جانب فاتح إيطاليا أول مثل لما أسماء الناس بعدئذ قوة القلم ، فما من نفوذ شبيه بنفوذه ظهر بعدئذ في الأدب حتى جاء فلتير .

وقلما يسترعى هجائوه انتباهنا في هذه الأيام ، ذلك أن قوته تعتمد في الغالب على الإشارات اللاذعة لحوادث محلية ، وثيقة الصلة بظروف ذلك الوقت إلى حد يحرمها من أن يكون لها أثر دائم . وكان سبب انتشار ذلك الهجاء وشهرته أنه يصعب على الإنسان ألا يستمتع بكشف عورات غيره من الناس ، ولأن قائله يعرض بالمساوىء الحققة ، ويهاجم بشجاعة العظماء والأقوياء ، ولأنه حشد جميع ما في لغة الشوارع من قوة لخدمة الأدب وللتجريح الأدبى النافع . وقد استغل أريتينو اهتمام الناس الفطرى بالشئون الجنسية وبالخطايا ، فكتب في ذلك أهاريث Ragionamente بين العاهرات عن أسرار الراهبات ، والزوجات ، والعشيقات وأعمالهن . وكانت الصفحة الأولى من الكتاب تعلن أنه محاورات نانا وأنطونيو ... ألفه أريتينو القديس لقرده المدلل كبريتشيو Capriccio ، ولإصلاح شأن طبقات النساء الثلاث . قدم للطابع في هذا اليوم من شهر إبريل سنة ١٥٣٣ بمدينة البندقية الذائعة الصيت « (١٥) » . وفي هذا الكتاب يستبق أريتينو ما تنسم به كتابات ربلية Rabelais من فحش ، وسخرية ، وولع بالأوصاف يصل إلى حد الجنون ، وهو يهيم حباً بالعبارات التى لا تزيد على أربعة أسطر ، ويؤلف منها أحياناً عبارات فذة مدهشة كقوله : « أراهن بروحى نظير حبة فستق » ، وأوصافاً رائعة كوصفه الزوجة الحسنة التى فى سن السابعة عشرة التى هى « أجمل قطعة من اللحم أظن أنى لقيتها فى حياتى » - واثى تزوجت برجل فى سن الستين ، واعتادت المشى وهى نائمة تتخذها وسيلة لمقارعة حراب

الليل» (١٦). والنتيجة التي تستخلص من المحاورات هي أن المومسات أجدر طبقات النساء الثلاث بالمديح ، لأن الزوجات والراهبات ينكثن بأيمانن ، أما المومسات فيعشن كما تحتمة عليهن حرفتهن ، ويقضين الليلة في أداء ما تناولن عنه أجرهن . ولم تروع أقواله لإيطاليا ، بل تلقتها بالضحك والابتهاج .

وَألف أريتينو في ذلك الوقت نفسه أكثر مسرحياته كلها انتشاراً وهي مسرحية المومس . وقد سلك فيها النهج الذي سارت عليه معظم المسالى الإيطالية في عهد النهضة ، فقد جرت على التقاليد البلوتينية ، التي تجعل الخدم يسخرون من أسيادهم ، ويحيكون لهم ما يريدون من الدسائس ، ويعملون لهم قوادين ، ويتولون عنهم التفكير . غير أن أريتينو أضاف إلى ذلك شيئاً خاصاً به : هو سخريته وفكاهته الفاجرة الفاحشة ، وعلاقته الوثيقة بالعاهرات ، وكراهيته لحاشية الملوك والأمراء ، - وخاصة حاشية البابا - ووصفه الصادق الطليق للحياة كما شاهدها في المواقير وفي قصور رومة . وقد أزاح الستار عن حاجة رجل البلاط إلى النفاق ، والتذبذب ، والتذلل ، والملتق ، وعرف النجاسة في سطر مشهور بأنها « قول الحق » ؛ وكان ذلك أقوى وأحكم دفاع عن حيانه وتبرير لها . وكتب أريتينو مسلاة أخرى هي أطلنطا جعل فيها الشخصية الهامة عاهراً أيضاً ، وجعل محور القصة ما تحتال به من الحيل على محبيها ، والطرق التي تبتز بها المال منهم بعد أن تهيجهم . وله مسرحية أخرى تدعى Ipcrita شبيهة كل الشبه بمسرحية طرطوف لمليير ، بل الحق أن مسالى مليير ليست إلا حلقات فرنسية من مسالى أريتينو أصلحت وطهرت من رائحتها الخبيثة .

وَألف أريتينو في نفس العام الذي أخرج فيه أناشيد المواقير طائفة كبيرة من المؤلفات الدينية منها إنسانية النسيج ، ومزاجير التوبة البعثة ، وعبادة سرقيم العذراء ، وعبادة كترين العذراء ، وعبادة القديس تومس ،

سيد أكوينا وغيرها . . . ومعظم هذه المسرحيات قَصَص لا تاريخ ، وقد أقر بيترو بأنها « أكاذيب شعرية » ، ولكنها أكسبته ثناء الرجال الصالحين ، وحتى ثناء فتوربا كولونا الصالحة الفاضلة . وكانت بعض الجهات ترى أنه دعامة كبرى للكنيسة ، وراجت في وقت ما إشاعة بأنه سيغيب كردنالا .

وأكبر الظن أن رسائله هي التي أبقت على شهرته كما أبقت على ثروته وكانت الكثرة الغالبة منها مدائح بعث بها إلى الممدوحين أو إلى أشخاص متصلين بهم . وكان يقصد بها صراحة أن ينال رفدهم ، أو معاشاً منهم ، أو غير هذا وذلك من المساعدات ؛ وكان في بعض الأحيان يعين ما يريد أن يناله والوقت الذي يناله فيه . وكان أريتينو لا يكاد يكتب هذه الرسائل حتى يطبعها ، وكان هذا أمراً تستلزمه قوانين الإيجائية . وكانت إيطاليا تتخاطبها لأنها تتيح لها بطريق غير مباشر أن تكون وثيقة الصلة بالمشهورين من الرجال وبشهرات النساء ، ولأنها كتبت بطريقة مبتكرة مليئة بالحياة ، والبهجة ، والقوة ، لا يسمو إليها أى كاتب آخر في ذلك الوقت . وكان أريتينو من ذوى الأسلوب الممتع وإن لم يسع هو إلى أن يكون له هذا الأسلوب . وكان يسخر من آل بمبو الذين كانوا يعملون لصقل كتاباتهم صقلاً كاملاً ينقدها الحياة كلها ، وقد قضى على عبادة الكتاب الإنسانيين للغة اللاتينية ، والدقة المتناهية في مراعاة قواعد اللغة ورشاقة اللفظ . وكان يتظاهر بأنه يجهل الأدب ، ولهذا كان يشعر بالتححرر من التماذج الموضوعية المعقدة الملتبسة ، ولم يكن يتقيد في كتابته إلا بقاعدة واحدة تسيطر عليه دون غيرها وهي أن تكون كتابته تلقائية في لغة بسيطة خالية من اللف والدوران ، معبرة عن تجاربه في الحياة ونقده لها ، وعن حاجاتها البسيطة المألوفة من طعام وكساء . وفي وسعنا أن نجد بين أكذاس السخافات التي تحتويها هذه الرسائل ماسات متألثة : رسائل رقيقة لعاهر محبوبة في مرضها ، وقصصاً منطوية من التاريخ المحلي ، ومغرب الشمس يصفه في رسالة إلى

نيشيان لا تكاد تقل جمالا عن صورة من صنع تيشيان أو تيرنر Turner ؛
ورسالة ليكل أنجيلو يشير عليه فيها بوضع تصميم لصورة العشاء الأخير
ألبق بها من التصميم الذى وضعه الفنان .

وكان إدراك أريتينو للفن ، وتقديره إياه من بين الصفات الطيبة فى
خلقه وكان أقرب أصدقائه الذكور إليه وأوثقهم صلة به تيشيان
وسانسوفينو . وكثيراً ما اجتماعا فى ولائم تزدان فى العادة بصحبة النساء ،
وكن من الساقطات ؛ فإذا ما دار الحديث فيها حول الفن لم يكن أريتينو
تعوزه القدرة على مجازاة الفنان الكبير . وكان يتغنى فى رسائله بمديح تيشيان
لعدد كبير ممن يتوسم فيهم مناصرة الفن ؛ وقد استطاع أن يحصل له على
عدد من الأعمال ربما كان له هو نصيب فى إنجازها . وكان أريتينو هو الذى
أقنع الدوج ، والإميراطور ، والبابا ، بأن يجلسوا أمام تيشيان ليصورهم ،
كذلك صور تيشيان أريتينو مرتين . وادعى سانسوفينو أنه ينحت صورة
لأحد القديسين ، ووضع رأس الشهوانى العجوز فوق باب غرفة من غرف
المقدمات فى كنيسة القديس مرقس ، وربما كان ميكل أنجيلو قد صوره
هو على أنه القديس يارثوليمو فى صورة العشاء الأخير .

وكان أحسن وأسوأ من الصورة التى رسمت له ؛ وقد اجتمعت فيه
البرذائل كلها تقريباً ، وكان اللواط من التهم التى رُمى بها . وكان نفاقه مما جعل
صورة إپوكريتا (النفاق) تبدو صورة صادقة إذا قورنت بأخلاقه هو نفسه .
وكان يستطيع إذا شاء أن يجعل لفته ستاراً لحماة من الأقدار . وكان فى وسعه
أن يكون وحشياً مجرداً من صفات الرجولة ، يشهد بذلك ما أظهره
من الشmate فى سقوط كلمنت ؛ ولكنه أوتى من الكرم ما جعله يكتب
غما بعد : « إني لأستحي من أنى حين ذمته قد فعلت ذلك وهو فى أمدح
الخطوب » (١٧) . وكان جباناً لا يستحي من جبنه ؛ ولكنه أوتى من الشجاعة
ما يستطيع به أن يشنع على الأقوياء ، ويندد بالمساويى التى يعتز بها بعضهم

أعظم اعتزاز . وكان السخاء أبرز فضائله . فقد كان يعطى أصدقائه وهبـ
الفقراء جزءاً كبيراً مما يحصل عليه من المعاش ، والمكاسب ، والهدايا ، والرشا .
ونزل عن حقه في أرباح رسائله حتى يستطيع بيعها رخيصة ، وحتى
يذبح صيته ويعلو قدره . وكان يصل إلى حافة الإفلاس في كل عام قرابة
عيد الميلاد لكثرة ما يهبه من الأموال ، وفي ذلك يقول جيوفاني دلي باندى ..
نرى لحوثشاردينى : « لست أقل سخاء من أحد من الناس إلا إذا قورنت
ببيتر وإن أوقى المال الذى يسخو به » (١٨) . وكان يساعد أصدقائه على بيع
رسومهم ، وعلى أن يطلق سراحهم من السجون (كما فعل مع سانسوفينو) .
وقد كتب مرة يقول : « ما من أحد إلا يأتى إلى كأتى مخازن بيت مال
الملوك ، فإذا اعتقلت بنت فقيرة ، وفى بيتى بما تطلبه من نفقات ، وإذا
سجن إنسان ما تحملت أنا نفقة إخراجـه ، والجنود الذين ينقصهم العتاد ،
والغرباء الذين خانهم الحظ ، والفرسان الجائلون الذين لا يحصى لهم عد ،
يأتون إلى بيتى ليجهزوا بما يحتاجون » (١٩) . وإذا كان قد آوى فى بيته فى
وقت من الأوقات اثنتين وعشرين امرأة ، فإن هاته النسوة لم يكن كلهن
حريمه ، فمنهن من كن يربين أطفالاً غير شرعيين ، وقد وجدن لمن ما جأ
فى بيته ، ومما هو جدير بالملاحظة أن أسقفاً بعث بجداعين إلى إحدى هاته
النسوة . وكانت كثيرات من النساء اللاتي يستخدمنهن أو يعولن يحببنه
ويجللنـه ، وقد تسمت ست من عشيقاته المحبيات باسم أريتيني Aretine وكان
يفتخرن بهذه التسمية .

وكان له ما يمكن أن تتضمنه الروح الحيوانية القوية من فضيلة ، فكان ..
فى حياته الخاصة حيواناً طيب القلب لم يعرف قط للقانون الأخلاقى معنى .
وكان يظن - وكان لظنه هذا بعض ما يبرره فى ذلك الوقت - أنه ما من
رجل ذى مكانة يتقيد حقاً بالقانون الأخلاقى . وقد قال مرة لفاستارى إنه
لم ير قط عبداً لا تنم معارفها عن مسحة شهوانية (٢٠) . وكانت شهوانيته -

هو عارمة [أفطية] ، ولكنها لم تكن تبدو لأصدقائه أكثر من نشاط تلقائى للحياة ، وكان ماثت من الناس يجدون فيه ما يدعو إلى حبه ؛ وكان الأمراء والقساوسة يسرون من حديثه ؛ ولم يؤت حظاً من التعليم ، ولكن يبدو أنه كان يعرف كل إنسان وكل شيء . وكان إنساناً فى حبه لحيوئى دلى باندى نيرى ، ولكترينا والطفلين اللذين ولدتهما له ، ولپيرينا رتشيا Pierina Riccia الضعيفة ، المسولة ، الرشيقة ، الخائنة .

وقصة رتشيا هذه أنها جاءت إلى بيته وهى زوجة لأمينه فى الرابعة عشرة من عمرها . وكانت هى وزجها تعيشان معه ، وجعل نفسه أباً لها ، وسرعان ما شعر نحوها بحب أبوى عارم ملك عليه قلبه . فأصالح أخلاقه ولم يحتفظ فى داره من عشيقاته إلا بكترينا وإثنين أدريا Adria . ثم حدث فى الوقت الذى كان فيه يتطلع إلى أن يكون رجلاً محترماً ، أن اتهمه نبيل من أهل البندقية ، كان قد خدع زوجته ، أمام المحكمة بالتجديف واللواط . فأنكر التهمتين ، ولكنه لم يجرؤ على أن يعرض نفسه للفضائح والمحاكمة ، لأن إدانته كان معناها الحكم عايه بالسجن مدة طويلة أو بالإعدام . ففر من بيته واختفى عدة أسابيع عند بعض أصدقائه . وأقنع هؤلاء المحكمة برفض الاتهام ، وعاد أريتينو إلى بيته منتصراً ، وحيته الجماهير المصطفة على جانبي القناة الكبرى . ولكن قلبه تخطم حين توسم فى عبنى پيرينا أنها نظنه ملذناً . ثم هجر پيرينا زوجها . فلما جاءته تطلب إليه أن يواسيها اتخذها عشيقة له : وأصابها السل وظلت ثلاثة عشر شهراً بين الحياة والموت ، فعنى بتمريضها عناية الرجل الرحيم بها المشفق عليها ، القلق على حياتها ، حتى رد إليها الحياة . وبينما كان حبه وإخلاصه فى ذروتها هجرته واتخذت لها عشيقاً أصغر منه سناً ، وحاول أن يقنع نفسه أن ذلك خير له ، ولكن روحه تحطمت من ذلك اليوم ، وأسرت إليه الشيخوخة وغلبته على أمره . وترهل جسمه ، ولكنه ما فتئ يزدهى بقواه الجنسية ؛ فكان يردد على

المواخير ، وإن كان قد أخذ يزدداد تديناً ؛ وهو الذى كان فى صباه يسخر من فكرة البعث ويصفها بأنها « هراء » ، لا يحملها على محمل الجلد غير الغوغاء » (٢١) . وسافر فى عام ١٥٥٤ إلى رومة يرجو أن يتوج رأسه بقلنسوة الكرادلة الحمراء ، ولكن يوليوس الثالث لم يزد على أن ضمه إلى فرسان القديس بطرس . وفى ذلك العام طرد من بيته (Casa Aretino) لعجزه عن الوفاء بديونه ، واتخذ له مسكناً أقل كلفة بعيداً عن القناة الكبرى ، ثم مات بالسكتة بعد عامين ، وهو فى الرابعة والستين من العمر . وكان قد اعترف بجزء قليل من خطيئاته ، وتلقى القربان المقدس والمسحة الأخيرة ، ودفن فى كنيسة سان لوكا كأنه لم يكن أكبر داعية للفجور ، وأكثر الناس اقترافاً له . وقد ألف أحد الظرفاء أبياتاً يصح أن تكتب على شاهد قبره فقال :

هنا يرقد الشاعر التسكانى أريتينو

الذى لم يترك أحداً لم يتحدث عنه بالسوء إلا الله ،

وقال معتذراً عن تركه إياه « إبنى لم أعرفه قط » .

الفصل الثالث

تيشيان والملوك : ١٥٣٠ - ١٥٧٦

في عام ١٥٣٠ وفي مدينة بولونيا عرّف أريتينو شارل الخامس بتيشيان ، وكان الإمبراطور وقتئذ منهمكاً في إعادة تنظيم إيطاليا فجلس إلى تيشيان ليصوره وهو قلق نافذ الصبر ، ودهش الفنان حين لم يعطه إلا دوقاً واحداً (دولاراً ونصف دولار) . فما كان من فيديريجو دوق مانتوا إلا أن نفح الفنان من جيبه الخاص هبة سخية قدرها ١٥٠ دوقاً تكلمة لأجره . وما لبث اللدوق أن أثر في شارل فأقنعه برأيه هو في تيشيان . ثم اتقى الفنان والإمبراطور مرة أخرى في عام ١٥٣٢ ، وفي خلال الأعوام الستة عشر التالية رسم تيشيان طائفة مذهشة من الصور للإمبراطور : رسم شارل في عدته الحربية الكاملة (١٥٣٢) وقد ضاعت ؛ ورسمه في سترّة موشاة بالقصب ، وصدارة مطرزة ، وسروال قصير أبيض ، وجورب وحذاء ، وقلنسوة سوداء ، تعلوها ريشة بيضاء غير ملائمة لها (١٥٣٣ ؟) ؛ ورسمه مع الإمبراطورة إزبلا (١٥٣٨) ؛ ورسمه في حلة من الزرد براقة على جواد واثب ، في واقعة موهلبرج Muhlberg (١٥٤٨) - بلغت الذروة في جمال اللون والافتخار ؛ ورسمه في ثياب سود ، جالساً جلسة المفكر في إحدى الشرفات (١٥٤٨) . وما يذكر بالفضل للمصور والمليّك على السواء أن هذه الصور لا تحاول قط أن تجعل من موضوعها مثلاً أعلى إلا من حيث الملبس ؛ فهي تكشف عن ملامح شارل غير الجذابة ، وعن إهابه غير الحسن ، وعن روحه المكتئبة ، وعن بعض المقدرة على القسوة ؛ ومع هذا فإنها تظهر الإمبراطور رجلاً ثقیلاً الأعباء ، عظيم الساطان ، ذا عقل بارد جامد ، أخضع نصف أوربا لسلطانه . لكنه رغم ذلك يستطيع أن يكون رحماً ، وأن يكفر

بسطاء عن شحه الأول . من ذلك أنه بعث إلى تيشيان في عام ١٥٣٣ براءة يعينه بها أميراً في قصره ، وفارساً من طبقة المهماز الذهبي ، وأصبح تيشيان من ذلك الحين مصور البلاط الرسمي لأقوى ملك في العالم المسيحي .

وكان تيشيان في هذه الأثناء قد بدأ يرسل فرانشيسكو ماريا دلا روفيري دوق أربينو الذي تزوج اليونور جندسا ، أخت فلديجو وابنة إزبلا . ولذا كان فرانشيسكو وقتئذ الفائد الأعلى لجيوش البندقية ، فكثيراً ما كان هو والدوقة زوجته يأتيان إلى البندقية ؛ وفيها رسم تيشيان صورهما : رسم فرانشيسكو رجلاً تسعة أعشاره مغطاة بالزرد (لأن تيشيان كان يحب بريقه) ورسم الدوقة امرأة شاحبة اللون مستسلمة لقدرها بعد أن انتابتها الأمراض . ورسم لها تيشيان على الخشب صورة مجرلين ليس فيها ما يجعلها جذابة إلا اختلاف الضوء واللون اللذين أضفاها الفنان على شعرها الأصحم ؛ ثم رسم لهما صورة أخرى جميلة ؛ باللونين الأخضر والأسمر تعرف باسم La Bella « الجميلة » لا أكثر ، وتوجد الآن في معرض بتي . ورسم تيشيان للدوق جويدوبللو الثاني الذي خلف فيديريجو صورة من أعظم الصور العارية هي صورة فينوس أربينو (حوالى ١٥٣٨) . ويقال إن تيشيان كان له بعض اللمسات النهائية في صورة فينوس الناعمة لأربينو ؛ وها هو ذا يقلد هذه الآفة الفنية في كل شيء علماً ملاحظها ومصاحباتها . وفيها ترى الوجه يعوزه الهدوء البرئ الذي نشاهده في صورة جيورجوني ؛ ونشهد بدل المنظر الطبيعي الهادئ منظرًا داخلياً من ستار أخضر ، وجوخ بني ، وأريكة حمراء ، كما ترى فتاتين تبحثان عن رداءين يبلغان من العظمة درجة تليق بإهاب السيدة الذهبي .

وانتقل تيشيان من رسم الدوق والإمبراطور إلى رسم البابا . ولم يكن البابا پول الثالث يقل في العظمة عن الإمبراطور : كان رجلاً قوى الخلق ،

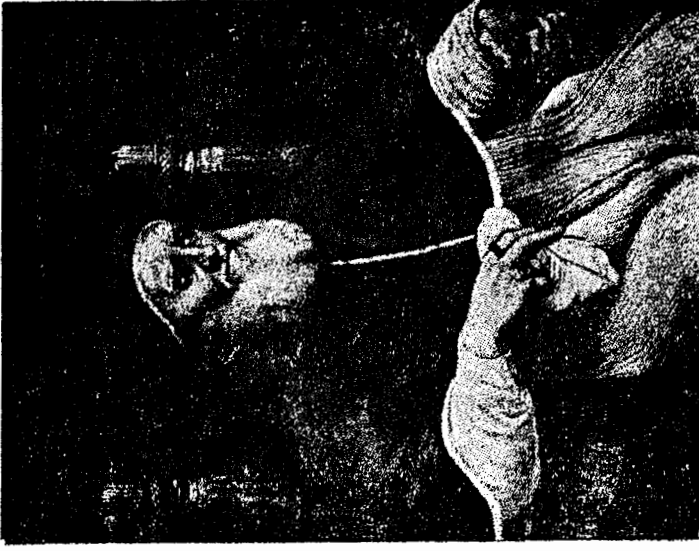
عظيم الدهاء ، ذا وجه طبع عليه جيلان من التاريخ . وقد وجد فيه تيشيان فرصة خيراً مما وجدته في ملامح الإمبراطور الخفية التي لا تفصح عن شيء من نفسيته . وواجه بولس في بولونيا عام ١٥٣٥ في شجاعة ما وجدته في صورة تيشيان له من واقعية . وكان البابا وقتئذ في السابعة والستين من عمره ، متعباً ولكن الأحداث لم تتل من قواه . وقد جلس أمام المصور في ثياب البابوية المفضضة ، وأحنى رأسه الطويل ، ولحيته العريضة ، فوق جسمه الذي كان من قبل قوياً ، وظهر خاتم السلطان واضحاً في يده الأرستقراطية . وهذه الصورة وصورة يوليوس الثاني تتنازعان تلك الميزة الكبرى وهي : أيهما أجل وأعمق صورة في النهضة الإيطالية . وفي عام ١٥٤٥ دعا البابا نيشيان وكان وقتئذ في الثامنة والستين من عمره إلى رومة . وهيئ للفنان مسكن في بلفدير ، وقدمت له المدينة جميع مظاهر التكريم ، وعمل فاسارى مرشداً له فأطلعته على عجائب رومة في عهدها القديم وفي عصر النهضة ، وحتى ميكل أنجيلو نفسه رحب به ، وأخفى عنه في ساعة من ساعات المجاملة رأياً له عبر عنه لأصدقائه وهو أن تيشيان كان يصبح مصوراً أعظم مما هو لو أنه تعلم الرسم^(٢٢) . وهناك صور تيشيان البابا بولس مرة أخرى فأظهره أكبر سناً ، وأكثر انحناء ، وأشد قلقاً وضجراً مما كان قبل ، بين اثنين من أحفاده الخانعين لم يلبثا أن خرجا على البابا بعد قليل . وهذه الصورة أيضاً من أعمق الصور التي أخرجتها يد تيشيان . وقد رسم كذلك لأحد هذين الحفيدين وهو أتاڤيو فارنيزي Ottavio Farnese صورة دانائي Danaë الشهوانية المحفوظة في متحف نابلي . وأقام تيشيان ثمانية أشهر في رومة سافر بعدها عائداً على مهل إلى البندقية عن طريق فلورنس (١٥٤٦) ، وهو يرجو أن يقضى فيها الأيام الباقية من حياته في راحة وسلام .

ولكنه لم يكد يتم العام حتى أرسل إليه الإمبراطور دعوة عاجلة يطلب إليه فيها عبور جبال الألب إلى أوجزبرج Augsburg . وأقام في هذه المدينة

تسعة أشهر رسم فيها للإمبراطور صررتين من الصور التي ذكرناها قبل ، وخلد فيهما عظماء الأسبان والتيوتون أبناء الجبال مثل المنتخب جوهان فريدريخ السكسوني Elector Johann Eriedrich والتقى تيشيان في زيارة أخرى لأوجزبرج (١٥٥٠) بالأمير الذي أصبح فيما بعد فلييب الثاني ملك أسبانيا ، ورسم له عدة صور ؛ منها واحدة في البرادو Prado تعد من آيات التصوير في عصر النهضة . وأجل من هذه على جمالها الصورة التي مثل فيها الإمبراطورة وإزبلا زوجة شارل البرتغالية . وكانت هذه الزوجة قد توفيت في عام ١٥٣٩ ، ولكن الإمبراطور أعطى تيشيان بعد أربع سنين من وفاتها صورة لها وهي نصف رسمها لها مصور مغمور ، وطلب إليه أن يحيلها تحفة فنية رائعة . وربما كانت الصورة النهائية غير شبيهة بالإمبراطورة ، ولكنها حتى إذا كانت إزبلا البرتغالية صورة خيالية فإنها يجب أن تكون في أسمى مرتبة من مراتب صور تيشيان : فهي ذات وجه رقيق حزين ، وثياب ملكية فخمة ، وفي يدها كتاب صلوات يسرى عنها ما تتوقعه من موت قريب ، وفي الصورة منظر طبيعي بعيد يضئف إليها منظرًا يجمع بين الخضرة ، والسمرة ، والزرقة .

وشعر تيشيان بعد عودته من أجزبرج (١٥٥٢) أنه قد نال كفايته من الأسفار . فقد كان وقتئذ في الخامسة والسبعين من عمره ، وما من شك في أنه كان يظن أنه لم يبق له من الحياة الشيء الكثير . ولعل عمله كان من شأنه أن يطيل الحياة ، فقد أنساه انهماكه في الصورة بعد الصورة أن يموت . وقد صور في سلسلة طويلة من الصور الدينية (١٥٢٢ — ١٥٧٠) فكرته الواضحة الرائعة عن العقيدة المسيحية وقصة الخلق من آدم إلى المسيح (*) . وقد خلد في صور قوية حياه الرسل والقديسين ، وأحسن هذه

(*) مثال ذلك : سقوط الإنسان (حوالي عام ١٥٧٠ موجودة في برادو Prado) — وهي تأليه صريح للجسم البشري ؛ والبشارة (حوالي ١٥٤٥ ، في اسكولو دي سان ركو Scuolo di San Rocco ، بالبنديقية) وأخرى مثلها في سان سلفاتورى San Salvatore ، =



(الصورة رقم ٤) البابا بولس الثالث
من عمل تيشيان بمتحف نابلي



(الصورة رقم ٥) صورة شارل الخامس
من عمل تيشيان . مجموعة آلي بينا كوثك بمونخ

= بالبندقية) ؛ والعذراء النجيرية (١٥١٠ في فيينا) ؛ الأم الحزينة *mater Dolorosa* (١٥٥٤ في برادو) ؛ والترشيح لإحدى الوظائف الدينية - وهى منظر كامل كبير (طوله ٢٦ قدماً وعرضه إحدى عشرة قدماً ونصف قدم) يحتوى على مناظر جبال ، ومبان فخمة ، وأشخاص فى ألوان زاهية ، وصورة مريم العذراء تمثلها فتاة صاعدة درجات سلم المعبود ، وفى أسفل السلم صورتان لامرأتين من أجل ما صور تيشيان ، وإلى جوار الحائط امرأة عجوز أكثر واقعية من الحياة نفسها ، تبيح البيض . وهذه الصورة من أجل صور تيشيان الدينية . وصورة مريم مرة أخرى فى صورة « العذراء والأرنب » (حوالى ١٥٣٠ وهى الآن فى متحف اللوفر) . وصورة التجل (حوالى ١٥٦٠ فى متحف سان سلفاتورى ، بالبندقية) وقد صورها وهو فى الثالثة والثمانين من عمره ، وهى فكرة قوية تمثل الحواريين فى شدة الدهشة ، وصورة متلثة وضاعة للمسيح نفسه . ويرى كل شكل فى صورة « العشاء الأخير » (١٥٦٤ فى الإسكوريال) متقناً غاية الإتقان عدا صورة المسيح - التى عجز ليوناردو أيضاً عن إتقانها فى مثل هذه الصورة ؛ ويرى المسيح فى صورة « المسيح المتوج بالشوك » (١٥٤٢ فى متحف اللوفر) وكأنه مجاهد فى حلبة لا قديس وتشبه صورته هنا الصورة التى رسمها له ميكيل أنجيلو . وصورة اتشى دومو *Ecce Homo* المعروضة فى معرض التصوير بفيينا تجعل هى الأخرى المسيح إلهاً ضخماً قوى العضلات يعرضه بيلاطى النبطى (وهو صورة مضحكة لأريتينو نفسه) على جمع حشد لا يتألف من غوغاء أورشليم بل من شخصيات ممتازة مثل شارل الخامس ، وبيليمان القانوفى ، ولأفينا *Lavinia* ابنة تيشيان ، وتيشيان نفسه . وفى أنكونا *Aucona* صورة للصلب (حوالى ١٥٦٠) يصغر فيها جسم المسيح المصلوب فيصبح ذا حجم يقبله القتل ؛ وفى الإسكوريال صورة أخرى (١٥٦٥) تصور الظلام فى الساعة الأخيرة تصويراً متقناً ، يلف التلال ، والجو ، والصلب ، والمشاهدين عند قدمه . وصور تيشيان دفن المسيح فى صورتين - إحداهما فى عام ١٥٢٩ (فى متحف اللوفر) والأخرى بعد ثلاثين عاماً (فى متحف برادو) - وقد رسم نفسه فى الصورة الثانية ، ولعله فعل ذلك أيضاً فى الصورة الأولى فصور نفسه فيها بشكل جوزف « الذى مل الرامة » . ورسم فى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق صورة « العشاء فى عموس » (متحف اللوفر) ، وهى صورة بديعة ولكنها مفرطة فى الرقة . وقد كان رمبرانت *Rembrandt* أكثر منه نجاحاً فى إظهار مبلغ الروح الذى أحس به الحاضرون فى ساعة التعارف الذى لم يكن أحد يحلم به . ورسم تيشيان لشارل الخامس (١٥٥٤) صورة سميت تارة « الثالث » وتارة أخرى « يوم الحساب » ، وتسمى فى متحف برادو تسبيحة المجد : وهى خليط موهوش من الـ « موس » ، والسيقان ، ثم يظهر فى سحابة الأقنوم الثانى من الثالث ومعه الروح القدس يتخذ شكل النور الأول . وتبدو هذه الصورة سخيفة بعض السخف ، ولكن الإمبراطور حملها معه حين لجأ إلى أحد الأديرة فى عام ١٥٥٧ ، وأمر أن توضع فوق المذبح العالى بعد وفاته .

الصور وأكثر ما تعافه النفس منها صورة استشهاد القديس لورنس (١٥٥٨)
وهي الصورة رقم ١ في متحف جزويتى Gesuiti ، بالبندقية) : وفيها
يرى القديس يشويه على السفود جنود وعبيد رومان يزيلون آلامه بكيه
بالحديد المحمى وجلده بالسياط . وهذه الصور الدينية لا تؤثر في النفس
كما تؤثر فيها أمثالها من صور الفنانين الفلورنسيين . نعم لأنها تسمو عليها من
حيث التشريح ، ولكنها لا تشعر الإنسان بالتقى ، فنظرة واحدة إلى أجسام
المسيح والحواريين الرياضية توحى بوضوح أن تيشيان لم يكن يهتم إلا بالفن ،
وأنه كان يفكر في الأجسام الرائعة ، لا في أجسام القديسين النساك . ذلك
أن المسيحية في الفترة الواقعة بين آل بلينى وتيشيان ، فقد فقدت سيطرتها
الروحية على فن البندقية ، وإن كانت لا تزال توحى إلى الفنانين
بالموضوعات (٢٣) .

وبقى العنصر الجنسي الذى هو من مستلزمات فن التصوير بالألوان
أو بالمواد اللينة ، قوياً عند تيشيان مدة تكاد تصل إلى قرن من الزمان .
وقد كرر صورة دانائى Danaë الفرنيزية في عدة أشكال مختلفة ، ورسم
عدة صور لقينوس طلبها إليه حماة الدين . وكان فيلب الثانى ملك أسبانيا
خير عميل له في ابتياع هذه « الأساطير » ؛ فقد زينت مساكن الملك في مدريد
يصور لدانائى ، وقينوس وأدونيس ، وبرسيوس وأندرمدا ، وجيسن وميديا
Jassa & Medea ، وأكتائون وديانا Actaeon & Diana ، واغتصاب
أوربا The Rape of Europa ، وتاركون ولكريشيا Tarquin & Lucretia ،
وجوهر وأنتيوى Jupiter & Antiope (وتعرف أيضاً بصورة فينوس
الباردوئية Venus of Pardo) . وكل هذه الصور عدا الأخيرة منها
قد صورها تيشيان بعد عام ١٥٥٣ ، وهو في سن السادسة والسبعين أو بعدها .
ومما يزيدنا تقديرأ للفنان العظيم أن نرى خياله خلاقاً مبدعاً في سن الثمانين وما
بعدها فيصور نساء عاريات لا تقل كمالاً عن الصور التى رسمها في عتفوان شبابه ،



(الصورة رقم ٦) ثيودوس أرييندو بتصرفي بفلورنس
من عمل تيشيان . انظر ص ٢٤٨

فصور ديانا بشعرها الأصحم المرفوع إلى أعلى من الطراز الذى كان فيرونيز يصوره ، فهي فينوس الشبراء تكاد تكون أجمل من صور أفروديتى اليونانية . ولعل صورة فينوس والمرأة (حوالى ١٥٥٥) وتوجد الآن فى واشنطن) وهى صورة لهذه السيدة نفسها بعد أن امتلأ جسمها ؛ وهى بعينها أيضاً فينوس التى تتعلق بأرنيس فى الصورة الموجودة فى برادو ، والتى تحاول أن تتودد إليه وتبعده عن كلابه . ولسنا نجد مثل هذه الشهوانية الصريحة واضحة فى جسم أنثى حتى صور كرجيوني . وتوجد صور أخرى لفينوس منتشرة فى معارض الصور فى أنحاء العالم ولكنها كانت فى يوم ماتحتل مكانها فى رأس تيشيان : منها صورة فينوس أنادىوميى Venus Anadyomene (حوالى ١٥٢٠) الموجودة فى بردجوتر هوس Bridgewater House ، وتمثلها الصورة واقفة فى الحمام ومغطاة من تحت الركبتين فى حياء ؛ وصورة فينوس وكوبير (حوالى ١٥٤٥) ، الموجودة فى معرض أفيزى - وهى ذات شقرة ألمانية ويدين ناصعتين ، وفينوس المكتسية فى صورة تعليم كوبير (حوالى ١٥٦٥) ، وفى معرض بورغير ، وفينوس والعازف على الأرغن (حوالى ١٥٤٥) المحفوظة فى برادو . والتى يظهر فيها العازف عاجزاً عن تركيز عقله على الموسيقى ؛ وفينوس والعازف على العود (١٥٦٠) المحفوظة فى المتحف الفنى بذيوبورك . على أننا يجب أن نقول إن النساء فى هذه الصور لسن إلا جزءاً مما فيها من سحر . وقتئذ ، ذلك أن تيشيان يهتم بالطبيعة اهتمامه بالنساء ، ويصور فى عدد من هذه اللوحات مناظر طبيعية رائعة لا تقل جمالاً فى بعض الأحيان عن الإلهة فينوس نفسها .

وأعظم من هذه الصور الأسطورية وأكثر عمقاً صور الآدميين ، فإذا كانت صور فينوس تكشف عن الإحساس بجمال الصورة ولا تفقد قط (١٧ - ج ٤ - مجلد ٥)

روعتها ، فإن صور الآدميين تكشف في تيشيان عن مقدرة على الإلمام بالأخلاق البشرية ونقلها بقوة فنية لا تضارعها في معارضها جميعاً صور غيره من الفنانين مجتمعة . وهل ثمة ما هو أرق من صورة الرجل ذي القفاز (حوالى ١٥٢٠) والمحفوطة في متحف اللوفر) وهى صورة لا يعرف شخصية من تمثله - وفيها ترى اليد اليسرى المقفزة ، والمحصل الأبيض الرقيق الملتف بالعنق يوأمان أحسن مواءمة الروح الحساسة التى تم عليها العينان . وصورة الكرمثال إبولينوده ميريئشى (١٥٣٣ فى متحف بتي) أقل من السابقة عمقاً ، ولكننا مع ذلك نرى فى الوجه ما يتسم به آل ميريئشى من دهاء ، وإحساس فى ، وحب للسلطان . وصورة فرانس الأول (حوالى ١٥٣٨ المحفوطة فى اللوفر) أذاعت شهرة ملامح ملك فرنسا ، فقد بعثت فى أنحاء العالم فى مائة ألف نسخة منقولة عنها القبة المراشاة ، ، والعينين المرتحتين ، والأنف الأقفى ، واللحية الجميلة ، والقميمص القرمزى يرتديه الرجل الذى خسر إيطاليا ولكنه كسب ليوناردو وتشلينى ومائة امرأة . وقد تطاب منصب تيشيان الرسمى منه أن يرسم صوراً لعدد من أدواج البندقية ، ولكن هذه كلها تقريباً قد ضاعت . وبقيت ثلاث صور عظيمة لأشخاص حقيقيين : صورة نفولومار نسلو Niccolo Marcello (الذى مات قبل أن يولد تيشيان) - وهى ذات وجه قبيح ورداء فخم - ؛ وصورة أنطونيو جرماني (التى تظهر فى صورة الإيمانه فى قصر الدوج) ، وصاحبها ذو وجه كوجه النساك وثرثب فخم ؛ وصورة أنرياب جرنى ، ويرتدى صاحبها ثوباً أقل من الثوبين السابقين فخامة ولكنه ذووجه قوى يتركز فيه كل ما فى البندقية من جلال وصدق عزيمة . وتختلف عن هذه فى طرازها صورة كماريس استرونسى الرقيقة التى أثنى عليها أريتينو ثناء جماً مستطاباً . وليست الصور التى تمثل أريتينو والمحفوطة فى معرض بتي بفلورنس وفى مجموعة فرك^١ Frick فى

نيويورك إلا صراخاً مجرداً من الرحمة صادراً من وغد فانت ساحر رسمها أعز أصدقائه . وأرق من هذه الصورة التي خلدها تيشيان ذكرى بمبو حب الشعراء الذي صار وقتئذ كرددنالا (١٥٤٢) . ومن أروع الصور التي يضمها معرض تيشيان صورة المشرع إبوليتور منالدى (١٥٤٢) ، والتي كانت تعرف في يوم من الأيام بأنها صورة دوق نورفوك وهي ذات شعر منفوش أعشب ، ووجهة عالية ، وشاربين ولحية قليلة الشعر ، وشفتين قويتين ، وأنف رقيق ، ونظرات نفاذة . ولنا لبدا في أن نفهم إيطاليا والبندقية أحسن فهم حين نرى أنهما أنجبنا أمثال أولئك الرجال ، وهم رجال ليست أجسامهم وأثوابهم الجميلة إلا الصورة الظاهرة للإرادة القوية المتأهبة للقاء كل تحد ؛ وللعقل النافذ المتيقظ لكل صور التجارب والفن .

وأكثر ما يثير اهتمامنا من رسوم تيشيان الصور التي رسمها لنفسه . وهي كثيرة متنوعة آخرها صورة له في التاسعة والثمانين من عمره . وإذا ما وقفنا أمام صورته الذاتية في معرض برادو رأينا وجهاً قد غضنه مر الأيام التي لا تحصى ولكنه زاده صفاء ، ورأينا فوق حجمته قلنسوة لا تغطي شعره الأبيض كله ، ولحية صهباء تكاد تغطي وجهه كله ، وأنفاً كبيراً ينفث القوة ، وعينين زرقاوين ، تغشاها كآبة قليلة ، تريان الموت أقرب إليه مما كان في الواقع ، ويداً تمسك بفرشاة — لأن شغفه العظيم بالفن لم تكن ناره قد خبت بعد . لقد كان هذا الرجل — لا الأدواج ، ولا الشيوخ ، ولا التجار — هو سيد البندقية نصف قرن من الزمان ، يهب الخلود للأشراف والملوك العابرين القصار الآجال ، ويسمو بالبلد الذي اتخذ موطناً له ويضعه إلى جانب فلورنس ورومة في تاريخ النهضة .

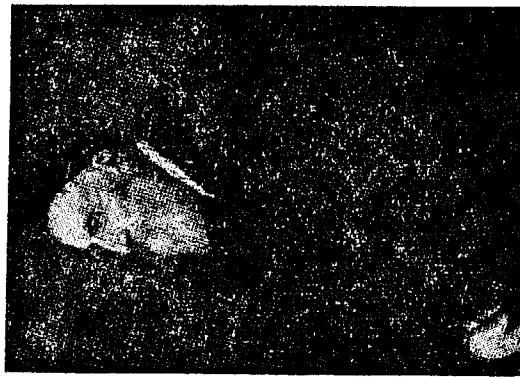
وكان في الوقت الذي نتحدث عنه رجلاً ثرياً ، وإن كانت ذكرى حاجته الأولى وعدم طمأنينته قد جعلته جماعاً للمال إلى آخر حياته . وقد أعفته مدينة البندقية من بعض الضرائب « تقديرأ لموهبته الممتازة النادرة » (٣٤)

وكان يرتدى لباساً ظريفاً رقيقاً ، ويسكن بيتاً مريحاً ذا حديقة واسعة تطل على مياه البندقية الضحلة . وإنا لتصوره ونحن نكتب هذه السطور يستضيف الشعراء والفنانين ، والأشراف أبناء الأسر العريقة ، والكرادلة ، والملوك . ولما مات في عام ١٥٣٠ عشيقته التي تزوجها في عام ١٥٢٥ بعد أن ولدت له ولدين قبل الزواج ؛ عاد إلى حريته التي كانت له وهو أعزب والتي استمتع بها ما يقرب من نصف قرن . وكانت ابنته لافينا مصدر بهجة وفخر له ؛ وقد رسم لها صوراً تدل على محبته لها حتى بعد أن كبرت وتزوجت . ولكنها هي أيضاً توفيت بعد سنين قلائل من زواجها . وأصبح أحد ولديه وهو بومبونيو Pomponio مهملاً فاسداً ، أحزن قلب الرجل في شيخوخته ورسم الثانى في بعض الصور التي ضاعت ، وأكبر الظن أنه اشترك في بعض الصور التي تعزى لأبيه في سنيه الأخيرة . وربما ساعده في ذلك الوقت أيضاً تلميذ آخر من تلاميذ تيشيان يدعى دومينيكو ثوتوكو بواوس Domenico Theotocopulos ، المسمى بالجرىكو El Greco (الإغريقى) ولكنها لانجد دليلاً على هذه المساعدة في صور أشخاص تيشيان المرحين ولا في مناظره الهيجية .

وظل حتى بعد أن تقدمت به السن كثيراً لا يكاد ينقطع عن الرسم يوماً واحداً من أيامه ، وكان يجد في الفن سعادته الباقية الوحيدة . ففيه كان يعرف أنه السيد الذى لا يبارى ، وأن العالم كله ينحى عليه ، وأن ياه لم تفقد قدرتها على الإبداع ، كما أن عينه لم تفقد حدة ونفاذها ؛ وحتى عقله ، وخياله ظلاً ، فيما يبدو ، يحتفظان بقوتهما إلى آخر أيامه . وقد شكوا بعض من اتباعوا صورته الأخيرة بأن هذه الصور أرسلت إليهم قبل أن تم . وحتى إذا كان هذا صحيحاً فإنها كانت معجزات بحق . وأكبر الظن أنه ما من فنان غيره — إذا استثنينا رفايل — كان له ما لتيشيان من يسر في أصول فنه ، وسيطرة على اللون والتركيب ، والضوء الساحر المبرقش . أما أخطاؤه



(الصورة رقم ٧) صورة رجل إنجليزي — من عمل تيشيان
في قصر بلتي بفلورنس . انظر ص ٢٥٤



(الصورة رقم ٨) صورة تيشيان — من عمله
في متحف برادو مدريد . انظر ص ٢٥٤

فهي الأخطاء الناتجة من السرعة في التنفيذ ، ومن الإهمال في الرسم أحياناً وقد كانت الكثرة الغالبة من رسومه التخطيطية الأولى تجريبية ؛ ولكنه كان إذا عفى بالتأني والتؤدة ، يستطيع أن يخرج عجائب مثل صورة ميرورو وأنجيلو التي رسمها بالقلم والمحفظة في متحف بنات Bonnat في بايون Bayonne . أما في الصور الملونة فقد كان لا بد له أن يعمل مسرعاً . ذلك بأن من يجلسون أمامه ليصورهم كانوا منهمكين في العمل لا يصبرون على الجلسات الطويلة أو الكثيرة التي لا بد منها لإنقان الصور ؛ ومن أجل هذا كان يرسم رسماً تخطيطياً سريعاً ، ثم يرسم منه الصورة الملونة ، ولعله كان يضع في رأس نموذج ووجهه أكثر مما فيه حقيقة . أما في الصور التي كان يرسمها لغير الأحياء فكان يبرز الملامح أكثر مما ينبغي ، وقلما كان يتعمق إلى الجوهر الروحي ، ولهذا فإنه لم يصل في عمق النظرة النافذة ولا في الشعور إلى مثل ما وصل إليه ليوناردو أو ميكيل أنجيلو ، ولكن ما أصبح وأسلم منه إذا قورن بفنهما ! فلنرى فيه انهماكاً في التفكير الداخلي يفسده ، كما لا نرى فيه ثورة عارمة على طبيعة العالم والإنسان . لقد قبل تيشيان العالم بالصورة التي رآه عليها ، وأخذ الرجال كما وجدهم ، والنساء كما وجدهن ، واستمتع بكل أولئك . وكان وثيقاً صريحاً ، يتأمل بابتهاج بناء جسم المرأة طوال سنيه التسعين ؛ وحتى عذاراه صحيفات الأجسام سعيدات صالحات لازواج ؛ وقلما كان لما في الحياة من فقر ، وحزن ، واضطراب مكان في فن تيشيان ، بل كل ما فيه جمال وبهجة إذا استثنينا قليلاً من صور الشهداء والمسيح المصلوب .

وتقدمت به السن وهو يواصل عمله في الرسم ، وعاش ربع قرن بعد أجل الناس المعتاد ؛ وسافر إلى بريشيا وهو في الثامنة والثمانين من عمره ، وقبل فيها مهمة شاقة هي نقش سقف قصر البلدية . ولما زاره فاسارى وهو في سن التسعين وجده يعمل وفرشاته في يده . ورسم وهو في الواحدة والتسعين

من عمره صورة لياقوبو دا استرادا Iacopo da Strada (توجد الآن في
فيينا) متلاثلة الألوان قوية تكشف عن خاق الرجل . ولكن يده أخذت في
آخر الأمر ترتعش ، وضعت عيناه ، وأحس أن قد آن أوان التقى والصلاح .
ورضى في عام ١٥٧٦ وهو في التاسعة والتسعين من العمر أن يرسم صورة
و دفن المسيح لتوضع في كنيسة فرارى Frari بدلاً من مدفن فيها ، كانت له
فيه صورتان من أعظم صوره . غير أنه لم يتم الصورة وتوفى وقد نقصت
سنه سنة واحدة عن قرن كامل . وانتشر في ذلك العام وباء الطاعون في
البندقية ، وكان يودى كل يوم بحياة مائتين من أهلها ، وهلك به ربع سكان
المدينة ، ومات تيشيان نفسه في أثناء الوباء ، وأكبر الظن أنه لم يمت به ،
بل مات بضعف الشيخوخة (٢٦ أغسطس سنة ١٥٧٦) . وألغت الحكومة
أوامرها التي تحرم الاجتماعات العامة لكي تكون له جنازة رسمية ، ودفن في
كنيسة سانتا ماريا جلوريوزا ده فرارى Santa Maria Gloriosa de' Frari
تدفناً أرغبه . وكان موته خاتمة حياة عظيمة وعصر عجيب .

الفصل الرابع

تنتورتو : ١٥١٨ - ١٥٩٤

لا ، لم يكن موته خاتمة كل شيء ، لأن قوة وروحاً تكادان تقلان
عظمة عن قوته وروحه قد عاشتا بعد موته ثمانية عشر عاماً ، ورسمتا
صورة الخبث .

كان ياقوبو روبستى Jacopo Robusti ابن صباغ ، وهذا هو أصل
هذا اللفظ المصغر الذى سماه به من قبيل السخرية الإيطاليون الهوائيون والذى
انحدر إلينا من خلال أحقاب التاريخ . والحق أنه أصبح صائفاً إذا فهمنا
من هذا اللفظ أنه كان ملونا عظيماً . غير أن اسم أسرته كان أليق به من
غيره من الأسماء لأن روحه القوية (*) وحدها هى التى أمكنت ياقوبو من
أن يخرج ظافراً من الكفاح الطويل الذى خاض غماره حتى اعترف
الناس بفضله .

ويكاد يكون أول ما عرفناه عنه إنه أرسل ليتدرب عند تيشيان فى
سن غيز معروفة ، ثم فصل من العمل بعد أيام قليلة . وقد كتب ريدلفى
Ridolfi بعد مائة عام من ذلك الوقت يصف الحادث كما ينظر إليه ابنا
تنتورتو قال :

لما عاد تيشيان إلى بيته ودخل المكان الذى يعمل فيه تلاميذه رأى
أوراقاً بارزة من أحد الأدراج ، وعليها بعض رسوم ، فسأل عن رسمها ،
فأجاب ياقوبو فى خوف إنها من صنع يده . وأدرك تيشيان من هذه

(*) robust الكاتب يشير إلى روبستى اسم أسرته . (المترجم)

البدعات أن هذا التلميذ سيصبح رجلاً عظيماً ، وأنه سيسبب له بعض المتاعب من ناحية الفن ، فلم يكذب يصعد الدرج إلى حجراته ويخلع مبدعته حتى أمر كبير تلاميذه جيرولامو دانتي ، وهو نافذ الصبر ، أن يمنع ياقوبو من دخول البيت من تلك اللحظة . وهكذا تحدث الغيرة ، مهما تكن ضئيلة ، أثرها في القلوب البشرية (٢٥) .

ونحن نميل إلى تكذيب هذه القصة ، ولكن أريتينو صديق تيشيان الحميم ، يشير إلى هذه الحادثة في رسالة له كتبها عام ١٥٤٩ . فلما فصل ياقوبو من عمله فحقيقة مؤكدة ، أما أسباب هذا الفصل فموضع للأخذ والرد ؛ ذلك أن من أصعب الأمور أن نعتقد أن تيشيان ، الذي كان وقتئذ مصوراً للملوك حين لم يكن ياقوبو إلا صبياً في الثانية عشرة من عمره ، يعار من هذا المنافس المفترض ، أو أنه يستطيع أن يرى مستقبل تنورتو من اطلاعه على رسوم طالب قبل توا في مدرسته . ولعل الرسوم قد أغضبت تيشيان لما بدا فيها من إهمال لا بما كانت عليه من الجودة والإتقان ، ولقد بقي الإهمال في الرسم من عيوب تنورتو كثيراً من السنين . وظل ياقوبو نفسه طوال حياته يعجب بتيشيان أشد الإعجاب ، ويعتز بصورة أهداها إليه تيشيان ، ويضع على جدار مرسمه ما يذكره على الدوام بما كان يطمح إلى أن يبلغه برسومه مبلغ « ميكل أنجيلو في التصميم وتيشيان في التلوين » (٢٦) .

ويقول تيشيان ، وتقول الرواية المتواترة : « إن ياقوبو لم يتلق تعليماً منظماً بعد أن افترق عن تيشيان ، ولكنه علم نفسه بمداومته على التجربة والتقليد . وكان يشرح الأجسام ليتعلم التشريح ، ولا يكاد يفتر عن ملاحظة كل ما يعترض سبيله في تجاربه بحرص يبلغ حد الشراهة والنهم ، ويصمم على ألا تفوته منه كبيرة أو صغيرة في هذا الرسم من رسومه أو ذاك . وكان يصنع نماذج من الشمع ، أو الخشب ، أو الورق المقوى ، ويلبسها

الأثواب ، ويرسمها من كل زاوية كى يجد طريقة يستطيع بها أن يصور أبعاداً ثلاثة في بعدين اثنين : وكانت تصنع له صور منقولة عن اللوحات الرخامية القديمة في فلورنس ورومة وعن تماثيل ميكلا أنجيلو وترسل له حيث يقيم ؛ وكان يضع هذه النسخ في مرسومه ، وينقل عنها صوراً ملونة ذات ظلال وأضواء مختلفة . وقد افتن بما شاهد من الاختلاف الناشئ في مظهر الأشياء نتيجة لتغير كمية الضوء ، وطبيعته ، وطريقة سقوطه ؛ ورسم مائة صورة وصورة في ضوء المصابيح أو الشموع ؛ وأسرف في حبه للخلفيات القائمة ، والظلال الثقيلة ، وأصبح إخصائياً خبيراً في تمثيل أثر الضوء والظل على اليدين ، والوجه ، والثياب ، والمباني ، والمناظر الطبيعية ، والسحب ، ولم يترك وسيلة يستعين بها في كفاحه للتفوق والامتياز إلا سلكها .

غير أنه مع ذلك كان متسرعاً في عمله نافذ الصبر ، ينقصه الصقل - ولعل هذا كان جزاء له على أنه علم نفسه بنفسه - وتلك عيوب أخرت اعتراف الجمهور بفننه . وقد ظل كثيراً من السنين ، بعد أن بلغ دور الرجولة ، يتحين الفرص ويسعى إليها . وكان يرسم الأثاث ، وينشئ المظلمات في واجهات البيوت ، ويرجو البنائين أن يحصوا له على أعمال بأجور قليلة ، ويحاول أن يبيع صوره بعرضها في ميدان القديس مرقس (٢٧) . لكن الناس كلهم كانوا يريدون تيشيان ؛ وكان تيشيان وأريتينو يعملان على ألا يعامل أى إنسان ذى مال يمكن الحصول عليه منه غير تيشيان ، فإذا كان هذا الفنان مشغولاً فلن يلجأ واحد منهم إلى غير بنيفادسيو فيرونيرى Bonifazio Veronese . وما من شك في أن ياقوبو قد ساءت له طريقة أريتينو في التصوير ؛ ولكن حدث أنه حين جاء الجلاد الكبير إلى ياقوبو ليصوره ، أخرج الفنان مسدساً رهيباً من جيبه ، وتظاهر بأنه يصوبه على كل جزء من جسم أريتينو الضخم ، وسرأ بما سرور مما شاهده من مظاهر الخوف على

وجه ذلك المبتز لأموال الناس (٢٨) . ولم يسع أريتينو بعد هذه الحادثة إلا أن يراعى الأدب فيما يكتبه عن تلتورتو . ولما أن رأى ياقوبو الجدران الواسعة الطويلة التي يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً في مرئمة كنيسة مادنا دل أورتو Madonna dell Orio ، عرض أن يغطيها كلها بالرسوم الجصية نظير أجر إجمالي قدره مائة دوقة (١٢٥٠ ؟ دولاراً) ، فما كان من المصورين البنادقة إلا أن شكوا من أنه « قد أضر بالحرفة » إذ قدر الفن هذا التقدير الضئيل : ولكن تلتورتو صمم على أن يقوم بالعمل .

وقد بلغ الثلاثين من العمر قبل أن يحرز أول نصر له . ذلك أن مدرسة القديس مرقص Scuola di San Marco أجرت مباراة لرسم قديسها ينقذ عبداً من العذاب والقتل . وقد وردت هذه القصة في كتاب **القصة الزهية** لياقوبو ده فوراجيني Liacopo de Voragine : وخلاصتها أن خادماً من بروفسال قد نذر أن يحج إلى قبر القديس مرقص في الإسكندرية ، ولكن سيده لم يأذن له بالسفر ، غير أنه سافر على الرغم من هذا التحريم ، فلما عاد أمر سيده يشمل عينيه ، ولكن أطراف الحديد انثنت فلم تنفذ فيها : فما كان من سيده إلا أن أمر بتعطيم أطرافه ، ولكن القضبان الحديدية لم تحدث أى أثر فيها . وأدرك السيد ما للقديس مرقص من أثر في هذا فعفا عن العبد . وروت صورة تلتورتو هذه القصة في ألوان فخمة ، وواقعية مقنعة ، وقوة مسرحية عظيمة : صورت الرسول المبشر ممسكاً بالإنجيل ، هابطاً من السماء لينقذ الرجل المتعبد ، الذي يوشك أن يخر صريعاً بضربة يوجهها إليه مغربي ، ومن حوله نحو عشرين من مختلف الأشخاص ينظرون إليه وقد بلغ اهتمامهم غايته . وانتبه ياقوبو كل ما أتاحته له القصة من فرص : فصور رجالاً أقوياء ونساء ظريقات رشقات ، وحرص على دراسة أثر الضوء على المخملات والحريير والعمائم الشرقية ، وعمل على غمر المنظر بالألوان التي تعلمها من جيورجيو

وتيشيان . وساور مديرو المدرسة بعض الخوف حين شاهدوا ما فى التصوير من واقعية مجسمة ، وأخذوا يتناقشون فى هل يليق بهم أن يعلقوا الصورة على جدرانهم ، فما كان من تنورتو إلا أن اختطف الصورة من أيديهم فى عنف وكبرياء ، وأخذوها إلى منزله . فجاءوه وتوسلوا إليه أن يعيدها لهم ، فتركهم قليلا من الوقت تأديباً لهم ، ثم أعادها إليهم ، وبعث إليه أربتينو كلمة ثناء ، ومن ذلك الوقت تفتحت الأبواب أمام مواهبه .

وانهالت عليه الطلبات مجتمعة ، فطلبت إليه نحو ست كنائس ودعاه نحو اثني عشر من الأعيان ، وستة من الأمراء ، ومثل هذا العدد من الدول للقيام بأعمال فنية . وقص لهؤلاء مرة أخرى فى مائة من الصور الملحمة المسيحية الكبرى ملحمة خلق العالم ، والدين ، وفلسفة الموت والبعث والدار الآخرة ، من بدء الخليقة إلى يوم الحساب . . ولم يكن تنورتو مسيحياً متديناً ، — ولما كان من الفنانين فى هذا القرن السادس عشر فى البندقية من هو متدين — فقد أثرت فى نفوسهم وعقيدتهم المبادئ المنتشرة فى بلاد الشرق والإسلام . وكان دينه هو الفن ، يقرب له القرابين بالليل والنهار ، ولكن أى موضوعات يستطيع المصور أن يتخيلها أرق وأظرف من قصص آدم وحواء ، وقصة مريم وطفلها ، مأساة الصلب ، وتعذيب القديسين وأعمالهم العجيبة ، ثم تلك الغاية التاريخية الرهيبة وهى جمع الأحياء والأموات فى صعيد واحد أمام قضاء المسيح؟ (*) وخير ما فى هذه المجموعة كلها هى صورة

(*) وهى ذى طائفة مختارة من صور تنورتو الدينية ليس فيها صور اسكولا دى سان ركو (وجميع الكنائس المذكورة هنا فى مدينة البندقية) :
 ١ - مناظر من العهد القديم : خلق الحيوانات (البندقية) ؛ آدم وحواء (البندقية) - وتمثل منظرأ طبيعياً يسقط عليه الضوء بطريقة فذة ؛ قابيل وهاويل (البندقية) ؛ تصحية إبراهيم (أفيدسى) ؛ يوسف وزوجة فوطيفار (برادو) ؛ العثور على موسى (الاسكوريال) ؛ العجل الذهبى (مادنا دل أورتنو) ؛ جمع المن (سان چيورچيو مجيورى) - وهى مزيج بديع من المناظر الطبيعية ، والرجال ، والنساء ، والحيوان .

التصويب (حوالى عام ١٥٥٦) ، التى رسمها ننتورتو لكنيسة مادنا دل أورतो : وفيها يرى هيكل بيت المقدس وقد صور فى بهائه القديم ؛ ومريم الضئيلة الجسم الواجفة يرحب بها القس الأكبر وهو مبسوط الذراعين ملح ؛

ب - صور العذراء : مولد العذراء (مانتوا) وهى لا تكاد تقل رشاقة عن صورة كريجيو ؛ البشارة (برلين) ؛ الزيارة (بولونيا) ؛ العذراء والطفل (كليفلند) ؛ العذراء والقديسون (فيرارا) - وهى صورة رائعة غير أن القديسين يبدو كأنهم مصارعون تجاوزوا سن الثمانين وقد صوروا على طريقة ميكيل أنجيلو ؛ صعود العذراء (١ - جزويتى) ، وتبدو ضعيفة شاحبة اللون إذا قورنت بالصورة التى رسمها تيشيان الموجودة فى فيرارا التى تعد آية من آيات الفن .

ج - من حياة المسيح : الختان (سانتا ماريا دل كارمينى ؛ التعميد (سان سلفيستر ، وتوجد نسخة منها فى برادو) ؛ يسوع فى بيت مرثا (ميونخ) - وهى ذات جمال منقطع النظير ؛ الزواج فى قانا الجليل (مادنا دل سالوتى) ؛ المسيح فى بحر الجليل (واشنطن) - وهى تكاد تكون دراسة انطباعية فى اللونين الأزرق والأخضر ؛ المرأة يقبض عليها وهى تزنى (رومة ، المعرض الأهلى Galleri Nazionale) - وتصور زانية جميلة فى صورة حرفة فى مسرحيتها ؛ المسيح يغسل أقدام الرسل (الإسكوريال) ؛ بعث لعازر (لينج) ؛ معجزة الخبز والسمك (نيويورك) ؛ المسيح والمرأة السامرية (أفيسى) ؛ العشاء الأخير (سان تروفازو ، والأخرى فى سان استيفانو ، وثالثة فى سان جيورجيو مجيورى ، ورسم يدعى فى معرض أفيسى) ؛ للصاب (سان كاسيانو) ، الخلع (البندقية ، وبارما ، وميلان ، ومعرض بتي) ؛ دفن المسيح (سان جيورجيو مجيورى) ؛ الهبوط إلى الأعراف (سان كاسيانو) ؛ البعث (مجموعة فارر) ؛ يوم الحساب (مادنا دل أورقو) - وهى محاولة مخففة لزيادة ما أحدثه ميكيل أنجيلو من اضطراب وسخافات فى مظلمات معبد سستينى .

د - القديسون : القديس أوغسطين يثنى ضحايا الطاعون (نيويورك) ؛ معجزة القديس أجنيس (مادنا دل أورقو) ؛ القديس جورج والتنين (لندن) وهى دراسة فى الضوء والظل كأنها حرب فى ظلام الليل ؛ زواج القديسة كترين (قصر اللوق) ؛ استشهاد القديسة كترين (البندقية) - وفى كلتا صورتين نرى امرأة جميلة لا يريد قتلها إلا ذو جنة ؛ فقل جسم القديس مرقس (البندقية) ، والعثور على جسم القديس مرقس (ميلان) ، والثانية آية من آيات فن المنظور تمثل نيفاً مظلماً فى كنيسة ، ورجلا من الأشراف راكماً فى وجل وخشوع قدسى ، وصبيها وسيما فاتنا يسك بركبته صبي^١ يتظاهر بالهف ، وصورة رائعة للقديس مرقس يقف منتصباً فوق جثته .



(الصورة رقم ٩) التخصيب في كنيسة سانتا ماريا دل أورتو بالبندقية
من عمل تانتوريو . انظر ص ٢٦٢

وامرأة فخمة الصورة لا تقل في ذلك عن فخامة صور فيدياس تعرف ابنتها
بحريم ؛ وإلى جانبها صور نساء غيرها ومعهن أطفالهن واضمحية واقعية ،
ومتنبئ يلقى نبوءات غامضة ، ومتسولون ومقعدون نصف عرايا راقدون على
درج المعبد . تلك صورة تضارع أحسن ما صوره تيشيان وهى من أعظم
ما صور في عهد النهضة .

وتأكد نجاح تنتورتو حين رشحته الاسكولا دي سانت ركو Scuola
di San Rocco أو إخوة القديس رك لزخرفة قاعات اجتماعها (الأبرجو
Albergo) . وتفصيل ذلك أن المشرفين على هذه الطائفة أرادوا أن يختاروا
مصوراً لنقش سطح الجدران الواسع ، فدعوا الفنانين لتقديم رسوم لصورة
تلتزم مع سقف بيضى الشكل تظهر القديس روك في مجده ، فتقدم باولو
فيرونيز ، وأندريا شيافوني Andrea Shiovone وغيرهما برسوم تخطيطية ،
أما تنتورتو فرسم صورة نهائية زاهية الألوان حية بالحركات والأعمال ،
وعمل سراً على أن يلصق قماش الصورة في مكانها المعين وأن يغطى . ولما أقبل
اليوم الذى تقدم فيه الفنانون الآخرون برسومهم ، أمر بكشف هذه
الصورة النهائية ، وروع القضاة والمتنافسون . وقد برر هو هذا التدبير
غير السليم بقوله إنه يستطيع العمل بهذه الطريقة السريعة الحاسمة بدلا
من طريقة الرسوم الأولية . ولكن الفنانين الآخرين نددوا بها ،
وانسحب تنتورتو من المباراة ، ولكنه ترك الرسوم هدية إلى الجماعة ؛
فقبلته آخر الأمر ، وعينت تنتورتو عضواً بها ، وخصصت له مرتباً قدره
مائة دوقة في العام مدى الحياة ، وطلبت إليه في نظير ذلك أن يرسم لها ثلاث
صور كل سنة .

وبذلك استطاع أن يضع على حجرات قاعات الاجتماع ستة وخمسين منظراً
في السنين الثمان عشرة التالية (١٥٦٤ - ١٥٨١) . وكانت الحجرات التى
يعمل فيها قليلة الضوء ، واضطر تنتورتو أن يشتغل فيها يشبه الظلام ، وكان

يعمل بسرعة ، ويضع الألوان في غير إتقان كأنها تشاهد من تحتها بعشرين قدماً ، وكانت هذه الصور أشهر ما صوره رجل بمفرده في تاريخ البندقية كله ، وجاء الفنانون فيما بعد ليدرسوها كما ذهب الطلاب إلى فلورنس ليدرسوا رسوم ماساتشيو . وأثر المطر والرطوبة في الصور على مر السنين . ولكنها لا تزال تبعث في النفس الروعة بحجمها وقوتها ؛ وقد كتب عنها رسكن قبل وقتنا هذا بمائة عام يقول : « وقد أنزلت هذه الصور منذ عشرين أو ثلاثين عاماً لإصلاحها وإعادةها إلى ما كانت عليه ، ولكن الرجل الذى عهد هذا العمل إليه مات لحسن الحظ ولم تتلف إلا واحدة منها » (٢٩) .

وقد روى تنتورتو في هذا المتحف المدهش القصة المسيحية مرة أخرى ؛ ولكنها لم تكن قد رسمت من قبل بهذه الواقعية الجريئة التى انتزعت الحوادث من عالم العواطف المثالية ووضعتها في هذه البيئة الطبيعية ، ولهذا بدا أن هذه القصة قد استحال تاريخاً من أعظم التواريخ صدقاً وأبعدها عن الشك . وكان الشرر الذى أوقد النار في قلب تنتورتو هو قدرته على النظر ، وأن يلاحظ كل دقائق المنظر ، وأن يحس بأن هذه الدقائق تهب الحياة ، وأن يبادر بوضعها على الجدار بضربة أو ضربتين من الفرشاة — كالماء الذى يراه الناظر من خلال جنود الغار في صورة مجلدين . وخصص تنتورتو الطابق الأسفل من الحجرات لصور مريم العذراء : فصور فيها دهشتها الذليلة من البشارة ، ورشاقاتها المتواضعة عند الزيارة ، ورهبته الساذجة عندما قدمت لها الهداية الشرقية في عبادة الجوس ، وسيرها البطيء على ظهر حمار مجتازة منظرًا هادئاً في صور الهروب إلى مصر فراراً من « مذبحه البريثين » ، وهى أقوى صورة في هذه المجموعة . وروى تنتورتو على جدران الحجرة العليا الكبرى حوادث في تاريخ المسيح نفسه : تعميده بيد يوحنا ، ومحاولة الشيطان إغوائه ، والمعجزات والعشاء الأخير . وكانت هذه الصورة الأخيرة واقعية بعيدة كل البعد عن العرف المألوف إلى حد جعل رسكن يصفها بأنها « أسوأ

ما عرف عن تنورتو «(٣٠) . وقد رسم المسيح في الطرف البعيد ، والقديسين منهمكين في الأكل أو الحديث ، والخدم راخين بالطعام وغادين ، وكلباً يسأل متى يتناول هو أيضاً الطعام . ورسم تنورتو في حجرة داخلية في الطابق

الأعلى صورتين من أعظم صوره . إحداهما صورة المسيح أمام بيلاطس ويظهر فيها شخص لا يمكن أن ينساه الإنسان قط يرتدى ثوباً أبيض كأنه كفن ، ويقف متعباً ، مستسلماً ، ولكنه يقف مهيباً كريماً أمام بيلاطس الذي يحاول التكفير عن خطيئة الخضوع إلى تعطش الغوغاء للدماء . وآخر ما نذكره من هذه الصور صورة يرى تنورتو أنها خير صوره على

الإطلاق — صورة الصلب ، التي تتحدى صورة يوم الحساب ليكل أنجيلو وتسمو عليها في قوتها واتساع مدى تكوينها ، وتنفيذها الفني ، فها هي ذى أربعون قدماً من الجدار تغطيها ثمانون صورة لأشخاص ، وخيول ، وجبال ، وأبراج ، وأشجار ، روعيت فيها الأمانة في رسم التفاصيل ، مراعاة لا يكاد يتصورها العقل ، ويرى فيها المسيح يعضه الألم الجثائي والنفساني ، ولص من اللصوص يليق فوق صليب مطروح على الأرض ، وهو يقاوم إلى آخر لحظة ؛ ولص آخر جبار في قوته وتهوره ، ثم يرفعه للقتل جنود غلاظ شداد يحول غضبهم من ثقله دون أن تأخذهم به رافة ، وترى النساء وقد انكمشن جماعات من شدة الرعب ، والنظارة يتزاحون في حرصهم على أن يروا الرجال يعذبون ويموتون . ويرى من بعيد جو مكفهر لا يستجيب إلى المأساة البشرية ، ولكن فيه رعداً وبرقاً ومطرلاً تتبعاً بها . وفي هذه الصورة بلغ تنورتو الذروة وضارع أحسن المصورين .

وأضاف تنورتو إلى كل هذه الآيات الفنية التي رسمها في قاعات الاجتماع ثمانى صور أخرى رسمها لكنيسة هذه الجماعة نفسها معظمها خاص بالقديس روك نفسه . وأظهر ما في هذه المجموعة كلها صورة بركة بيت همداء وذلك لما تبعته في النفس من رهبة إن لم يكن لشيء سواها .

ويستمد الفنان موضوعه من الأصحاح الخامس من الإنجيل الرابع : « في هند كان مضطجماً جمهور كثير من مرضى ، وعمى ، وعسم (*) ، ينتظرون أن تتاح لهم الفرصة للاستحمام في بركة ذات الماء الشافي . وتنتورتو لا ينظر إلى معجزة شفاء المرضى ، بل يرى الجواهر المصابة بمختلف الأمراض ، ويصورها كما يراها وهو ساكن هادئ بأجسامها المشوهة وأسمالها البالية ، وأقذارها ، وآمالها ، وآسها . إن هذا المنظر كأنه أخذ من منظر **الجميع** لدانتي أو **الزئقال** لزولا .

وهذا الرجل الذي يستطيع أن يحدث بفته هذه السورة العارمة ضد الشرور التي يتعرض لها الجسم الإنساني بفطرته ؛ هذا للرجل نفسه قد استجاب بحماسة بالغة لمباهج الجسم الإنساني في صحته وجماله ، وكاد يضارع تيشيان وكريچيو في رسم العرايا . ونحن وإن كان يحق لنا أن نتوقع من روحه القلقة وفرشاته السريعة أن تعجزا عن نقل الإحساس القديم بالجمال أثناء راحته ؛ لنجد مع ذلك في أماكن كثيرة في أوروبا أشكالا أنيقة أمثال صورة **دانلي** المحفوظة في متحف ليون بفرنسا ، والمزدانة بالجواهر ، وصورة **ليدا والجميع** الموجودة في معرض أفيدسي ؛ و**فينوس وفلطا** المحفوظة في متحف ميونخ وصورة **إلفاد أرسينوئي**، المحفوظة في متحف درسدن ، و**عطارد وربات الجمال وبافوس وأدرباني** المحفوظتين في قصر اللوج بالبندقية ويظن سيمندس أن هذه الصورة الأخيرة هي أجل صورة بالزيت موجودة في هذه الأيام ، إن لم تكن أعظم الصور كلها « (٣١) . على أن أكمل منها صورة أصل **المعجزة** الموجودة في معرض لندن الفني التي تعزو هذا الأصل إلى ضمط

(*) هذا هو نص الآية ، وقد ورد في المحيط المسمّى بحركة ، يبس في مفصل الرسن
تعود منه اليد والقدم . (المترجم)

كيوبد على ثديي Juno - وهو تفسير لا يقل في صدقه عن أى تفسير آخر تقدم به العلماء . وفي متاحف اللوفر ، والبرادو وثينا ، ومعرض واشنطن الغنى أربع صور مختلفة من رسم تنتورتو تمثل سوزنا والكبراء . وفي معرض برادو حجرة ممتلئة بصور تمثل جمال النساء « منها صورة فتاة بترقية تزيج رداءها لتكشف عن صدرها ، وحتى في صورة معركة الترك والمسيحيين نرى ثنتين ناهدين يستلفتان الأنظار بين بريق الأسنة والرماح : وفي متحف فيرونا صورة تمثل جوقة مكونة من تسع نساء موسيقيات ثلاث منهن عاريات إلى أوساطهن - كأن الآذان تحسن السمع إذا كان في وسع العيون أن ترى هذا القدر الكبير من الجمال . وليست هذه الصور أحسن ما أبدعه تنتورتو ، بل إن قدرته لتظهر أعظم ما تظهر في تمثيل الرجولة في الحياة ، والبطولة في الموت على أوسع نطاق ؛ ولكن هذه الصور تدل هي الأخرى على أنه يستطيع كما يستطيع جيورجىونى وتيشيان أن يرسم الانحناءات الخطرة بيد ثابتة ؛ ولسنا نرى فيما رسمه من صور للنساء العاريات شيئاً من فساد الخلق ، بل نجد فيها المتعة الحسية السليمة . فهو لاء الآلهة وهذه الإلهات يرون العرى من طبيعة الأشياء ، وهم لا يشعرون به ؛ ويرون أن من صفاتهم الإلهية أن يحيا الشمس « وكل أجسامهم وجوه » ، يحيونها بأجسامهم كلها غير مضيق عليها بالأزرار ، والأشرطة والأربطة .

وظل تنتورتو ممتعاً عن الزواج ما يقرب من أربعين عاماً تزوج بعدها فوستينا ده فيسكوفى Faustina de Vescovi ، ولكنها وجدته مضطرباً مسكيناً إلى حد لم يسعها معه إلا أن تجد السعادة في أن تكون له أمّاً . وولدت له ثمانية أبناء أصبح ثلاثة منهم مصورين لا بأس بأعمالهم . وكانوا يسكنون بيتاً متواضعاً غير بعيد من كنيسة مادنا دل أورتو (عذراء أورتو) ، وقلما كان الفنان الكبير يبتعد عما حول البيت إلا إذا ذهب ليصور في كنيسة بالبندقية ، أو في القصر ، أو في مقر الإخوان . ولهذا فإننا لانستطيع تقدير

قوته وتنوع صوره إلا في نطاق المدينة التي ولد فيها : وقد عرض عليه دوق مانتوا منصباً في بلاطه ، ولكنه رفضه ؛ ذلك أنه لم يكن سعيداً إلا في رسمه ، حيث لم يكن ينقطع عن العمل لا ليلاً ولا نهاراً ، وكان زوجاً وأباً طيباً ، ولكنه لم يكن يعنى أقل عناية بالمتع الاجتماعية . وكاد يبلغ في عزله ، واستقلاله ، ونكده ، واكتنابه ، وتوتر أعصابه ، وعنفه ، وكبريائه ، كاد يبلغ في هذا كله مبلغ ميكيل أنجيلو الذي ظل طول حياته يعبد ، ويحاول أن يتفوق عليه . ولستأ نجد عنده السلام لا في روحه ولا في أعماله ، وكان ميكيل أنجيلو يعظم قوة الجسم ، والعقل ، والروح ، أكثر مما يعظم الجمال الظاهر ، ولهذا نرى صور العذراء التي رسمها منفردة كصورة عذراء دوني Doni . وقد ترك لنا صورة له (نوجد الآن في متحف اللوفر) ، رسمها وهو في الثانية والعشرين من عمره . ولا نكاد نرى فيها فرقاً بين رأسه ووجهه وبين وجه أنجيلو ووجهه نفسه . — فالوجه قوى مكتئب ، عميق مندهش حائر ، ترتسم عليه علامات مائة عاصفة .

والصور التي رسمها لنفسه خير صوره جميعاً ، ولكنه رسم صوراً أخرى تشهد بعميق نظراته النافذة ووحدته فنه . ذلك أنه في هذه الناحية أيضاً ظل واقعياً ، لا يجرؤ امرؤ على أن يجلس أمامه ليصوره إذا كان يرجو أن ينجح الخلف . وكم من عظيم من أهل البندقية قد انتقل إلينا من خلال القرون بفضل فرشاة تينتورتو : أدواج ، وأعضاء في مجلس الشيوخ ، ووكلاء دعاو ، وثلاثة من مديري دار سك النقود ، وستة من أصحاب بيت المال ؛ وخير من هؤلاء كلهم في هذه المجموعة صورة ياقوينو سوراندسو — وهي من أعظم الصور التي أخرجها فن البندقية . ومن هذه الصور أيضاً صورة سان سوفينو المهندس المعمارى وكرنارو Cornaro المعمر . ولتنتورتو صور لا يفوقها إلا صورة السوراندسو Soranzo ولا يعرف من تمثله وهي صورة الرجل لا بس الزرد

(في برادو) وصورة الشيخ (في بريستشسا) و صورة رجل (في الخلوة ، بليينجراد) ؛ وصورة مغربي في مكتبة مورجان بنيويورك . وحدث في عام ١٥٧٤ أن تخفى تنورتو في ثياب خادم من خدم الدوج ألفيزي متشينيجو Doge Alvise Mocenigo واستطاع الوصول إلى البارجة بوتشتور Bucentaurs بارجة أمير الأسطول ، ورسم خلصة بالبسطل (*) صورة تقريبية لهنرى الثالث ملك فرنسا . ثم استطاع فيما بعد أن يتخذ له مكاناً في ركن حجرة كان هنرى مجتمعاً فيها مع أعيان البلاد ومن هذا المكان أتم الصورة . وبلغ من حب هنرى لها أن عرض على الفنان لقب فارس ، ولكنه رجاه أن يقبل اعتذاره .

وكانت معرفته بأعيان البندقية قد بدأت في عام ١٥٥٦ حين عهد إليه هو وفيرونيزي أن يرسم صوراً على القماش في قصر الدوق . رسم في قاعة المجلس الكبير Sala del Maggior Consiglio صورتين هما تتويج فردريك بربرسا وهرمانه اوسكندر الثالث لبربرسا . وفي القاعة المعرفة باسم صالا دل اسكروتينيو Saladel Scrutinio (قاعة البحث والتحقيق) غطى جداراً كاملاً بصورة يوم الحساب . وسر مجلس الشيوخ من الصورتين سروراً حله على أن يختاره في عام ١٥٧٢ لتخليد ذكرى الانتصار العظيم في ليانزو . غير أن هذه الصور الأربع قد دمرتها النار التي شبت في عام ١٥٧٧ . وفي عام ١٥٧٤ عهد مجلس الشيوخ إلى تنورتو أن يصور حجرة الانتظار (الانتيكاليچيو Anticollégio) . وهنا رسم للمشرعين الكبار صورة عطاره وربات الجمال وأندريا بافوس . وكيرفلمانه ومينيرفا نظار المربح . . وفي قاعة مجلس الشيوخ Sata de Predadi رسم تنورتو (١٥٧٤)

(*) Pastel معربة هو صرب من أقلام الرصاص شائع الاستعمال بين أطفال المدارس . (المترجم)

- ١٥٨٥ طائفة من اللوحات الكبيرة يطرى بها أدواج أيامه ، فصورهم ومن خلفهم الميدان الفخم العظيم : كنيسة القديس مرقس بقبابها البراقة ، أوبرج الساعة ، أوبرج الأجراس ، أو الواجهة الفخمة لمكتبة فيتشيا ، أو بواكى قصر الدوبرج البراقة ، أو مناظر القناة الكبرى تحجبها الغيوم أو تسطع عليها أشعة الشمس . ثم توج هذه الرسوم بصور توائم ذوق الحكومة الفخورة المزهوة فرسم على السقف صورة رائعة فاقت كل ما عداها وهى صورة البندقية ملكة البحار ؛ ترتدى أثواباً ذات روعة وجلال تحيط بها دوائر من الأرباب المعجبين بها ، وتتلق من آلهة البحر وحورياته هدايا الماء - المرجان والأصداف ، والآتى .

ولم يثن الحريق الكبير من عزم مجلس الشيوخ فطلب إلى تنتورتو أن يعوضه عن الخسارة بصور تمحو من ذاكرة الناس كل شئ عنها . فنفس في « قاعة البحث » منظر معركة كبرى هى الاستيلاء على زارا ، وصور على جدار إحدى حجرات المجلس الكبير الإمبراطور فردريك بربرسا يستقبل الوفود من عند البابا والدوج ، كما رسم على السقف آية فنية رائعة هى الدوج تقولوا دابنتى بتلقى خضوع الممره المغلوبة .

ولما قرر مجلس الشيوخ (١٥٨٦) أن يغطى المظلم القديم الذى صوره جوارينتو Guariento على الجدار الشرقى من حجرة المجلس ، اعتقد أن تنتورتو ، وكان وقتئذ فى الثامنة والستين من عمره ، قد بلغ من الكبر حداً لا يستطيع معه أن يقوم بهذه المهمة . ولهذا قسم العمل كما قسم الجدار بين فالو فيرونيزى ، وكان وقتئذ فى الثامنة والخمسين ، وفرانتيشيو بسانو ، البالغ وقتئذ سبعا وثلاثين سنة . لكن فيرونيزى توفى عام ١٥٨٨ قبل أن يبدأ العمل فعلا ، وعرض تنتورتو أن يحل محله ، وأن يغطى الجدار كله بصورة واحدة هى مجد الجنة ، ووافق مجلس الشيوخ على هذا العرض ،

موضع الشيخ الطاعن في السن ، بمساعدة ابنه دومينيكو وابنته مارييتا Marietta ، في الاسكولا دلا ميزيريكورديا Scuola della Misericordia قطع القماش التي ستألف منها الصورة الأخيرة . ورسمت كثير من الرسوم التخطيطية الأولية ؛ منها رسم ، يعد في حد ذاته آية فنية ، يوجد الآن في متحف اللوفر . ولما وضعت هذه الأجزاء كلها في مكانها (١٥٩٠) ، وبعد أن لون دومينيكو مواضع الاتصال بين الأجزاء وأخفاها ، كانت الصورة أكبر صورة بالزيت وقعت عليها العين حتى ذلك الوقت — فقد كان طولها اثنتين ومربعين قدماً وارتفاعها ثلاثاً وعشرين . وأجمعت الجماهير التي احتشدت لرؤيتها على أنها أعظم أعمال التصوير التي تمت في مدينة البندقية — وأنها « أعجب قطعة في العالم كله من الصور الزيتية النقية ، السامية التي تمثل الرجولة الحقة » (٢٣) . وعرض مجلس الشيوخ على تنورتو أجراً بلغ من الارتفاع جداً لم يسعه معه إلا أن يرد إليه جزءاً منه واستاء من ذلك زملاؤه الفنانون .

وعدا الزمان على هذه الجنة ، واليوم إذا ما دخل الإنسان قاعة المجلس الكبير ، والتفت إلى الجدار القائم خلف عرش الدوج ، لم يجد الصورة التي تركها تنورتو هناك ، بل وجد صورة سودها الدخان والرطوبة اللذين تناوبا عليها مئات السنين ، حتى لا يستطيع أن يتبين من الأشكال الخسائية التي كانت تملأها إلا أقلية صغرى واضحة للعين . أما فيما عدا هذا فدوائر داخل أدوائر تهتز وترتجف — وتتكون من السذج المباركين ، والعلماري ، والمؤمنين بالدين ، والشهداء ، والمبشرين بالإنجيل ، والحواريين ، والملائكة ، وكبار الملائكة — كلهم محتشدون حول مريم وابنها ، كأن هؤلاء جميعاً قد أصبحوا هم الآلهة الحقيقيين للعالم المسيحي اللاتيني ، وقد جاءوا يعترفون بجلال قدرة المرأة والرجل اعترافاً جديراً بهم . ويشعرنا تنورتو بما وراء الأشكال المائة التي تستطيع أن تراها بالعين من مئات أخرى يخطئها الحصر .

والحق أنه حتى إذا لم يكن الذين يدخلون الجنة إلا قلة تختار من الذين يدعون إليها ، فإن من دخلوها فعلاً في ستة عشر قرناً من التاريخ المسيحي ليلغون عدداً كبيراً من الجماهير السعيدة ، وقد أخذ تنفورتو على نفسه أن يصور لنا هذا العدد الكبير ، ويمثل لنا سعادتهم . وهو لم يُمَيِّت الجنة فيصفها مكاناً مكتئباً كما وصفها دانتي ؛ بل تصورها مكاناً مليئاً بالمرح والطرب ، لا يقبل فيه إلا السعداء المبهجون . وكان هذا العمل كان هو الرقية التي أخرجت الفنان من سابق كراهيته للمجتمع .

لكن تلك الأيام من حياة الفنان لم تكن خالية من أسباب الحزن ؛ ففي السنة التي أزيح فيها الستار عن الصورة العظيمة ماتت ابنته المحبوبة ماريتا ، وكان حذقها التصوير والموسيقى من أكبر مباهجه وأسباب سلواه في شيخوخته . فلما أن فارقت لاج كأنه لا يفكر إلا في أن يراها تحيا حياة أخرى . فكان يتردد أكثر من ذي قبل على مادنا دل أورتو — سيدة الحديقة — حيث يقضى الساعات الطوال في التفكير والدعاء بعد أن أصبح آخر الأمر رجلاً ذليلاً . وكان لا يزال يصور ، وأخرج في هذه السنين «التحتامية طائفة من الصور تمثل القديسة كثرين لتوضع في الكنيسة المسماة باسمها . لكنه أصيب في السابعة والسبعين من عمره بمرض في معدته سبب له آلاماً ممضة حرمت النوم على عينيه . فكتب وصيته ، وودع زوجته ، وأطفاله ، وأصدقائه ؛ ومات في الحادى والثلاثين من شهر مايو سنة ١٥٩٤ ، وأودعت جثته في مادنا دل أورتو .

وإذا ما حاول الإنسان أن يتبين فن هذا المصور الكبير بعد أن يطوف بقاربه في مياه البندقية الضحلة ويقف أمام كل صورة من فنانها الذي لا يقل قدراً عن ميكال أنجيلو ، إذا ما فعل هذا فإن أول ما ينطبع في ذهنه هو طابع الكثرة والضحامة ، إذ يرى الجدران الكبيرة مغطاة بصور الآدميين والحيوانات على درجات متفاوتة من الجمال والقبح لا تقل عن



(الصورة رقم ١١) صورة باولو فيروني
من عمله - معرض أقيسي بفلورنس . انظر ص ٢٨٠



(الصورة رقم ١٠) صورة دانييل بارا - من عمل
باولو فيروني في قصر بي بفلورنس . انظر ص ٢٧٨

الآلف عدا ، تختلط فيها الأجسام وتضطرب اضطراباً لا نجد له ما يبرره إلا قولنا إنه هو الحياة ، ذلك أن هذا الرجل الذى كان يبتعد عن الجماهير ويغضها ، يواجهها فى كل مكان ، ويصورها تصويراً صادقاً دقيقاً غاية فى الصرامة . ويبدو أنه كان قليل الاهتمام بالأفراد ؛ وإنه إذا رسم صورةاً لهم فلأنما كان يقصد بذلك كسب العيش صراحة . وكان يرى الإنسانية جملة ، ويفسر الحياة والتاريخ على أنهما كتل من الخلائق البشرية تكافح ، وتنافس ، وتحب ، وتستمتع ، وتعذب ، طابعها الرجولة والجمال ، مريضة ومعقدة ، ناجية أو معذبة . وكان يغطى بصوره قطعاً من قماش الرسم ذات حجم مروع فى كبره ، لأن هذه السعة وحدها هى التى كانت تفسح له المجال ليصور ما يشهده . ومع أنه لم يكن يتقن أصول فن التصوير ، كما يتقنها تيشيان ، فإنه قد استخلص لنفسه الطريقة التى رسم بها هذه الصور الضخمة ، وإليه يرجع أكبر الفضل فى روعة الحجرات التى فى قصر الأدواج ، لهذا لا ينبغي لنا أن نطلب إليه رقة الصقل أيا كان نوعها ، فهو فى فنه خشن ، فج ، سريع ، يخلق أحياناً منظراً بضربة واحدة من فرشاته ، على أن خطأه الحقيقى ليس هو خشونة السطح — لأن السطح الخشن ذاته قد ينير ما ينطوى عليه الرسم من معنى — ، أما هذا الخطأ فهو العنف المسرحى لما يختاره من الأحداث ، وثوران أهوائه ونزواته ثورانياً سقيماً ، والكآبة التى يغرق فيها الحياة كما يصورها ، وتكرار صور الجماهير تكراراً متعباً مملاً . لقد كان تنتورتو مفتتناً بكثرة العدد ، كما كان ميكل أنجيلو مفتتناً بالأشكال ، وروبنز Rubens ، مفتتناً بالأجسام . ولكن ما أكثر ما نجده فى هذه الكثرة نفسها من دقائق وتفاصيل عظيمة الدلالة ، وما أعظم ما نجده من دقة ونفاذ فى الملاحظة ، ومن تنوع وانفرادية فى الأجزاء لا ينضب لها معين ، وواقعية جريئة حيث لم نكن نجد قبل إلا خيالا وعاطفة !

وأخر ما نشعر به ونحن نقف أمام هذه الصور هو الاستجابة لها

استجابة صريحة أكيدة قائلين : هذا هو الفن في أعظم طراز له : لقد صور
غيره من الفنانين الجمال كما فعل رفائيل ، أو القوة كما فعل ميكيل أنجيلو ،
أو عمق النفس كما فعل رمبرانت ؛ أما هنا في هذه الرسوم العالمية - سواء
كانت تمثل صخب مدينة ، أو لجاهل صامته تؤدي الصلاة ، أو دخائل
ألف بيت وبيت وما تضمنه من متاعب أو محبة وولاء - نقول أما هنا فلإننا
نجد الحياة الإنسانية نفسها . وقد نحس أحياناً ونحن وقوف صامتون أمام
هذه الجدران الحائلة في قصر أدواج البندقية ، أو في حجرات إخوان القديس
روك ، أن صور غير من الفنانين الأرقى منه درجة تنمحي من ذاكرتنا ،
وأنه لو استطاع الصباغ الصغير (*) أن يصقل صورته صقل الجوهري بعد
أن فكر فيها تفكير الجبارة ، لكان أعظم المصورين أجمعين .

الفصل الخامس

فيرونيزى : ١٥٢٨ - ١٥٨٨

ولسنا نحب أن يفوتنا ، قبل أن نطوى صحيفة هذا الباب ، أن نكرم بعض نجومه اللامعة وإن كانت من الطبقة الثانية بعد الفنانين السابقين ؛ فقد كان هؤلاء أيضاً ممن تلاً ضياؤهم في البندقية : من هؤلاء أندريا ميلولدا Andrea Meloldi وهو من إقليم سلافونيا وسمى شيافوني Shiovone . وقد تلقى الفن مع تيشيان ، ورسم صورة من العاج لسيدة على صندوق في قلعة ميلان . ثم حاول أن يرسم صورتين أكبر من هذه وهما هوبتر وأنتيوى (المحفوظة في لينينجراد) وعطية العذراء (البندقية) ، وكانتا صورتين بديعتي اللون . وأثنى عليه الفنانون ، وأعرض عنه المناصرون ؛ واضطر أندريا أن يسير بلحيته الوقورة في أسمال بالية .

وكان باريس بوردوني Paris Bordone ابن سراج وحفيد حذاء ، ولكنه استطاع بفضل ديمقراطية العقيدة ، التي تظهر في جميع الطبقات أن يشق طريقه إلى الذروة في مدينة البندقية الممتلئة بذوى المواهب والكفايات . وقد جاء بوردوني من تريفيزو ليلتقى أصول الفن على تيشيان ، ونضج نضوجاً بلغ من سرعته أن دعاه فرانس الأول إلى باريس وهو في سن الثامنة والثلاثين . وفيها أخرج بعض الصور الدينية الممتازة مثل الأسرة المقدسة (ميلان) ، وبلغ أعلى مكانة له في صورة الصائم يهري غام القديس مرقس إلى الروم (البندقية) ؛ ولكن الصورة التي خلدت اسمه على مر السنين هي صورة فينوس وإيروس (أفيدسى) وهي تمثل فتاة بضمة

شقراء ترتدى ثوباً أبيض لتكشف به عن نهديها ، بينما يصيح كيوبد ليلفتها إليه(*) .

ونال ياقوبو دا پنتى Jacopo da Ponte ، المسمى البسانو Il Bassano نسبة إلى مسقط رأسه ، شهرة وسطى وثروة غير كبيرة حين اشترى تيشيان صورته المجهولة ذاهبة إلى سفينة نوح واستطاع أن يعيش حتى بلغ الثانية والثلاثين دون أن يترك وراءه أية صورة لأدمين لا تغطيهم الأنواب من رعوسهم إلى أقدامهم .

وجاء من فيرونا إلى البندقية في عام ١٥٥٣ شاب في الخامسة والعشرين من العمر يدعى باولو كاليارى Paolo Caliari ، وهو طراز من الشبان يختلف كثيراً عن طراز تينتوريتو : فهو هادئ ، ودود محب للألفة ، ينتقد عيوب نفسه ، لا يفعل إلا نادراً . وكان يحب الموسيقى ويمارسها ، مثله في ذلك كمثل تينتوريتو وجميع الإيطاليين المتعلمين تقريباً . وكان سخياً كريم الخلق ، لم يسئ قط إلى منافس له ، ولم يغضب نصيراً له أبداً . وسمته البندقية إل فيرونيزي Il Veronese وهو الاسم الذى يعرفه به العالم ، وإن كان قد أحب البندقية فيما أحب من المدن واتخذها موطناً له . وكان له في فيرونا عدد من المعلمين ، منهم عمه أنطونيو باديلي Antonio Badile الذى زوجه فيما بعد بابنته ؛ وقد تأثر فيها بجيوفانى كاروتو Giovanni Caroto وبرساسورسى Brusasorci ؛ ولكن هذه العوامل التى كانت ذات أثر فى نشأة أسلوبه سرعان ما زالت فى لآلاء فن البندقية وحياتها القويين . فقد كان تغير منظر السماء ولوانها فوق القناة الكبرى مصدر دهشة على الدوام ؛ وكان يعجب بقصور المدينة وانعكاس خيالها واهتزازها فى ماء البحر ؛ وكان يحسد عالم الأشراف على دخلهم الثابت ، وصداقتهم للثمنانين ، وآدابهم

(*) كانت هذه إحدى الصور الكثيرة التى أخذها جورنج Goering من إيطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية ، والتى استردتها إيطاليا بعد انتصار الحلفاء .

العالية ، وأثوابهم المنسوجة من الحرير والخصل التي تكاد تكون أكثر إغراء
للمس من النساء الحسان اللاتي يلبسهن . وكان يتمنى أن لو كان من أولئك
الأشراف ؛ وكان فعلا يرتدى أثواباً شبيهة بأثوابهم محلاة بالخمرات وانفراء ،
ويقلد مراسم التكريم التي كان يعزوها إلى الطبقات العليا من أهل البندقية . ولا نكاد
نجد له صورة للفقراء من الناس ، أو للفقير ذاته ، أو للمآسى ، لأن الغرض
الذي كان يسعى إليه هو أن يخلد بصوره هذا العالم المتلألئ المحظوظ من أهل
البندقية ، وأن يجعله أرق وأجمل مما يستطيع أن يبلغه الثراء بغير الفن . ولهذا
هرع إليه النبلاء والنبيلات ، والأساقفة ورؤساء الأديرة ، والأدواج
وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأحبوه ، وسرعان ما كانت لديه أكثر من عشر
مهام يقوم بأدائها .

وطلب إليه في ذلك التاريخ المبكر من حياته أى في عام ١٥٥٣ ولما يتجاوز
الخامسة والعشرين من عمره أن ينقش سقف مجلس العشرة في قصر الدوق ؛
وقد شبه في هذا النقش المجلس بجوهر قصور هوبتر بقضى على الرذائل ،
وتوجد هذه الصورة الآن في متحف اللوفر . ولم يكن نجاحه في هذه الصورة
نجاحاً يستلقت الأنظار ؛ ذلك أن الأشكال الثقيلة تقفز مزعزعة في الهواء ،
لأن باولو لم يكن قد سرى فيه حتى ذلك الوقت روح البندقية . ثم لم يمض
على ذلك الوقت إلا عامان حتى عرف قدر نفسه ، وصار غير بعيد من
أساتذة الفن في صورة **التصامير صردى** التي رسمها على سقف كنيسة
سان سباستيانو . وقد أظهر في هذه الصورة وجه البطل اليهودى وشكله
واضحين قوين ، والخيال نفسه تبدو كأنها خيل بحق . وربما كان نيشيان
نفسه قد تأثر بهذه الصورة ، وشاهد ذلك أنه لما عهد إليه القائمون على
كنيسة القديس مرقس أن يزخرف مكتبة فيتشيا بصورة مدليات مصورة ،
عهد إلى فيرونيز بثلاثة من هذه المدليات ، ولم يستبق لنفسه ولكل واحد آخر
من الفنانين الذين اشتركوا معه في العمل إلا واحدة . ووعد هؤلاء المشرفون

أن يمنحوا صاحب أحسن مدلاة سلسلة ذهبية ، فكان باولو هو الذى نال هذه المكافأة نظير تمثيله الموسيقى فى صورة ثلاث فتيات - واحدة منهن تعزف على العود ، وواحدة تغنى ، وواحدة منكبة على الكمان الدججى (*) - ومعهم كيوبد يضرب على معزف من نوع البيان ، وبان Pan (**) يتفخ فى مزاميره . وقد رسم فيرونيز نفسه بعدئذ يتعلى بهذه السلسلة الذهبية .

ولما أن أحرز باولو هذه الشهرة العظيمة فى التصوير الزخرفى عهدت إليه أعمال درت عليه المال الوفير . من ذلك أن أسرة بربارو Barbaro الشريفة الغنية شادت فى عام ١٥٦٠ بيتاً ريفياً فى ماتشير Macer قرب أسولو Asoio حيث كانت تقيم كترينا كرناو ملكة قبرص السابقة ، وحيث كان بمبو العاشق الأفلاطونى الواله . ولم يختر آل بربارى إلا كبار الفنانين ليجعلوا من هذا البيت : « أجل بيت للنزهة شيد فى عصر النهضة » (٣) . فاختراروا أندريا بلاديو لتصميمه . وألستدرو فتوريا لزنخرفته بالتماثيل الجصية ، وفيرونيزى لعمل المظلات فى السقف والجدران ، والبندريلات والكوات ، مستمدة من مناظر من الأساطير الوثنية والمسيحية . فقد صور على السطح الداخلى من القبة الوسطى أولمبس - الآلهة الذين يستمتعون بجميع مباهج الحياة ولكنهم لا يهرمون ولا يموتون . ورسم صغار الفنانين وسط مناظر سماوية صورة صائد ، وقرد ، وكلب بلغ من دقة شكله ويقظته وحيويته ما يجعله خليقاً بأن يكون من كلاب السماء . ورُسم على أحد الجدران خادم يتطلع عن بعد إلى صورة عذراء ، وتتطلع هى الأخرى إليه ، ثم تمضى لحظة يطعمون هم أيضاً فيها طعام الآلهة ، وبهذا بلغ جمال القصر وبهجته درجة لا يمكن أن يعلو عليها إلا الفنانون الصينيون من مواطنى كوبلاى خان

Kublai Khan

(*) آلة موسيقية من نوع الكال .

(**) إله الرعاة والقطمان والغابات والحياة البرية ، وشفيع الرعاة ، والصائدين . . الخ
(الترجم)



(الصورة رقم ١٢) اختطاف أوروبا - من عمل پارلوثير ونيزي
في المتحف الفني ببيروبرك (انظر ص ٢٧٩)



(الصورة رقم ١٣) عمال نصب ليكل أنجيلو برناردي - من عمل
دانيل دالتيريا - في المتحف القومي بفلورنس (انظر ص ٢٧٩)

يولم يكن بد من أن يطلب إلى باولو أن يرسم صورة النساء العرايا في وسط هذا الجمع الحاشد من مناظر الحب . على أن العرى لم يكن الميدان الذي يبرز فيه ؛ فقد كان يفضل عليه الأثواب الثمينة اللساء الناعمة تغطي أجساماً شبيهة بالأجسام التي يصورها روبنز ، تعلوها وجوه ذات جمال عاوى يميزها عن غيرها من الوجوه ، ويتوجها شعر ذهبي مسدل مسرح . ويرى الإنسان في صورة المربخ و فينوس المحفوظة في متحف متروبوليتان الفني إلهة بدينة قبيحة المنظو ، ذات ساق لاشكل لها مصابة بداء الاستسقاء . لكن فينوس تبدو جميلة في صورة فينوس وأدونيوس الموجودة في برادو لايفوقها في هذه الصورة إلا شكل الكلب الرابض عند قدميها . وأجل ما في صور فيرونيزى الأسطورية صورة اختطاف أوربا (*) الموجودة في قصر الأوداج . وتمثل هذه الصورة منظرأ ذا أشجار قائمة ، والثور المجنح يلقي بالأكاليل . وأوربا (الأميرة الفينيقية) جالسة وهى مبهجة فوق ظهر الثور العاشق ، الذى يلحق إحدى قدميها الجميلتين ، وتستبين أنه هو بعينه جوبتر متخف . زى جديد . وقد أظهر هذا الفنان الذى صور مناظر في السماء ذوقاً لطيفاً في تصوير مناظر الآلهة . ذلك أنه صور أوربا وعلى نصف جسمها ثياب ملكية ، وقد أحرز فيرونيزى في هذه الصور أتم نجاح في رسم أجسام النساء ، وبلغ بها حد الكمال في هذا التركيب فجعلها خليقة بأن يترك زيوس من أجلها مقامه في السماء ، وتروى خلفية الصورة البعيدة بقية القصة ، فتظهر الثور يحمل أوربا فوق مياه البحر إلى كريت ، ومن هنا أعطت اسمها للقارة الأوروبية - كما تقول القصة اللطيفة .

وسار باولو نفسه على مهل قبل أن يستسلم لتصوير النساء . فقد ظل

(*) أوربا في الأساطير اليونانية أميرة فينيقية اختطفها زيوس بعد أن تخفى في صورة ثور أبيض ، وسبح بها في البحر إلى جزيرة كريت حيث أصبحت أم مينوس ، ورها داماثوس ، روسار بيدون . (المترجم)

يجمع النماذج حتى بلغ الثامنة والثلاثين من العمر ، ثم تزوج بعدئذ إيلينا باديلي Elena Badile ، فولدت له ولدين هما كارلو وجبريلي ، علمهما التصوير وتنبأ بنبوءة مبعثها الرغبة والأمل أكثر من بعد النظر ، فقال : « سيقو في سارلي Carletto me vincera » (٣٦) . وفعل فيرونيزي ما فعله كريجيوفابتاج مزرعة في سانت أنجياودي تريفيزو حيث قضى معظم سني زواجه ، يصرف شئونه المالية بحكمة واقتصاد ، وقلماً كان يتبعد عن كرمته . ولما بلغ سن الأربعين كان أكثر من يسعى إليه الطالبون بين المصورين في إيطاليا كلها ، بل إنه كان يتلقى دعوات من البلاد الأجنبية نفسها ؛ ولما أن طلب إليه فليپ الثاني زخرفة الإسكوريال ، قدر هذا التكريم حق قدره ولكنه قاوم هذا الإغراء الشديد .

ودعى كما دعى من سبقوه من الفنانين لرسم القصة المقدسة للكنائس والعابدين(*) وإنا لنرى كل شيء جديداً جذاباً في صورة عذراء أسرف

(*) الصور الآتية خليقة بالذكر وهي مما لم يرد ذكره في النص :

أ - من كتاب العهد القديم : خلق حواء (تشكاجو) ؛ موسى ينجو من البحر (برادو) ، إحراق سدوم (اللوفر) ؛ ملكة سبأ أمام سليمان (تورين) ؛ بششع (ليون) ؛ بوديت أمام هولوفرنيس (تور) ؛ سوزان والكبار (اللوفر) وفيها يظهر الكبار أكثر إمتاعاً من سوزان ، وليس هذا شأن الصور المماثلة لها .

ب - صور العذراء : صعود العذراء (البندقية ؛ عبادة المجوس (فينا ، ودرسدن ، ولندن وكلها صور فخمة رائعة) ؛ الأسرة المقدسة (برنستن) ؛ الأسرة المقدسة ومعها القديسة كثرين والقديس يوحنا (أفيدسي) - وهي من أعماله الكبرى ؛ والعذراء والطفل والقديسين - صورة فخمة (البندقية) ؛ الهبة (درسدن) ؛ صعود العذراء وتتويجها (البندقية) .

ج - من صور يوحنا المعمدان : عظة القديس يوحنا (بورغيزي) .

د - من صور المسيح : التعميد (بتي ، وبربرا ، وواشنجتون) ، المسيح يجادل في المعبد (برادو) يسوع والمعمد (برادو) ؛ المسيح يحمي ابنة بايرون (البندقية) ، العشاء الأخير (بربرا) ، خلع بيلناصر (فيرونا ولينينجراد) الماريات الثلاث عند القبر (بتي) .

كونستينو (الموجودة في درسدن) بعد أن رسمت للعدراء ألف صورة
وصورة ! نرى أصحاب الهبات الوسمى الوجوه ذوى اللحمى السوداء ، ونرى
الأطفال السذج الحيارى ، ونرى شبح الغدر المتشح بلقاعة بيضاء - فى صورة
امراة ذات جمال رائع قلما يضارعه جمال آخر حتى فى فن البندقية نفسه .
وكانت صورة الزواج فى فلانا (المحفوظة فى متحف اللوفر) هى ذات المنظر
الذى يحب فيرونيزى أن يصوره : وقد جعل خلفية الصورة مباني رومانية ،
وجعل فى مقدمتها كلباً أوكلين ، ومائة شخص فى نحو مائة موقف مختلف .
وقد رسمهم كلهم كأنه يريد أن يجعل كل واحد منهم صورة كبرى قائمة
بذاتها ، وكان من بينهم صور تيشيان ، وتنتورتو ، وبسانو ، وصورته
هو نفسه . ومع كل منهم آلة موسيقية وترية يعزف عليها . وكان باولو يختلف
عن تنتورتو فى أنه لم يكن يعنى أقل عناية بالواقعة ؛ فهو لم يجعل فى صورته
المحتفلين رجالاً ونساء ممن قد تحتويهم بلدة يهودية صغيرة ، بل جعل المضيف
من أصحاب الملايين البنادقة ، وجعل له قصرأ خليقاً بأن يكون قصر الإمبراطور
أغسطس ، فيه أضيوف والكلاب المعروفة السلالة والنسب ، واحتوت
الموائد ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وإذا جاز للإنسان أن يحكم على
المسيح من صور فيرونيزى ، قال إنه قد استمتع بولائم كثيرة بين محنه ؛
فنحن نشاهده فى اللوفر يتغذى فى بيت سمعان القريصى ، ومجدلين تغسل
قدمه ، ومن حوله نساء حسان يتحركن بين العمدة الكورنثية ؛ وفى توريز
يتعشى فى بيت سمعان الأبرص ؛ وفى معرض البندقية يتغذى فى بيت لاوى .
لكننا نرى المسيح فى معرض صور فيرونيزى يغشى عليه تحت ثقل الصليب
(درسدن) ، ونراه يصلب فى جو مكفهر وأبراج أورشليم قائمة من تحته
عن بعد (اللوفر) . ولا يفصح فيرونيز عن خاتمة المأساة : فنحن نرى فى
أموس حجاجاً سذجاً يتعشون مع المسيح ومعهم أطفال ظراف بدلون كلباً .
يظهر دائماً فى صور الفنان .

وأعظم من هذه الصور الموضحة للعهد الجديد صور فيرونيزى المستمدة من حياة القديسين وأقاصيصهم : كصورة القديسة هيلينا يكسوها الجمل الرائع ، وهى تعتقد أنها ترى الملائكة ينقلون الصليب (لندن) ؛ والقديس أنطونيوس يعذبها شاب مفتول العضلات ، وامرأة مساكينة (كائن) ؛ والقديس جيروم فى البرية ؛ تواسيه وتطرد عنه السامة كتبه (تشكاجو) ؛ والقديس جورج يرحب فى وجد ونشوة بالاستشهاد (فى كنيسة سان چيوچيو بالبندقية) ؛ والقديس أنطونيوس فى بدوا ؛ والقديس فرانسس يتلقى الوسمات (*) (البندقية) ؛ القديس مناس تتلأأ عليه الدرع (مودينا) ويستشهد (برادو) ؛ القديسة كترين الإسكندرية تزوج زواجاً باطنياً بالطفل المسيح (كنيسة القديسة كترينا بالبندقية) ؛ والقديس سباستيان يرفع علم الإيمان والأمل وهويقاد إلى ساحة الاستشهاد (كنيسة سان سباستيانو فى البندقية) ؛ والقديسة چوستينا تواجه الاستشهاد وتعرض للهلكة المزدوجة فى معرض أفيدسى وفى كنيستها فى بدوا ؛ كل هذه صور لا يمكن موازنتها بأحسن مما صور تيشيان أو تنورتو ، ولكنها مع ذلك خليقة بأن تعد من الآيات الفنية ، ولعل أجمل منها كلها صورة أسرة دارا أمام الإسكندر (لندن) وهى تمثل ملكة مكتئبة ، وأميرة حسناء ، راکعة أمام قدمى الفاتح الوسيم الكريم .

وقد سبق القول إن پاولو بدأ حياته فى البندقية بالتصوير فى قصر الدوق ، ونقول الآن إنه ختمه فى هذا القصر نفسه بصور جدارية عظيمة خليقة بأن تستثير شعور كل روح وطنية فى تلك المدينة . ذلك أن زخرفة داخل القصر بعد الحرائق التى شبت فيه فى عامى ١٥٧٤ و ١٥٧٧ عهد أكثرها إلى تنورتو وفيرونيزى ، وطلب إليهما أن يكون موضوع الزخرفة هو البندقية بنفسها ،

(*) علامات تشبه الجراح ظهرت على جثم المسيح المصلوب يعتقد بعض الناس أنها ظهرت من تلقاء نفسها على أجسام بعض الأشخاص أمثال فرانسس . (المترجم)



(الصورة رقم ١٤) المربيخ و فينوس من عمل باولو فيروانيزي
في المتحف الفنّي بنيويورك . انظر ص ٢٧٩

«التي لم ترهبها الحرائق والحروب ؛ ولا الأتراك والبرتغاليون . وقد رسم
پاولو ومساعدوه في قاعة الاجتماع Sala del Collegio على السقف المحفور
المذهب إحدى عشرة صورة رمزية غاية في الرشاقة - اللوداعة وتحملها : :
والجلد ينظر من خلال نسيج عنكبوت من صنعه . . . والبندقية في صورة
ملكة مرتدية فرو القاقوم الثمين ، وأسد القديس مرقس راقد في هدوء عند
قدميها يتلقى التكريم من العدالة والسلام . وفي إطار بيضى الشكل عظيم الشأن
في سقف قاعة المجلس الكبير Sala del Maggior Consiglio رسم صورة
انتصار البندقية مثل فيها المدينة العظيمة التي لا تضارعها مدينة سواها بإلهة
مربعة على عرشها بين الأرباب الوثنيين ، تتلقى تاج الجبل يهبط عليها من
السماء ؛ وعند قدميها كبار أعيان المدينة وكرائم سيداتها ، وبعض المغاربة
يؤدون الجزية ؛ ومن تحت هؤلاء كلهم محاربون يقفزون استعداداً للدفاع
عنها ، وخدم يمسكون بكلاب الصيد من مقودها . تلك أعظم صورة
صورها فيرونيزي .

واختير في عام ١٥٨٦ لينشي بذل مظاهرات جوارينتو Guariento الحائلة
اللون صورة تسويج العذراء في قاعة المجلس الكبير نفسها . وقدم الرسم
التمهيدى وقبل ، وبيننا هو يستعد لرسم الصورة على القماش إذ انتابته الحمى ؛
وروعت البندقية حين تراءى إليها النبأ بأن مصور مجدها الذي لا يزال في عنقوان
الشباب توفي في أبريل من عام ١٥٨٨ . وطلب آباء كنيسة سان سباستيانو
أن تدفق جثته في كنيستهم ، وفعلاً دفن پاولو في هذه الكنيسة أسفل الصور
التي جعلت منها موطناً لفنه الدينى .

ولقد قلب الدهر حكم معاصريه ووضعه في المرتبة الثانية بعد معاصره
القوى تنورتو . ونحن إذا نظرنا إليه من حيث أصول الفن وجدناه يفوق
تنورتو ؛ فقد بلغ في التنفيذ ، والتأليف ، والتلوين أعلى درجة بلغها فن
البندقية . ولسنا نجد صورته المزدهجة مضطربة مهوشة ، بل نرى حوادثها ومناظره

واضحة ، وخلفيات صورة وضاعة ساطعة . على حين يبدو نثورتو أمين الظلمة إذا وضع إلى جانب هذا العابد للضوء . كذلك كان فيرونيزى أعظم مصور زخرفى فى النهضة الإيطالية ، وكان على استعداد دائم لأن يبتكر بدعة سارة أو مدهشة فى اللون والشكل كصورة الرجل الذى يخرج فجأة من وراء ستار نصف مزاح ، مخترقاً مدخلا قديماً ، والذى نشاهدها فى بيت ماتشر الربى . ولكنه كان ينهمك مسروراً فى تصوير السطوح الموثلفة إلى حد يحول بينه وبين إدراك الدقائق الصغيرة ، والمتناقضات المفجعة ، والتناسق العميق وهى الخصائص التى بدونها لا يكون التصوير العظيم عظيماً . لقد كان ضعيف النظر لا يرى كل شئ ، وكان حريصاً فى فنه على أن يصور كل ما يراه ، وأكثر مما كان يتخيله مجرد تخيل - كصورة الأتراك يشاهدونه تعميد المسيح ، والتبوتون فى بيت لاوى ، والبنادقة عند إموس ، والكلاب فى كل مكان . وما من شك فى أنه كان يحب الكلاب ، وإلا لما صور كل هذا العدد الكبير منها . وكان يرغب فى تصوير أكثر نواحي الحياة بهجة ولأداء ، وحقق رغبته إلى حد لا يضارعه فيه غيره . وقد صور البندقية فى رونق شمسها الغاربة ومتعة الحياة الآخذة فى الزوال . ولسنا نجد فى عالمه الذى مثله فى صورهِ إلا نبلاء ذوى جمال ، وزوجات ذوات فخامة وعظمة ، وأميرات ساحرات ، وفتيات شقراوات شهوانيات ، وإنا لنجد بين كل صورتين من صورهِ واحدة تمثل احتفالاً أو عيداً .

وإن عالم الفن كله ليعرف كيف استدعى رجال محكمة التفتيش فيرونيزى أمامهم (١٥٧٣) تنفيذاً لقرار صادر من مجلس ترنت . يحرم كل تعليم خاطئ فى الفن ، وطلبوا إليه أن يفصح لهم عن سبب إدخاله كثيراً من الأشياء التى لا تمت قط بصلة إلى الحقيقة فى صورة الطفل المقام فى بيت لاوى (البندقية) ، كالبغاوات ، والأقزام ، والألمان ، والمهرجين ، وحاملى فتوس الحرب ورد عليهم باولوفى جرة قائلاً إن « مهمتى هى زخرفة

الصورة بما أراه أنا صالحاً ، وإنها كانت كبيرة تنسج لشخص كثير . . . ،
وإذا ما وجدت في صورة ما مكاناً خالياً يحتاج إلى ما يملؤه ، وضعت فيه
من الأشكال ما يوحى به خيالي - ليتوازن به تأليف الصورة من جهة ،
وتستمتع به عين المشاهد استمتاعاً لا ريب فيه من جهة أخرى . وأمرت
بحكمة التفتيش أن يصلح الصورة على نفقته الخاصة ، ففعل (٣٧) . وكانت
هذه المحاكمة بداية انتقال فن البندقية من عهد النهضة إلى عهد حركة
الإصلاح المضادة .

ولم يكن لفرونيزي تلاميذ ممتازون ، ولكن تأثيره تخطى عدة أجيال
ليسهم في صياغة الفن في إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا . تيبولو Tiepolo
بمبولة الزخرفية بعد فترة بينهما خلت من هذا التأثير . ودرسه روبنز بعناية ،
وتعلم أسرار ألوانه ، وضخم نساء فيرونيزي البدن ليوائم بينهن وبين ما يتسم
به القلمنكيون من سعة ورحابة . كذلك وجد فيه نقولاس بوسن Nicolas
Poussin وكلود لورن Claude Lorrain من يرشدهما لاستخدام الزخارف
المعمارية ، في مناظرهم الطبيعية ، وسار شارل لبرون Charles Lebrun
حلى سنن فيرونيزي في تصميم الصور الجدارية الكبرى . وكان المصورون
الفرنسيون في القرن الثامن عشر يستمدون الوحي من فيرونيزي وكريچيو
في أناشيد الرعاة أيام الأعياد الريفية ، وأناشيد العشاق الأشراف الذين يلعبون
في أركاديا . ومن هنا نشأ واتو Watteau وفراجونار Fragonard ؛ ومن
هنا أيضاً نشأت العرايا ذوات اللون الوردى اللأني صورهن بوشيه Boucher ،
والأطفال الظراف الذين تصورهم جريز Grueze ، والنساء الرشيقات اللاتي
أبدع تصويرهن . ولعل تيرنر Turner قد وجد هنا شيئاً من شروق الشمس
الذي أضاء به لندن .

وهكذا اختتم العصر الذهبي للبندقية ملكة البحر الأدريايي بما امتازت
به صور فيرونيز من توهج الألوان . وكان سبب هذا الختام أن الفن كان

عسيراً عليه أن يظل سائراً إلى أبعد مما سار في الاتجاه الذي تبعه من عهد
جيورجيو إلى عهد فيرونيزى . بعد أن وصل إلى حله الكمال في أصوله ،
وتسلق أعلى الدرج . ولهذا بدأ يهبط ويبدأ رويداً حتى جاء القرن الثامن عشر
فحدثت فيه نوبة أخيرة من الإبداع والفخامة قبل موت الجمهورية ضارع
فيها تيبولو Tiepolo فيرونيزى في الرسم الزخرفى ، وكان جلودوني Goldoni
هو أرسطوفانز البندقية .

الفصل السادس

نظرة شاملة

إذا ما ألقينا نظرة على فن البندقية لإبان مجده ، وحاولنا في حياء أن نقدر ما كان له من شأن في تراثنا الفني ، حق لنا أن نقول على الفور إن فن فلورنس وفن رومة هما وحدهما اللذان يضارعه في جودته ، وبهائه ، واتساع مجاله . ولسنا ننكر أن مصورى البندقية ، ومنهم تيشيان نفسه لم يتعمقوا كما تعمق الفنانون الفلورنسيون في أسرار مشاعر الناس ، وأسباب بأسهم ، ومآسهم ، وأنهم كثيراً ما أولعوا باللباس والجسد ولعاً حال بينهم وبين الوصول إلى الروح . ولقد كان رسكن على حق حين قال إن الدين الحق قد ذوى غصنه من أدب البندقية بعد بليبي^(٣٨) . ولم يكن البنادقة هم الملمومين إذا ما أخفقت الحروب الصليبية ، وانتصر الإسلام وانتشر في الآفاق ، وانحط شأن البابوية أثناء إقامتها في أفنيون وفي أثناء الانقسام البابوي ، ثم استحالة البابوية إلى سلطة دنيوية في عهد سكستس الرابع واسكندر السادس ، ثم انفصال ألمانيا وإنجلترا آخر الأمر عن الكنيسة الرومانية ، وإذا ما أدى هذا كله إلى إضعاف إيمان الخلق حتى المؤمنين أنفسهم ، فلم يبق لكثير من النفوس القوية فلسفة خير من فلسفة الأكل والشرب والزواج ثم الزوال . غير أننا والحق يقال لم نجد غير البندقية مكاناً عاش فيه الفن المسيحي . والفن الوثني متألفين راضيين . فقد كانت الفرشاة التي صورت العذراء هي نفسها التي صورت بعدئذ فينوس ، ولم يشك من هذه أحد شكوى ذات بال . كذلك لم يكن هذا الفن فناً مخنثاً ولا فن ترف وراحة ، بل كان الفنانون ينهضون في العمل انهماكاً ، وكثيراً ما كان الذين يقوم هؤلاء الفنانون بتصويرهم رجالاً يخوضون المعارك ويحكون

الدول ، وكانت النساء للآثى يصورونهن نساء يحكن أمثال هؤلاء الرجال .

وكان الفنانون البنادقة مولعين باللون ولما حال بينهم وبين أن يضارعوا حذق الأساتذة الفلورنسيين ، ولكنهم كانوا رغم ذلك رسامين مجيدين . وقد قال في هذا المعنى يوماً ما أحد الفرنسيين « إن الصيف ملون ، والشتاء مصمم » L'été c'est un coloriste l'hiver c'est un dessinateur (٣٩) . فالأشجار العارية من الأوراق تكشف عن الخطوط الواضحة في هيكلها ، ولكن هذه الخطوط تظل موجودة لا تزول تحت خضرة الربيع ، وسمرة الصيف ، وذهب الخريف . وكذلك نشهد تحت مجد اللون في جيورجيوني ، وتيشيان ، وتنورتو خطوطاً ولكنها خطوط يمتصها اللون كما أن شكل السمفونية التركيبى يخفيه انسيابها .

وكان فن البندقية وأدبها يتغنيان بمجدها حتى في الوقت الذي اضمحلت فيه الحياة الاقتصادية وتحطمت في حوض البحر المتوسط بعد أن سيطر الأتراك على طرف منه ، وهجرته من الطرف الآخر أوروبا التي أخذت تبحث عن الذهب الأمريكى . ولعل الفنانين والشعراء كانوا على حق . فلم تكن تقلبات التجارة أو الحرب بقادرة على أن تطفى جذوة الذكرى التي يعتز بها ذلك القرن العجيب ١٤٨٠ - ١٥٨٠ - الذي أقام فيه مونشينيجو Mocenigo وپريولى Priuli ولورنداني Lorendani البندقية الإمبراطورية وأنجوها من الدمار ، والذي زينها فيه آل مباردى ، ولپوباردى بالتمثيل والأنصاب ، وتوج سانسوفينو وپلاديو مياها بالكنايس والقصور ، ورفع فيه بلينى ، وجيورجيوني ، وتيشيان ، وتنورتو ، وفرونيزى ، مقامها فجعلوها زعيمة الفن في إيطاليا ، والذي غنى فيه بمبو أغاني منزهة عن العيوب ، وأخرج فيه مانوتيوس Manutius لكل من يعنيه الأدب ، تراث اليونان ورومة الأدب ، وجلس فيه الشيطان المنكل بالأمرء ، ذلك الشخص الذى لا يعوض ، ولا يقهر ، جلس على عرش القناة الكبرى يحكم للعالم ويعتصره .

الباب الثالث والعشرون

انحطاط عهد النهضة

١٥٣٤ - ١٥٧٦

الفصل الأول

اضمحلال إيطاليا

لم تكن الحروب التي اندلعت لها إيطاليا لغزو إيطاليا قد خبت نارها بعد ولكنها
تقد غيرت وجه إيطاليا وطبيعة أهلها : فالأقاليم الشمالية قد خربت تخريباً
جعل مبعوثي هنري الثامن يشيرون عليه بأن يتركها لشارل عقاباً له على
ما فعل بها : ونهب جنوى ، وفرضت على ميلان ضرائب فادحة قاتلة ،
وأخضع حلف كبيره مدينة البندقية ، كما أضعفها وأدخا فتج الطرق التجارية
الحديدية : وقامت رومة ، وپراتو ، وپافيا الأمرين من جراء السلب والنهب ؛
وانتشرت المجاعة في فلورنس واستنزفت مواردها المالية ، وكادت پيزا تدمر
نفسها في كفاحها لنيل جريتها ، وأما سينا فقد أنهكتها الثورات ، كما أفقرت
خيرانا نفسها في نزاعها الطويل مع البابوات ، وأتت بما يغض من كرامتها
بتحريضها على الغزو للمستعدين لرومة . وحل بمملكة ناپلى ما حل بلمباردى
من سلب ونهب وتخريب على أيدي الجيوش الأجنبية ، وذوى غصنها الرطيب
بزمناً طويلاً كانت فيه خاضعة للأسر الحاكمة الأجنبية : وصقلية ، وما أدراك
ما صقلية ؟ لقد أصبحت معشياً لقطاع الطرق ، وكانت السلوى الوحيدة

لإيطاليا هي أن خضوعها لشارل الخامس قد أنجأها في أغاب الظن من اجتياح الأتراك لها وانتهابهم إياها .

وانتقلت السيطرة على إيطاليا إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقية بولونيا (١٥٣٠) عدا أمرين اثنين : أولهما أن البندقية الحذرة احتفظت باستقلالها ، وثانيهما أن البابوية ، بعد أن حذ من سلطانها ، قد أيدت سيادتها على ولايات الكنيسة . فأما نابلي ، وصقلية ، وسردينيا ، وميلان ، فقد أصبحت تابعة لآسبانيا يحكمها ولاية من قبلها . وأما ساقوى ومانتوا ، وفيرارا وأرينو وهي التي كانت عادة تؤيد شارل أو تغضى عن فعله فقد سمح لها بأن تحتفظ بأدواقها المحليين على شريطة أن يسلكوا مسلكاً حسناً في علاقاتهم بالإمبراطور . واحتفظت جنوى وسينا بشكلهما الجمهوري ، وكنهما خضعتا للحماية الإسبانية . وأرغمت فلورنس على قبول فرع آخر من آل ميديتشى حكاما لها ، استبقوا لأنهم تعاونوا مع أسبانيا .

وكان فوز شارل مرحلة أخرى من مراحل انتصار الدولة الحديثة على الكنيسة ، لأن ما بداؤه فليب الرابع عام ١٣٠٣ في فرنسا ، قد أتمه شارل ولوتر في ألمانيا ، وفرنسس الأول في فرنسا ، وهنرى الثامن في إنجلترا ، وقد حدث هذا كله في عهد بابوية كلمنت . ذلك أن دول أوروبا الشمالية لم تكتشف ضعف إيطاليا وحسب ، بل إنها فضلاً عن ذلك قد زال عنها خوفها من البابوية ؛ فقد أضعف إذلال كلمنت ما كان يشعر به الناس فيما وراء الألب من احترام للبابوات ، وهى عقولهم للخروج على سلطان الكنيسة الكاثوليكية .

وكان سلطان الأسبان على إيطاليا نعمة عليها وبركة من بعض الوجوه . فقد قضى هذا السلطان إلى حين على الحروب التي كانت تقوم بين الدويلات الإيطالية بعضها وبعض . كما قضى من عام ١٥٥٩ حتى عام ١٧٩٦ على المعارك التي كانت تدور رحاها بين الدول الأجنبية فوق الأراضي الإيطالية ؛

وأتاح للأهلين نظاماً سياسياً متصلاً ببعض الاتصال ، وهذا من حدة الإنفرادية العارمة التي أوجدت النهضة ثم قضت عليها آخر الأمر . فأما الذين كانوا يرجون النظام ويسعون إليه فقد ارتضوا هذا الخضوع الذى أنجاهم من الفوضى ؛ وأما الذين كانوا يعتزون بالحرية فقد حزنوا لما أصابها بهذا السلطان . ولكن أكلاف السلم مع الخضوع للأجنبي وما فرضته على الإيطاليين من عقوبات ، سرعان ما أضرت باقتصاد إيطاليا وحطمت روحها المعنوية ، ذلك أن الضرائب الفادحة التى فرضها الولاة للاحتفاظ بمظاهر الأبهة لأنفسهم ولأداء رواتب الجند ونفقاتهم ، وصرامة قوانين أولئك الولاة ، واحتكار الدولة للحبوب وغيرها من ضروريات الحياة ، كل هذا أضرب بالصناعة والتجارة ، يضاف إلى هذا أن الأمراء الإيطاليين ساروا هم أيضاً على سنة الولاة الأجانب ففرضوا أفدح الضرائب وأشدّها فتكاً بالنشاط الاقتصادي الذى كان يمدّهم بحاجتهم من المال ، وذلك لكيلا لا يكونوا أقل من الولاة خيلاء وترفاً . واضمحلت شئون النقل البحرى إلى حد لم يعد فى وسع السفن الإيطالية الكبيرة أن تحمى نفسها من قراصنة البربر الذين كانوا يهاجمون السفن والسواحل ، ويأسرون الإيطاليين ويبيعوهم عبيداً لسراة المسلمين ، ولم يكن الجنود الأجانب الذين يقيمون فى بيوت الإيطاليين على الرغم من سكانها ، أقل إضراراً بالإيطاليين من القراصنة أنفسهم ؛ فقد كان هؤلاء يجهرّون باحتقارهم لهذا الشعب الذى لم يكن له من قبل نظير وحضارته التى لم تبلغ شأوها حضارة أخرى سابقة ؛ وكان هؤلاء حظ وافر فيما اتسم به ذلك العصر من انحلال فى الأخلاق الجنسية .

وحلت بإيطاليا كارثة أخرى ، كانت أشد وقعاً عليها من أضرار الحرب . والخضوع إلى الأسبان . تلك هى أن الطواف برأس الرجاء الصالح (١٤٨٨) ، وافتتاح الطريق المائى الكامل إلى الهند (١٤٩٨) ، قد أنقصا نفقات النقل بين الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى وبلاد آسية الوسطى .

والشرق الأقصى عنها في الطريق المتعب فوق جبال الألب إلى جنوى أو البندقية ، ومن ثم إلى الإسكندرية ، ثم بطريق البر إلى البحر الأحمر ، ثم بالبحر مرة أخرى إلى الهند . يضاف إلى هذا أن سيطرة الأتراك على هذا الطريق الثاني قد جعلته غير مأمون ، ومعرضاً لأن تفرض على من يتبعونه الضرائب والرسوم الفادحة ، كما كان معرضاً لهجمات القراصنة ، وللحروب ، وينطبق هذا بعينه وبدرجة أكبر على الطريق المار بالقسطنطينية والبحر الأسود . وكانت نتيجة هذا التحول أن اضمحلت تجارة البندقية وجنوى وحال فلورنس المالية بعد عام ١٤٩٨ ، ولم يحل عام ١٥٠٣ حتى كان البرتغاليون يبتاعون من فلغل الهند قدرأ لم يجد معه التجار البنادقة والمصريون من هذه السلعة ما يستطيعون إصداره^(١) . وكانت نتيجة ذلك أن صعد ثمن الفلغل بمقدار ثلث ثمنه الأصلي في سوق البندقية التجارية ، على حين أنه كان يباع في لشبونة بنصف الثمن الذي يطلبه التجار في البندقية ! ولهذا شرع التجار الألمان يهجرون متاجرهم على ضفة القناة الكبرى ، وينقلون مشترياتهم إلى ألبرتغال . وكاد الحكام البنادقة يحلون هذه المشكلة في عام ١٥٠٤ حين عرضوا على حكومة الماليك القائمة وقتئذ في مصر الاشتراك معها في مشروع يهدف إلى إعادة طريق القناة القديم بين دال النيل والبحر الأحمر ، ولكن استيلاء الأتراك على مصر في عام ١٥١٧ قضى على هذا المشروع .

وفي ذلك العام نفسه علق لوثر مقالاته الثورية على باب كنيسة وتبرج ، وكان الإصلاح الديني سبباً ونتيجة من أسباب اضمحلال إيطاليا الاقتصادية ونتائجها . أما أنه سبب لهذا الاضمحلال ف يرجع إلى قلة وفود الحجاج ونقص إيراد الكنيسة من الأعم الشمالية إلى رومة ؛ وأما أنه نتيجة فلأنه استبدل بطريق البحر المتوسط ومصر إلى الهند الطريق المائى كله ، ونشأت التجارة الأوربية مع أمريكا التي أغنت بلاد المحيط الأطلنطى وكانت من أسباب فقر إيطاليا . فقد أخذت التجارة الألمانية يزداد انتقالها في نهر الرين إلى مصبه في بحر الشمال ، ويقل

تنقلها فوق الجبال إلى إيطاليا ، وأضحت ألمانيا مستقلة تجارياً عن إيطاليا ، وهكذا كان اتجاه التجارة نحو الشمال والقوة الجاذبة نحو الشمال سبباً في انتزاع ألمانيا من المحيط التجاري والديني الإيطالي ، واكتسابها القوة والإرادة اللتين أمكنها بهما أن تقف على قدميها بمفردها .

وكان لكشف أمريكا آثار في إيطاليا أطول مدى مما كان لطريق الهند الجديد . فقد أخذت أمم البحر المتوسط تضمحل بعد هذا الكشف وتترك راكدة في سير الركب الآدمي وانتقال التجارة ، وبرزت أمم المحيط الأطلنطي إلى مكان الصدارة ، بعد أن اغتنت من تجارة أمريكا وذهبها . وأحدث هذا انقلاباً في الطرق التجارية أعظم من أي انقلاب آخر سجله التاريخ منذ فتحت بلاد اليونان القديمة لسفنها طريق البحر الأسود إلى أواسط آسية بعد انتصارها على طروادة . ولم يضارع هذا الانقلاب ويفقه فيما بعد إلا ما حدث من انقلاب في الطرق التجارية على أثر استخدام الطائرات في النصف الثاني من القرن الحالي .

وكان العامل الأخير في اضطلال النهضة هو حركة الإصلاح المضادة . فقد أضافت هذه الحركة إلى اضطراب أحوال إيطاليا السياسية وانحلالها الخلقي ، وإلى خضوعها لسلطان الأمم الأجنبية وما حل بها من الخراب على أيدي هذه الأمم ، وإلى تحول التجارة منها إلى أمم المحيط الأطلنطي ، وإلى ما خسرت من الموارد بسبب حركة الإصلاح الديني ، نقول إن هذه الحركة أضافت إلى هذا كله تبديلاً قوياً . ولكنه تبدل طبيعي في أحوال الكنيسة وفي مسلكها . ذلك أن حركة الإصلاح الديني الألمانية ، وانفصال إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية ، وزعامة أسبانيا في القارة الأوروبية ، قد قضت على « اتفاق » السادة المهبدين » الذي لم تصغ نصوصه أوتدون ، والذي لم يدركه فيما نظن العاملون به ، وهو اتفاق كانت الكنيسة بمقتضاه ، في أثناء ثرائها وأطمئنانها على سلطانها ، تسمح بفسط كبير من حرية التفكير للطبقات

المفكرة ، على شريطة ألا تحاول هذه الطبقات إضعاف إيمان الناس أو خلق الاضطراب فيه ، لأن هذا الإيمان هو الخيال الذى لا غنى عنه لحياتهم ، وهو مصدر نظامها وسلوتها . فلما شرع الناس أنفسهم يبنون عقائد الكنيسة وسلطانها عليهم ، ولما كسب الإصلاح الدينى أنصاراً له معتنقين مبادئه فى إيطاليا نفسها ، أوشك صرح الكاثلكة كله أن يتصدع من أساسه ؛ وأجابت الكنيسة على هذا - وكانت ترى نفسها دولة ، فسلكت كما تسلك كل دولة يتعرض كيانها للخطر ، فبدلت خططها من التسامح والحرية إلى تحفظ الخائف المرتاع وفرضت قيوداً شديدة على التفكير ، والبحث ، والنشر ، والقول . وكانت السيطرة الأسبانية تفرض الآراء الدينية والسياسية مجمعة ؛ وكان لها نصيب فى تحويل كاثلكة عصر النهضة اللينة إلى تزمّت الكنيسة الصارم الذى التزمته بعد مجلس ترنت (١٥٤٥ - ١٥٦٣) . وجرى البابوات للمذين جاءوا بعد كلمنت السابع على السنة التى سار عليها الأسبان وهى توحيد الكنيسة والدولة واستخدام القوة الناشئة من هذا التوحيد فى السيطرة الصارمة على الحياة الدينية والعقلية .

وكما أن رجلاً أسبانياً هو الذى كان سبباً فى إنشاء محكمة التفتيش حين هددت ثورة الألبجنسيين الدينية فى القرن السادس عشر سلطان الكنيسة فى جنوبى فرنسا ، وكان من نتائج هذا التهديد أن قامت طوائف دينية جديدة لخدمة الكنيسة وتجديد حماسة المسيحيين الدينية ؛ حدث أيضاً فى القرن السادس عشر أن جاءت إلى إيطاليا صرامة محكمة التفتيش الأسبانية ، وكان رجل أسباني هو الذى أنشأ نظام اليسوعيين - الجزويت (١٥٣٤) - تلك الجمعية العجيبة ، التى لم تكتف بقبول الإيمان التقليدي القديم ، إيمان الفقر ، والعفة ، والطاعة ، بل تجاوزت ذلك إلى الخروج إلى العالم لتنشر الدين الصحيح ، ولتكافح فى كل مكان من العالم المسيحى الإلحاد أو الخروج على الدين . وكانت حدة الجدل الدينى فى عهد الإصلاح ، وكان تزمّت المبادئ الكلفنية

وعدم تسامحها ، واضطهاد المذهبيين المتعاضدين أحدهما للآخر في إنجلترا ، كان هذا كله مشجعاً على وجود تعسف مقابل له في إيطاليا^(٢) ، وحلت مبادئ إجناتشوس ليولا Ignatius Loyala وجهاده الديني محل مبادئ إرزمس الحرة المتحضرة ؛ ذلك أن الحرية ترف لا يكون إلا مع الأمن والسلم .

واتسع نطاق الرقابة على المطبوعات التي بدأت أيام البابا سكستس الرابع فوضعت في عام ١٥٥٩ قوائم بالكتب المحرمة لخطرها على الدين أو الأخلاق ، وأنشئ مجلس لوضع قوائم التحريم في عام ١٥٧١ . ويسر استعمال الطباعة أعمال الرقابة ، ذلك أن مراقبة الطابعين العموميين كانت أيسر من مراقبة الأفراد النساخين . وحدث في البندقية التي كانت تكرم وفادة اللاجئين المفكرين والسياسيين أن شعرت الدولة نفسها بما في الانقسام الديني من ضرر على الوحدة الاجتماعية والنظام ، وفرضت (١٥٢٧) رقابة على المطبوعات ، وانضمت إلى الكنيسة في منع نشر المطبوعات البروتستنتية . وقاوم الإيطاليون هذه الخطط في أماكن متفرقة ؛ وبلغ من حنقهم على واضعيها أن الجماهير من أهل رومة ألقوا بتمثال البابا بولس الرابع بعد موته (١٥٥٩) في نهر التبر ، وأحرقت المقر الرسمي لمحكمة التفتيش ، وظلت النار مشتعلة فيه حتى دمرته عن آخره^(٣) . لكن هذه المقاومة لم تكن منظمة بل كانت مفردة منقطعة ، وغير ذات أثر فعال ، وبذلك انتصر الطغيان ، واستحوذت على روح الإيطاليين التي كانت من قبل مرحة ، مبتهجة ، متدفقة ، نزعاً من الاكتئاب ، والتشاؤم ، والاستسلام ، حتى لقد صارت عادة لبس الثياب السود - القلنسوة السوداء ، والصدارة السوداء ، والجوارب السوداء ، والحذاء الأسود - صارت هذه العادة طراز إيطاليا التي كانت في سالف الأيام مولعة بالألوان الزاهية ، كأن الشعب قد اتشح بالسواد حداً على المجد الذي زال والحرية التي ماتت^(٤) .

وصحب هذا الارتكاس الذهني بعض التقدم الخلقى . فقد تحسن سلوك

رجال الدين بعد أن بعثت فيهم المذاهب المتنافسة روح الحمية ، فقام البابوا ومجلس ترنت بإصلاح كثير من مساوئ الكنيسة . وليس من السهل أن نقول هل حدث تحسين مثل هذا في أخلاق غير رجال الدين ؛ ويبدو أن من السهل جمع بعض الشواهد الدالة على الشذوذ الجنسي ، وعلى وجود أبناء غير شرعيين ، وعلى مضاجعة المحارم ، وعلى ظهور الآداب البذيئة ، والفساد السياسى ، والسرقه ، والجرائم الوحشية فى إيطاليا بين عامى ١٥٣٤ - ٧٦ كما كانت تحدث فيها من قبل^(٦) . وتدل سيرة بينثينوتو تشلبنى Beyenuto Cellini الذاتية على أن الفسق ، والزنا ، والسطو ، والاغتياى كانت تمتزج بعقائد ذلك العصر . وبقي القانون الجنائى على ما كان من قسوة فى سابق العهد : فالتعذيب كثيراً ما كان من الوسائل التى يلجأ إليها فى استخلاص الشهادة من الشهود ضد البريئين ، كما كان يلجأ إليه لانتزاع الاعتراف من المتهمين ، وكان لحم القاتلين لا يزال ينتزع بالكلابات المحمية . الحمراء قبل أن يشنقوا^(٧) . وكانت عودة الاسترقاق بوصفه نظاماً من النظم الاقتصادية الكبرى من أعمال ذلك العهد ، وشاهد ذلك أن البابا بولس الثالث حين أعلن الحرب على إنجلترا فى عام ١٥٣٥ قرر فى هذا الإعلان أن أى جندى بريطانى يؤسرفى هذه الحرب يصح أن يتخذ رقيقاً بحكم القانون^(٨) ، ونشأت حوالى عام ١٥٥٠ عادة استخدام العبيد والمذنبين لحر سفن التجارة والحرب .

على أن بابوات ذلك العهد كانوا مع ذلك رجالا ذوى أخلاق عالية نسبياً فى حياتهم الخاصة . وكان أعظمهم جميعاً بولس الثالث - وكان بولس هذا هو بعينه ألسندرو فارينزى الذى نال منصب الكردينال لما كان لشعر أخته الذهبى من أثر فى نفس الإسكندر السادس . ولسنا ننكر أن بولس هذا كان له ابنان غير شرعيين^(٩) ، ولكن هذه كانت عادة مقبولة فى أيام شبابه ، وكان فى وسع جوتشياردينى على الرغم منها أن يصفه بأن « رجل يزيته العلم والأخلاق الفاضلة المرأة من كل عيب »^(١٠) . وكان بمبونوس

ليتوس Pomponius Laetus قد نشأه على أن يكون من الكتاب الإنسانيين ، ومن أجل ذلك كانت رسائله تضارع رسائل إرزمس في ظرف لغتها اللاتينية الفصحى ، وكان محدثاً مهذباً يحيط نفسه برجال قادرين ممتازين . على أن السبب في اختياره للكرسى البابوى لم يكن لمواهبه وفضائله بقدر ما كان لكبر سنه وضعفه ؛ فقد كان في سن السادسة والستين ، وكان في وسع الكرادلة أن يثقوا بأنه سيموت بعد قليل ، ويتيح لهم فرصة أخرى للمساومة ونيل المناصب الكنسية التي تدر عليهم المال الوفير^(١) ، ولكنه ظل يقاوم رغباتهم خمسة عشر عاماً كاملاً .

أما من حيث رومة ، فقد كانت مدة توليته البابوية من أسعد الأيام في تاريخها . ففي أيامه كلف لاتينو مانتى Latino Manetto المشرف على المباني في أيامه أن يجفف الأرض ، ويسويها ، ويوسع الشوارع ويشق كثيراً من الميادين العامة الجديدة ، وأن يستبدل بالأحياء القذرة مباني فخمة جميلة ، وحسن بهذه الطريقة أحد الشوارع الكبرى — المعروف باسم شارع بولس Paul's Codso — حتى أصبح يضارع شامب إلزيه Champs Elysées في باريس . وكان أعظم أعمال بولس الدبلوماسية أنه أقنع شارل الخامس وفرانسيس الأول بأنه يعقدا هدنة تدوم عشر سنين (١٥٣٨) . وكاد يصل إلى غرض عظيم نبيل — هو التوفيق بين الكنيسة وبين البروتستانتية الألمانية — لولا أن جهوده قد جاءت بعد الأوان . وقد أوقى من الشجاعة — التي يعوزها كلمنت السابع — ما جعله يدعو إلى عقد مجلس عام للكنيسة . ونشر مجلس ترنت المتعقد تحت رياسته بموافقة العقيدة الدينية الصحيحة ، وأصلح كثيراً من مساوئ رجال الدين ، وأعاد النظام والأخلاق الفاضلة بين القسيسين ، واشترك مع اليسوعيين في منع الأمم اللاتينية من الانشقاق على الكنيسة الرومانية .

وكانت نقطة الضعف المفجعة في بولس هي تحيزه لأقاربه ، فقد وهب

كميرينو Comerino الحفيده أتاڤيو ، وحبا ابنته ڤيرلويجي Pierluigi بڤياتشيندسا
وڤارما . فأما ڤيرلويجي فقد اغتاله الأهلون الخانقون ، وأما أتاڤيو فقد انضم
إلى مؤامرة دبرت ضد جده . ومل بولس بعد ذلك الحياة ، ومات بعد
عامين من ذلك الوقت بسكنة قلبية في سن الثالثة والثمانين (١٥٤٩) .
وحزن الرومان على موته كما لم يحزنوا على موت بابا آخر منذ أيام ڤيوس
الثاني الذي جلس على كرسي البابوية قبل مائة عام من ذلك الوقت .

الفصل الثانى

العلم والفلسفة

ظلت إيطاليا تتقدم فى العلوم غير ذات الأثر فى اللاهوت تقدماً معتدلاً إلى الحد الذى يمكن أن تتقدمه أمة يغلب عليها الميل إلى الفن والأدب ، وتنفرد من النزعة العقلية التى قطعت الصلة بالضمير . وتزدان تلك الفترة القصيرة بأسماء فارولى Varoli ، ويوستاشيو Eustachio ، وفالوپيو Fallopio الذين برزوا فى علم التشريح الحديث . وكشف نقولو تارتاجليا Niccolo Tartaglia طريقة لحل معادلات الدرجة الثالثة ؛ وأسر بطريقته إلى جيروم كاردان Jerome Cardan (جيرومينو كاردانو Geromino Cordano) الذى نشرها على أنها طريقته هو (١٥٤٥) . وتحذاه تارتاجليا أن يدخل معه فى مبارزة جبرية ، يعرض فيها كلاهما لإحدى وثلاثين مسألة يحلها الآخر . وأخفق التلميذ ونجح تارتاجليا ، ولكن كاردان كتب سيرة لنفسه عجيبة . فاتفئة خلدت اسمه على مر الأيام .

وتبدأ السيرة بالصراحة العجيبة التى تسرى فيها من أولها إلى آخرها :

ولدت فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠١ مع أن أدوية لإجهاض أمى قد جربت ولم تفجح كما سمعت ومع أن المشتري كان فى الأوج والزهراء كانت تسيطر على طالغى ، فلانى لم أصب بعاهة تمنعنى من العمل الدائم ، إلا فى أعضائى التناسلية ، ولهذا فإنى ظلت من سن الحادية والعشرين إلى الحادية والثلاثين عاجزاً عن مضاجعة النساء ، وكثيراً ما رثيت لمصيرى . وحسدت كل من عداى على حسن حظه !؟

ولم تكن هذه عاهته الوحيدة ؛ فقد كان يتهته فى كلامه ، وظل طول

حياته يشكو بحة الصوت والرشح في الحلق ، وكثيراً ما كان يصاب بعسر الهضم ، وخفقان القلب ، والفتق ، والمغص ، وزحار البطن ، والبواسير ، والنقرس ، والحكة في الجلد ، وسرطان في حلمة الثدي اليسرى ، وأصيب بالطاعون ، والحمى الثلاثية ، وكانت نتائجه « فترة سنوية من الأرق تدوم نحو ثمانين يوماً » . « وفي عام ١٥٣٦ أصابني انطلاق البول بدرجة مدهشة كبيرة ، ومع أني قد مضى على نحو أربعين عاماً أقاسى شر هذا الداء ، فأفرز من البول ما بين ستين ومائة أوقية في اليوم ، فلن أعيش سليماً فيما عدا ذلك » (١٣) .

ولاذ كان قد وهب كل هذه التعجبات الطبية ، فقد صار طبيباً ناجحاً ، داوى نفسه من كل داء تقريباً إلا داء الغرور ، واشتهر بأنه أكثر من يسعى إليه من الأطباء في إيطاليا ، وكان يطلب من بلاد بعيدة مثل اسكتلندة ليداوى رئيس أساقفة عجز عن مداواته نطس الأطباء ، فشفاه هو من مرضه . وألقى وهو في الرابعة والثلاثين من عمره محاضرات عامة في العلوم الرياضية بميلان ، كما ألقى محاضرات في الطب وهو في سن الخامسة والثلاثين . وفي عام ١٥٤٥ نشر كتاباً يدعى *الفنونه الكبرى* Ars Magna استعار عنوانه من ريموند لى Raymond Lully ، أضاف فيه معلومات قيمة إلى علم الجبر الذى لا يزال يتحدث عن « قاعدة كاردان » لحل المعادلات التكعيبية . ويبدو أنه هو أول من قال إن معادلات الدرجة الثانية قد تكون لها جذور سالبة . وقد بحث هو مع تارتاجليا وقبل ديكارت بزمن طويل في إمكان استخدام الجبر في الهندسة (١٤) . وبحث في كتابه De Subtilitate Rerum (١٥٥١) في موضوع التصوير بالألوان ، ونلخص في De Rerum Varietate (١٥٥٧) المعلومات الطبيعية المعروفة في أيامه ، وهو مدين في هذين الكتابين بالشيء الكثير لمخطوطات ليوناردو التى لم تكن قد نشرت وقتئذ (١٥) . وقد ألف وسط أمراضه ، وأسفاره ، ومتاعبه الشديدة المرهقة ٢٣٠ كتاباً ، طبع منها

حتى الآن ١٣٨ كتاباً ، وقد أوتي من الشجاعة ما يكفي لإحراق بعضها .
وعلم الطب في جامعتي بافيا وبولونيا ، ولكنه كان يخلط علمه بالمعلومات
السحرية الخفية ، وبالزهو الصارخ الذي أفقده احترام زملائه . وقد خصص
مجلداً كبيراً لبحث العلاقات القائمة بين الكواكب ووجه الإنسان ؛ وبلغ
من الخبرة والسخف في تفسير الأحلام ما بلغه فرويد Freud . كما بلغ من
قوة الإيمان بالملائكة الحافظين ما بلغه الراهب أنجيلكو . ولكنه مع ذلك
ذكر أسماء عشرة رجال قال إنهم أصحاب أكبر العقول في التاريخ ولم تكن
كثرتهم الغالبة من المسيحيين : أرخميدس ، وأرسطو ، وإقليدس ،
وأبولونيوس البرجاوى ، وارثيتاس التارنتوى Archytas of Tarentum
والخوارزمي ، والكندى ، وابن جبر ، ودنزا سكوتس ، ورتشرد اسوينزهد
Richard Swineshead — وكلهم من العلماء ما عدا دنزا سكوتس .
وخلق كاردان لنفسه مائة عدو ، وجلب على نفسه ألف تهمة مزورة ،
وكان تعيساً غير موفق في زواجه ، وحاول عبثاً أن ينقذ ابنه الأكبر من
الإعدام لأنه سم زوجته خائنة . ثم انتقل إلى رومة في عام ١٥٧٠ ، واعتقل
فيها إما لأنه مدين ، وإما لأنه ملحد ، أو لكلتا التهمتين معاً ، ولكن جريجورى
الثالث عشر أطلق سراحه ورتب له معاشاً سنوياً .

كتب وهو في سن الرابعة والسبعين كتاب سر هيبلى De vita propria
liber — وهو إحدى ثلاث سير ذاتية ألقت في تلك الفترة من الزمن في
إيطاليا . وقد حلل نفسه في هذا الكتاب بثرثرة وأمانة قريبتين كل القرب
من ثرثرة متنانى وأمانته — حلل جسمه ، وعقله وخلقه ، وعاداته ، وميوله ،
ما يحب وما يكره ، فضائله ، ورذائله ، وأسباب شرفه وعدم شرفه ،
وخطاه ، ونبوءاته ، وأمراضه ، وتقلباته ، وأحلامه . هو يتم نفسه ،
بالعناد ، والحق ، وعدم الألفة مع بنى جنسه ، والتسرع في أحكامه ،
والخصام ، والغش في لعب الميسر ، والميل إلى الانتقام ، ويذكر : « تبدل

الحياة الفاجرة التي كنت أحيها في العام الذي كنت فيه مديراً للجامعة
بدوا» (١٦). ويذكر قوائمه: «بالأشياء التي أشعر أنني أخفقت فيها» وخاصة
حسن تربية أبنائه ، ولكنه أيضاً يورد أسماء ثلاثة وسبعين كتاباً ذكر فيها
اسمه ، ويحدثنا عما كان له من كثير من ضروب العلاج الناجحة والتنبؤات
الصادقة ، وعن مقدرته الفائقة في المناقشات . وهو يأسف لما أصابه من
ضروب الاضطهاد ، وللأخطار « التي أحاطت بي بسبب أرائي التي لا تتفق
مع السنن المألوفة » (١٧) : ويسأل نفسه ، « أي حيوان أراه أشد غدرآ ،
وخسة ، وخداعاً من الإنسان ؟ » ثم لا تجيب عن هذا السؤال ، ولكنه
يسجل أشياء كثيرة توفر له السعادة ، منها التغير ، والطعام ، والشراب ،
وركوب البحر ، والموسيقى ، ومناظر الدمى المتحركة ، والققط ، والعفة ،
والنوم ، ويقول : « إذا نظرت إلى جميع الأغراض التي قد يبلغها الإنسان ،
نخيل إلى أن أعظم ما يسبب لي السرور منها هو الاعتراف بالحقيقة » (١٨) .
وكان مطلبه المحبب إليه هو دراسة الطب ، الذي ابتكر فيه كثيراً من أنواع
العلاج المدهشة .

ذلك أن الطب كان هو العالم الوحيد الذي تقدم تقدماً ملحوظاً في هذه الفترة
من فترات الانحلال في إيطاليا . وقد قضى أعظم علماء ذلك العصر كثيراً
من السنين في إيطاليا يتعلمون ويعلمون — كوبرنيق من ١٤٩٦ إلى ١٥٠٦ ،
وفيساليوس Vesalius من ١٥٣٧ إلى ١٥٤٦ ، واكننا ليس من حقنا أن نختلسهما
من بولندة وفلاندرز لنزيد بذلك من تكريم إيطاليا . وقد شرح ريبالدو كولبو
Realdo Colombo الذي خلف فيساليوس في منصب أستاذ التشريح في
جامعة بدوا دروة الدم في الرئتين في كتابه ده ره أناتمكا Dere Anatomica
(في التشريح) ، وأكبر الظن أنه لم يكن يعلم أن سفيرتوس Severtus
قد وضع هذه النظرية نفسها قبله بأثنتي عشرة سنة . وكان كولبو يشرح
جثث الموتى من الآدميين في بدوا ورومة ، دون معارضة من رجال الدين

كما يلوح^(١٩) . ويبدو كذلك أنه كان يشرح الكلاب ، وكشف جبريلي . فالپيو ، أحد تلاميذ فيساليوس القنوات النصف الدائرية والعصب السمعي للأذن ، والقناتين اللتين تسميان باسمه^(*) واللتين تنقلان البيض من المبيض إلى الرحم . كذلك كشف بارتوليو أوستاكيو القناة الأوستاكية في الأذن والصمام الأوستاكي في القلب ، ونحن مدينون له أيضاً باكتشاف العصب المُبَعَّد ، والأجسام الفوكلية (التي فوق الكليتين) ، والقناة النعيرية . ودرس قسطنطسو فارولى Costanzo Varoli قنطرة فارولى - وهي كتلة من الأعصاب عند السطح السفلى للمخ .

وليس لدينا أرقام نعرف منها ما كان لاكتشوف الطبية من أثر في إطالة العمر في عصر النهضة . ولكننا نعرف أن فارولى توفى في الثانية والثلاثين من عمره ، وأن فالپيومات في سن الأربعين ، وكولبو في الثالثة والأربعين ، وأوستاكيو في سن الخمسين . ثم نعرف بعكس هذا أن ميكل أنجياو عاش حتى بلغ التاسعة والثمانين ، وأن تيشيان عاش إلى التاسعة والتسعين ، ولويجي كرنارزو كاد يبلغ مائة عام . وقد ولد لويجي هذا في البندقية عام ١٤٦٧ ، وكان يملك من المال ما يكفي لأن يجعله يستمتع بجميع أنواع الملاذ من طعام ، وشراب ، وحب . « وكان من نتائج هذا الإفراط أن وقع فريسة لعدة أمراض ، كالآلام المعدية ، والآلام الكثيرة في الجنب ، وأعراض داء الرئبة . . . والحمى غير الشديدة التي لا تكاد تفارقه . . . والظمأ الذي لا يرتوي أبداً . ولم تترك لي هذه الحال السيئة أملاً أرتجيه إلا أن يقضى الموت على متاعبي » . ولما بلغ سن الأربعين ترك الأطباء جميع الأدوية وأشاروا عليه بأن أمله الوحيد في الشفاء هو « الاعتدال والحياة المنظمة . . . فلا أتناول من الطعام الصلب أو السائل إلا ما يصفونه للمرضى ، وحتى هذا يجب ألا أتناول منه إلا مقادير قليلة » . وكان يسمح له بتناول اللحم وشرب النبيذ ، على شرط أن يعتدل .

(*) يقصد تفاق فلوب وهما قناتان في إفناث الثدييات . (المترجم)

فهما ، وما لبث أن أنقص مقادير طعامه وشرابه إلى اثنتى عشرة أوقية من الطعام وأربع عشرة من النبيذ . ويقول لنا إنه لم تمض على ذلك سنة واحدة حتى « وجدت أننى قد شفيت شفاء تاماً من جميع أمراضى . . . وتحسنت صحتى تحسناً تاماً ، وبقيت كذلك من ذلك الوقت إلى الآن » (٢٠) . أى إلى سن الثالثة والثمانين . وقد وجد كذلك أن هذا النظام وذاك الاعتدال فى العادات الجسمية يخلقان نظائر لهما فى الصفات والصحة العقلية ، « فقد بقى مخه صافياً على الدوام ، . . . » وفارقه « الكآبة ، والكرهية ، وغيرهما من الانفعالات » . وحتى حاسة الجمال نفسها قد قويت لديه ، وبدأت له جميع الأشياء الجميلة أبدع مما كانت فى أى وقت من الأوقات الماضية .

وقضى فى بلدوا شيخوخة هادئة ناعمة ، قام فيها بأعمال عامة وأغلق عليها المال ، وكتب وهو فى سن الثالثة والثمانين سيرته الذاتية المسماة *Discorsi della vita sobria* . وقد صور له تنتورتو فى صورة لطيفة : نراه فيها أصلع الرأس ولكنه متورد الوجه ، صافى العينين نفاذهما ، ذا تجاعيد فى وجهه ثم عن جب الخير ، ولحية بيضاء قلل من شعرها مر السنين ، ويدين لا تزالان تكشفان عن شباب أرسنقراطى ، وإن كان قد قرب من الموت . وإن تجاوزه سن الثمانين ليعث فينا الشجاعة حين تراه يسخر من الذين يظنون أن الحياة بعد السبعين ليست إلا تأجيلاً للموت وأنها حياة سقم تافهة لا معنى لها :

ألا فليأتوا وينظروا ، إلى صحتى الجيدة ، ويعجبوا كيف أمتطى صهوة الجواد دون مساعدة ، وكيف أصعد الدرج مهرولاً والتل مسرعاً ، وليروا ابتهاجى ، ومرحى ، ورضائى ، وتحررى من المم والأفكار غير السارة ، إن الطمأنينة والبهجة لا تفارقتى أبداً . . . وكل حواسى (بحمد الله !) على أحسن حال بما فيها حاسة الذوق ؛ ذلك أنى أستمتع بالطعام البسيط الذى أتناوله باعتدال أكثر من استمتاعى بشهى الطعام الذى كنت أطعمه فى

عنى حياتى المضطربة : وإذا ما عدت إلى بيتى فإنى لا أرى أمامى حفيداً
أو حفيدين بل أبصر أحد عشر من الأحفاد الصغار وأنتهج حين
أسمعهم يغنون ويعزفون على آلات موسيقية مختلفة . وأنا نفسى أغنى
وأدرك أن صوتى أحسن ، وأكثر صفاء ، وأعلى نغمة مما كان فى أى وقت
مضى فحياتى إذن حية لامية ، ولست أرغب فى أن أستبدل
بشيخوختى شباب الذين يعيشون عبيداً لشهواتهم (٢١) .

وكتب فى السادسة والثمانين وهو «ممتلئ عافية وقوة» بحثاً ثانياً ، يعبر
فيه عن سروره لأن عدداً من أصدقائه سلكوا سبيله فى الحياة ، وأخرج فى
الحادية والتسعين من عمره بحثاً ثالثاً حدثنا فيه كيف «أكتب على الدوام ،
ويبدى ، ثماني ساعات فى اليوم ، وأنا فضلاً عن هذا أرتاض ،
وأغنى ساعات أخرى كثيرة لأننى أحس حين أغادر المائدة أن لا بد لى
أن أغنى ألا ما أحلى ما صار إليه صوتى وما أقواه !» . وألف
وهو فى الثانية والتسعين نصيحة مبعثها الحب إلى جميع بنى الإنسان يحضهم
فيها على انتهاز سبيل الحياة المنتظمة المعتدلة (٢٢) . وكان يتطلع إلى أن يتم
مائة عام ، وأن يموت ميتة سهلة ، بعد أن تنقص فيها قوة حواسه ومشاعره ،
ونشاطه الحيوى نقصاً تدريجياً . ومات ميتة هادئة فى عام ١٥٦٦ ، فى التاسعة
والتسعين كما يقول البعض ، وفى الثالثة أو الرابعة بعد المائة كما يقول غيرهم .
وعملت زوجته ، كما يقال بنصائحها ، وعاشت حتى كادت تبلغ المائة وماتت
فى أتم ما يطلبه المرء من راحة الجسم وطمأنينة النفس (٢٣)

ولسنا نتوقع أن نجد فيلسوفاً كبيراً فى هذا الحيز الصغير من المكان
والزمان . لكننا نجد فيهما مع ذلك عدداً من الفلاسفة نذكر منهم ياقوبو
أكندسيو Jacopo Aconzio وهو بروتستنتى إيطالى كتب رسالة سماها
De Methoda (١٥٥٨) مهد فيها بعض السبيل إلى ديكارت ، ثم كتب
رسالة أخرى سماها De Stralagimatibus Satanae (١٥٦٥) أوتى فيها

من الجراءة ما جعله يسير إلى أن جميع المسيحيين يمكن أن يجمعوا على عدد قليل من العقائد يعتقدونها كلهم لا تدخل فيها فكرة التثليث^(٢٤). وشق ماريو نتسولى Mario Nizzoli الطريق إلى فرانسس بيكن يقدحه في سيطرة أرسطو على الفلسفة ، وأخذ يطالب بالملاحظة المباشرة واطراح الاستدلال العقلى ، ويندد بعلم المنطق ريسميته الفن الذى يثبت أن الخطأ صواب^(٢٥) . وانضم برناردينو تيليزيو Bernardino Telesio من أهل كوسيندسا Cosenza في كتابه De rerum natura (١٥٦٥ - ١٥٨٦) إلى نتسولى Nizzoli وبيير لاراميه Pierre la Ramee في نشر الثورة على سلطان أرسطو ، والدعوة إلى العلوم التجريبية ، وقال إن الطبيعة يجب أن تفسر نفسها بنفسها . طن طريق التجارب التى تتلقاها حواسنا . ويقول تيليزيو إن ما نراه هو المادة تعمل فيها قوتان ، الحرارة الآتية من الجو ، والبرودة الخارجة من الأرض ، فالحرارة تنتج التمدد والحركة ، والبرودة تودى إلى الانكماش والسكون . وفي اضطراع هذين المبدأين يكمن الجوهر الداخلى لكل الظواهر الطبيعية وتسير هذه الظواهر وفق علل طبيعية ، وقوانين متأصلة فيها ، دون أن تدخل في ذلك قوة إلهية . على أن الطبيعة نفسها ليست راكدة هاملة ، بل إن للجادات نفسا كما للإنسان . وقد استمد تومسو كپانيلا Thomasso Campantes ، وجيوردانو برونو Giordano Bruno ، وفرانسس بيكن شيئا من هذه الأفكار فيما بعد . وما من شك في أن قسما من الحرية والتسامح قد بقى في الكنيسة جعلها تسمح بأن يموت تيليزيو ميتة طبيعية (١٥٨٨) ، أما بعد موته باثنتى عشرة سنة فإن محكمة التفتيش قد أحرقت برونو فوق المحرقة .

الفصل الثالث

الأدب

انتهى في ذلك الوقت عهد العلم ودراسته في إيطاليا : وأمسكت فرنسا
بشعلة العلوم حين هاجر يوليوس قيصر اسكالبير من فيرونا إلى أجن
Agen في عام ١٥٢٦ . وخلق بنا ألائنسى أثر الحرب في تجارة الكتب ،
وفي وسعنا أن نتبين هذا الأثر من الإحصاء التالى : نشرت فلورنس في
العقد الأخير من القرن الخامس عشر ١٧٩ كتابا ، ونشرت ميلان ٢٢٨ ،
ونشرت رومة ٤٦٠ ، والبندقية ١٤٩١ . أما في العقد الأول من القرن السادس عشر
فقد نشرت فلورنس ٤٧ كتابا ، وميلان ٩٩ ، ورومة ٤١ ، والبندقية
٥٣٦ (٢٦) . وقضى في ذلك العهد على الجامعات العلمية التي أنشئت للدراسات
القديمة - المجمع الأفلاطونى في فلورنس ، والمجمع الرومانى الذى أنشأه بمبونيوس
ليتوس ، والمجمع الحديد في البندقية ، ومجمع نابلى الذى أنشأه بنتانوس
Pontanus . وأضحى دراسة الفلسفة الوثنية مغضوباً عليها إذا استثنينا دراسة
فلسفة أرسطو بعد أن استحوالت فلسفة كلامية (مدرسية) ؛ وحلت اللغة
الإيطالية محل اللاتينية بوصفها لغة الأدب . ونشأت في ذلك الوقت مجامع
علمية جديدة ، وأكثر ما تخصصت فيه النقد الأدبى واللغوى ، وكانت
مراكز لتبادل المستمعين إلى شعراء المدينة : ففي فلورنس وجد مجمع دلا
كرسكا Della Crusca (١٥٧٢) وأوميدى Umidi ، وفي البندقية أنشئ
مجمع بيليغرينى Pellegrini ، وفي بادوا وجد مجمع إيريتى Eretei ، واتخذ
كل مجمع لنفسه اسماً أكثر من هذه سخفاً : وكانت هذه الجامعات تشجع القراءة
وتحقيق العبقرية ، فقد كان الشعراء يبذلون غاية جهدهم لإطاعة القواعد
التي يضعها الذين يهتمون بانتقاء الألفاظ ، ولهذا فر الإلهام إلى ملاجئ أرحب

وأكثر حرية : ولم يكن ميكل أنجيلو من المنتمين إلى أى مجمع أدبي ، ومع أنه كان يفعل ما يفعله غيره فيطلق لخياله العنان في الإتيان بالربط البالي من الأفكار ، وحشر لهيب حماسته في قوالب من الأدب فاترة شبيهة بقوالب بترارك الأدبية ، فإن أغانياته الفجة الخشنة في شكلها القوية في شعورها وتفكيرها هي خير ما كتب من الأدب الإيطالي في ذلك العهد . وفرلويجي ألأماني Luigi Alamanni من فلورنس إلى فرنسا ، وأنشأ قصيدة في الزراعة - La Coltivazione (*) - لا تنقص كثيراً عن قصائد فرجيل المعروفة بالزواحيات Georgics في جمعها بين الحرث والشعر . وكترر برناردو تيسو في ذكره لما سعى حياته ما حل من محن بولده الشهيد توركوأتو Torquato ، وإن أغانيه الشعرية لمن أكثر الأغاني تكلفاً في ذلك العصر . وقد كتب ملحمة تدعى أماديجي Amadigi روى فيها بالشعر الثقيل الممل قصة الفروسية المسماة أماديس الغالي Amadis de Gaul . لكن الجمهور الإيطالي لم يجد فيها ما يجده في ملحمة أريستو من فكاهة عالية منعشة للنفس فتركها تموت موتاً هادئاً ،

أما القصة القصيرة novella فقد بقيت واسعة الانتشار محببة للشعب منذ وهبتها قصص ديكمرن صورته التي كانت لها عند اليونان والرومان الأقدمين . وكانت تكتب في لغة سهلة ، وتصف عادة أحداثاً مسرحية أو مناظر داخلية في الحياة الإيطالية . وكانت جميع طبقات الشعب ترحب بهذه القصص ، وكثيراً ما كانت تقرأ بصوت عال للمستمعين المتلهفين على سماعها ، وكان أكثرهم لفة على الاستماع لها هم العامة الجهال ، ولهذا كان المستمعون لها هم جميع الإيطاليين . ولا يسعنا في هذه الأيام إلا أن نعجب من تسامح النساء في عصر النهضة اللاتي كن يستمعن إلى هذه القصص

(*) شارك ألأماني ترسينو Triestino وچيوفاني رتشيلاي Rucellai فيما امتازا به من أنهما من أوائل من كتبوا بالشعر (المرسل) في إيطاليا .

دون أن تعرفهم فيما نعرف حمرة الخجل . فقد كان الحب ، وإغواء النساء ، والاعتصاب ، والمغامرات ، والفكاهة ، والعاطفة ، ووصف المناظر الطبيعية — كانت هذه هي مادة القصص ، وكانت كل طبقة من طبقات المجتمع تملؤها بالشخصيات وأنماط الحياة .

وكادت كل مدينة تحتوى على كاتب ماهر في الصورة التي يختارها لقصصه . ففي سالرنو نشر توماسو ده جوارداتي Tomasso de Guardati المعروف باسم ماسوتشيو Masuccio في عام ١٤٧٦ خمسين قصة من هذا النوع سماها Novellino ، يشيد فيها بكرم الأمراء ، وتبذل النساء ، ورذائل الرهبان ، ونفاق جميع بني الإنسان . وهي أقل صقلا من قصص بوكاتشيو القصيرة ، ولكنها كثيراً ما تفوقها إخلاصاً ، وقوة ، وفصاحة . وفي سينا اتخذت القصة القصيرة صيغة شهوانية ، فامتألت صفحاتها بقصص وثنية عن الحب المبذل . وأنجبت فلورنس أربعة من كتاب القصص الذائعي الصيت Novellieri ، هم فرانكو ساكيتي Franco Sacchetti صديق بوكاتشيو ومقلده ، الذي فاقه بأن كتب ثلثمائة قصة قصيرة ، كان انحطاطها وبذاعتها سبباً في أن يقرأها كل إنسان تقريباً . وخصص أنجولو فيرنندسولو Angelo Firenzulo كثيراً من قصصه للتنديد بآثام رجال الدين ، فوصف فيها ما يحدث في أحد الأديرة ذات السمعة السيئة ؛ وفضح الأساليب التي يلجأ إليها من يتلقون الاعتراف فيغرون الصالحات من النساء بأن يوصين بمأهن إلى الأديرة ، وانخرط هو بعدئذ في سلك للرهبان من طائفة قلمبروز Vallombrosan order . وبرع أنطون فرانتشيسكو جراتسيني Anton Francesco Grazzini ، المعروف في إيطاليا باسم ال لاسكا Il Lasca أي الروش(*) ، في كتابة القصص الفكاهية ، ويشبه في هذا الماغن بيلوكا Pilucca ولكنه يستطيع أيضاً أن يضيف إلى فكاهاته الأمور

(*) سمك أوربي يعيش في الماء العذب فضى اللون . (المترجم)

الجنسية وسفك الدماء . فقد روى مثلاً قصة زوج فاجأ زوجته وهى تزنى مع ولده ، فقطع أيديهما وأقدامهما ، وسمل أعينهما ، وقطع لسانهما وترك الدم ينزف منهما حتى ماتا على فراش الحب . وطرده أنطون فرانثيسكو دونى Anton Francesco Doni وهو راهب وقس سرافنى من دير البشارة (١٥٤٠) متهما ، فيما يبدو بالواط ؛ وانضم فى پياتشندسا إلى ناد من الفجار عبدة الشهوات ، ثم قدم إلى البندقية وكان فيها عدو أريتينو الألد ، وكتب فى الطعن عليه كتيباً سمى بذلك الاسم المنذر بسوء عقباة ، وهو « زلزال دونى الفلورنسى ، وتدمير الصنم الكبير عدو المسيح الوحشى فى عصرنا » ؛ وكان فى هذه الأثناء يكتب قصصاً تشتهر بفكاهتها اللاذعة وأسلوبها القوى .

وكان أحسن كتاب القصص فى ذلك الوقت هو ماتيو بانديلو Matteo Bandello الذى طاف فى حياته بنصف قارة وعاش نصف قرن (١٤٨٠ - ١٥٦٢) ، وكان مولده بالقرب من تورتونا Totona ؛ ولهذا لم يلبث أن انضم إلى طائفة الرهبان الدمنيك الذين كان عمه زعيمهم . ونشأ فى دير سانتا ماريا دلى جرادسى بميلان ؛ ويبدو أنه كان فى ذلك الدير حين رسم ليوناردو صورة العشاء الأخير فى مطعمه ، وحين دفنت بيتريس دست فى الكنيسة المجاورة له . وقضى فى مانتوا ست سنين من حياته مريباً لأبناء الأسرة المالكة ، وغازل فيها لكريدسيا جندساجا ، وأبصر لإزبلا وهى تقاوم بكل ما كان لديها من فنون أثر الشيخوخة . ولما عاد إلى ميلان عاون الفرنسيين معاونة جديّة ضد القوات الألمانية - الأسبانية فى إيطاليا ؛ ولما حلت الكارثة بالفرنسيين فى پاڤيا حرق بيته ، ودمرت مكتبته تدميراً لا يكاد يبق لها أثر ، وكان من بين ما فيها معجم لاتينى أوشك أن يتمه . وفر وقتئذ إلى فرنسا ، والتحق بخدمة سيزارى فريجوسو Cesare Fregoso ، زعيم طائفة الرهبان الدمنيك ، وأخلص له ، وعين أسقف آجن (١٤٥٠)

وقد جمع في ساعات فراغه ٢١٤ قصة كتبها في حياته السابقة ، وصقلها "الصقل الأدنى الأخير وغشى ما فيها من فحش قليل بالمغفرة التي نالها من الأساقفة ، ثم طبعها في لوكا في ثلاثة مجلدات (١٥٥٤) ، اتبعها بمجلد رابع في ليون ١٥٧٣ .

وتدور حبكة القصص عند بانديلو في الأعم الأغلب ، كما تدور عند غيره من كتاب القصة على الحب أو العنف ، أو على أخلاق طوائف الإخوان والرهبان ، والقسيسين . ففيها فتاة حلوة تثار لنفسها من محب نحائن فتمزقه إرباً بكلمات ؛ وزوج يرغم زوجته الزانية على أن تخنق عاشقها بيديها ؛ وفيها دير ترك للدعارة يوصف بفكاهة حلوة لا يمجها النوق . واستمدت من قصص بانديلو مادة للمسرحيات المثيرة ، من ذلك أن وبستر Webster استمد من واحدة منها حبكة مسرحية ووقعه مالفى . ويروى بانديلو بشعور فياض وحذق عظيم قصة روميو ومتيشتيو Romeo Montecchio ، وجولييتا كاپييتي Julietta Capeletti ، وينقل في وضوح قوة حبهما . وها نحن أولاء نقطف مثلاً من خير ما كتبه في الحب :

ولم يجد روميو في نفسه من الشجاعة ما يستطيع به أن يسأل من هي الفتاة ، فأخذ يمتع عينيه بمنظرها الجميل ، ويتأمل بدقة حركاتها وسكناتها ، وتجرجع سم الحب الحلو الشهى ، وأخذ يثني ثناء عجباً على كل جزء من أجزاء جسمها ، وكل حركة من حركاتها . وكان يجلس في ركن مر فيه من أمامه جميع من في الحفل حين اقترب موعد الرقص . وكانت جولييتا (وهذا هو اسم الفتاة) ابنة رب الدار الذي أقام الحفل . وسرت هي أيضاً أيما سرور بمنظر روميو ، وإن لم تكن تعرفه ، ولكنها رأته مع ذلك أجمل الشبان وأكثرهم مرحاً في الخلق كلهم ، وقفت لحظة قصيرة تحتلس إليه النظرات الرقيقة من طرف عينيها ، وأحست في قلبها بحلاوة أفاضت

عليها من البهجة ما لاحد له . وتمتد وقتئذ أن يشترك في الرقص ، كى تستطيع أن تراه وتستمتع إلى حديثه خيراً من ذى قبل ، فقد خيل إليها أن كلامه يستفيض منه البهجة ، التى تتلقاها من عينيه وهى تنظر إليه ؛ ولكنه كان وقتئذ يجلس وحيداً لا يبدو عليه أى ميل للرقص ؛ وكل ما كان يفعله هو أن يغازل الفتاة الحسنة وكل ما كانت تفكر فيه هى أن تتطلع إليه . وهكذا أخذ كلاهما ينظر إلى الآخر نظرات تلتقى خلالها أعينهما وتمتزج أشعة نظراتهما بعضها ببعض ، أدركا معها فى خفة أن الحب قد سرى فى روحيهما ، وكلما التقت أعينهما ، امتلأ الهواء بزفير حبهما ، وخيل إليهما أن كل ما يرغهان فيه وقتئذ هو أن يكشف كلاهما للآخر عما دب فى قلبه من هيب (٢٧) .

وخاتمة القصة عند بنديلوأدى منها عند شيكسبير . فرميو عنده لا يموت قبل أن تقوم جوليت من سباتها ، وهى تستيقظ قبل أن يشعر روميو بأثر السم الذى شربه حين استولى عليه اليأس بعد أن رآها ميتة فى الظاهر . ويبلغ منه السرور من شفائها مبلغاً ينسى معه السم ، ويستمتع العاشقان بلحظات من الحب العارم . وحين يفعل السم فعله القوي ، ويموت روميو ، تقتل جوليت نفسها بطعنة من سيفه (*) .

(*) أخذ شيكسبير القصة من التاريخ المفسح لروميوس وجوليت *Tragical History of Romeus and Juliet* . تأليف آرثر بروك *Arthur Broke* (١٥٦٢) ، ولكن بروك نقلها عن ماسوتشيو أوبندلو . كذلك عرف شيكسبير القصة من « قصر الفرحة » *Palace of Pleasure* لوليم بينتر *William Painter* (١٥٦٦) ، الذى أخذها من بنديلو .

الفصل الرابع

صحوة السحر في فلورنس : ١٥٣٤-١٥٧٤

إن حكم الدولة في أثناء اضمحلالها أسهل من حكمها في إبان شبابها ، ذلك أن نقص الحيوية يكاد يجعل أهلها يرحبون بالخضوع . وهذا صدقاً لذلك . نرى فلورنس بعد أن أخضعها آل ميديتشى مرة أخرى لسلطانهم (١٥٣٠) تخضع منهوكة القوى لسيطرة كلمنت السابع ؛ نعم إنها ابنهجت حين قُتِل ألسندرو ده ميديتشى بيد لورندسينو Lorenzino أحد أقاربه البعيدين (١٥٣٧) ؛ ولكنها لم تنتهز هذه الفرصة لإعادة الجمهورية ، بل قبلت حاكماً آخر من آل ده ميديتشى راجية أن يظهر مثل ما أظهره أول رجال الأسرة من حكمة وحسن سياسة . ويجلوس هذا الحاكم انتهى من الوجهة القانونية فرع الحكام المنحدرين مباشرة من كوزيمو أبى الوطن ، لأن الحاكم الجديد من أبناء أخ لكوزيمو هذا أكبر منه يسمى أيضاً لورندسو (١٣٩٣ - ١٤٤٠) . وكان جوتشياردينى هو الذى رفع هذا الحاكم الجديد إلى العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره راجياً أن يكون هو القوة المحركة من خلفه . غير أنه نسى أن الميديتشى الشاب هو ابن چيوفانى دل باندى نيرى وحفيد كترينا اسفوردسا ، وأن دماء جيلين على الأقل من ذوى البأس الشديد تجرى فى عروقه وأمسك كوزيمو بيديه أزمة الأمور وظل قابضاً عليها بقوة سبعة وعشرين عاماً .

وكان فى خلقه كما كان فى حكمه يجمع بين الشر والخير . فكان صارماً قاسياً إلى الحد الذى نعليه عليه السياسة غير العاطفية ؛ فلم يكن يشغل نفسه كما كان غيره من آل ميديتشى الأولين يشغلون أنفسهم بالحفاظة على مظاهر

الحكم الجمهورى وأشكاله ؛ وقد وضع نظاماً للتجسس تغلغل فى داخل كل أسرة ، واتخذ من قساوسة الأبرشيات أنفسهم عيوناً له (٢٩) ؛ وأرغم الناس على الجهر بعقائد دينية واحدة . وتعاون مع محكمة التفتيش ؛ وكان شرها فى طلب الثروة والسلطان . ، استغل احتكار الدولة للحبوب ، وفرض على رعاياه أفدح الضرائب ، وقضى على حكومة سينا شبه الجمهورية ، لكى يجعل هذه المدينة جزءاً من أملاكه كما كانت أرتسو وبيزا جزءاً منها ، وأقنع البابا بيوس الخامس بأن يمنحه لقب كبير أدواق تسكانيا (١٥٦٩) .

وعرض البلاد بعض التعويض عن استبداده وانفراده بالحكم بأن نظم لها إدارة حكومية حازمة صالحة ، وجعل لها جيشاً وشرطة تعتمد عليهما ، ونظاماً قضائياً قديراً لا يتطرق إليه الفساد . وكان بسيطاً فى معيشته ، يتجنب الاحتفالات والمظاهر الكثيرة النفقة ، وراعى فى إدارته المالية الاقتصاد بل الشح ، وترك لابنه من بعده خزانة عامرة بالأموال . وكان النظام والأمن السائدان فى الشوارع والطرق العامة سبباً فى انتعاش التجارة والصناعة بعد أن أصابتهما الضربات القاصمة من جراء الثورات المتتالية . وأدخل كوزيمو صناعات جديدة ، كصناعى المرجان والزجاج ، واستقدم اليهود من البرتغال وبسط عليهم حمايته لينشط بذلك نمو البلاد الصناعى ، ووسع رقعة ليغورنو (Leghorn) وجعل منها ثغراً نشيطاً دائم الحركة . وجفف مستنقعات مارما Maremma ليظهر هذا الإقليم ومدينة سينا المجاورة له من أهاليريا . واستمتعت سينا ، كما استمتعت فلورنس ، أثناء حكمه الاستبدادى الصالح بالرخاء أكثر من ذى قبل . واستعان بجزء من الأموال التى جمعها على مناصرة الأدب والفن فى غير إسراف ، وكان يميز فى ذلك بين الغث والثمين ، ورفع الأكاديمية دجلى أو مبدى Accademia degli Umdi إلى مكانة رسمية فجعلها مجمع فلورنس العلمى ، وعهد إليها أن تضع القواعد التى تجب مراعاتها فى اللغة التस्कانية الفصحى . واتخذ فاسارى وتشلىنى صديقين له .

وبذل جهداً كبيراً ليقتنع ميكيل أنجيلو بالعودة إلى فلورنس ، وأنشأ مجمعا للتخطيط Arte del Designo كان هو رئيس شرف له . وأقام في بيزا (١٥٤٤) مدرسة لعلم النبات لا يفوقها في قدم عهدا وفي مكانها إلا مدرسة بدوا . وما من شك في أن في وسع كوزيمو أن يقول إنه لم يكن يستطيع فعل هذا الخير كله لو لم يبدأ بقليل من الشر ولم يقبض على الحكم بيد من حديد .

ولم يبلغ هذا الدوق صاحب اليد الحديدية الرابعة والخمسين من عمره حتى كان عبء السلطة والمآسى العائلية قد أنهكه وهدقواه ، فأما المآسى العائلية فنذكر منها أن زوجته واثنين من أبنائه ماتوا في خلال بضعة أشهر في عام ١٥٦٢ ، وكان سبب موتهم حمى الملاريا التي أصيبوا بها أثناء اشتغاله بتجفيف مناقع مارما . ثم ماتت ابنة له بعهد عام من ذلك الوقت . وفي عام ١٥٦٤ عهد بحكم البلاد الفعلي إلى ابنه فرانتشيسكو ، وحاول أن يواسي نفسه بالحب والغرام ، ولكنه وجد في التنقل بين العشيات من الملل أكثر مما وجد منه في الزواج . ومات في عام ١٥٧٤ في الخامسة والخمسين من عمره ، وقد جمع من الصفات أحسن ما كان لأسلافه وشر ما كان لهم .

ولسنا ننكر أن فلورنس لم تنتج في ذلك الوقت رجلا من طراز ليوناردو أو ميكيل أنجيلو ، ولم يكن فيها في ذلك العهد فنانون يضارعون تيشيان الرجل المتمحضر العالمي الصيت أو تيتورتو الشاعر أو فيرونيز الفرع الطروب ؛ ولكنها مع ذلك قد حدثت فيها في عهد كوزيمو الثاني نهضة بلغت من القوة الحد الذي يمكن أن يتوقعه الإنسان من جيل نشأ بين الثورات الخفيفة ، والهزائم العسكرية . لكن تشييليني رغم هذا يحكم على الفنانين الذين استخدمهم كوزيمو بأنهم « عصابة لا يوجد لها الآن مثل في العالم كله » (٣٠) . وذلك تعبير جرى عليه الفلورنسيون في بنحس فن البندقية . وكان بينفينوتو يرى أن الدوق نصير للفن تدوقه له أكبر من سخائه عليه ؛ ولكن لعل هذا الحاكم القدير كان يرى أن التعبير الاقتصادي والتنظيم السياسي أكثر أهمية

من الزخرفة الفنية في بلاطه . ويصف فاسارى كوزيمو بأنه « يحب جميع الفنانين ويقربهم ، بل أنه في واقع الأمر يحب ويقرب جميع العباقرة » . وكان كوزيمو هو الذى قدم المال اللازم لأعمال الحفر في كيويزى Chuisi وأرتسو وغيرهما والتي كشفت عن حضارة تسكانية رائعة ، وأظهرت التماثيل التسكانية الذائعة الصيت تماثيل الخيميرا (*) ، والخطيب ، ومنيرفا . وقد ابتاع كل ما استطاع أن يعثر عليه من الكنوز الفنية التي نهب من قصر آل ميديتشي في عامي ١٤٩٤ ، ١٥٢٧ ؛ وأضاف مجموعاته الخاصة إلى ما ابتاعه ، ووضع كل ما جمعه في القصر الحصين الذى بدأ لوكا بتي بتشيدته قبل ذلك الوقت بمائة عام . وقد كلف كوزيمو المهندس بارتوليو أماناتي بتوسيع هذا الصرح الرهيب واتخذ مسكنه الرسمى (١٥٥٣) .

وكان أماناتي وفاسارى في فلورنس زعيمى فن العمارة في ذلك العصر . وكان أماناتي هو الذى وضع لكوزيمو تصميم حدائق بوبولى Boboli خلف قصر بتي ، وأقام فوق نهر الآرنو جسر سانتاترينيتا (الشالوث المقدس) الجميل (١٥٦٧ - ١٥٧٠) - الذى دمر أثناء الحرب العالمية الثانية : وكان إلى ذلك مصورا ومثالا جليل القدر ؛ فاز في مسابقة للنحت على تشيليني وجيوفاني دابولونيا ونحت تمثال يوفو الذى يزدان به هوبارجلو . وقد اعتذر في شيخوخته عن كثرة ما نحت من الأشكال الوثنية : ذلك أن النهضة الوثنية كانت قد وصلت الآن إلى آخر الشوط ، وأخذت المسيحية تستعيد سيطرتها على عقول الإيطاليين .

واتخذ كوزيمو باتشى باندينيللى Bacci Bandinelli مثاله الأثر لديه ، وأغضب بذلك تشيليني أشد الغضب . وكان من ضروب التسلية التي يستمتع بها كوزيمو أن يستمع إلى تشيليني وهو ينتهر باندينيللى : وكان باتشيو معجباً

(*) الخيميرا Chimera كائن خرافي في الأساطير اليونانية يقذف من بطنه بالهيب ، له رأس أسد وجسم ماعز ، وذنب أعني . (المترجم)

بنفسه . وقد أعلن عن عزمه على أن يتفوق على ميكل أنجيلو ، وبلغ من قسوته في نقد غيره من الفنانين أن واحداً من أشدهم ظرفاً حاول أن يقتله . وكان كل إنسان تقريباً يبغضه ، ولكن كثرة ما عهد إليه من الأعمال في فلورنس ورومة توحى بأن مواهبه كانت خيراً من أخلاقه . ولما أن أراد ليو العاشر أن يحصل على صورة أخرى من مجموعة اللوقون التي في قصر بيلغدير يهاتها إلى فرانسس الأول ، طلب الكردنال بيتا إلى بنديلي أن يقوم بهذه المهمة ، فما كان من باتشيو إلا أن وعد بأن يعمل صورة تفوق الأصل ، ورؤّع الناس جميعاً أنه كاد ينجز ما وعد . وسر كلمنت السابع من نتيجة عمله سروراً حمله على أن يرسل بعض الأصول القديمة الأصيلة إلى فرانسس ويحفظ هو بالنسخة التي نقلها عنها باتشيو . ليضعها في قصر آل ميديتشي . وفلورنس ، ومن هذا القصر انتقلت إلى معرض أفيتسي . ونحت بانديني لي كلمنت وألسندرو ده ميديتشي مجموعة ضخمة هي مجموعة هرقل ووطكوس التي وضعت فوق مدخل قصر فذشو إلى جوار تمثال داود لميكل أنجيلو . ولم يحز هذا التمثال رضا تشيليني ، وقال لبنديلي في حضرة كوزيمو ! « لو أن هرقل في مجموعتك قد قصّ شعره لما كان له من الجمجمة ما يتسع لخمسة . . . » وإن كتفيه الثقيلتين لتذكرا أن الإنسان بالسليتين الموضوعتين على برذعة حمار . وصدره وعضلاته ليست منقولة عن الطبيعة بل هي منقولة عن كيس من الشام التالف (٣١) . أما كلمنت نفسه فكان يرى أن تمثال هرقل من أروع الآيات الفنية ، وأجاز عليه المثل بقدر كبير من المال فضلاً عن الأجر الذي وعده ؛ ورد باتشيو على هذه التحية بأن أطلق اسم كلمنت على ابن غير شرعي رزقه بعد موت البابا بزمن قليل . وكان آخر ما قام به من الأعمال قبر أعداه هو لنفسه ولأبيه . وما كاد يتم حتى شغله (١٥٦٠) . وأكبر الظن أنه كان ينال اليوم أكثر مما ناله من انتشار الصيت لو أنه لم يتعرض للتشنيع من فنانين يستطيعون أن يكتبوا وأن يصورا معاًهما

فاسارى وتشيلينى : فقد شئنا عليه تشييعاً لم يمحه مر القرون ؛
وكان چيوفنى ده بولونيا منافسا لبندنيلى . ولكنه كان أظرف منه والطف
خلقا . وقد ولد فى دويه Doui ولكنه انتقل وهو شاب إلى رومة (١٥٦١) ،
معترفاً أن يكون مثالا . وبعد أن قضى فيها عاما فى الدراسة قدم نموذجا
لعمله من الصلصال إلى ميكل أنجليو وكان وقتئذ شيخا طاعنا فى السن ؛
فأمسك به المثال الشيخ وضغط عليه بأصابعه : بإبهامى يديه وسبابتيهما فى مواضع
متفرقة منه ، ولم تمض إلا بضعة لحظات حتى سواه أحسن مما كان . ولم
ينس چيوفنى قط هذه الزيارة ، وظل طوال الأعوام الأربعة والثمانين
الباقية من حياته يعمل لكى يبلغ ما بلغه الفنان العظيم . ثم غادر رومة عائدا
إلى فلاندرز ، ولكن شريفا من أهل فلورنس أشار عليه بأن يدرس
التحف الفنية المجموعة فى فلورنس ، واستبقاه فى قصره لهذا الغرض ثلاث
سنين . وكان فى المدينة أو فيها حولها كثيرون من الفنانين الإيطاليين النابهين .
ولذلك لم يستطيع الفنان الفلمنكى أن يستلقت الأنظار لعمله إلا بعد خمس
سنين حين ابتاع فرانثيسكو ابن الدوق كوزيمو صورة له تمثل فينوس .
ثم اشترك فى مباراة لتصميم فسقية لقصر السيادة Piazza delln Signoria ؛
ورأى كوزيمو أنه أصغر سنا من أن يقوم بهذه المهمة ، ولكن كثيرين
حكموا بأن النموذج الذى صنعه هو كان خير النماذج كلها ؛ وأكبر الظن
أنه هو الذى دعى بسببه إلى أن يقيم فسقية أكبر منها فى بولونيا .
واستدعى چيوفنى بعدئذ مرة أخرى إلى فلورنس ليكون المثال الرسمى
لآل ميديتشى ، وتوالت عليه المهام من ذلك الحين فلم ينقطع عن العمل
فى يوم من الأيام ؛ ولما عاد مرة ثانية إلى رومة ، قدمه فاسارى إلى البابا
على أنه « أمير المثاليين فى فلورنس » (٣٢) . وهنا وضع نموذجا لمجموعة من
التماثيل توجد الآن فى شرفة لاندسى Loggia dei Lanzi ، وسميت فيما
بعد اغتصاب السابيين وتتكون من بطل قوى مفتول العضلات يمسك

بيده امرأة بارعة الجمال ضغطت يده وهو يرفعها على جسمها اللين ، ويعد
ظهرها أجمل ما صور من البرنز في عصر النهضة كله .
وكان المثالون متفوقين على المصورين في الحشد المتألق الذى يحف-
بكوزيمو وفي تقدير كوزيمو نفسه . ولقد حاول ريدافو جرنلدايو
Ridolfo Ghirlandaio أن يحتفظ بالمستوى الرفيع الممتاز الذى بلغه والده^(١) ،
ولكنه عجز عن الاحتفاظ به ؛ وفي وسعنا أن نقدره بالنظر إلى صورته
التي رسمها للكريدسيا سماريا Lucrezia Summaria والموجودة الآن في
واشنطن : وكان فرانشيسكو أوبرتيني Francesco Ubertini ، الملقب
سخرية البكيكا il Bachiacca ، يحب أن يرسم المناظر التاريخية وأن يدخل
فيها كثيراً من الدقائق وفي حجم صغير . وتجمعت في ياقوبو كاروتشي
Jacopo Carrucci ، المسمى بنتورمو نسبة إلى مسقط رأسه ، كل الميزات
وبدأ حياته بداية طيبة . وأخذ الفن على أيدي ليوناردو ، وبيرودى
كوزيمو ، وأندريا دل سارتو ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره (١٥١٣) .
هز مشاعر عالم الفن بصورة ضاعت الآن استثار إعجاب ميكل أنجيلو ،
ووصفها فاسارى بأنها « أجمل مظلم شوهد حتى ذلك الوقت^(٢) » . ولكن
بنتورمو Pontormo لم يلبث أن عشق نقوش دورر Dürer ، فتحلى
عما في الطراز الإيطالى من نعومة في الخطوط وتآلف في التأليف ،
مما أثار عليه نائرة الإيطاليين ، وفضل عليهما الأساليب الجرمانية الفجة
الثقيلة ، وصور رجالا ونساء في أوضاع من الاضطراب الجسمى أو العقلى ،
وصور بنتورمو في مظلمات في تشرتوزا بهذا الطراز التوتونى مناظر
مستمدة من آلام المسيح . ولم يرض فاسارى عن هذا التقليد وقال فيه :
« ألم يعلم بنتورمو أن الفلمنكيين والألمان يأتون ليأخذوا عنا الطراز الإيطالى
الذى بذل ما بذل من الجهد للتخلي عنه كأنه طراز غث لا قيمة له ؟ » .
ولكن فاسارى رغم غضبه هذا يقر بروعة هذه المظلمات . وزاد

ينتورمو فنه تعقيدا على تعقيده حين أصيب بداء الخوف ، فلم يكن يسمح بأن يذكر الموت في مجلسه ، وأخذ يتجنب الحفلات والزحام ، خشية أن يحشر فيها فيقضى عليه ؛ وكان يرتاب في جميع الناس عدا تلميذه المحبوب برندينو Bronzino ، وإن كان هو نفسه شقيقا دمث الأخلاق . وأخذ ينشد الوحدة ويزداد حباً لها على مر الأيام ، واعتاد أن ينام في حجرة في طابق علوى لا يمكن الوصول إليها إلا بسلم يرفعه من ورائه بعد أن يصعد إليها . وظل يعمل وحيدا أحد عشر عاما في آخر مهمة كلف بها — وهى رسم مظلمات في معبد سان لورندسو ؛ فكان يأتي إلى المعبد ولا يسمح لأحد غيره بدخوله ؛ ومات (١٥٥٦) قبل أن يتم العمل فيه ؛ ولما أن أزيح الستار عن الصور تبين أنها غير محكمة النسب ، وأن الوجوه ثائرة أو محزونة . وخبر لنا أن نذكره بعمل من الأعمال التى قام بها وهو ناضج سلم العقل ، وهو صورة جميلة لإجولينو مارتيللى Ugolino Martelli توجد الآن في واشنطن — ويرتدى صاحبها قبعة لينة مراشة ، وله عينان ساهمتان مفكرتان ، وأثواب براققة ، ويدان نقيتان .

وارتفع شأن أنيولو دى كوزيمو دى ماريانو Agnolo di Cosimo di Mariano ، الملقب برندينو Bronzino بعد أن رسم طائفة من الصور معظمها يمثل آل ميديتشى . ويحتوى قصر هذه الأسرة على عدد كبير منها تبدأ من كوزيمو الأكبر أبى الوطوع وتنتهى بالدوق كوزيمو ، وإذا جاز لنا أن نحكم عليها من وجه ليو العاشر المنتفخ قلنا إنها في كثير من الأحيان صور صادقة . وخبرها كلها صورة جيوفانى دلى باندي نيرى (المحفوظة في أفيدسى) — وكأنها صورة لناهليون نفسه قبل أن يكون بوناپرت — ويظهر فيها وسم الخلق ، متكبرا ، ينفث النار .

وأكبر الظن أن أحب الفنانين للدوق كوزيمو هو الرجل الذى يدين له هذا السفر — كما يدين له كل كتاب عن النهضة الإيطالية — بنصف

حياته ؛ ونعني به جيورجيو فاسارى ، وقد نبغ قبله من بين أبناء الأسرة التى ينتمى إليها فى أرتسو عدد من الفنانين ؛ وكان يمت بصلة بعيدة إلى لوكا سنيورلى Luca Signorelli ، ولقد حدثنا هو أن المصور الشيخ حين رأى رسوم جيورجيو وهو لا يزال بعد غلاما شجعه على أن يدرس الرسم . وحدثت فى لحظة من لحظات النبيل والشهامة التى لا يمحى عديدها ، والتى لا يصح أن تغفل عنها حين نحكم على أخلاق النهضة ، نقول إنه حدث فى لحظة من تلك اللحظات أن أخذ الكردينال بيسيرينى Passerini ، وكان قد عين وصيا على إبوليتو وألسندرو ده ميديتشى ، جيورجيو إلى فلورنس ، حيث اشترك الشاب البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة مع الفنانين ورثى الثراء والسلطان ، وأصبح من تلاميذ أندريا دل سارتو وميكل أنجيلو ، وظل إلى آخر أيام حياته يحل بونارنى ويعبده عبادة رغم آفقه المخطم .

وعاد جيورجيو إلى أرتسو بعد أن طرد الميديتشيون من فلورنس عام ١٥٢٧ . ومات والده بالطاعون ولما يتجاوز هو الثامنة عشرة من العمر ، فألقى نفسه العائل الأكبر لأخواته الثلاث ولأخويه الصغيرين . ووجد مرة أخرى من يرحمه ويتقذه من ورطته ؛ ذلك أن زميله القديم فى التلمذة إبوليتو ده ميديتشى دعاه إلى رومة ، حيث أكب فاسارى على دراسة الفن القديم وفن النهضة ؛ فلما كان عام ١٥٣٠ دعاه ألسندرو صاحب فلورنس ، بعد أن عادت الأسرة إلى حكمها مرة أخرى ، إلى الإقامة فى قصر آل ميديتشى ونقشه . وفيه رسم صورا لهذه الأسرة من بينها صورة للورلدسو الأفخم ، نراه فيها قانطا مكتئبا ، وأخرى لكترينا الشابة المرححة - واقفة فى نزوة من نزوات الخيال ، كأنها كانت تدرك فى ذلك الوقت أنها ستكون ملكة فرنسا . ولما اغتيل ألسندرو قضى فاسارى بعض الوقت يجول حائراً بلا نصير . ويقسو النقد على صورته ، ولكن (٢٢ - ج ٤ - مجلد ٥)

الذى لاشك فيه أنه نال بسببها بعض الشهرة ، لأننا نجد جيوليو رومانو يأويه في داره في مانتوا كما نجد أريتينو البدين في البندقية يصاحبه ويحميه . وكان أينما ذهب يدرس فن البيئة التي يقيم فيها ، ويتحدث إلى الفنانين أو إلى أبنائهم وأحفادهم ، ويجمع الرسوم ويدون المذكرات . ولما عاد إلى رومة رسم لبنو التوفيتي Bindo Altoviti صورة الخلع من الصليب ، وهي الصورة التي يقول عنها إنه « كان من حسن حظها أنها لم تغضب أعظم مثال ، ومصور ، ومهندس عاش في أيامنا » .

وكان ميكل أنجيلو نفسه هو الذي عرفه بالكردينال ألسندرو فرنيزي الثاني ، وهذا الحبر المثقف هو الذي أشار على فاساري في عام ١٥٤٦ بأن يؤلف لهداية الخلف كتاباً في سيرة الفنانين الذين رفعوا اسم إيطاليا في القرنين السالفين . وبينما كان فاساري يعمل بجهد في التصوير وهندسة العمارة في رومة ، وريميني ، ورافنا ، وأرتسو ، وفلوننس ، كان يقطع جزءاً من وقته لذلك العمل المجهد الذي لا ينال من ورائه جزاء يذكر وهو كتابه السير « مدفوعاً إلى ذلك بحب فنانينا هؤلاء » . وفي عام ١٥٥٠ نشر الطبعة الأولى من حياة كبار المصورين ، والمثالين ، والمهندسين الإيطاليين الممتازين ومعه إهداء بليغ للدوق كوزيمو .

وكان فيما بين عامي ١٥٥٥ و ١٥٧٢ أكبر الفنانين عند كوزيمو . فأعاد تنظيم قصر فيتشيو من الداخل ، ونقش كثيراً من جدرانه بصور تنزع إلى الضخامة أكثر مما تنزع إلى الفخامة ، وشاد مبنى الإدارة الرحب المعروف باسم الأفيتسي لوجود المكاتب الحكومية به ، والذي أصبح الآن من أكبر المعارض الفنية في العالم . وكان هو المشرف على إتمام بناء المكتبة اللورنتية ، والذي شاد الدهليز المغطى الذي استطاع كوزيمو بفضل أن يمر سراً من قصر فيتشيو ومن الأفيتسي إلى جسر فيتشيو ثم إلى مسكن الأدواق الجديد في قصر بتي . وفي عام ١٥٦٧ قضى عدة أشهر في الترحال والبحث ،

ثم أخرج بعد عام من ذلك الوقت طبعة جديدة من العبر أكبر كثيراً من الطبعة الأولى . ومات في فلورنس في عام ١٥٧٤ ودفن مع أسلافه في أرتسو ، وبعد فإن فاسارى لم يكن فناناً عظيماً ، ولكنه كان رجلاً عظيماً ، وباحثاً مجداً ، وناقداً كريماً ذكياً (إذا استثنينا بعض لمزات قليلة وجهها لبنديدلى) . وقد ألف لنا كتاباً من أمتع ما كتب في جميع العصور استمدت منه آلاف مؤلفة من الكتب ، وكتبه باللغة التسكانية السهلة الأصلية التي تكاد تكون هامة ، وتبلغ أحياناً من الوضوح ما تبلغه لغة القصص : والكتاب غنى بالأخطاء التي تدل على عدم الدقة ، وبالمناقضات في الأزمنة التاريخية ، ولكنه أغنى من ذلك بالمعلومات الفاتنة الساحرة ، وبالشروح الحكيمة الصادقة . وقد فعل للفنانين الإيطاليين في عهد النهضة ما فعله أفلوطرخس لأبطال اليونان والرومان العسكريين والمدنيين ، وسيظل قروناً طوالاً في المستقبل من أكبر الذخائر في عالم الأدب .

الفصل الخامس

بينفينوتو تشيليني : ١٥٠٠ - ١٥٧١

كان يعيش فى بلاط كوزيمو فى ذلك الوقت رجل يجمع فى أخلاقه بين العنف ورقة الشعور ، وبين كل المطالب الجنونية للجمال فى الحياة والفن ، وبين الهجة التى تبعثها صحة الجسم ، والحلق ، والسلطان ، التى امتاز بها عهد النهضة . وكان إلى هذا كله مالكا لتلك الموهبة التلقائية التى تمكنه من أن يعبر عن أفكاره ومشاعره ، وتقلبات حظه ، ومزاياه فى سيرته الذاتية التى تعد من أكثر السير متعة وأبقاها على الأيام . ولم يكن بينفينوتو المثل الكامل لعبقرية النهضة - وفى الحق إنا لا نستطيع أن نجد رجلا واحداً يمثل تلك العبقرية أكمل تمثيل ؛ ذلك أنه ينقصه تقوى أنجيلكو ، ودهاء مكيشلى ، وتواضع كستجليونى ، وجذل رفائيل ودمائة خلقه ؛ وما من شك فى أن الفنانين الإيطاليين فى ذلك العهد لم يتحكموا كلهم فى القانون كما يشاءون وكما كان بينفينوتو يتحكم فيه : ولكننا حين نقرأ قصته المضطربة القلقة ، نحس بأن كتابه يرجع بنا إلى ما وراء مظاهر النهضة ، إلى قلبها نفسه ، أكثر مما يرجع بنا أى كتاب سواه .

وهو يبدأ كتابه بهذه العبارة التى تجرد القارئ من كل سلاح يريد أن يوجهه إليه :

« يجب على جميع الرجال ، أيا كانت صفتهم ، إذا كانوا قد قاموا بعمل ممتاز ، أو شبيهه شهاً حقاً بالعمل الممتاز ، وإذا كانوا ممن يتصفون بالصدق والأمانة ، يجب على هؤلاء جميعاً أن يكتبوا حياتهم بأيديهم ، ولكن عليهم ألا يبدعوا هذه المغامرة الظرفية الخفيفة حتى يصلوا إلى ما بعد سن الأربعين . وقد خطر لى أنا نفسى أن أقوم بهذا الواجب ، بعد أن تجاوزت سن

النامنة والخمسين ، وبعد أن جثت لأقيم في فلورنس مسقط رأسي :

ويفخر بأنه « ولد وضيعاً » ، وأنه أذاع شهرة أسرته ، ويؤكد لنا في الوقت نفسه أنه من نسل ضابط من ضباط يوليوس قيصر ، ويحذرنا بقوله « إنه لا بد أن يوجد في عمل كهذا ما يدعو بطبيعة الحال إلى التفاخر الذي هو من طبيعة الإنسان » (٣٥) . وقد سمي بينفينوتو - مَرَحِباً - لأن أبويه كانا ينتظران أن تولد لهما بنت ، فلما جاءهما ولد دهشا دهشة الفرح . وقد عمر جده مائة عام (وأكبر الظن أنه خالف حكم كرنارو بأجمعها) وورث تشيليني حيويته ، وأتى في إحدى وسبعين سنة قدر ما أتاه هذا الجد في مائة السنين . وكان والده مهندساً ، وحافراً للعاج ، ومولعاً بالنائى ، وكان أمله المرتجى أن يكون بينفينوتو نافخاً في الناي محترفاً في فرقة موسيقية بيلاط آل ميانيشى . ويبدو أنه قد وجد في سنيه الأخيرة من السرور حين سمع أن ابنه قد أصبح نافخاً في الناي في فرقة البابا كلمنت الخاصة ، أكثر مما وجد في الصياغة التي كان الشاب يكسب منها المال والشهرة .

ولكن بينفينوتو كان مولعاً بالأشكال الجميلة أكثر من ولعه بالأصوات المتناغمة . وقد رأى بعض أعمال ميكيل أنجيلو ، واستثار الفن كامن شعوره ؛ ودرس الرسوم التمهيدية لصورة واقعة بيزا ، وبلغ من تأثره بها أن بدا له سقف معبد مسستينى نفسه أقل روعة منها . وذهب ليتجسس عند صانع مخالفاً في ذلك إلحاح أبيه ، ولكنه أراد أن يسترضى أباه فواصل المران على النائى البغيض ، وعثر في بيت فلپينولي على كتاب ذى صور تمثل آثار رومة الفنية القديمة . وكان يتحرق شوقاً ليرى بعيني رأسه تلك النماذج الدائعة . الصيت ، وكثيراً ما تحدث إلى أصدقائه عن رغبته في الذهاب إلى العاصمة . وبينما كان هو وشاب آخر ممن يحرقون الخشب يدعى جيامبانستا تاسو Ciambattista Tasso يسيران إلى غير مكان مقصود ويتحدثان بعواطف نائرة ، إذ وجدنا نفسيهما عند باب سان پيرو جتوليني San Piero Gatolini ؛ وقال بينفينوتو إنه يحس

بأنه قد قطع نصف المسافة من فلورنس إلى رومة . وازداد الصديقان جرأة فظلا سائرين ، ميلا بعد ميل ، حتى بلغا سينا التي تبعد عن فلورنس ثلاثة وثلاثين ميلا . وهنا آلمت جيان قدماء وعجز عن مواصلة السير من فرط الألم . وكان مع تشيليني من المال ما يكفي لاستئجار حصان ، ركبته الشابان « وقطعنا الطريق كله إلى رومة ونحن نغنى ونضحك . وكنت وقتئذ في التاسعة عشرة من عمري . وكانت هذه هي السنين التي انقضت من ذلك القرن » (٣٦) .

ووجد في رومة عملا في الصياغة ، ودرس الآثار القديمة ، وكسب من المال ما يكفي لأن يرسل منه إلى أبيه مبالغ واسعة خففت عنه آلام الفاقة . ولكن الأب الشيخ الواله ألح عليه بالعودة إلحاحا لم يسغ بينفينوتو معه إلا أن يعود إلى فلورنس ؛ ولم يكذ يستقر فيها حتى طعن شابا في أثناء شجار ؛ وظن أنه قتل الشاب ، ففر مرة أخرى إلى رومة (١٥٢١) ، وانكب على دراسة صور ميكل أنجيلو في معبد سستيني ، وصور رفايل في بيت آل تشيجي الريني والفاتيكان ، ولاحظ جميع الأشكال والخطوط الطريفة في الرجال والنساء ، والمعادن ، وأوراق الشجر ، وسرعان ما أصبح أبرع المصائغين في رومة . وأعجب كلمنت ببراعته في النفخ في الناي ، ثم كشف قدرته الممتازة على التصوير . وصنع له تشيليني قطعا من النقود بلغت من الجمال درجة لم يسع البابا معها إلا أن يعينه « رئيس الدمغ في دار السك » ، أي مصمم النقود للولايات البابوية . وكان لكل كردنال في ذلك الوقت خاتم ، قد يصل حجمه في بعض الأحيان « إلى حجم رأس طفل في الثانية عشرة من عمره » ، يستعمله في بصم الشمع الذي يختم به رسائله ؛ وكانت قيمة بعض هذه الأختام تبلغ مائة كرون (١٢٥٠ ؟ دولاراً) . وأخذ تشيليني يحفر الأختام وقطع النقود ، ويقطع الجواهر ويركبها ، ويضع نماذج للمذليات ، وينقش الأحجار الكريمة ، ويصنع مئات التحف من الفضة والذهب ،

وكتب في ذلك يقول إن هذه « النواحي الفنية المختلفة يختلف بعضها عن بعض ، أتم اختلاف ، ولهذا فإن الذى يبرع فى واحدة منها ، إذا انتقل إلى أخرى ، يصعب عليه أن يبلغ فى الثانية ما بلغه من النجاح فى الأولى ؛ ولذلك بذلت كل ما أوتيت من جهد لكى أقتنها جميعاً ؛ وسأثبت فى المكان المناسب أنى أصبت هدفى » (٣٧) .

ولا تكاد تخلو صحيفة من صحف بينفينوتو من فخر وزهو ، ولكن فى زهوه من الحماسة والإصرار ما يحملنا آخر الأمر على تصديقه . وهو يحدثننا عن « جمال وجهه ، وتناسب أجزاء جسمه » ، ولا نستطيع أن ننكر عليه هذا الحديث ، ويقول : « لقد وهبنى الطبيعة مزاجاً سعيداً ، ومعارف ممتازة ، استطعت بفضلها أن أقتن كل ما شئت أن أتولاه من الأعمال » . وكان من بين من اتصلت بهم « فتاة بارعة الجمال ، غاية فى الرشاقة ، اعتدت أن تأخذها نموذجاً لى . . . وكثيراً ما قضيت الليل معها . . . وإنى لأستغرق أحياناً فى النوم العميق بعد الاستمتاع باللذة الجنسية » (٣٨) . وقد استيقظ مرة من نوم كهذا ليجد نفسه مصاباً « بالمرض الفرنسى » . لكنه شفى منه بعد خمسين يوماً واتخذ لنفسه عشيقه أخرى .

وفى وسعنا أن نلمح ما كانت عليه حياة المدن فى القرن السادس عشر من خروج على القوانين الأخلاقية والمدنية حين ندرك السهولة التى كان تشيلىنى يعصى بها أوامر الكنيسة والدولة دون حياء ولا وخز ضمير . ويبدو أن رومة لم يكن فيها وقتئذ شرطة قوية تعمل باستمرار ، فكان فى وسع الرجل ذى الغرائز أن يكون هو قانون نفسه ، بل إنه كان يضطر إلى ذلك اضطراراً فى بعض الأحيان . وكان بينفينوتو إذا استثر « يحس بحمى لو أنه كتبها فى نفسه لقضت عليه لا محالة » (٣٩) ، وإذا أساء إلى إنسان « ظننت أن من «واجب أن أعمل ، وأن ألحن آلامى » (٤٠) . وقد تورط فى مئات من «المشاحنات ، ويؤكد لنا أنه كان على حق فيها جميعاً عدا واحدة منها . وقد

طعن رجلا أساء إليه بمنجبر في عنقه وكانت الطعنة في دقة طعنات المصارعين في ميادين الجلال قضت على حياة غريمة من فوره (١) . وفي مرة أخرى « طعنت رجلا تحت أذنه بالضبط ، ولم أوجه إليه أكثر من ضربتين لأنه خر ميتاً لساعته : على أننى لم أكن أقصد قتله ، ولكن الضربات لاتكالم للغريم بقدر ، كما يقول المثل » (٢) .

وكان مستقلاً في أمور دينه كما كان مستقلاً في أخلاقه : وإذا كان دائماً على حق - إلا في مرة واحدة - فقد كان يحس أن الله لا شك في جانبه ، يقوى ذراعه ، وكان يد الله تعيينه على من يقتل من أعدائه ، ويحمده : حمداً كثيراً على نجاحه . على أنه لما لم يستجب الله لدعائه ، ولم يعنه على أن يجد حبيته المفقودة أنجيليكا Angelica ، اتجه نحو الشياطين يستمد منها ما ينقصه من معونة : فقد أخذه ساحر صقلى أثناء الليل إلى الكلوسيوم : المهجورة ، ورسم على الأرض دائرة سحرية ، وأشعل النار ، وألقى بعض البخور على اللهب ، وتلا عدة رقى عبرية ، ويونانية ، ولاتينية ، استدعى بها الجن واعتقد بينفيشوتو بحق أن مئات الأشباح ظهرت أمامه ، وتنبأت له بقرب اجتماعه بأنجيليكا ، فعاد إلى بيته ، وقضى بقية الليل يرى الشياطين (٣) .

ولما أن نهب جيش الإمبراطور رومة فر تشيليني إلى قلعة سانت أنجيلو ، وانخرط في سلك جنود المدفعية . ويعترف بأن إحدى طلقاته هي التي قتلت دوق بوربون ، وأن دقة رفايته هي التي أبطت المحاصرين على مبعدة من القلعة ، فكان هذا سبباً في نجاة البابا ، والكرادلة وبنفيشوتو نفسه . ولما عرفنا ما في هذا القول من صدق ، ولكنه هو نفسه يحدثنا أيضاً بأنه لما عاد كلمنت إلى رومة ، عين تشيليني حامل صولجانه ورتب له مائتي كرون في الشهر (٢٥٠٠ دولار) وقال : « لو أننى كنت إمبراطوراً غنياً لو هبت بنفيشوتو من الأرض بقدر ما تستطيع عيناي أن تقعا عليه ، أما وأنا الآن

مفلس محتاج ، فلا أقبل من أن أهبه من الخير « ما ينبغي بحاجته » (٤٤) ؛
واستمر هولس الثالث يرعى كلمنت ؛ وينقل لنا تشيليني عن پولس :
ولعله يبالغ في هذا النقل مبالغة بدخل بها السرور على قلبه ، أنه قال اشخص
يلومه على لينه مع الفنان وعدم أخذه بالشدة « اعلم إذن أن أمثال بينفينوتو
من الرجال الأفذاذ في عملهم أناس فوق القانون ، فما بالك إذن بشخص
استشير إلى الحد الذي سمعت به » (٤٥) . ولكن پيرلويجي Pierluigi بن لول ،
وهو رجل لا يقل سفالة أو استهتاراً عن بينفينوتو نفسه ، أوغر صدر البابا
على الفنان ؛ ولم تكف فنون تشيليني نفسها للتغلب على نفوذ پيرلويجي
هذا ، فما كان من الفنان إلا أن غادر مرسمة في رومة وولى وجهة نحو
فرنسا ؛ لكن بمبو اعترضه في طريقه عند بدوا وأكرمه ، فرسم له صورة
صغيرة أجازة عليها بثلاثة جياذ له ولزميلين كانا معه ، فامتطيا صهوتها ،
ونزلا من فوق الجريزون Grison واجتازا زيورخ ، ولوزان ، وچنيقا ،
وليون حتى وصلا باريس ؛ وفيها أيضاً وجد بينفينوتو له أعداء . ذلك أن
چيوفاني ده رسي ، أحد الرسامين الفلورنسيين ، لم يكن يريد أن يزيد
عدد من ينافسونه في الحصول على رفاة الملك ، فأثار الصعاب في وجه
القادم الجديد ؛ ولما أن اتصل بتشيليني آخر الأمر وجده قد تورط في
حرب يصعب عليه الخلاص منها . وانتابه المرض واشتد به الحنين إلى
بلده ، فقتل جبال الألب مرة أخرى . وحج إلى لوريټو Loreto ، وعبر
جبال الألب إلى رومة . وما كان أشد غضبه حين وجد أن پيرلويجي
يتهمه بسرقة جواهر البابا ، فألقى به في نفس الحصن الذي ساعد هو على إنقاذه ،
وعانى فيه مرارة السجن عدة أشهر . ثم استطاع الفرار منه ، ولكن ساقه
كسرت في أثناء هذه المحاولة ؛ فقبض عليه ، وألقى في جب تحت
الأرض قضى فيه عامين ، ثم أطلق سراحه بناء على طلب فرانسيس ؛
وألح عليه الملك بأن يسافر إلى فرنسا ليقوم فيها ببعض المهام ، فقتل
جبال الألب مرة أخرى (١٥٤٠) .

ووجد الملك والحاشية في فتانا بيليو Fontana Belio أى فنتين بلو Fontainebleau ، ورحب به فيها أعظم ترحيب ، وخصص له قصر حصين في باريس يسكنه ويتعبد فيه ؛ ولما أبى من فيه أن يغادروه طردهم منه قوة واقتداراً . ولم يرتح الفرنسيون لأدابه أو لغته ، وأغضب ما دام ديتامب Mme d'Etampes عشيقه الملك بقله بماملته لحضرتهما العلية . ولما سمعت بأنه ألقى من نافذة القصر أثاث السكان الذين أخرجهم منه حذرتة منه بقولها « إن ذلك الشيطان سينهب باريس يوماً من الأيام » (٤٦) . وسر الملك المرح من القصة ، وعفا عن عنف تشيليني لإكراماً لفنه ، وخصص له مرتباً سنوياً قدره ٧٠٠ كرون (٨٧٥٠ ؟ دولاراً) . ووهبه ٥٠٠ كرون أخرى نفقة رحلته من رومة ، ووعدته بمبلغ إضافي عن كل عمل في يقوم له به ، ولشد ما ازدهى بتيقنوتو حين علم أن هذه هي نفس العروص التي قدمت لليوناردو قبل ذلك بعشرين عاماً (٤٧) .

وتقدم أحد السكان الذين طردوا من القصر إلى القضاء يتهمه بسرقة بعض ممتلكاته ، وأدانت المحكمة تشيليني ، ولكنه قلب الحكم بطريقته المدهشة وفي ذلك يقول :

فلما رأيت أني خسرت القضية ظلما وعدوانا ، بلأت في الدفاع عن نفسي إلى خنجر كبير كنت أحمله معي ، لأنني كنت على الدوام أجد لذة في حمل الأسلحة اللطيفة . وكان أول شخص هاجمته به هو المدعى الذي قاضاني ، وجرحته ذات ليلة في ساقيه جراحا شديدة ، وحرصت مع ذلك على ألا أقتله ، ولكنني حرمته من استخدام ساقيه كليهما .

ويلوح أن المدعى لم يسر في القضية إلى أكثر من هذا ، واستطاع تشيليني أن يوجه جهوده إلى نواح أخرى . وكان معه في مرسمه بباريس « فتاة فقيرة تدعى كزينا ، وكان أهم غرض أسبقها لدى من أجله هو الفن ، لأنني لا أستطيع الاستغناء عن نموذج ؛ ولكنني وأنا أيضا رجل

كنت أستخدمها في ذلك» (٤٩) . على أن كثرينا كانت أيضاً خاضعة متساهلة
تضاجع مساعده باجولو ممشيري Pagolo Micceri . فلما عرف بنيفينوتو
هذا أخذ يضربها حتى خارت قواه ؛ ولامه خادمه روبرتا Roberta على قسوته
الشديدة في عقاب الفتاة على هذا الحادث العادى . وقال له : « ألا تعرف
أنه ليس في فرنسا زوج واحد بلا قرنين ؟ » وفي اليوم التالى اتخذ كثرينا
مرة أخرى نموذجاً له « وحدثت في هذه الأثناء بعض المتع الجنسية ؛
وضايقتني في آخر الأمر كما ضايقتني من قبل إلى حد لم أجده معه مناصاً
من ضربها . ودامت الحال على هذا المنوال عدة أيام وأنتمت
في أثنائها عملي بطريقة عادت على بأعظم الفضل » (٥٠) وكانت لديه فتاة
أخرى تدعى جين Jeanne كان يتخذها أيضاً نموذجاً له ، وولدت له بنتاً ،
فخصص الوالدة بمبلغ من المال « ولم تعد لي بها علاقة فيما بعد » (٥١) .
ثم قتلت المربية الطفلة بكتف أنفاسها .

وصبر فرانسس على هذه الأفعال الخارجة على القانون صبر الكرام ؛
ولكن بنيفينوتو خلق له آخر الأمر أعداء في باريس بلغوا من الكثرة
درجة لم يسعه معها إلا أن يرجو الملك أن يأذن له بزيارة إيطاليا . ولما لم
يجبه الملك إلى طلبه سافر بغير إذن ، وبعد أن لقي أكبر المشاق في الطريق
وجد نفسه في بلدته فلورنس (١٥٤٥) . وهناك استقام أمره وأمد أخته
وبناته الست بمعونة طيبة ، ووجد كوزيمو أقل سخاء من فرانسس ، وخلق
لنفسه أعداء كما فعل من قبل ، ولكنه صب للدوق تمثالاً نصفياً . (يوجد
الآن في بارجلو) ، وأخرج له أعظم أعماله شهرة ، نعى بذلك تمثال
سير-يوس الذى لا يزال قائماً في شرفه لاندسى Loggia dei Lanzi ،
ويروى لنا هو نفسه قصة رائعة عن صب هذا التمثال فيقول إن ما انتابه
من القلق ، وما غناه من المشقة في العمل ، وتعرضه للحر والبرد ، أصابه
في آخر الأمر بحمى شديدة أرغمته على ملازمة الفراش في الوقت الذى

كان فيه القرن الذي أعده لهذا العمل خاصة يذيب المعدن . وقد تبين أنه لا يكفي ملء القالب ، وأوشك التلف أن يحل بما ظل يكدح فيه الشهور الطوال . فما كان من تشيليني إلا أن نهض من فراشه ، وألقى في القرن كتلة من القصدير وماتى إناء من كلس القصدير . وكان فيها الكفاية ، ونجح صب التمثال أتم نجاح ؛ ولما عرض على الجماهير (١٥٥٤) ، لقي من الشناء بقدر ما لقي أى تمثال أقيم في فلورنس منذ صب ميكيل أنجيلو تمثال داود ، وحتى بنديتلى نفسه لم يسعه إلا أن يقول كلمة طيبة فيه .

ثم تبدأ القصة تنحدر من هذه الذروة فتستحيل إلى صفحات من المساومة مع الدوق على أجر تمثال بيرسبوس . وطال انتظار بنيفينوتو ، ولكن كوزيمو كان ينقصه المال . وتنتهى القصة نهاية مفاجئة في عام ١٥٦٢ ، ولسنا نجد فيها ذكراً لتلك الحقيقة التى يكاد يؤيدها الدليل القاطع . وهى أن بنيفينوتو سجن مرتين في عام ١٥٥٦ ، متهما فيما يبدو بجرائم أخلاقية (٥٢) . وألف تشيليني في هذه السنين الأخيرة رسالة في فن الصياغة . . . Trattato dell Orificeria وبعد أن ظل يعربد نصف قرن من الزمان تزوج في عام ١٥٦٤ ، وكان له ولدان شرعيان بالإضافة إلى طفل غير شرعى ولد له في فرنسا ، وخمسة في فلورنس ولدوا له بعد عودته إليها .

ولسنا نستطيع أن نعثر إلا على عدد قليل من أعماله ونؤكد أنها له ، وذلك لأنها كانت في العادة تحفا فنية صغيرة يسهل نقلها من مكان إلى مكان . ففي كنوز كنيسة القديس بطرس ثروة قضية مزخرفة تعزى إلى تشيليني ، وفي برجلو تمثالان له هما تمثال المرسى وتمثال جانييميدى ، وكلاهما تمثال ممتاز من الرخام . وفي بتي صينية وإبريق من الفضة ؛ وفي اللوفر مدلاة عليها صورة بمبو ؛ ونقش من البرنز بارز جميل يسمى هوربة فنقيفيلو . وفي فينا - كما تدعى تلك المدينة - المملحة التى صنعها لفرانسيس الأول . وتضم

مجموعة جاردنر في بسطن بأمرىكا تمثاله النصفي لألتوفيتى Altoviti ، وتمثاله الكبير لصلب المسيح يوجد في الإسكوريال . على أن هذه النماذج المتفرقة من التحف لا تمدنا بما تقوم عليه شهرته الواسعة . وحتى تمثال بيرسيوس تبدو عليه مظاهر العنف والإفراط في الزخرف ، وأقرب إلى أن يكون صورة مشوهة لصاحبه . ولكن كلمنت السابع (كما يقول بنيفينوتو نفسه) كان يعدّه « أعظم من ولد من الرجال في فنه الخاص » (٥٣) ، وأنا لنجد في رسالة باقية حتى الآن وجهها ميكل أنجيلو إلى تشيليني قوله : « لقد عرفتك كل هذه السنين الطوال فوجدتك أعظم صانع سمع به العالم » (٥٤) . وفي وسعنا أن نختم هذا الفصل بقولنا إن تشيليني كان رجلا عبقريا ، منحط الأخلاق ، صانعا مجيداً ، سفاحا ، سيرته الذاتية المرححة أكثر بهجة من ذهبه ، وفضته ، ونقوشه على الأحجار الكريمة ، وترضينا عن المبادئ الأخلاقية السائدة في ذلك العصر .

الفصل السادس

أضواء صغرى

كان عهد الاضمحلال فى إيطاليا عهد البعث فى سافوى . وليس ببعيد أن يكون عمانويل فليبيرت Emmanuel Philibert وهو صبي فى الثامنة من عمره قد رأى الفرنسيين يستولون على الدوقية (١٥٣٦) ، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ورث تاجها وإن لم يرث أرضها وديارها ؛ وفى التاسعة والعشرين اضطلع بدور رئيسى فى انتصار الأسبان والإنجليز على الفرنسيين فى سان كنتين St. Quentin (١٥٥٧) ، ولم يمض على هذا النصر إلا عامان حتى سلمت له فرنسا بلاده المخربة وعرشه المفلس . وكان بعث سافوى وبيدمنت على يديه من أعظم الأعمال التى قام بها رجال الحكم والسياسة فى التاريخ . ذلك أن منحدرات جبال الألب فى دوقيته كانت معششا لهرطقة الفودوا Vaudois الذين أخذوا يحيلون الكنائس الكاثوليكية إلى مجامع للعبادة الكلفتية . وعرض عليه البابا بيوس الرابع لإيراد الكنائس فى عام كامل ليستعين به على قمع هذه الشيعة . واتخذ عمانويل لهذا الغرض إجراءات شديدة حاسمة ، فلما أن أدت هذه الإجراءات إلى هجرة أفرادها جملة لجأ إلى خطة التسامح والمسالمة ، وكبح جماح محكمة التفتيش ، وآوى فى بلاده اللاجئين من الهيوجينوت . ثم أنشأ جامعة جديدة فى تورين وتبرع بالمال اللازم لتأليف دائرة معارف عامة فى جميع العلوم . وكان على الدوام مجاملا لطيف المعشر ، كما تكررت خيائنه لزوجته مرجريت أميرة قالوا Margaret of Valois التى كانت تمدد بالانصح السديد والمعونة الدبلوماسية ، والتى كانت واسطة العقد فى الحياة الاجتماعية والذهنية الساطعة

في تورين . ولما مات عمانويل (١٥٨٠) ، كانت دوقيته من أحسن بلاد أوروبا حكما . ومن نسله كان ملوك إيطاليا الموحدة في القرن التاسع عشر . وفي ذلك الوقت كان أندريا دوريا ، الذي غدر بالفرنسيين في أنسب الأوقات فانتقل من صفوفهم إلى صفوف الأسبان ، كان أندريا هذا يحتفظ بزعامته في جنوى : وكان رجال المصارف في تلك المدينة قد قدموا المال اللازم لحروب شارل الخامس ، فكافأهم شارل على ذلك بأن أبقى لهم سيادتهم على المدينة لم يمسه بسوء . ولم تنكب جنوى بقدر ما نكبت البندقية بسبب تحول التجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي ، فعادت مرة أخرى ثغراً عظيماً وحصناً ذا موقع حربي عزيز المثل . وشاد فيها جاليتسو أليسي البيروجي Galeazzo Alessi of Perugia ، تلميذ ميكيل أنجيلو ، كنائس فخمة وقصوراً شاهقة ، ووصف فاساري طريق بالبي Via Balbi بأنه أفخم شوارع إيطاليا بأجمعها (*) .

حسبنا هذا عن جنوى . أما ميلان فقد عين شارل الخامس فيها نائباً عنه ليحكمها بعد أن توفي فرانشيسكو ماريا اسفوردسا آخر حكامها من هذه الأسرة في عام ١٥٣٥ . وكان خضوعها لشارل إيداناً بعودة السلم إلى ربوعها ، فازدهرت المدينة وعمها الرخاء من جديد . وشاد أليسي فيها قصر مارينو Marino الجليل ؛ وكان ليوني ليوني Leone Leoni الحفار في دار السك بميلان ينافس تشيليني في فنون النقش الصغرى على اللدائن . ولكنه لم يجد رجلاً مثل تشيليني ينشر له روائع فنه . وكان أعظم من امتاز من أهل ميلان في ذلك الوقت هو سان كارلو بوروميو San Carlo Borromeo الذي قام في أواخر عصر النهضة بمثل ما قام به القديس أمبروز أيام الاضمحلال في العصر القديم . وكان ينتمي إلى أسرة شريفة غنية ؛ وقد عينه عمه بيوس الرابع كردينالاً وهو في سن الحادية والعشرين ، وكبيراً لأساقفة ميلان في الثانية والعشرين (١٥٦٠) ، وأكبر الظن أنه كان وقتئذ

(*) لقد دمر هذا الشارع في أثناء الحرب العالمية الثانية .

أغنى رجال الدين في العالم المسيحي كله . لكنه تخلى عن جميع إيراد مناصبه الدينية عدا منصب كبير الأساقفة ، وتبرع بما تدره من المال للأعمال الخيرية ، وانقطع لخدمة الكنيسة وأجهد نفسه في هذه الخدمة إجهادا كاد يقضى على حياته . وهو الذى أنشأ طائفة « ناذرى القديس أمبروز » Oblates of St. Ambrose ، واستقدم اليسوعيين إلى ميلان ، وأيد بقوة جميع الحركات التى تهدف إلى إصلاح الكنيسة ، التى ظلت على ولائها للمذهب الكاثوليكي . وإذ كان قد اعتاد الثراء والسلطان ، فقد أصر على الاحتفاظ بكل ما كان لمحكمة أسقفية في العصور الوسطى من اختصاصات ، وتولى بنفسه المحافظة على القانون والنظام ، وملأ سجون الأسقفية بالمجرمين والملاحدين ، وظل أربعة وعشرين عاما الحاكم الحقيقى للمدينة . وضعف شأن الأدب والفن بسبب حرصه الشديد على الوحدة الدينية والخلق القويم ؛ ولكن بليجرينو تيبلىدى Peliegrino Tibaldi المهندس المعمارى والمصور علا نجمه بفضل رعايته ، وكان هو الذى وضع تصميم المرممة الفخمة في الكندراتية الكبرى ، وقد غفر أهل المدينة للكردنال قسوته حين ظل في أثناء وباء الطاعون الذى انتشر في المدينة عام ١٥٧٦ يؤدى واجبات منصبه ، وبواسى المرضى والثاكلين بزياراته التى لا تعرف الملل ، ويقظته الشديدة . وصلواته مع أن كثيرين من الأعيان قد فروا من المدينة .

وشاد الكردنال تولوميو جاليو Tolomeo Gallio في تشرنوبيو Cernobio على بحيرة كومو قصر دسست الريفى (١٥٦٥) ؛ ولعله لم يكن واثقا من أن ثمة جنة غيره . وفى بريستشيا رسم جيامبتستا مورنى Giambattista Moroni ، نلميذ مورتو Moretto صورا خلية بأن توضع إلى جانب معظم صوره تيشيان (*) . وواصل فنشيدندسو كامبي Vincenzo Campi في كريمونا

(*) أهمها « صورة سيد طاعن في السن » (في برجامو) و « أنطونيو نافالچيرو » (ميلان) وبارتولوميو بيجا (فيديورك) ، وشيخ وغللام (بسطن) ، ومعلم تيشيان (واشنجتن) ، نردوفيكو مادرائسو (تشكاجو) .

تقاليد أسرته في رسم صور تقرب من أن تكون خالدة . وفي فبراير سوى إركولى الثاني Ercole II نزاع دولته الطويل مع البابوية بأن أدى إلى بولس الثالث ١٨٠٠ ر ١٨٠٠ دوقه ووعد به بأداء سبعة آلاف أخرى جزية سنوية . ووهب الفنسو الثاني المدينة فترة أخرى من الرخاء (١٥٥٨ - ١٥٩٧) أثمرت صورة أورشليم المحررة لأنوناسو وصورة الراعى الأمين لحيوفنى جوارينى Giovanni Guarini . وأخذ جيرولامو دا كاربي Girolamo da Carpi فن التصوير عن جاروفولو Garofolo ، ولكنه ، كما يقول فاسارى ، أضاع كثيراً من وقته فى الحب والعزف على العود ، وعجل بالزواج ، فلم يتسع وقته للاهتمام بمطالب العبقرية .

وازدهرت پياتشندسا وپارما وقويت فيهما الحركة الفنية فى ذلك العهد . وكان البابا بولس الثالث يطالب بالمدينتين على أنهما من أملاكه الإقطاعية . وخلعهما على ابنه پيبرلويجى فارنيزى فى عام ١٥٤٥ وإن كانا قد ظلتا عدة قرون من أملاك ميلان ، وكانت هذه الدوقية نفسها وقتئذ تابعة لشارل الخامس . وقبل أن يمضى عامان بعد ذلك الوقت اغتيل الدوق الجديد فى پياتشندسا على أثر فتنة قام بها أشراف المدينة ، الذين رضوا عن فسقه وفجوره ولكنهم لم يرضوا عن احتكاره المال والسلطان . وقال بولس بحق إن ناسج برد المؤامرة لحمته وسداه هو فيرانتى جندساجا ، الذى كان وقتئذ يحكم ميلان من قبل الإمبراطور شارل ، ولا حظ أن جيوش الإمبراطور ، وكانت معدة من قبل بالقرب من المدينة ، استولت من فورها على پياتشندسا . وأضحت من أملاك الإمبراطور (١٥٤٧) . ولم يمض على وفاة بولس إلا قليل من الوقت حتى عين بوليوس الثالث أتاڤيو ابن پيبرلويجى دوقاً على پارما ؛ وبما أن أتاڤيو هذا كان فضلاً عن ذلك زوجاً لابنة شارل ، فقد سمح له أن يحكم پارما إلى يوم وفاته (١٥٨٦) .

ولم تظهر أعراض الاضمحلال على بولونيا . وفيها وضع فيولا Vignola

تصميم باب بانكى Porto de' Banchi إجابة لطلب جماعة من التجار ،
وأضاف أنطونيو مورندى إلى جامعة المدينة ملعباً ذائع الصيت ضم إلى فنانها
العظيم ؛ وكتب سباستيانو سيرليو sebastiano serlio رسالة في العمارة تضارع
رسالة بلادينوفيا كان لها من تأثير . وفي عام ١٥٦٣ عهد البابا بيوس الرابع
إلى توماسو لوريقي Tommaso Laureti من أهل بالرم أن ينشئ نافورة
في ميدان سان پترونيو Piazza di san Petronio . وعهد أعمال النحت
في هذا المشروع إلى فنان فلمنكى شاب جاء وقتئذ من فلورنس ، ولعل
اسمه قد اشتق من اسم المدينة التي قام فيها بأعظم عمل له . ووضع جيوفاني
دا بولونيا أوجيان بولونيا نماذج لتسعة تماثيل تقام حول فسقية نيتون
Fontana di Nettuna الضخمة . وأقام على قمة هذه المجموعة تماثلاً ضخماً
لرب البحار عارى الجسم قوى البنية . وصب من البرنز في أركان الفسقية
تماثيل لأربعة أطفال سعداء يلعبون مع دلفين يقفز في الماء ؛ ثم وضع بين
قدمي نيتون أربع عذارى رشيقات القوام يعصرن الماء من أثدائهن . وأعادت
بولونيا جيان إلى فلورنس مثقلاً بالمال والثناء ، ولم تأسف على السبعين ألف
فلورين (٨٧٥٠٠٠ ؟ دولار) التي أنفقها على النافورة الفخمة ، ذلك أنه
روح الفن المدني كانت لا تزال حية في إيطاليا .

وإننا لتدهشنا ، ونحن تلقى نظرة الوداع على رومة في عصر النهضة ، سرعة
إفائها من كبوتها بعد ما حل بها من الدمار عام ١٥٢٧ . لقد أظهر كلمنت
السابع من المهارة في مداواة العلة أكثر مما أظهره في منعها . لقد أنقذ
الولايات البابوية من الدمار باستسلامه إلى شارل ، واستمدت البابوية من
مواردها ما تحتاجه من المال لإعادة النظام إلى الكنيسة وتعمير بعض ما تخرب
من رومة . ولم تكن خزائن البابا قد أحست بعد بنقص الموارد من جراء
حركة الإصلاح الديني ؛ ولاح في عهد بولس الثالث أن روح النهضة
وروعها قد عادت إليهما الحياة إلى وقت ما .

لقد كان بعض الفنون يختصر وبعضها الآخر يولد أو يبدل صورته . ويكاد جيوليو كليوفيو Giulio Clovio ، وهو رجل كرواتي يقيم في منزل الكردنال فارينزي ، يكون آخر المزخرفين للمخطوطات . لكن حدث في عام ١٥٧٦ أن ولد كلوديو منتي Cludio Monteverdi في كريمونا ، وسرعان ما أضيفت المسرحيات الغنائية والموشحات الدينية إلى الفنون الجميلة ، وأخذت أناشيد القديس المتعددة الألحان في باليسترينا تترنم بعودة القوة والحياة إلى الكنيسة ، وكان عصر التصوير الإيطالي العظيم يؤذن بالزوال ، غير أن بيرينو دل فاجا Perino del Vaga وجيوفاني دا يوديني Giovanni da Udine اللذين جاءا بعد رفائيل ، قد وجها هذا الفن إلى ناحية الزخرفة ، أما النحت فكان يستحيل إلى أشكال مشوهة ، فقد أخذ رفائلو دا منتي لوبو Raffaello de Montelupo وجيوفاني دا منترسولي Giovanni da Montorsoli يبالغان فيما بالغ فيه أستاذهما ميكيل أنجيلو ، فأخرجوا تماثيل ملتوية الأطراف التواء يؤدى إلى مواقف مبتكرة ولكنها غريبة قبيحة منفرة .

وكانت العمارة وقتئذ أعظم الفنون ازدهاراً ، فقد أصلح ميكيل أنجيلو قصر فانيزى وحدائقه المقام على تل بلاتين (١٥٤٧) ، وأتم هذا الإصلاح . جيوفاني دلا بورتا (١٥٨٠) . ووضع أنطونيو دا سنجالو Antonio da Sangallo الأصغر معبد القديس بولس في قصر الفاتيكان (١٥٤٠) . وفى القاعة الملكية المؤدية من معبد بولس ومعابد سستيني أمر البابا بولس الثالث أن يضع سنجالو هذا تصميم الأرضية الرخامية واللوحات الزخرفية ، وأن يقوم فاسارى وابنا زكارى Zuccari بعمل مظلمات الجدران ، وأن يقوم دانيلى فلتيرا Daniele da Volterra ومعه بيرينو دل فاجا بحفر النقوش فى الجص . وازدانت حجرات البابا فى سانت أنجيلو بمظلمات من صنع بيرينو ، وجيوليو رومانو ، وجيوفاني دا يوديني وحفرهم . وشاد

الكردنال إبوليتو دست، الثانى بالقرب من تريشولى (١٥٤٩) أول قصرين ريفيين لأسرة دست ، وأعد بروبيجوريو Pirro Ligorio الرسوم اللازمة للملهى وزخرفته أبناء زكارى ، ولا تزال الحدائق المدرجة تشهد بما كان لكرادلة النهضة من ذوق رقيق ينفقونه دون مبالاة .

وكان أحب المماريين إلى الشعب فى رومة أو حولها فى ذلك العهد هو جياكومو باروتسى دا فنيولا Giacomo Barozzi da Vignola . وقد جاء هذا المهندس من بولونيا لدراسة الخرائب الرومانية القديمة ، وكون طرازه الخاص بالجمع بين بانثيون أجريا وباسلقا يوليوس قيصر ، وسعى لأن يجمع بين السقف المقيب والعقود ، والعمل والقواصر ، وكتب كما كتب بالاديو كتابا للنشر مبادئ فنه ، وأحرز أول نصر له فى كبرارالو Capraralo التريبة من فيتر بوجين صمم للكردنال فارفيلى قصرأ لأن فارنيلى غير قصرهم الأول واسمأ مترفا (١٥٤٧ — ١٥٤٩) ، ثم شاد بعد عشر سنين من إتمامه قصرأ ثالثأ لهم فى پياتشندسا . ولكن أعظم أعماله أثرأ هى التى أقامها فى رومة وهى بيت البابا جيوليو الربى الذى أقامه للبابا يوليوس الثالث وپورتا دل پوپولو Porta del Popolo ، وكنيسة چيسو Gesu (١٥٦٨ — ١٥٧٥) . وفى هذا الصرح الذائع الصيت الذى بناه لطائفة الجزويت الناهضة خطط فنيولا نيفا ذا عرض وارتفاع عظيمين وحول أجنحة الكنيسة إلى معابد ، وكان المهندسون الذين جاءوا من بعده يرون أن هذه الكنيسة أعظم مظهر للطراز المئشور — ففها أشكال كثيرة منحنية أو ملتوية بالزخرف ، وخلف فنيولا عام ١٥٦٤ ميكل أنجيلو فى منصب كبير المهندسين لكنيسة القديس بطرس ، وكان له نصيب من الشرف فى رفع التبة الكبرى التى صممها أنجيلو من قبل .

الفصل السابع

ميكل أنجيلو : آخرة المطاف

١٥٣٤ - ١٥٦٤

وعاش ميكل أنجيلو طوال تلك السنين كأنه شيخ مشاكس قدم من عصر غير العصر الذي كان فيه ، وكان في التاسعة والخمسين من عمره حين مات كلمنت ، ولكن يبدو أن أحداً لم يكن يظن أن من حقه أن يستريح . فها هو ذا پول الثالث وفرنتشيسكو ماريا دوق أرينو يتنازعان جسمه الحى . فأما الدوق ، بوصفه منفذاً لأعمال يوليوس الثانى ، فقد أخذ يطالب بإتمام قبر عمه ، معتمداً على عقد وقعه أنجيلو من زمن بعيد . ولكن البابا المتغطرس لم يعر هذا الطالب التفاتا ، وأخذ يقول لبوناروتى : « لقد ظلمت ثلاثين عاماً ألح فى أن تدخل فى خدمتى ، والآن وقد جلست على كرسى البابوية هل يليق بك ألا تلبى ندائى ؟ أما هذا العقد فسيمزق ، وستعمل أنت لى ، وليكن بعد ذلك ما يكون » (٥٥) . واحتج البابا على هذا ، ولكنه ارتضى أخيراً أن يقام ضريح أصغر كثيراً من الذى كان يحلم به يوليوس . وكان علم الفنان الجبار بأن الضريح بناء ناقص مشوه سبباً فى نكده عيشه فى سنيه الأخيرة .

وفى عام ١٥٣٥ كتب البابا المنتصر خطاباً يعين به ميكل أنجيلو كبير المهندسين ، والمثاليين ، والمصورين فى الفاتيكان ، ويشيد بتفوقه فى كل ميدان من هذه الميادين . وجعل الفنان فوق ذلك عضواً فى بيت البابا وخصص له معاشاً قدره ١٢٠٠ كرون (١٥٠٠٠ ؟ دولار) كل عام مدى الحياة . وكان كلمنت السابع قد طلب إليه قبل وفاته بزمان قليل

أن يرسم مظلماً بصور عليه يوم الحساب خلف مذبح معبد سستيني .
واقترح پولس وقتئذ أن يقوم الفنان بهذا العمل . وتردد ميككل لأنه يريد
أن يواصل أعمال النحت لأعمال التصوير ؛ فقد كان أسعد حالاً وهو يعمل
بالمطرقة والمنحت مما يكون وهو يعمل بفرشاة الرسم . وكانت سعة الجدار
الذى يراد تصويره - ٦٦ قدماً في ٣٦ - خليقة بأن تبرر هذا التردد ،
غير أنه بدأ هذه الصورة التى هى أعظم صوره كلها في شهر سبتمبر من
عام ١٥٣٥ وكان وقتئذ في سن الستين .

ولعل ما لاقاه المرة بعد المرة من العنت في حياته - كضريح يوليوس
الأبتر ، وتدمير التمثال الذى أقامه لهذا البابا في بولونيا ، وعدم إتمامه واجهة
سان لورندسو وقبور آل ميديتشى - قد جمعت في صدره حقداً دفيناً فاض
حتى صبه غضباً في هذه الصورة القدسية . ولعله قد عادت إليه من خلال
أربعين عاماً ذكريات سفنورولا - منها تلك النبوءات المفجعة المندرة بسوء
المنقلب ، وذلك التشنيع الشديد على نخب بني الإنسان ولوئمه ، وفساد
رجال الدين ، واستبداد آل ميديتشى ، والخطرمة العقلية ، والمباهج
الوثنية ، ولهب نار الجحيم التى تشوى روح فلورنس . وكأنما كان الشهيد
الميت يتحدث إليه مرة أخرى ، من مذبح العالم المسيحى الوثيق الصلة به .
وهكذا شرع الفنان المكتئب الذى لقبه دانتي بالعالم يغوص من جديد

في أجاج المجحيم ويصور أهوالها على الجدار لكى تظل تلك الأحكام الإلهية
التى لا مفر منها ماثلة في المستقبل أمام البابوات أجيالاً بعد أجيال وهم
يقرءون القداس . وفي هذا الحصن الحصين الحامى للذى ، الذى كان
إلى عهد غير بعيد يزدري بالجسم الآدى ويصب عليه اللعنات ، يشرع
هذا الفنان بفرشانه فيصور - وكأنما هو مثال ينحت تماثيل مجسمة لا مصور
يرسم صوراً ملونة - ذلك الجسم في مائة من الحالات والمواقف ، تارة
يتلوى ويتجهم من شدة الألم ، وتارة في غفوة ، ثم في نشوة حين يبعث

الموتى أحياء ، أو يصور الملائكة وقد انتفخت أجسامهم وهم ينفخون النفخة المشهورة في الصور ، أو المسيح يكشف عن جراحه ؛ وقد أوتى مع ذلك منكبين عريضين وذراعين قويتين يستطيع بها أن يقذف في الجحيم من كانوا يظنون أنهم أكبر من أن يطيعوا أوامر الله .

غير أن ما فيه من ميل إلى النحت قد أفسد عليه قدرته على التصوير ، ذلك أن هذا التزم المتشدد أخذ يزداد كل يوم استمساكا بدينه ، ويصر على أن يمثل باللون أجساما متخمة قوية ذات عضلات مفتولة ، حتى أصبح الملائكة الذين يمثلهم الفن والشعر أطفالا سعداء ، أو شبابا ظرفاء ، أو فتيات رشوقات ، أصبح هؤلاء في يديه خلائق ذوى أجسام رياضية يتسابقون في الفضاء ، ويستحقون النجاة ، سواء كانوا أخياراً أو شراراً لأنهم خلقوا في صورة الله أو فيها يشبه صورة الله إن لم يكن لغير هذا من الأسباب . وحتى المسيح نفسه ، في جلال غضبه ، أصبح صورة لادم المرسوم على سقف سستيني ، أى لها في صورة إنسان أو فيها يشبه صورة الإنسان . إن في الصورة لحماً أكثر مما يجب أن يكون ، وفيها أذرعاً ، وسيقاناً ، وعضلات في الأجسام وفي باطن السيقان أكثر مما يلزم منها لأن يسمو بالروح إلى التفكير في عقاب الذنوب . وحتى أريتينو الفاجر المستهتر كان يرى أن هذه الأجسام العارية الكثيرة العدد قد وضعت في غير المكان اللائق بها . وما من أحد يجهل أن بياجيو دا تشيزينا Biagio de Cesena رئيس التشريفات عند بولس الثالث قد شكى من أن هذه الحفاوة الزائدة بالجسم البشري أليق بأن تزين مشرباً للخمر منها بمصلى للبابوات ، وأن ميكل أنجيلو قد ثار لنفسه منه بأن صورته بين الملعونين المعذبين ، وأن بولس نفسه حين طلب إليه بياجو أن يمحو الصورة رد عليه رداً فيه ما فيه من الفكاهة القوية والتقى العظيم ، فقال إن البابا نفسه لا يستطيع أن ينجى الروح من نار الجحيم (٥٦) . واستجاب بولس

الرابع لاحتجاج رجال من طراز بياچيو فأمر دانييلي دا فلتييرا Daniele de Voterra بأن يصور سراويل للأجزاء التي لا يليق ظهورها من الصور ، فما كان من رومة إلا أن لقيت الفنان المسكين « بنخياط السرويل ، il Braghettone . على أن أجل صورة في هذا المنظر الشامل القاتم ترتدى أثواباً سابغة تغطي كل جسمها . تلك هي صورة مريم العذراء التي تعد أثوابها آخر انتصار أحرزه الفنانون في تصوير الثياب . والحق أننا لا نجد في هذه الصورة التي تمجد الوحشية الآدمية عنصراً ينقذها من هذه الوهدة . إلا نظرة الارتياح والشفقة البادية على وجه العذراء .

وأزيح الستار عن هذه الصورة يوم الاحتفال بعيد الميلاد في عام ١٥٤١ بعد كدح دام ست ستين . وكانت رومة وقتئذ توشك أن تدخل في عهد من الرجعية الدينية ضد أساليب النهضة ، فارتقت صورة يوم الحساب على أنها مما يتفق مع الدين ومع الفن العظيم . ووصفها فاسارى بأنها أروع المصور كلها على الإطلاق ، وأعجب الفنانون بما فيها من دقة التشريح ، ولم يروا عيباً في المغالاة في حجم العضلات ، ولا في المواقف الغريبة الشاذة ، ولا في كثرة الأجسام البشرية ؛ بل حدث تقيض هذا فأخذ كثيرون من المصورين يقلدون أساليب هذا الفنان المعلم وشذوذه ، وأوجدوا المدرسة النمطية التي بدأ بها اضمحلال الفن الإيطالي . وحتى غير الفنانين قد أدهشتهم المراعاة والتناسب في الأحجام مما أظهر بعض أجزاء الصورة وكأنها نقش بارز ، كما أدهشتهم المراعاة الدقيقة لفن المنظور التي جعلت طول الأجسام السفلى مترين ، والوسطى ثلاثة أمتار ، والعليا أربعة . وإذا نظرنا إلى هذا المظلم اليوم فلما لا نستطيع أن نحكم عليه حكماً عادلاً صحيحاً . فلقد أضربه دانييلي حين ألبسه السراويل ، كما أضرت به الأثواب التي ألبستها بعض أشكاله بعدئذ في عام ١٧٦٢ ، وآذاه التراب والدخان ، وما علاه من قمام مدى أربعة قرون .

وبعد أن استراح ميكل أنجيلو أربعة أشهر بدأ (١٥٤٢) يعمل في مظلمين في المعبد الذى بناه أنطونيو دا سنجلو لبولس الثالث في قصر الفاتيكان ، وكان واحد منهما يمثل استشهاد القديس بطرس ، والثاني تنصر القديس بولس . وهنا أيضاً أطلق الفنان العجوز لنفسه العنان في المغالاة في تصوير الأجسام البشرية . ولما أتم الصورتين كان قد بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، وقال لفاشارى إنه صورهما رغم أنه ، وإنه بذل في تصويرهما جهداً شديداً ولاقى عناء كبيراً (٥٧) .

غير أنه لم يحس بأنه قد بلغ من العمر ما يحول بينه وبين الاشتغال بالنحت ، بل إنه كان يقول إن المطرقة والنحت يساعده على الاحتفاظ بصحته . ولقد كان ، وهو يرسم صورة العشاء الأخير يجد من حين إلى حين ملجأ وسلوى في الرخام الذى في مرسمه . ففي عام ١٥٣٩ نحت تمثال برونسى الصارم القوى (المحفوظ في بارجلو) الخليق بأن يضم إلى أعظم التماثيل الرومانية الملونة . ولعله قد نحت ليؤيد به ما حدث منذ قليل من قتل الطاغية أليساندرو دى ميديتشى في فلورنس ، وليكون نذيراً للطغاة في المستقبل . وبعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت نحت وهو في فترة من المزاج الرقيق تمثال العذراء تبكى أمام المسيح الميت ، والذى يقوم الآن خلف مذبح كتلرائية فلورنس . وكان يرجو أن يوضع هذا التمثال فوق ضريحه ، ولذلك أخذ يعمل فيه كالمحموم ، وكثيراً ما كان يواصل العمل ليلاً في ضوء شمعة مثبتة في قلنسوته . ولكن ضربة شديدة من مطرقة أضرت بالتمثال ضرراً لم يسعه إلا أن يتركه معتقداً أنه قد حاق به من الأذى ما لا يمكن إصلاحه . غير أن خادمه أنطونيو ميني استهده إياه ، وأخذ ، وباعه إلى رجل من فاورنس . والتمثال ثمرة مدهشة لجهود رجل في السابعة والخمسين من العمر . فجسم المسيح الميت ممثل دون مبالغة ، وتمثال مريم الذى لم يتم هو الرقة بعينها ممثلة في الحجر ، ووجه نيقوديموس Nicodemus المقنع الرائع يمكن أن يمثل ،

كما يظن البعض ، وجه ميكل أنجيلو نفسه ، وكثيرا ما كان الفنان في تلك المرحلة من العمر يفكر في آلام المسيح .

وكان دينه في جوهره هو دين أهل العصور الوسطى ، يخلع عليه التصوف كثيرا من الكتابة والقتام ، والتنوُّب بالمستقبل ، والتفكير في الموت وعذاب النار . ولم يكن يشارك ليوناردو في تشككه ، أو رفائيل المرح في استهتاره وعدم مبالاته . وكانت أحب الكتب إليه الكتاب المقدس وكتاب دانتي ، وقد أخذ شعره في أخريات حياته يدور أكثر فأكثر حول الأمور الدينية :

الآن وصلت حياتي مختارة بحرا عاصفا
كأنها زورق هش ضعيف ، إلى المرفأ الواسع
الذي يؤمر الناس جميعاً بالدخول فيه قبل أن يحل يوم الحساب الأخير
فينحاسب الناس على ما كسبت أليسيهم من خير وشر ويجزون عليه
الجزاء الأوفى .

ولقد عرفت الآن حق المعرفة أن ذلك الوهم
الذي استحوذ على قلبي وجعلني عبدا خاشعا للفن الأرضي
إنما هو هو وعي باطل . ألا ما أشد إثم
ذلك الشيء الذي يطلبه الناس جميعاً ويتلهفون عليه !
وأفكار الحب التي صورت في ثياب لا تكاد تستر الجسم
ما قيمها حين يقترب منا الموت المزدوج
فهو موتان موت أعلمه عن يقين وآخر أرهبه .
فلا التصوير ولا النحت بقادر الآن على أن يريح نفسى
التي تتوجه إلى حبه العظيم في عليائه
ذلك الذى يبسط ذراعيه على الصليب ليضمنا إليه (٥٨) .

وأخذ الشاعر الشيخ يلوم نفسه على ما كتب في السنين الخوالي من أغان
في العشق . ولكن يلوح أن هذه الأغاني لم تكن تنفيساً عن شهوة جسمية

بلى كانت رياضة شعرية . وأعظم أغاني ميكيل أنجيليو إخلاصاً في مجموعته المعروفة باسم « القوافي » هي التي يوجهها إلى نبيل روماني كان يدرس التصوير . وقد جاء هذا الشاب إلى أنجيليو (في عام ١٥٣٢ على ما نظن) ليأخذ عليه الفن ، وسحر أستاذه بجمال وجهه واعتدال قامته ، وحسن هيئته وأدبه الجم . وأحبه ميكيل وكتب فيه أغاني ملؤها الإعجاب الصريح به حتى لقد وضعه الناس مع ليوناردو بين المشهورين من ذوى الشذوذ الجنسي في التاريخ^(١٨٥) . غير أن هذه التعبيرات الغرامية بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة كانت شائعة في عهد النهضة حتى بين الرجال الذين يعشقون النساء والنساء اللاتي يعشقن الرجال ؛ وكانت عباراتها القوية المتطرفة جزءاً من الأساليب الشعرية وكتابات الرسائل في ذلك العهد ؛ ولذلك فلما لا نستطيع أن نستخلص منها أحكاماً معينة . لكننا نلاحظ مع ذلك أن ميكيل أنجيليو - إذا صرفنا النظر عن شعره - ظل فيما يلوح لايحاً بالنساء حتى التقى بفتوريا كولنا .

وبدأت صداقته معها حوالي عام ١٥٤٢ حين كانت في سن الخمسين وكان هو في السابعة والستين . وإنه ليسهل على امرأة في سن الخمسين أن تثير لواهج الحب في قلب ابن الستين ؛ ولكن فتوريا لم تكن تريد ذلك أو تفكر فيه ، فقد كانت تحس بأنها لا تزال مرتبطة بمركز بيسكارا الذي مات منذ سبعة عشر عاماً ؛ ولهذا كتبت إلى ميكيل أنجيليو تقول : « إن صداقتنا صداقة ثابتة ، وجبنا قوى أكيد ؛ تربطه عقدة مسيحية وثيقة »^(٥٧)

وبعثت إليه بأغان بلغ عددها ١٤٣ أغنية كلها طيبة ولكن الإهمال ياد فيها ؛ ورد عليها بأغان تفيض إعجاباً وإخلاصاً ولكن الغرور الأدبي يفسدها ويشوهها . وكانا إذا التقيا يتحدثان عن الفن والدين ، ولعلها كانت تعترف له بعظفها على الرجال الذين كانوا يحاولون إصلاح الكنيسة . وكان تأثيرها فيه قوياً عميقاً ، فقد بدا له أن أجل ما في الحياة من عناصر روحية قد اجتمعت كلها في تقواها ، وحنانها ، وإخلاصها . وكان بعض

ما يتصف به من تشاؤم يزول عنه إذا مشت معه وتحدثت إليه ، وكان يدعو الله ألا يعود مرة أخرى الرجل الذى كانه قبل أن يلتقى بها . وكان إلى جانبها حين حضرتها الوفاة (١٥٤٧) ؛ وظل بعد وفاتها زمنا طويلا محطم القلب حزينا كأن بعقله خبالا » ، يلوم نفسه لأنه لم يقبل وجهها كما قبل يدها فى تلك اللحظات الأخيرة (٦٠) ، وأقدم بعد وفاتها بقليل على أعظم أعماله الفنية وأكبرها تبعة : ذلك أنه لما مات أنطونيو سنجالو (١٥٤٦) ، طلب بولس الثالث إلى ميكل أنجيلو أن يتم كنيسة القديس بطرس . واحتج الفنان المتعب مرة أخرى بأنه مثال لا مهندس . ولعله لم يكن قد نسى بعد عجزه عن إتمام واجهة سان لورندسو . ولكن البابا أصر ، وامتثل ميكل أنجيلو لأمره « وهو آسف كل الأسف » ؛ وأضاف : كما يقول فاسارى إلى هذا قوله : « إنى لأعتقد أن البابا قد أوحى إليه بذلك من عند الله » . وأبى الفنان أن يتقاضى عن ذلك العمل ، وهو آخر أعمال حياته ، مكافأة إضافية . وإن كان البابا قد ألح عليه فى هذا المرة المرة . وبدأ العمل بجدا لا يتوقعه الإنسان من رجل فى الثانية والسبعين من العمر .

وكأنما كان العمل فى كنيسة القديس بطرس لا يكفيه ؛ فقد تعهد فى ذلك العام نفسه بالقيام بمشروعين كبيرين : أولهما أنه أضاف إلى قصر فارنيزى طابقاً ثالثاً ، وشرفة يمتدح كل من رآها جمالها البارع ، كما أضاف طابقين علويين إلى بهو يرى فاسارى أنه أجمل أبهاء أوروبا بأجمعها ؛ ووضع تصميمًا لمجموعتين من الدرج يرقى بهما إلى تل الكپتول ، وأقام فوق قته تمثال ماركس أورليوس القديم الممتطى صهوة جواد . ثم شرع بعدئذ وهو فى الثامنة والثمانين من عمره يشيد فوق الطرف الثانى من الهضبة قصر مجلس الشيوخ بسلامه المزدوج العالى الفخم ؛ ووضع خططاً لقصر المعهد الموسيقى على أحد جانبي قاعة مجلس الشيوخ ومتحف الكپتول على

الجانب الآخر منها : على أنه حتى هو نفسه ، لم يمتد به أجله حتى ينفذ هذه المشروعات كلها ، ولكن الأبنية تمت كلها وفقاً لتصميمه على أيدي توماسو كفاليري ، وفنيولا ، وجياكومو دلا پورتا .

ولما توفي بولس الثالث (١٥٤٩) لم يعرف الناس هل يحتفظ خلفه يوليوس الثالث بميكل أنجيلو كبيراً للمهندسين في كنيسة القديس بطرس . وكان ميكل قد رفض التصميم الذى وضعه أنطونيو داسينجالو لأن يجعل الكنيسة مظلمة إلى حد يخشى منه على الآداب العامة (١٦) ، ولكن أصدقاء المتوفى أقنعوا اثنين من الكرادلة بأن يحذرا البابا بأن بونارتي يعمل على إفساد الصرح . وأيد يوليوس أنجيلو ، ولكن لما جلس البابا بولس الرابع على كرسي البابوية (وقد كان البابوات يتعاقبون تعاقباً سريعاً في أيام ميكل أنجيلو) عاد حزب أنجيلو إلى الهجوم وادعى أن الفنان الذى كان وقتئذ في الحادية والثمانين من عمره ، قد بلغ من العمر أرذله وكان في عهد طفولته الثانية ، وأنه كان يهدم أكثر مما يبني ، وأنه يضع في سان پيترو تصميمات مستحيلة التنفيذ . وكثيراً ما فكر ميكل في الاستقالة من عمله وقبول الدعوات المتكررة التي كان يبعث بها إليه الدوق كوزيمو كى يعود إلى الإقامة في فلورنس ؛ ولكنه كان قد وضع خطة القبة ، ولم يشأ أن يتخلى عن منصبه حتى يرى فكرته في طريق التحقيق ، وقضى عدة سنين يفكر في هذه المشكلة ، حتى إذا كان عام ١٥٥٧ عمل من الصلصال نموذجاً صغيراً للقبة الضخمة التي كان عرضها وثقلها أكثر ما في المشروع خطورة . وقضى عاماً آخر في صنع نموذج من الخشب أكبر من النموذج السابق ووضع الخطط اللازمة للبناء والمساند . وكان المشروع يقضى بأن يكون قطر القبة ١٣٨ قدماً ، وارتفاعها هي نفسها ١٥١ ، وأن تكون قمتها على ارتفاع ٣٣٤ قدماً فوق سطح الأرض ، وأن تتركز على قاعدة ذات أطراف تعتمد على عقود ضخمة في الليوان الذى يخترق الكنيسة . وكان المشروع يقضى أيضاً

بأن يشاد « فانوس » (أى قبة صغرى ذات واجهة مفتوحة) يعلو تسعة وستين قدماً فوق القبة الرئيسية وأن ينشأ فوقها صليب يعلو عن هذا الفانوس اثنتين وثلاثين قدماً يكون ذروة ذلك الصرح الفخم العظيم الذى يصل بأجمعه إلى ارتفاع ٤٣٥ قدماً . ذلك هو مشروع القبة . أما القبة التى يمكن أن نقارنها بها والتى شادها برونيسكو فوق كنيسة فلورنس الكبرى ، والتى وصف ميكيل أنجيلو جمالها بأنه جمال لا يفوقه سواه ، فقد كانت تبلغ ١٣٨ قدماً ونصف قدم فى العرض و ١٣٣ قدماً فى ارتفاعها . هى نفسها و ٣٠٠ قدم من سطح الأرض إلى قمة البناء و ٣٥١ قدماً بما فيها الفانوس . وكانت هاتان القبتان أعظم ما شيد من الصروح جرأة فى تاريخ عمارة النهضة .

وجاء بيوس الرابع فى عام ١٥٦٩ بعد بولس الرابع ، وسعى أعداء الفنان الجبار مرة أخرى لكى يحلوا محله . وكان قد أنهكه النزاع وتبادل التهم ، فقدم استقالته من منصبه (١٥٦٠) ، ولكن البابا رفض قبولها ، وظل ميكيل أنجيلو كبير المهندسين فى كنيسة القديس بطرس إلى يوم وفاته . وتبين بعدئذ أن ناقديه لم يكونوا مخطئين فى كل ما وجهوه إليه من نقد . ذلك أنه فى فن العمارة قلما كان يعنى بوضع خططه على الورق ، وقلما كان يفضى بها إلى أصدقائه ، بل كل ما كان يفعله أن يضع تصميم كل جزء من أجزاء البناء كلما قرب وقت إقامته . وكان شأنه فى هذا شأنه فيما كان يقوم به من أعمال النحت . فكثيراً ما كان يهاجم كتلة الرخام دون أى استعداد سابق أكثر من وجود فكرة فى رأسه . ولما مات لم يخلف وراءه خططاً أو نماذج محددة لأى جزء من البناء غير القبة وحدها ، ولهذا كان من خلفوه أحراراً فى اتباع أفكارهم هم أنفسهم ، فبدلوا فكرته وفكرة برامنتى الأساسية - فكرة الصليب اليونانى - وأحلوا محلها فكرة الصليب اللاتينى بأن زادوا فى طول جناح الكنيسة الشرقى وأقاموا واجهة عالية أمامه حجبت السقف المقبب عن الأنظار

من هذه الناحية إلا إذا نظر إليها من بعد ربع ميل . وكان جزء البناء الوحيد الذى اتبعت فيه خطة أنجيلو هو هذا السقف المقبب نفسه ، فقد نفذه جياكومو دلا پورتا عام ١٥٨٨ كما وضعه أنجيلو دون تغيير هام . وما من شك فى أن هذا البناء أفخم الأبنية فى رومة وأبهاها منظراً . فهو يعلو فى منحنيات رائعة من أسفل قاعدته على التل إلى الفانوس القائم أعلاه ، ويتوج فى جلال الربعة التى فى أسفله ، ويضئ على العمدة ذات اللطراز القديم ، والعمد المربعة ، وطيلات العمد ، والقواصر وحدة شاملة تضارع فى بهاها أى صرح معروف فى العالم القديم . وفيها أيضاً حاولت المسيحية أن توفق بينها وبين العالم القديم . فقد وضع بيت عبادة المسيح قبة البانيون (التى يبلغ اتساعها ١٤٢ قدماً وارتفاعها بأكمله ١٤٢) فوق باسقا قسطنطين كما أقسم برامنتى أن يفعل ، ولم يجبن عن أن يعلو بالعمد القديمة ذلك العلو الشامخ الذى لا نظير له فى سجلات التاريخ القديم .

ولم ينقطع ميكل أنجيلو عن العمل حتى بلغ التاسعة والثمانين من عمره . من ذلك أنه حول جزءاً من حمامات دقلديانوس فى عام ١٥٦٣ إلى كنيسة سانتا ماريا دجلى أنجيلى وذيرها استجابة لطلب پيوس الرابع ، ثم وضع تصميم پورتا بيا Porta pia أحد أبواب المدينة . ووضع للفلورنسيين المقيمين فى رومة نموذجاً لكنيسة ، قال عنه فاسارى ، ولعله كان مدفوعاً فى ذلك بتحمسه الشديد إلى أستاذه وصديقه الشيخ ، إنه « أجمل ما وقعت عليه عين إنسان »^(١٣) . لكن أموال الفلورنسيين فى رومة نفذت فلم يقيم البناء .

وخارت قوة الفنان الجبار فى آخر الأمر ، وكانت قوة لا يكاد يصدق الإنسان وجودها فيه . وكان وهو فى الثالثة والسبعين من عمره قد بدأ يشكو من داء الحصوة ، ويلوح أنه قد وجد ما يخفف علته فى بعض الأدوية . أو المياه المعدنية ، ولكنه قال : « إني أوثرن بالصلاة والدعاء أكثر مما أوثرن بالدواء » ، وكتب بعد اثنى عشر عاماً إلى ابن أخ له يقول : « أما إذا سألتنى

عن حالى فلانى أعانى جميع الأمراض التى تصيب الطاعنين فى السن ، فالحصوة تمنعنى من التبول ، وحتوى وظهرى متصلبان تصلباً يمنعنى فى كثير من الأحيان عن صعود الدرج» (٦٣) ، ومع ذلك فقد ظل حتى سن التسعين يخرج إلى الخلاء مهما تكن حالة الجو .

وكان يترقب منيته باستسلام المؤمن وانسراح الفيلسوف . وقد قال لفاستارى يوماً ما : « لقد بلغت من الكبر درجة ينجب إلى معها أن الموت يجذبني من رداي ويدعوني إلى السير معه » (٦٤) . ويمثله نقش برنزي بارز ذائع الصيت من صنع دانييلي دافلتيرا ذا وجه مغضن من فرط الألم ، شاحب من كبر السن . وأخذ في شهر فبراير من عام ١٥٦٤ يزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ، ويقضى معظم وقته نائماً في كرسیه الساند . ولم يترك وصية بل كل ما فعله أنه « أسلم روحه لله ، وجسمه للأرض ، ومتاعه لأقرب أقرائه » (٦٥) . وأسلم الروح في ١٨ فبراير من عام ١٥٦٤ وهو في التاسعة والثمانين من العمر ، ونقلت جثته إلى فلورنس ، حيث دفن في كنيسة سانتا كروس (الصليب المقدس) باحتفالات دامت عدة أيام . ووضع فاستارى له تصميم قبر فخيم أظهر فيه منتهى التقي والورع ،

وقد حكم معاصروه ، وأيد حكمهم مر العصور ، على أنه أعظم من ظهر على وجه الأرض من الفنانين ، رغم ما يتصف به من عيوب لاحصر لها . وهو ينطبق عليه أتم انطباق تعريف « أعظم الفنانين » الذى وضعه رسكن ، لأنه « أظهر في مجموعة أعماله أكبر عدد مستطاع من أعظم الأفكار » - أى الأفكار « التى تحرك أعظم مواهب العقل وتسمو بها » (٦٦) . فقد كان أولاً رساماً ممتازاً ، كانت رسومه من الكنوز التى يعتز بها أصدقاؤه الذين أهداها إليهم أو اختلسوها منه . وفي وسعنا أن نرى هذه الرسوم اليوم في كاسا بونارتي Casa Buonariti بفلورنس ، أو في خزانة الرسوم بمتحف اللوفر . وهى تضم رسوماً تخطيطية لواجهة كنيسة سان لورندسو ، ورسوم

يوم الحساب ودراسة جميلة لسبيله ، وصورة تخطيطية للقديسة آن ، لا تكاد تقل في دقة فكرتها عن صورة ليوناردو نفسه ، والصورة الغربية التي رسمها لثيودوريا كولنا الميتة ، وهي ذات وجه لا تستبان معارفه وثديين ذابلين . وقد رجع في حديث له نقله عنه فرانثشيسكو ده هولندا Francisco de Hollanda بجميع الفنون إلى فن التصميم فقال :

إن فن التصميم أو الرسم الدقيق . . . هو أساس فنون التصوير الملون ، والحفر ، والعمارة ، وكل شكل من أشكال التمثيل وجوهرها ، كما هو الأساس والجوهر للعلوم بأجمعها . ومن استطاع أن يتقن هذا الفن ويبرع فيه حصل على كنز عظيم . . . ذلك أن جميع أعمال العقل البشرى واليد البشرية إما أن تكون هي التصميم نفسه وإما أن تكون فرعاً من ذلك الفن (١٧) .

وظل وهو يصور بالألوان رساماً أقل اهتماماً باللون منه بالخطوط ، يسعى قبل كل شيء لرسم صورة معبرة مفصحة ، أو التعبير بالفن عن موقف آدمي ، أو نقل فلسفة للحياة عن طريق الرسم والتخطيط . وكانت يده هي يد فيدياس أو أبلز ، وصوته صوت أرميا أو دانتي . ولسنا نشك في أنه في أحد تنقلاته بين فلورنس ورومة قد وقف عند أرفيتو ودرس صور العرايا التي رسمها سنيوريلي في تلك البلدة . وقد أوحى إليه هذه الصور مضافة إلى مظلمات چيتو ومساتشيو بطراز لا يماثله مع ذلك طراز آخر احتفظ به التاريخ . وقد أدخل في فنه ، وأظهر فيه من النبيل أكثر مما أدخله في الفن وأظهره فيه غيره من الفنانين لا نستثنى منهم ليوناردو ، أو رفايل ، أو تيشيان ؛ ولم يكن يلهو بالزخرف أو السقاسف ؛ ولم يعبأ بالصغائر ، أو بالمناظر الطبيعية ، أو بالخلفيات المعمارية لصوره أو بالنقوش العربية الطراز ؛ بل كان يترك موضوعه يقف وحده غير مزدان حولا مزخرف . ذلك أن عقله قد استحوذت عليه رؤى سامية ، خلغ عليها شكلا بقدر ما تستطيع اليد أن تخلع على الرؤى أشكالاً ، تصورها عرفات ،

وممتنئين وقديسين ، وأبطالاً ، وأرباباً . وقد استخدم منه الجسم الآدمي وسيلة له وواسطة ، ولكن هذه الأشكال البشرية ، كانت عنده هي التجسيم المعذب لآماله ، وخوافه ، وفلسفته المضطربة ، وعقيدته الدينية التي خبا لها .

وكان النحت فنه الخاص المحبب المميز له عن غيره من الفنانين ، لأنه هو أعظم الفنون التشكيلية . ولم يلون تماثيله في يوم من الأيام لأنه كان يشعر بأن شكلها كفايتها ، بل إن البرنز نفسه كان فيه من اللون أكثر مما يطبق ، ولهذا قصر نحته على الرخام^(٦٨) ، وكانت كل صوره ومبانيه وثيقة الارتباط بالنحت حتى قبة كنيسة القديس بطرس نفسها : وقد أخفق في أن يكون مهندس عمارة (إذا استثنينا من قولنا هذا تلك القبة الفخمة) ، لأنه كان يصعب عايه أن يتصور بناء إذا لم يكن في صورة الجسم الآدمي ونسبه ، ولم يكن يطبق أن يراه إلا من حيث هو مستودع للتماثيل ؛ وكان يريد أن يغطي بتماثيله السطوح كلها بدل أن يجعل السطوح عنصراً من عناصر الشكل . وكان النحت أشبه بحمى تنبأه ولا تفارقه ، وكان الرخام في ظنه يخفى في طياته سراً يصير على كتمان ، ويعتزم هو أن ينتزعه منه ، غير أن هذا السركامن في نفسه هو ، وهو أدق من أن يكشف عنه جملة وتفصيلاً . وقد ساعده دوناتلو بعض المساعدة على إعطاء الروى الباطنية صورة ظاهرة ، وقدم له دلا كورشيا معونة أكثر من دوناتلو في هذه الناحية ، أما اليونان فكانت معونتهم له أقل من الاثنين . وقد حلوا جذو اليونان في تكريس معظم فنه للجسم الآدمي ، وترك تماثيله أكثر تعميماً تكاد تتبع كلها نمطاً خاصاً ، كما يتبين لنا ذلك في تماثيل النساء القائمة على قبور آل ميديتشى . ولكنه لم يستطع قط تمثيل الطمأنينة المجردة من الانفعال التي نراها بادية على وجوه التماثيل اليونانية قبل العصر الهلنستي ، لأن مزاجه لم يكن يحجز له أن يعنى بتمثيلها ، ولأنه لم يكن يجد فائدة في تصوير شكل لا يعبر عن شعور ما ، وكانت تعوزه القدرة

على الكبح والاحتجاز التي كانت عند اليونان والرومان الأقدمين ، كما كان يعوزه الشعور بقتاسب الأجزاء ؛ فقد جعل الكتفين أعرض مما يوائم الرأس ، وجعل الجذع أقوى مما يناسب الأطراف ، كما جعل الأطراف نفسها معقدة بالعضلات ، كأن الآدميين والأرباب جميعاً مصارعون متوترة عضلاتهم من شدة الكفاح ، ولا يسعنا إلا أن نعرف أن فن الأسلوبيين أو النمطيين(*) وتشويه الرسوم قد بدءا بهذه المغالاة المسرحية في الجهود العضلية والانفعالات النفسية .

ولم يوجد ميكيل أنجيلو مدرسة خاصة كما أوجد رفائيل ؛ ولكنه درب طائفة من الفنانين الممتازين ، وكان له عليهم نفوذ قوى شامل ، وكان من تلاميذه جيجيلمو دلا پورتا Guglielmo della Porta الذي صمم لبولس الثالث في كنيسة القديس بطرس تابوتاً لا يكاد يقل روعة عن مقابر آل ميديتشى . غير أن من خلفوا أنجيلو من رجال النحت والتصوير قلده في مغالاته دون أن يعوضوا هذا العيب بعمق التفكير والشعور ، وبالتفوق في أصول الصنعة . والحق أن الفنان العظيم هو في العادة النروة العليا لتقليد ، وأسلوب ، ونمط ، ومزاج تاريخي ؛ وتفوقه نفسه تنتهى به سلسلة من التطورات لا يبقى بعده شىء منها ؛ ولهذا تأتى من بعده لا محالة فترة من المحاكاة الضعيفة والاضمحلال ، ثم يبدأ مزاج جديد وتقليد جديد في النماء ، ونرى فكرة جديدة ، ومثلاً أعلى جديداً ، أو أصولاً للفن جديدة . تكافح مستعينة بمائة من التجارب الغربية كى تصل إلى نظام جديد ، وإلى شكل أصيل يتكشف عن طراز جديد .

وعلينا أن نقول كلمة أخرى تتسم من جانبنا بالخضوع والتواضع . تلك هى أن الأوساط منا نحن الآدميين ، حتى في الوقت الذى يضعون فيه أنفسهم موضع الحكام على الصفوة الممتازين ، يجب ألا تعوزهم فضيلة

(*) النمطك بأسلوب معين أو السير على نمط بعينه . (المترجم)

الاعتراف بفضل أولئك الصفوة الأخيار وعبقريتهم . ويجب ألا نستحي من عبادة الأبطال ، إذا لم نتمخل في خارج أضرحتهم عن إحساسنا بالتمييز بين مزاياهم وعيوبهم . ونحن نجل ميكل أنجيلو لأنه ظل طوال حياته الطويلة المعذبة يخلق وينتج آية فنية رائعة في كل ميدان من ميادين الفن الرئيسية . وإنا لنرى هذه الروائع تنزع من لحمه ودمه ، ومن عقله وقلبه ، إذا صح هذا التعبير ، حتى تتركه إلى وقت ما ضعيفاً من كثرة ما أبدع وخلق ، ونرى هذه الروائع تتشكل بمائة ألف ضربة من مطرقة ومنسحته ؛ وقلمه وفرشاته ؛ نراها تتشكل واحدة في إثر واحدة ، كأنها مخلوقات خالدة تأخذ مكانها بين أشكال الجمال أو المعاني الباقية أبد الدهر . إن عقولنا لأضعف من أن تعلم حقيقة الله سبحانه ، وهي عاجزة عن فهم الكون الذي اختلط فيه ما هو في الظاهر خير وشر ، وعذاب وجمال ، ودمار وسمو ؛ ولكننا إذا كنا في حضرة أم تحنو على طفلها ، أو عبقري يخلق من الفوضى نظاماً ، ويكسب المادة معنى ، والصورة أو الفكرة نبلا وعظمة ، أحسنا بأننا أقرب ما نستطيع أن نكون إلى الحياة ، والعقل ، والقانون ، التي يتكون منها عقل العالم الذي لا يمكن أن تدركه العقول .

حاشية

لقد كان من التمازج الطيبة العميقة التي نحمد الله عليها أن درسنا هذا العدد الجهم من الدراسات والشخصيات التي صادفتنا في تلك القرون الغنية المضطربة . ألا ما أعظم ثراء النهضة الذي لا حد له ، وحسبك أنها استطاعت حتى في عهد اضمحلالها أن تنجب رجلا من أمثال تنفورتو وفرونيزى ، وأريتينو فاسارى ، وبولس الثالث وباليسترينا ، وسان سوفينو وبلاديو ، والدوق كوزيمو وتشيليني ؛ وأنها أثمرت في الفن أمثال قاعات قصر الأدواق ، وقبة القديس بطرس ! وما أعظم هذه الحيوية المروعة التي كانت تكن بلاريب في أولئك الإيطاليين من رجال النهضة الذين يحيط بهم من كل جانب العنف والغواية ؛ والخرافات ، والحروب ، ولكنهم مع ذلك كانوا يحسون أقوى إحساس بكل صورة من صور الجمال وبكل آية من آيات الفن ، وينفثون حمم عواطفهم وانفعالاتهم وفهم ، وعمارته ، واغتيالاتهم ، وآيات نختهم ، وصلاتهم الجنسية غير المشروعة ، وصورهم وسطورهم ، وعذاراهم الجميلة وصورهم المشوهة ، وأناشيدهم وأشعارهم المتصنعة ، وبذاءتهم وتقواهم ، وفجورهم وصلواتهم كأن إيطاليا كلها كانت بركانا ثائرا يخرج منه هذا كله ! ترى هل وجد في أي مكان آخر على ظهر الأرض مثل هذا العمق وهذه القوة في الاستجابة إلى الحياة ! إنا لا نزال إلى هذا اليوم نشعر بقوة هذا الوحي ، وإن متاحفنا لتفيض بما لا تتسع له من روائع هذا العصر الملهم المحسوس .

وإنا ليصعب علينا أن نصدر عليه حكما هادئا ؛ وإذا ما أعدنا على القارى ما وجه إليه من التهم فلنا نفعل ذلك كارهين . وأول هذه التهم أن النهضة (ونحن نقصر هذا اللفظ على النهضة في إيطاليا) قامت من الناحية المادية على الاستغلال الاقتصادي للكثرة الساذجة على أيدي القلة البارة .

ذلك أن ثروة رومة البابوية قد جاءت من النقود الصغيرة التي تبعث بها آلاف الآلاف من بيوت الصالحين الأتقياء في أوربا ؛ وإن بهاء فلورنس كان مصدره عرق الدهماء المغمورين الذين كانوا يكدحون الساعات الطوال ، وليس لهم حقوق سياسية ، ولم يكونوا يمتازون عن رقيق الأرض في العصور الوسطى إلا باشتراكهم في زهو وخيلاء في مجد الفن المدني ولألائه ، وفي حياة المدنية الثائرة وما فيها من دوافع ومغريات . وكانت النهضة من الناحية السياسية هي لإحلال الأبحار كيات التجارية ، والدكتاتوريات العسكرية محل حكومات المدن الجمهورية المستقلة ، كما كانت من الناحية الأخلاقية انتقاضاً وثيقاً قوض الدعامة الدينية للقانون الأخلاقي ، وأطلق العنان للغرائز البشرية ، وترك لها حرية فظة لا يتورع أصحابها عن استخدام الثروة الحديدية التي آلت إليهم عن طريق التجارة والصناعة كما يحلو لهم دون وازع من ضمير أو دين . أما الدولة ، بعد أن خرجت من رقابة الكنيسة ، التي أضحت هي نفسها سلطة زمنية وعسكرية ، فقد نادى بأنها فوق القوانين الأخلاقية في الحكم ، والدبلوماسية ، والحرب .

وكان فن النهضة (ونحن نواصل سرد التهم) جميلاً ، ولكنه قلما كان سامياً رفيعاً . فقد كان يفوق الفن القوطي في تفاصيله ، ولكنه ينقص عنه في العظمة ، والوحدة ، والأثر الكلي فيمن يشاهده ؛ وقلما كان يصل إلى كمال الفن اليوناني أو جلال الفن الروماني ؛ وكان هو صوت أرستقراطية ذات ثروة ، فرقت بين الفنان والصانع الماهر ، وانتزعت من الشعب انتزاعاً ، وجعلته يعتمد على الأمراء وأصحاب الثراء المحدثين . وفقد هذا الفن روحه حين استسلم لعهد ميت قديم ، وأذل العمارة والفن وأخضعهما لأشكال قديمة أجنبية عنهما . وهل ثمة ما هو أكثر سخفاً من وضع واجهات يونانية — رومانية للنكاثس القوطية كما فعل ألبيرتي في فلورنس وريميني ! وربما كان إحياء الفن القديم من أوله إلى آخره من الأخطاء المفجعة . ذلك أن الطراز إذ مات لا يمكن أن تبعث فيه الحياة بحق إذا عادت الحضارة التي يعبر عنها

إلى الحياة ، لأن قوة الطراز وسلامته تكمنان في اثنتاه مع حياة زمانه وثقافته . ولقد كان في العصر العظيم الذي ترعرع فيه الفن اليوناني والروماني قيوداً رواقية رفعها التفكير اليوناني إلى مقام المثل الأعلى ، وكثيراً ما تحققت في أخلاق الرومان ، ولكن هذه القيود لم تكن تتفق بحال مع ما كان ينسم به عهد النهضة من حرية ، وانفعال ، واضطراب ، وإفراط . وأى شيء يتعارض ومزاج الإيطاليين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر أكثر مما يتعارض معه السقف المستوى ، والواجهة الرباعية المنتظمة ، والصفوف الكثيرة من النوافذ التي لا تختلف واحدة منها عن الأخرى ، والتي كانت وصمة في جبين قصور عصر النهضة ؟ ولما أن ملئت العمارة الإيطالية هذا التكرار المسئم ، وتلك العودة المتكلفة إلى الطراز القديم ، انطلقت انطلاق التاجر البندقي الذي تغتصب أمواله لتعطي إلى تيشيان ، تفرط في الزخرف والبهاء ، وانحدرت من الطراز القديم إلى الطراز المشوه الجديد .

كذلك لم يستطع فن النحت القديم أن يعبر عن روح النهضة . ذلك أن القيود لا بد منها للنحت ، وهذه الوسيلة الباقية على الأيام لا يمكن أن تحسن التعبير عن تلو أو ألم هو بطبيعته قصير الأجل . إن النحت حركة مغلدة ، وانفعال انصرف أو سيطر عليه صاحبه ، وجمال أو شكل احتفظ به من أثر الأيام في المعدن المتجمد أو في الحجر الذي يقاوم فعل الزمن . ولعل هذا هو السبب في أن أعظم ما خلفه حجر النهضة من ثمار النحت هو المقابر أو تماثيل العذراء الباكية التي استطاع بها الإنسان القلق أن ينال الهدوء والطمأنينة في آخر الأمر . ولقد ظل دوناتلو ، رغم ما بذل من الجهود ليقلد المثاليين الأقدمين ، قوطياً يكافح كي يصل إلى هذه الغاية ويأمل في الوصول إليها . وكان ميكل أنجيلو يضع لنفسه قوانينه ، فكان كأنه مارد جبار يمين في مزاجه ، يكافح عن طريق تصوير العبيد والأسرى كي يصل إلى ساحة السلام والجمال . ولكن إصرافه في الانفعال وعدم التقيد بالقوانين حرمه

الراحة : ولقد كان التراث اليونانى بعد عودته عبثاً باهظاً كما كان نعمة وبركة ..
فقد أغنى النفس الحديثة بما أبرزه من المثل النبيلة ، ولكنه كاد يخنق تلك
الروح الفتية - التى كانت ترعرعت توا ونهضت - تحت عبء عدد لا يحصى
من العمد ، والتيجان ، والطيلات والقواصر . ولعل هذه العودة إلى القديم ،
وهذه العبادة للنسب (حتى فى الحداث) ، قد حالت دون نماء فن إيطالى
موأثم لبيته ؛ كما عاق بعث اللغة اليونانية على أيدي الكتاب الإنسانيين
نمو الأدب باللغة القومية .

وقد أفلح التصوير فى عهد النهضة فى التعبير عن لون ذلك العهد
وانفعالاته . ووصل بالفن إلى درجة من الرقة لم يعل عليها قط فى وقت
من الأوقات . لكنه هو أيضاً لم يخل من أخطاء وعيوب . فقد كان
أكبر ما يهتم به هو الجمال الشهوانى المائل فى الأنواب الفخمة والأجسام
الموردة . وحتى صوره الدينية نفسها . كانت تتم عن عواطف شهوانية
تهتم بالأشكال الجسدية أكبر مما تهتم بالمعاني الروحية ، وإن كثيراً من
صور الصلب فى العصور الوسطى لتصل فى النفس إلى أعماق أبعد مما
تصل إليها صور العذراء المتحاشمة فى فن النهضة . ولقد جرد الفنانون
الهولنديون والفلمنكيون على تصوير وجوه غير جذابة وأنواب عارية غير
ذات جمال ، وعلى أن يبحثوا وراء هذه الظاهرة البسيطة عن أسرار أخلاق
الناس وعن عناصر الحياة ؛ وما أكثر ما تبدو صور البندقية العارية - حتى
عذارى رفاثيل نفسها - بجانب صورة **الافتتاح بالمثل لقان إيلك**
Van Eyck ! وليس ثمة صورة تفوق صورة **بوليوس الثانى لرفائيل** .
ولكن هل فى مائة الصور الذاتية التى أنتجها الفنانون الإيطاليون ما يضارع
تصوير ميراندت الصادق لنفسه أو التشارفن التصوير فى القرن السادس
عشر ليدل على قيام طبقة الأثرياء المحدثين . وعلى شغفهم بأن يبصروا

بأعينهم ويسمعوا بأذانهم ذبوع شهرتهم ؟ ولقد كان عصر النهضة عصرًا براقًا لماعًا ، ولكن مظاهره كلها يسرى فيها شيء من التظاهر وعدم الإخلاص ، وازدهاء بالثياب الفاخرة الغالية ، وبناء أجوف من السلطان المزعزع يعتمد على قوة من داخله ويريد أن ينقض ويصبح كومة من الخرائب إذا ما مسته أيدي جماعة من الغوغاء قاسية القلب ، أو هزته صرخة من راهب غاضب لا مقام له .

ترى ماذا نقول في هذا الاتهام الشديد لعصر أحببناه بكل ما في صدور الشباب من حماسة ؟ لن نحاول دحض هذا الاتهام ؛ فكثير منه صحيح وإن كان مثقلا بمقارنات ظالمة . ودحض التهم قلما ينفيها نقيا قاطعا ، ومعارضة نصف حقيقة بنصف حقيقة مضادة لها عبث لا طائل من ورائه . ما لم يكن في الإمكان مزج النصفين لتتكون منهما نظرة أوسع وأعدل . وليس من ينكر أن ثقافة النهضة كانت ثقافة أرستقراطية قامت على ظهور الفقراء الكادحين ، ولكن أية ثقافة لم يكن هذا شأنها مع الأسف الشديد ؟ وما من شك في أن كثيرا من الأدب والفن قلما كان ينشأ دون تركيز الثروة بعض التركيز ؛ وحتى الكتاب العدول أنفسهم لا بد لهم من كادحين غير منظورين ، يستخرجون كنوز الأرض ، ويزرعون الطعام ، وينسجون الثياب ، ويصنعون المداد . ولستأ نريد أن ندافع عن الطغاة المستبدين ، فإن منهم كآل بورجيا من يستحق الخنق ؛ ومنهم من بدد في مظاهر الترف الكاذب الأموال المأخوذة من عرق الشعب ودمائه ؛ ولكننا نعذر بشيء على فعال كوزيمو وحفيده لورندسو اللذين فضلتهما أهل فلورنس بلا ريب على حكم ذوى المال الذى شاعت فيه القوضى . أما عن الانحلال الأخلاقي ، فقد كان هو ثمن التحرر العقلي ؛ ومهما كان هذا الثمن غاليا ، فإن التحرر هو الحق الطبيعي الذى ورثه العالم الحر ، وهو نسيم الحياة الذى تستنشقه أرواحنا في هذه الأيام .

وكانت الدراسات العميقة المخلصة التي أحييت الآداب والفلسفة القديمة من عمل إيطاليا . وفيها نشأت الآداب الحديثة الأولى ، وكان منشؤها هو هذا الإحياء وذلك التحرر ؛ ولسنا ننكر أننا لا نجد بين الكتاب الإيطاليين في ذلك العهد من يضارع إرزمس وشيكسبير ، ولكن إرزمس نفسه كان شديد الحنين إلى هواء إيطالية النهضة الصافي الحر ، كما إن إنجلترا في عصر الملكة إليزابيث كانت مدينة إلى إيطاليا - إلى « الإنجليز المصطبغين بالطبقة الإيطالية » - ببلدور ازدهارها ، فقد كان أريستو Arisoto وسنادسارو Sannazaro النموذجين اللذين نسج اسپنسر وسدنى على منوالهما كما كانا أبوين لهذين الكاتبين الإنجليزين ؛ وكان لمكيثلى وكستجليونى أثر عظيم في إنجلترا في عهد إليزابيث واليعقوبيين . ولسنا واثقين من أن بيكن وديكارت كانا يستطيعان القيام بعملهما إذا لم يكن بمهوناتسى ومكيثلى ، وتيليزيو Telesio وبرونوا قد مهدوا لهم الطريق بعرقهم ودمائهم .

وما من أحد ينكر أن عمارة النهضة عمارة أفقية تمتد في السعة أكثر مما تعلو في السماء ، وأنها لهذا تبعث في النفس الغم والاكتئاب ، ونستثنى من هذا على الدوام القباب الفخمة التي تعلو في سماء فلورنس ورومة . أما الطراز للقوطى الذى يرتفع عمودياً ويبعث في النفس النشوة فإنه مظهر لدين يصور حياتنا على هذه الأرض في أنها منى للروح ، ويعقد آمال الإنسان على السماء مسكن الأرباب . وأما العمارة اليونانية - الرومانية القديمة فلإنها تعبر عن دين يُسكن أربابه في الأشجار ومجارى المياه ، وفي الأرض ، وقلما يجعل مقارها في أماكن أعلى من جبل في تساليا ؛ ولم تكن تتطلع إلى أعلى لتجد الأرباب . ولم يكن في مقدور هذا الطراز القديم البارد الهادئ أن يعبر عن روح النهضة الشكسة المضطربة ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن يسمح له بالغناء ؛ بل حفظ التنافس الكريم العادل آثار هذا الفن ونقل مثله العليا وأنماطه الرئيسية لتكون جزءاً - وشريكاً لا مسيطراً - من فنتا المعماري في هذه الأيام . نعم إن

إيطاليا لم تبلغ في العمارة ما بلغته العمارة اليونانية أو القوطية ؛ ولم يصل فن النحت فيها ما وصل إليه في بلاد اليونان القديمة ؛ ولعلها لم تسم في هذا الفن إلى ما سمت إليه آيات الفن القوطي في تشارتر وريمس ؛ ولكنها استطاعت أن تنجب فناً نحت لآل ميديتشى مقابر لا تقل روعة عن أعمال فيدياس وتمثيل باكية للجنراء خليقة براكستيلز Praxiteles .

فإذا انتقلنا إلى فن التصوير في عهد النهضة لم نجد حاجة إلى أن نقول فيه كلمة اعتذار . فهو لا يزال الذروة التي وصل إليها هذا الفن في التاريخ كله . لقد اقتربت أسبانيا من هذه الذروة في أيام الهدوء على أيدي فيلاسكويز Velàsquez ، ومورلو ، Murillo ؛ وريبرا Ribera ، وزربران Zurbaràn وألجريكو Il Greco ؛ واقتربت منها كذلك بدرجة أقل فلاندرز وهولندة على أيدي روبنز ورمبراندت . أما المصورون الصينيون واليابانيون فقد سموا إلى ذرى خاصة بهم ؛ وتبدولنا صورهم أحياناً كأنها ذات عمق خاص شديد ، إن لم يكن لشيء فلأنها تنظر إلى الإنسان نظرة الإكبار . لكن فلسفة هاتين الأمتين الأخيرتين العميقة التفكير ، وما تنسم به زخارفهما من رشاقة وظرف يعلو عليها كلها ما في فن المصورين الفلورنسين رفائيل وكريجيو ، والمصورين البنادقة من قوة وتعقيد واسع المدى ، وما في الألوان من حيوية وحاسة . نعم إن فن التصوير في عصر النهضة كان فناً جسدياً شهوانياً ، وإن كان قد أخرج بعض روائع للصور الدينية التي تعد من أرق ما أخرج هذا الفن ، كما أخرج طائفة من الصور التي تصل إلى السماك الأعلى في روحانياتها ونبيلها - كالتى نشاهدها في سقف معبد سستينى . غير أن هذه الشهوانية لم تكن أكثر من رد فعل طبيعى سليم ، ذلك أن الجسم البشرى طالما حقر وندد به ، كما أن النساء قد قاسين طوال القرون الظلمة كثيراً من ضروب التشنيع يُوجهها إليهن التنسك الشديد القاسى ، وكان من الخير أن تؤكد الحياة ، وأن يرفع الفن من جديد ، شأن جمال الأجسام البشرية الصحيحة السليمة . لقد ملت النهضة

تريد ذكر خطيئة الإنسان الأولى ، ودق الصدور حزناً ونلماً ، وما سوف يلقاه الإنسان بعد الموت من أهوال خرافية ؛ ولهذا أدار ظهره نحو الموت ، وولى وجهه نحو الحياة ؛ وغنى قبل شلر Schiller وبيتهوفن Beethoven بزمن طويل للبهجة والمرح نشيد الطرب الذى ليس له نظير .

وقضى عصر النهضة حين أحيى الثقافة اليونانية — الرومانية القديمة ، على سيطرة العقلية الشرقية على أوروبا ، وهى السيطرة التى دامت ألف عام كاملة . وانتقلت أنباء التحرر العظيم من إيطاليا مجتازة مائة من المسالك تتسلق الجبال وتخترق البحار إلى فرنسا ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وهولندة ، وإنجلترا . فقد نقل العلماء أمثال اليندرو Aleandro وأسكاليجر Scaliger ، والفنانون أمثال ليوناردو ، ودل سارتو ، وبريماتشيو ، وتشيليني ، وباردوني ، نقل هؤلاء النهضة إلى فرنسا ؛ ونقلها المصورون ، والمثالون ، والمهندسون إلى بست Pesth ، وكراكاو ، ووارسو ، ومتشيلزو Michelozzo إلى قبرص ، وغامر بليزى الكافر فسافر بها إلى اسطنبول . وعاد بها كولت Colet وليناكر Linacre من إيطاليا إلى إنجلترا ، كما عاد بها أجريكولا Agricola ورتشلين Reuchlin إلى ألمانيا . وظل تيار الأفكار ، والأخلاق ، والفنون نحو مائة عام يتدفق من إيطاليا نحو الشمال ، فكانت أوروبا الغربية كلها من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٦٠٠ تعترف بأن هذه البلاد أم الحضارة الجديدة فى العلم ، والفن ، والآداب « الإنسانية » ، التى حنت عليها وأرضعتها لبائها ، ونشأتها . وحتى فكرة الرجل الكامل السميع ، والفكرة الأرستقراطية عن الحياة والحكم ، قد جاءت من الجنوب لتصوغها آداب الناس وأشكال الدول فى الشمال . وهكذا كان القرن السادس عشر ، الذى اضمحلت فيه النهضة فى إيطاليا ، عصر نماء ووفرة فى فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وأسبانيا .

وطغت على أثر النهضة إلى حين شسدة النزاع بين حركتى الإصلاح والإصلاح المعارض ، والجدل القائم بين المذاهب والحروب الدينية ؛ وظل

الناس قرناً من الزمان يحتربون ويسفكون الدماء لكي يكونوا أحراراً يعتقدون ما يشاءون ويعبدون كما يحبون ، أو كما يشاء ويحب لهم ملوكهم ؛ وبدأ أن صوت العقل قد خفت تحت أسنة الجهاد الديني . لكن هذا الصوت لم يسكن كل السكون ، فإن رجالا من أمثال إرزمس ، وبيكن ، وديكارت ظلوا في خلال هذا الدمار المفجع يرددون هذا الصوت في شجاعة ، ويرفعون به عقيرتهم من جديد وفي قوة متزايدة ؛ وصاغه إسبوزا صياغة جديدة فخمة رائعة ، فلما أقبل القرن الثامن عشر ولدت روح النهضة الإيطالية مرة أخرى في عصر الاستنارة الفرنسي . وظل هذا الملحن يردد من فلتير وجبن Gibbon إلى جوته وهين Heine ، إلى هوجو وفلوبير ، إلى تين وأناتول فرانس خلال الثورات والثورات المضادة ، والتقدم والرجعية ، يبق بعد الحرب بطريقة ما ، ويرفع في أناة من مكانة السلم وشأنها . ولما لنجد اليوم في كل مكان في أوروبا والأمريكيتين ، أرواحاً متحضرة قوية - متزائلة متألقة في بلد العقل - تتغذى وتعيش على ذلك التراث ، تراث حرية العقل ، والإحساس بالجمال ، والتمائم المتسم بالتواد والتعاطف ، أرواحاً تغفو عن مآسى الحياة ، وتستمتع بمباهج الحواس ، والعقل والروح ، ويستمعون بقلوبهم على النوام أغاني النهضة العذبة وسط أناشيد الحقد ، وأعلى من جلجلة المدافع .

شكراً لك أيها القارئ الصديق

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجلدة في جزء ١٨ ، والأرقام الرومانية الصغيرة: إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في الكتاب المقدس .

CHAPTER XIX

1. Poggio, *Facetiae*, in Burckhardt 521.
2. Machiavelli, *Discourses*, i, 56.
3. Burckhardt, 519.
4. Ibid., 520.
5. Thorndike, Lynn. *History of Magic and Experimental Science*, IV, 562.
6. Jusserand. J. J., *English Way. faring Life in the M. A.*, 377.
7. Ibid.,
8. Aretino, *Ragionamenti del Zoppino*, in Burckhardt, 529; Sismondi, 744.
9. Ibid.
10. Pastor, V, 349.
11. Ibid., 349; Exodus, xxii, 18.
12. Pastor, V, 349.
13. Lea, H. C. *History of the Inquisition in the M. A.*, III, 540.
14. Simondi, 745; Burckhardt. 528.
15. Lea, op cit., 547.
16. Ibid.
- 16a. Ibid., 548
- 16b. Burckhardt, 508.
- 16c. Thorndike, IV, 761.
- 16d. Ibid., 485.
- 16e. Outlicciardini, *Ricordi* 57, in Burckhardt, 518.
- 16f. Robertson, J.M., *Short History of Freetbought*, 1, 369.
- 16g. Roscoe, *Leo X*, II, 253.
- 16h. Lacroix, Paul, *Science and*

Literature in the Middle Ages, 290.

- 16i. Burckhardt, 211.
- 16j. Boccaccio, *Decameron*, viii, 9.
17. In Castiglioni, *History of Medicine* 899.
18. Walsh. J. J., *The Popes and Science*, 75.
19. Ibid., 115.
- 19a. Cornaro, L., *Art of Living Long*, 43f.
20. Castiglioni 368.
- 20a. Cornaro, 92, 108.
- 20b. Ibid., Introd., 31.
- 20c. Ibid.
21. Lanciani, *Golden Days*, 87.
22. Molmenti, Part II, Vol. I, 159f.
23. Lanciani, 86.
24. Thorndike, *Science and Thought in the Fifteenth Century*, 221.
24. Sarton, IIIb, 1658.
25. Garrison, 187.
27. Molmenti, Part I Vol. II, 54.
28. Pastor, V, 61.
29. Luther, *Table Talk*, in Pastor, V, 65.
30. Garrison, 191.
31. Ibid.
32. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, II, 1119.
33. Castiglioni, 454.
34. Lanciani, *Golden Days* 84.
35. Sudhoff in Garrison, 191.
36. Castiglioni, 453.
37. Sarton, IIIa, 274.
38. Castiglioni, 465.

39. Ibid., 459, Lacroix, *Prostitution*, II, 951.
40. Molmenti, Part I, Vol. II, 262.
41. Robertson, *Freethought*, I, 369.
42. Ibid.
43. Owen, *Skeptics*, 215.
44. *Cambridge Modern History*, II, 703.
45. Pastor, V, 157.
46. Owen, 208.
47. Ibid.
48. 209.
49. *De incantatione*, ch. iii, in Symonds, *Italian Literature*, II, 476.
50. Ibid., ch. xii, in Symonds, op. cit., 477.
51. Owen, 201.
52. *De immortalitate animae*, ch. xiv.
- 52a. Ibid.
53. In Owen, 204.
54. Ibid.
55. *De fato*, iii, 7.
56. In *Cambridge Modern History*, II, 703.
57. Pastor, V, 157.
58. Molmenti, Part I, Vol. II, I.
59. Burckardt, 463.
60. Ranke, *History of the Popes*, I, 56.
61. Pastor, I, 27.
62. Pastor, X, 422.
63. *Encyclopadia Britannica*, 11th. ed., XXIII, 85a.
64. Symonds, *Italian Lit.*, 479.
65. Ibid.
66. Lea, *Inquisition in the M. A.*, III, 576.
67. Erasmus, Epistle xxvi, 34, in Robertson, J. M., *Freethought*, I, 370.
68. Guicciardini, I, 4.
69. Mather, F. J., *Western European Painting of Renaissance*, 150.
70. In Villari, *Machiavelli*, I, 417.
71. Guicciardini, I, Introd. vvi.
72. Guicciardini, *Ricordi*, xxviii, in Burckhardt, 464, Pastor, VIII, 178, and Villari, *Machiavelli*, II, 86.
73. *Ricordi* civ and ccixvii, in Villari, *Machiavelli*, II, 86.
74. *Opere inedite*, II, 51, in Sismondi, 389.
75. *Ricordi*, cccxvi, in Villari, II, 85; Guicciardini, *History*, III, 104.
76. Villari, II, 158-9.
77. Ibid., 325.
78. In Roeder, 206.
79. Cf. the letters in Villari, I, 469 and II, 48.
80. In Pastor, V, 160.
81. Machiavelli, *Discourses*, II, 10.
82. Ibid., 18.
83. In Villari, 344.
84. *Discourses*, III, 43.
85. Ibid., proem to book II.
86. Machiavelli, *History*, v, I.
87. Machiavelli, *The Prince*, ch. xxv.
88. *Discourses*, I, 3; *Prince*, III.
89. Robertson, I, 374.
90. *Discourses*, I, II.
91. I, 12.
92. I, 11-12.
93. I, 10.
94. II, 2; III, I.
95. I, 12.
96. III, 1.
97. III, 41.
98. I, 9.
99. *History*, v, 2.
100. In Villari, II, 143.
101. *Discourses*, I, 9.
102. *Prince*, I.
103. *Discourses*, I, I, 12.
104. In Villari, II, 151.
105. *Prince*, xi-vii; *History*, vi, I.
106. In Pastor, V, 161.
107. *Prince*, xv.
108. *Prince*, xviii.
109. Ibid., xvii.
110. *Discourses*, III, 19.
111. Ibid., I, 10.

112. *Prince*, xxi.
113. *Ibid.*, viii.
114. XVIII.
115. *Ibid.*,
116. VII, xvii.
117. XXVI.
118. Villari, II, 193 ; Treitschke, H. von, *Lectures on Politics*, 29.
119. Bacon, F., *De augmentis scientiarum*, vii, 2.
120. Hegel, *Philosophy of History*, in Symonds, *Despots*, 367.

CHAPTER XX

1. Burckhardt, 485.
2. Coulton, *Medieval Panorama*, 192.
3. Plantina, *Vitae*, in Burckhardt, 501.
4. Sismondi, 468.
5. Pastor, V, 84.
6. *Decameron*, i, 2 and 7.
7. Symonds, *Despots*, 458 n.
8. In Roeder, 512.
9. Pastor, I, 31.
10. Molmenti, Part I, Vol. II, 232.
11. Aretino, *Dialogues*, p. 82.
12. Guicciardini, *Considerazione on Machiavelli's Dialogues*, p. 82.
12. Guicciardini, *Considerazione on Machiavelli's Discourses* (i, 12), in Villari, II, 151.
13. St. Catherine of Siena in Coulton, *Five Centuries of Religion*, II, 399.
14. Pastor, P., 171-3.
16. Robertson, I, 369.
17. Burckhardt, 502.
18. Robertson, I, 369.
19. Pastor, VI, 443.
20. Pastor, X, 457-76.
21. Bandello, *Novels*, Vol. I, Story I ; Maulde' 178.
22. *Ibid.*
23. Pastor, V, 113.
24. Lea, *Auricular Confession*, III, 417.
25. Pastor, V, Tymonds, *Despots*, 477.
26. Pastor, V., 182.
27. Aretino, *La contigiana*, Att. III, p. 319 of *Works*.
28. Chubb, T. C., *Aretino*, 216.
29. Pastor, I, 26.
30. Molmenti, Part II, Vol. II, 239.
31. *Ibid.*, 238.
32. Castiglione, 464 ; Burckhardt, 400, who considers the estimate exaggerated.
33. Castiglioni, 464.
34. Molmenti, 260 n.
35. Pastor, VIII, 121.
36. Gregorovius, *Lucpezia*, 96.
37. Symonds, *Italian Lit.*, II, 225.
38. Maulde, 361.
39. Gregorovius, VIII, 306.
40. Lacirni, *Golden Days*, 67.
41. *Ibid.*, 64.
42. Maulee, 390, 164.
43. *Ibid.*, 27. 98.
44. Villari, I, 315.
45. Pastor, V, 105, 127.
46. Burckhardt, 416.
47. An example in Cartwright, *Isabella*, II, 288.
48. Maulde, 43.
49. Burckhardt, 456.
50. Maulde, 363 ; Sismondi, 747.
51. *Ibid.*, 459.
52. Coulton, *From St. Francis to Dante*, 41.
53. In Symonds ; *Italian Lit.*, II, 86.
54. Burckhardt, 846.
55. Molmenti, II, II, 92.
56. Burckhardt, 374.
57. Molmenti, 94 ; Taylor, *Leonardo*, 484.
58. *Ibid.*,
59. Sismondi, 452.
60. Addison, Julia, *Development of Arts and Crafts in the Middle Ages*, 192.
61. Cagnolo in Noyes, Milan, 138.
62. Cartwright, *Isabella*, II, 115.
63. Maulde, 181.
64. *Ibid.*, 70-1.

65. Cartwright, *Beatrice*, 177.
66. Pastor, V, 17-9.
67. Symonds, *Despots*, 24 of.
68. In Burckhardt, 404.
69. Ibid.
70. Pastor, VIII, 124.
71. Pastor, V, 107.
72. Ashley, W. J., *Introd. to English Economic History*, 447.
73. Pastor, V, 106.
74. *Cambridge Modern History*, I, 250; Symonds, *Despots*, 474.
75. Taine, *Rome and Naples*, 172.
76. Chubb, 23.
77. Guicciardini, III, 59.
78. Ibid., V I, 69; Machiavelli, *History*, vi, 4.
79. Pastor, V, 184.
80. Sismondi, 456.
81. James, *Bologna* 138.
82. Schevill, *Siena*, 223.
83. Robinson and Rolf, 123.
84. Cartwright, *Isabella*, II, 59.
85. Lanciani, 99.
86. Brinton, *The Gonzaga Lords*, 88.
87. Fattorusgo, 247.
88. Thorndike, *Science and Thought in the Fifteenth Century* 53; Burckhardt, 374.
89. Friedländer, II, 176.
90. Wright, T., *Homes of Other Days*, 462.
91. Molmenti, II, II 162.
92. *Decameron*, i, 1.
93. Molmenti, 231.
94. Villari, *Savonarola*, 246.
95. Gibbon, VI, 562.
96. Symonds, *Italian Lit.*, I, 397-8.
97. Vasari, II, 178-9, *Piero di Cosimo*.
98. Pastor, V, 48.
99. In Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 299.
100. Cellier, I, 82.
101. Lang, 302.
102. Castiglione, B., *The Courtier*, p. 76.
103. Ibid., *Oxford History of Music*, Introd. Volume, 215; Lang, 300.
104. *Oxford History*, Introd., 188.
105. In Einstein, Alfred, *The Italian Madrigal*, I, 89.
106. Symonds *Ital. Lit.*, I, 217.
107. Einstein, 7.
108. Tr. Symonds, *Sketches*, II, 382.
109. Rabelais, *Pantagruel*, bk. iv, Prologue.
109. a Grove, *Dictionary of Music*, IV, 809.
110. Einstein, 6, 8.
111. Luther, in Gregorovius, *Villa*, 249.
112. Ascham, *The Schoolmaster*, 87.
113. Machiavelli, *Discourses*, I, 12.
114. Guicciardini, VIII, 354.
115. Pastor, V, 181.

CHAPTER XXI

1. The phrase is from Michelet, *Histoire de France*, III i, 2, p. 5.
2. Lacroix, Paul, *Arts of the M.A.*, 99.
3. Guicciardini, I, 147.
4. Guizot, *History of France*, II, 554.
5. *Cambridge Modern History*, I, 240.
6. Roscoe, *Leo X*, I, 200-1.
7. Prescott, II, 307.
8. Guizot, II, 511; Sismondi, 676.
9. Lacroix, *Prostitution*, II, 1180.
10. Pastor, VII, 105.
11. Ibid., 141; Roscoe, *Leo X*, II, 39; Guicciardini, VI, 382, however, thought that Leo agreed.
12. De Grassis in Roscoe, *Leo X* II, 40.
13. Pastor, VII, 189.

14. Beuf, 222.
15. Guicciardini, VII, 266.
16. Pastor, IX, 27.
17. Chubb, 76.
18. Symonds, *Despots*, 440.
19. Pastor, IX, 73.
20. Burckhardt, 162.
21. Pastor, IX, 91-113.
22. Ibid., 125.
23. Cartwright, *Isabella*, II, 232.
24. Tr. Symonds, *Ital. Lit.*, II, 368.
25. Pastor, IX, 266.
26. Ibid., 271.
27. Guicciardini, VIII, 23 of.
28. Pastor, IX, 304.
29. Ibid., 328.
30. 331.
31. Sismondi, 687.
32. Young, 330.
33. In Cartwright, II, 272.
34. Guicciardini, IX, 98, 113.
35. Pastor, IX, 362.
36. Ibid., 390-405; Cartwright, II, 260.
37. Pastor, IX, 400, 413.
38. Guicciardini, IX, 305; Lanciani, 108.
39. Ibid., 107.
40. Guicciardini, IX, 307.
41. Pastor, IX, 400.
42. Symonds, *Revival*, 444-5.
43. Guicciardini, IX, 308; Pastor, IX, 413.
44. Symonds, *Despots*, 444, Job, x, 18.
45. Guicciardini, IX, 320-2; Pastor, IX, 424.
46. In Cartwright, *Isabella*, II, 270.
47. Burckhardt, 123; Symonds, *Despots*, 445.
48. In Guicciardini, X, 139.
49. Sismondi, 729; Symonds, *Despots*, 446.
50. Fattorusso, *Florence*, 192.
51. Sismondi, 731.
52. Symonds, *Michelangelo*, 279.
53. Young, 351.
54. Pastor, X, 199.
55. Vasari, II, 295, *Peruzzi*.
56. Symonds, *Michelangelo*, 441.
57. Ibid., 372.
58. 255.
59. Vasari, IV, 119n.
60. Ibid., 202.
61. Ibid., 202.
62. 324.
63. *Combridge Modern History*, II, 67.
64. Pastor, X, 235.
65. Ibid., 322.
66. Letter. of Gregorio da Casale, Oct., 1534, in Young, 358.

CHAPTER XXII

1. Burckhardt, *Cicerone*, in Vasari, IV, 320n.
2. Vasari, IV, 327.
3. Ibid., 329.
4. In Anderson, *Architecture of the Renaissance in Italy*, 145.
5. This section is especially indebted to Thomae Caldecott Chubb's *Aretino*.
6. Chubb, 46.
7. Vasari, III, 77, *Marcantonio Bolognese*.
8. In Chubb, 117.
9. Symonds, *Ital. Lit.*, II, 395.
10. Ariosto, *Orlando furioso*, xive, 14.
11. Maulde, 391.
12. Symonds, *Lit.*, II, 399-400.
13. Ibid., 404.
14. Chubb, 205.
15. Aretino, *Dialogues*, p. 55.
16. Aretino, 108, 83.
17. Roeder, 498.
18. Ibid., 441.
19. Taine, *Italy: Florence and Venice*, 289.
20. In Gronau, *Titian*, 46.
21. Chubb, 481.
22. Vasari, IV, 286.
23. Ruskin, *Stones of Venice*, I, 10.

24. Vasari, IV, 298.
25. In Mather, *Venetian Painters*, 340.
26. Soulier, O., *Le Tintoret*, 12.
27. Ibid., 19; Mather, 342.
28. Soulier, 115.
29. Ruskin, *Stones*, III, 285.
30. Ibid., 395.
31. Symonds, *Fine Arts*, 377.
32. Soulier, 75-6.
33. Ruskin, *Stones*, II, 243.
34. Siviero, R., *Catalogue of the Second National Exhibition of the Works of Art Recovered in Germany*, 16.
35. Mather, *Venetian Painters*, 396.
36. Ibid., 168.
37. 416; Venturi and Skira-Venturi, *Italian Painting: The Creators of the Renaissance*, 164.
38. Ruskin, *Stones*, II, 10.
39. Quoted by E. Herriot in a lecture at Cannes, Jan., 1951.

CHAPTER XXIII

1. Thompson, J. W., 376.
2. Adams, Brooks, *The New Empire*, 90.
3. Baines, H. E., *History of Western Civilization*, I, 867.
4. Robertson, J. M., I, 469.
5. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 33.
6. Ibid., 38, 234-334; Sismondi, 763.
7. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 273.
8. Coulton, *Medieval Panorama*, 679.
9. Ranke, *History of the Popes*, I, 181.
10. Guicciardini, X, 257.
11. Ibid., 258.
12. Cardan, Jerome, *Book of My Life*, ch. II.
13. Ibid., ch. VI.
14. Hallam, H., *Literature of Europe*, I, 451-2.
15. Duhem, *Leonardo*, I, 229f; Wolf,

A., *History of Science, Theology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 537.

16. Cardan, ch. xlii.
17. Ch. xiv.
18. Prologue.
19. Walsh, *The Popes and Science*, 116.
20. Cornaro, 43-7.
21. Ibid. 66-72.
22. Ibid., 79, 92, 103.
23. Ibid. Introd., 31. Addison, in No. 195 of *The Spectator* III, 328, makes good use of Cornaro's treatise.
24. Hallam, II, 88.
27. Bandello, III, 128.
28. Holzknacht, *Backgrounds of Shakespeare*, 243.
29. *Cambridge Modern History*, III, 400-4.
30. Cellini, II, 99.
31. James, *Bologna*, 817.
33. Vasari, III, 237, *Pontormo*.
34. Ibid., 245.
35. Cellini, I, 2.
36. Ibid., I, 14.
37. I., 26.
38. I., 52.
39. II, 38.
40. II, 50.
41. I., 51.
42. I., 73.
43. I., 64.
44. I., 55.
45. I., 74.
46. I., 26.
47. II, 12.
48. II, 28.
49. Ibid.
50. II, 34-5.
1. II, 57.
52. Notes by Symonds, p. 415.
53. I., 58.
54. Symonds, *Michelangelo*, 484.

65. IV, 134, *Michelangelo*.
66. Ibid., 140.
67. 148.
68. Symonds, *Michelangelo*, 501.
69a. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, Vol. II, *Sexual Inversion*, 19.
70. Maude, 182.
71. Symonds, 377; Taine, *Italy : Rome and Naples*, 138.
72. Symonds, 442.
73. Vasari, IV, 198.
74. Symonds, 490.
75. Vasari, IV, 219.
76. Ibid., 203.
77. Ruskin, *Modern Painters*, Part I, ch. ii, end.
78. Symonds, 372.
79. Balcarres, Lord, *Evolution to, Italian Sculpture*, 271; Spengler O., *Decline of the West*, I, 276.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديمقراطي وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

